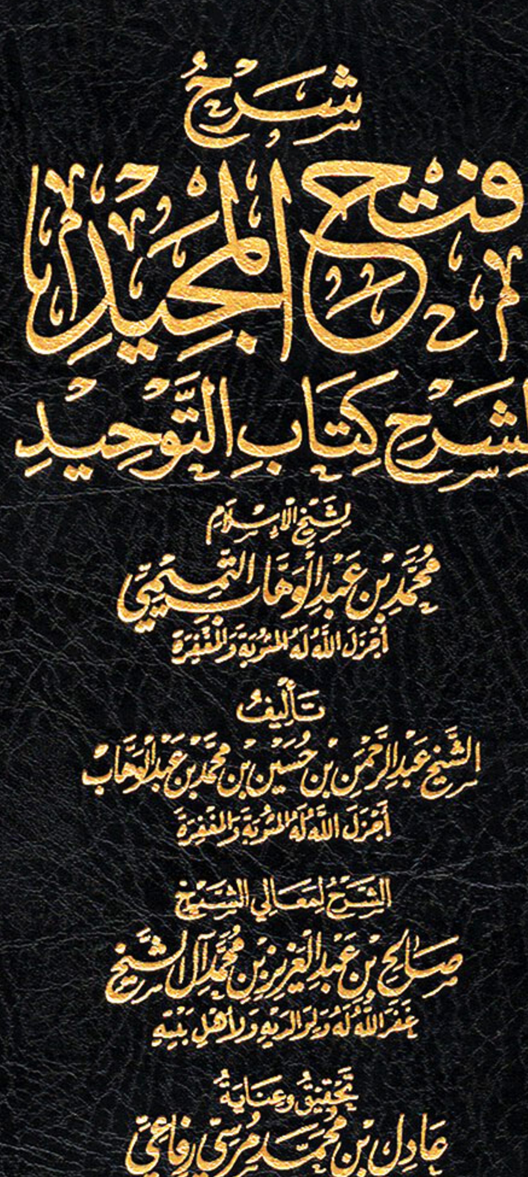
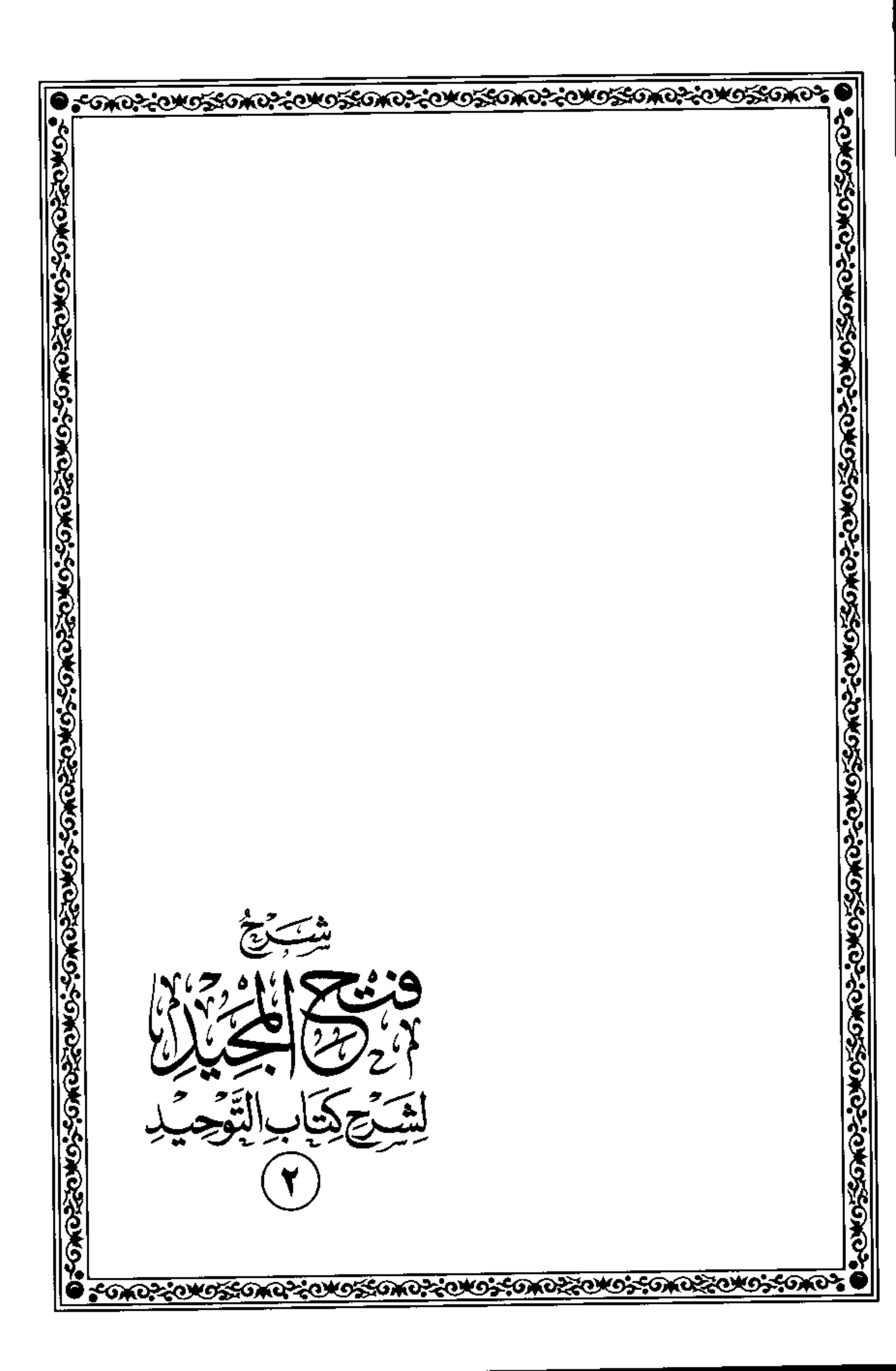


سلسلة شروحات ومؤلفات معالي الشيخ (١١)
شرح
فتح المجيد
لشرح كتاب التوحيد
لشيخ الإسلام
محمد بن عبد الوهاب التميمي
أجزل الله له المثوبة والمغفرة
تأليف
الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب
أجزل الله له المثوبة والمغفرة
الشرح لمعالي الشيخ
صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ
غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته
تحقيق وعناية
عادل بن محمد مرسي رفاعي
الجزء الثاني
مكتبة دار الحجاز
للنشر والتوزيع




شرح
فتح المجيد
لشرح كتاب التوحيد
٢



عنوان المصنف: شرح فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد

تحقيق: **عادل محمد مرسي رفاعي**

رقم الإيداع: ١١١٤١ / ٢٠١٢

الترقيم الدولي: ٢ - ١٨ - ٥٢٣٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ



للنشر والتوزيع

الإدارة والمبيعات جوال ـ ٠٠٩٦٦٥٦٧٣٣٣٤١٧ ـ ٠٠٢٠١١١٦٨٩٩١٠٠ ـ ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣

الإسكندرية ـ ١٧٥ ش طيبة سبورتنج بجوار مسجد الصديق هاتف: ٠٣/٥٤٦١٥٨٣ ـ جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥١

القاهرة ـ ٦ ش المدرسة متفرع من ش البطال ـ خلف الجامع الأزهر الشريف ـ هاتف: ٠٢/٢٥١٠٧٤٧٢

جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥٠ ـ فاكس: ٠٣٤٣٨١٥٠٩

البريد الإلكتروني : dar_alhijaz@hotmail.com

سلسلة شروحات ومؤلفات معالي الشيخ (١١)

شرح فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب التميمي

أجزل الله له المثوبة والمغفرة

تأليف

الشيخ عبد الرحمن بن حسين بن محمد بن عبد الوهاب

أجزل الله له المثوبة والمغفرة

الشرح لمعالي الشيخ

صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته

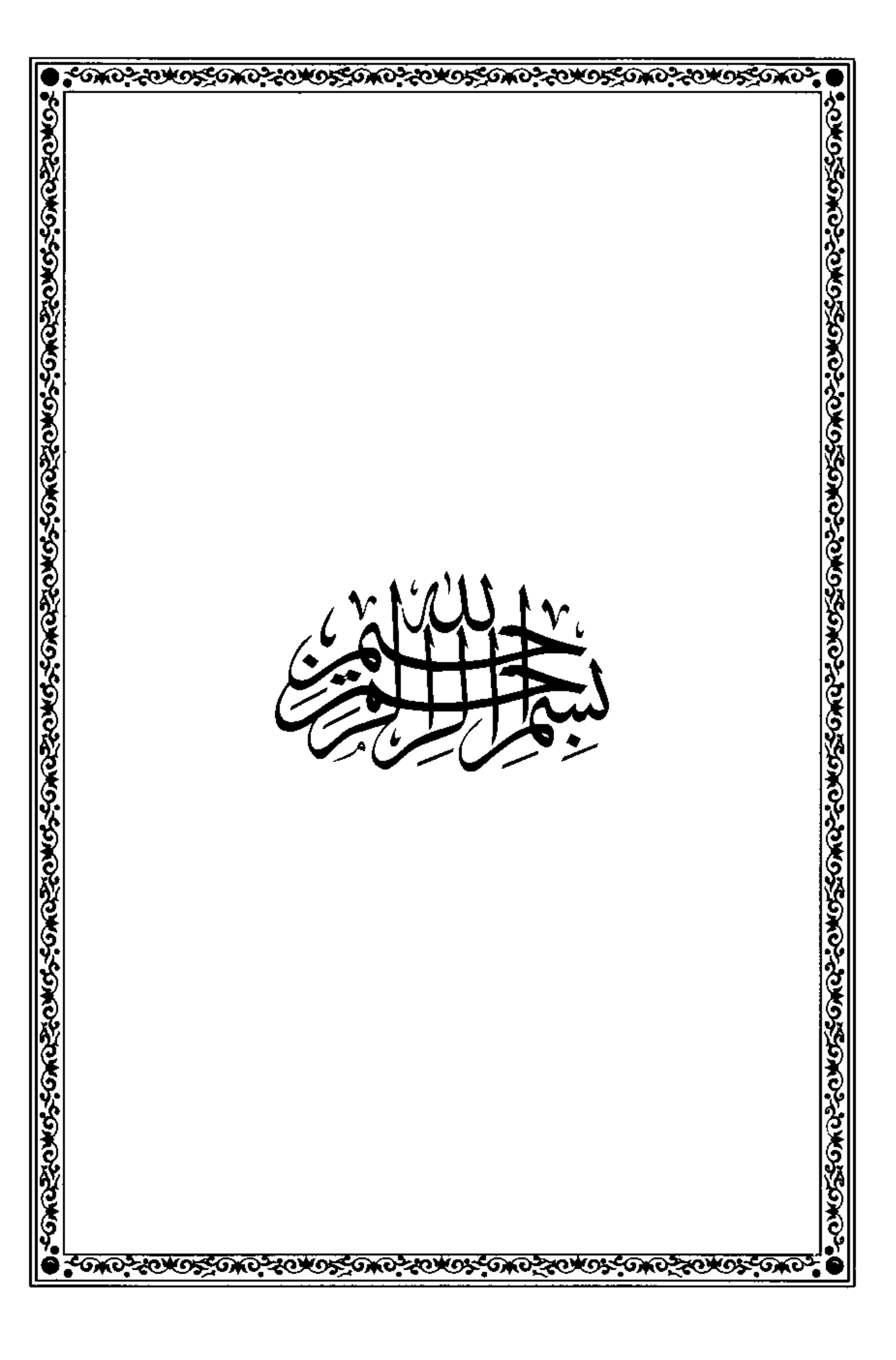
تحقيق وعناية

عادل بن محمد مرسي رفاعي

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الجزء الثاني

مكتبة دار الحجاز
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

١٥ - بَابُ

قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

ش: (بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]).

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: زال الفزع عنها.

قاله: ابن عباس، وابن عمر، وأبو عبد الرحمن السلمي، والشعبي، والحسن، وغيرهم.

وقال ابن جرير: قال بعضهم: الذين فُزِّع عن قلوبهم: الملائكة. قالوا: وإنما فُزِّع عن قلوبهم من غشية تصيبهم عند سماعهم كلام الله بالوحي[١].

وقال ابن عطية: في الكلام حذف ما يدل عليه الظاهر. كأنه قال: ولا هم شفعاءُ كما تزعمون أنتم، بل هم عَبَدَةٌ مسلمون لله أبدًا، يعني: منقادون، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، والمراد الملائكة على ما اختاره ابن جرير، وغيره[٢].

قَالَ ابنُ كثيرٍ: وهو الحق الذي لا مرية فيه؛ لصحة الأحاديث فيه والآثار[٣].

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٢٢/ ٩٠).
(٢) انظر: تفسير ابن عطية (٤/ ٤٨٣).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٥١٥).

....

وقال أبو حيان: تظاهرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنَّ قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾، إنما هي الملائكة، إذا سمعت الوحي إلى جبريل يأمره الله به، سمعت كجر سلسلة الحديد على الصفوان، فَتَفْزَعُ عند ذلك تعظيمًا وهَيْبةً.

قال: وبهذا المعنى - من ذكر الملائكة في صدر الآية - تَتَّسق هذه الآية على الأولى، ومن لم يشعر أن الملائكة مشارٌ إليهم مِنْ أول قوله: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾ [سبأ: ٢٣] لم تتصل له هذه الآية بما قبلها[(١)].

قوله: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾ [سبأ: ٢٣]، ولم يقولوا: ماذا خلق ربنا؟ ولو كان كلام الله مخلوقًا، لقالوا: ماذا خلق؟! انتهى من شرح سنن ابن ماجه.

ومثله الحديث: «مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ»[(٢)]، وأمثال هذا في الكتاب والسنة كثير.

وقوله: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] أي: قال الله الحق.

وذلك لأنهم إذا سمعوا كلام الله صعقوا، ثم إذا أفاقوا، أخذوا يسألون، فيقولون: ماذا قال ربكم؟ فيقولون: قال الحق.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات، فله العلو الكامل من جميع الوجوه؛ كما قال عبد الله بن المبارك لَمَّا قِيل

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية (٤/ ٤٨٣).

(٢) سيأتي تخريجه (ص٢٩).

....

له: بِمَ نعرف ربنا؟ قال: بأنه على عرشه بائن من خلقه. تمسكًا منه بالقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩] **في سبعة مواضع من القرآن.**

قوله: ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ **أي: الذي لا أكبر منه، ولا أعظم منه تبارك وتعالى.**

الشرح:

هذا الباب لم يترجم له المؤلف الشيخ الإمام رحمه الله، وإنَّما جعل الترجمة هي الآية، (بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾)، وهذا الباب، وما فيه من الآية وبيان تفسيرها، والأحاديث التي تدلّ على ذلك التفسير مناسب جدًّا لموضوع الكتاب - لكتاب التوحيد -؛ وذلك أنَّ ما ذكرنا فيما قبل أنَّ البراهين الدالة على أنَّ الله عز وجل هو المستحقّ للعبادة وحده دون ما سواه براهين كثيرة، متعدّدة، متنوعة، فمن تلك البراهين بيان صفة المخلوقين الّذين جُعلوا آلهة مع الله عز وجل؛ كما جاء في الباب الّذي قبل هذا من بيان صفة الّذين دُعوا مع الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، ونحو ذلك من الآيات والأحاديث، هذا الباب فيه تتمّة للباب الّذي قبله، وفيه زيادة، أمَّا التتمة، فهي بيان صفة الملائكة، والملائكة جُعلوا آلهة، جُعلت الملائكة معبودات مع الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠]، فالملائكة عُبدت، عبدتها طائفة من

العرب، وزعموا أنَّها بنات الله عَزَّوَجَلَّ وتقدس وتعاظم، كذلك هذا الباب فيه بيان صفة المولى، وفيه بيان صفة الله عَزَّوَجَلَّ من كونه له العظمة، وله العلوّ، وله الكبرياء، والكِبر عَزَّوَجَلَّ ، وأنَّه عَزَّوَجَلَّ يفزع منه من في السماوات، وأنَّ صفة الكلام له (ثابتة، وأنَّها مُفْزِعَةٌ للملائكة الأشدَّاء الّذين في السماء، فالله عَزَّوَجَلَّ له الصفاتُ الباهرة، له الصفاتُ العالية، التي تخضع لسماعها ولمعرفة بعض معانيها، فضلًا عن معرفة حقائقها، تخضع لها القلوب، وتذلّ، وتعلم أنَّ الذي هذه صفته، وهذا نعته هو المستحقّ لأنْ يُعبد وحده، وأنَّ من لم يكن على هذه الصفة من كان في النهاية من الدُّنوّ، في النهاية من الضَّعف، في النهاية من الافتقار، في النهاية من الفزع من المولى عَزَّوَجَلَّ ، أنَّه لا يستحقُّ لأَنْ يُجْعَلَ له شيء من أنواع العبادةِ، ولا من أنواع التَّألُّه، ولا أَنْ يُصرف له شيء من أنواع العبادات المختلفة: لا الدعاء، ولا الاستغاثات، ولا الاستعانة، ولا الاستشفاع، ولا الذبح، ولا النذر، ولا غير ذلك من أنواع العبادة، فهذا الباب مشتمل على أمرين:

الأمر الأول: تتمّة للباب الذي قبله، وهو بيانُ صفةِ الملائكةِ الّذين جُعلوا آلهة مع الله عَزَّوَجَلَّ ، وأنَّهم ضعاف فَزِعُونَ، وأنَّهم كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عنهم أنَّهم يرهبون من الله عَزَّوَجَلَّ ، وأنَّهم ينزعجون، ويفزعون من كلامه - تبارك وتعالى -؛ لأنَّهم في غاية الذلّ، والله عَزَّوَجَلَّ في غاية العلوّ، وكما وصَف نفسه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، هذا شيء.

الأمر الثاني: مما اشتمل عليه الباب: هو بيان شيء من صفات الله - تبارك وتعالى -، بيان شيء ممّا له عَزَّوَجَلَّ من النعوت العظيمة الجليلة، منها صفة التكلّم، ونوع ذلك الكلام من أنَّه إذا قضى بالوحي في السماء، سُمع في السماء كجرّ سلسلة الحديد على الصفوان، فيفزع الملائكة جميعًا، يفزع

من في السماء، ثمّ بعد ذلك يزول فزعهم بعد أن يُقْضَى الأمر في السماء، فيسمعه جبريل عليه السلام فيفزّعون يعني: يزال عنهم الفزع، فيقولون: ماذا قال ربّكم؟ فيجيبون: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ يعني: قال الحق.

فإذًا هذا الباب من الأبواب المهمّة - أيضًا - التي يحتاج إليها طالب العلم في عرض التوحيد، وفي الدعوة إلى هذا الأمر العظيم، ألا وهو التوحيد، أن يكون بصيرًا بصفات الله عز وجل ، وأن يكون بصيرًا بكيفيَّة تكلمه عن صفات الله عز وجل ، فإنَّ صفات الله عز وجل وتقدس وتعاظم إذا وفِّق العبد لشرحها وبيانها، فإنَّها تجعل القلوب معظِّمة لله عز وجل ، وتجعل القلوب متعلّقة بالله عز وجل ، وهذا الباب معقود لهذا الأمر، وهو أنَّ هذه هي صفات الله عز وجل ، وأنَّه عز وجل له الصفات العلى البالغة في العظمة أعلى المبالغ، والتي بلغ فيها عز وجل من الكمال والعظمة، ومن الجمال والجلال ما لا يدركه أحد، كيف لا؟ وهو الله عز وجل العليُّ الكبيرُ.

لهذا نهتمُّ بهذا الأمر اهتمامًا ضروريًّا، فإذا اهتمَّ العبدُ بمعاني الأسماء والصفات، عمرت القلوب بإجلاله وبعظمته وبمعرفته، والمعرفة فعل القلب، عِلْمٌ بالله عز وجل وبأسمائه وصفاته.

ولهذا ينبغي أن نعتني بهذا اعتناءً خاصًّا، وأن يُعوِّدَ طالب العلم نفسه على شرح الأسماء والصفات. كيف يكون هذا؟ يأخذ اسمًا من أسماء الله، وصفة من صفات الله، ويحاول أن يشرحها بنفسه، حتَّى يتعوَّد على ذلك، ثُمَّ يدخل في هذا الإيمان، كيف يكون الإيمان بهذه الصفة وهذا الاسم، وآثار هذه الأسماء والصفات، ونحو ذلك، فمثلًا هنا ذكر قوله عز وجل : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ يعني: قال الحق: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ العليُّ! من هو العليُّ؟ هو الله عز وجل ، له علوُّ القهرِ، فهو عالٍ على جميع المخلوقات بقهره لها، وكذلك عالٍ عز وجل على جميع

المخلوقات بقدره، فقدره أعظم من سائر المخلوقات، قدره أعظم من جميع المخلوقات، قدره ومنزلته أعظم، وهو قد بلغ في هذا العلوّ الكمال، يعني: أعلى القدر هو قدر الله عَزَّوَجَلَّ ، والمخلوقات لا تبلغ شيئًا من العلوّ ولا القدر إذا قيست وقورنت بعلوّ الله عَزَّوَجَلَّ في قدره، كذلك له علوّ الذات عَزَّوَجَلَّ ، هو عالٍ بذاته كما أخبر عن نفسه، فهذه ثلاثة المعاني من العلوّ، إذا أخذت علوَّ الذات، وتصوّرت كما وصف النبي ﷺ ربّه عَزَّوَجَلَّ ، وكما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن نفسه أنَّ سماواته السبع طباقًا واحدة فوق الأخرى، وأنَّ فوق السماوات الماء، وأنَّ فوق الماء الكرسيّ والعرشِ، وأنَّ السماوات هذه والأرض، السماوات هذه العظيمة الّتي بين كلّ سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام، وبين الأرض والسماء الأولى السماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام أيضًا[(١)]، وأنَّ هذه السماوات وهذه الأرض الّتي نراها ضخمة كبيرة جدًّا، ونحن فيها كلا شيءٍ، هذه جميعًا في الكرسيِّ كدراهم سبعة ألقيت في ترس[(٢)]، يعني: نسبة صغيرة بالنسبة إلى الكرسيِّ، والكرسي - كرسي الرحمن - الذي هو موضع قدميه - تبارك وتعالى وجل وتعاظم - بالنسبة إلى عرشه كحلقة حديد ألقيت في فلاة من الأرض[(٣)]، والله عَزَّوَجَلَّ فوق عرشه مطّلع على خلقه، مستغن عن العرش، لا يحويه عرشه، بل هو أعظم من ذلك ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

إذا تبيّن ذلك علمت أنَّك لا شيء، وأنَّك في النهاية من الفقر، في

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٩٣)، وابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٨٨٥)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٦٥) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، وأبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وأحمد (١/ ٢٠٦) من حديث العباس رضي الله عنه .

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣/ ١٠)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٨٧).

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣/ ١٠)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٣٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

النهاية من الضعف، وأنَّك إنَّما تشرف بعبادتك لله عَزَّوَجَلَّ ، وبتعظيمك، وأنَّك إنَّما يزيد قدرك إذا زاد في قلبك حبّ الله وتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وإجلاله، واتباع الأمر، واتباع النهي، والسعي في الدعوة إلى ما فيه إجلال الله عَزَّوَجَلَّ ، وما فيه تنزيه الله وتقديسه وتعظيمه.

هذه صفة من الصفات - صفةُ العلوّ -، وكذلك غيرها من الصفات: الكبير، السميع، البصير... عرفنا الله عَزَّوَجَلَّ على نفسه بأيِّ شيء؟ بصفاته؟ لا، بغير ذلك، فنحن إذا تأمَّلنا الأسماء والصفات لا شكّ أنَّها تحدث لقلوبنا تعظيمًا لله وإجلالًا له، وحبًّا له، واستجابة ورغبة فيما عنده، ورهبة ممّا عنده.

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: المخلوقات بالنسبة إلى المولى عَزَّوَجَلَّ في نهاية الصغر - المخلوقات كلها، العرش وما فيه، والكرسي، والسماوات والأرض ومن فيها، وما فيها - بالنسبة إلى الرب عَزَّوَجَلَّ في نهاية الصغر، والله عَزَّوَجَلَّ لا يُقَدَّرُ قَدْرَهُ.

هذه صفة من الصفاتِ التى تَجَلُ لها القلوب، وتخضع، وتعلم أنَّها هي المحتاجة لله، وأنَّه هو عَزَّوَجَلَّ شرف ابن آدم حقيقة بكونه يعبد الله عَزَّوَجَلَّ عبادة اختيارية، ولهذا يعلم أنَّ الله حباه، فيستجيب لذلك، ويعظم الله وينزّهه.

فهذا الباب عقده الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لبيان ذلك، وأنَّ معرفة صفات الله، والعلم بصفات الله عَزَّوَجَلَّ قائدة لعلم العبد بأنّه هو المستحقّ بأن يُعبد وحده، وأن يجلّ وحده، ولأن يجعل وحده - دون ما سواه - هو الإله المعبود. هذا كالمقدّمة، وكلام الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ واضح.

وهذه الآية قيل فيها أقوال، لكن الصحيح أنَّها الملائكة؛ لأنَّه في الآية التي قبلها: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣] قلوب مَن؟ الّذين دعوا من دون الله، إذًا هؤلاء هم الملائكة ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، لهذا هذه الآية فيها مطامع المشركين، وفيها ادّعاءات المشركين، ماذا ادّعوا؟ قالوا: إنَّ الآلهة هذه تملك ملكًا استقلاليًا، منهم الآن من يقول: أليس كذلك؟ منهم من يقول: أن هذه الآلهة تملك ملكًا استقلاليًا، تتصرف كما تشاء.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: زاعم: زعم بشيء، يقال له: ادع الذين زعمت من دون الله، فالله عَزَّوَجَلَّ وصف هؤلاء الّذين دعوا مع الله ومن دون الله بأنَّهم لا يملكون مثقال ذرّة، والذرّة هي الهباء التي ترى في الشمس، إذا دخلت الشمس من النافذة، فترى فيها هباءات، هذه هي الذرة ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: حتّى الأرض هذه لا يملكونها، بمعنى أنَّهم يتصرفون بها استقلالًا، لا يملكون ذلك ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، إذا كان ما يملكون استقلالًا، ادّعى أناس أنَّهم شركاء، يعني: بالشركة، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا﴾ يعني: في السماوات وفي الأرض ﴿مِن شِرۡكٖ﴾ يعني: أيّ شرك، ولو قل، هنا (من) أضيفت إلى النكرة، هنا (من) أتت قبل النكرة، و(من) هذه صلة تفيد التنصيص الصريح في العموم أنَّه ليس لهم فيها أيّ شيء[1]، أيّ نوع من أنواع الشركة مهما قلّ، بقي أن يقال: أن تكون معاونة لله عَزَّوَجَلَّ، أن تكون معاونة ظهيرًا لله - تبارك وتعالى -، معاونة، قال: ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ يعني: لله عَزَّوَجَلَّ لكمال غناه، وكمال قدرته، وكمال عظمته،

---

(١) انظر: المسودة (ص١٤٣)، وروضة الناظر (ص٢٢١)، والمحصول للرازي (٢/ ٥٦٣)، وإرشاد الفحول (١/ ١٩٧-٢٠٧).

وكمال جبروته وقهره وعزّته وعلوّه، قال عز وجل: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ كيف يكون الحقير الضعيف الّذي لا يملك لنفسه شيئًا معاونًا لله، يكون ظهيرًا لله عز وجل؟ يكون مساعدًا لله عز وجل؟ هذه دعوة ادّعوها، أنَّ هذه مساعدة، والله عز وجل قادر على أن يعطي الناس كلّهم، لكن هذه وسائط، هذه تعينه على حوائج الناس. قال عز وجل: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، ثم قال عز وجل: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ بقي أن يقال: الشفاعة. قالوا: صحيح لا نملك استقلالًا، وليس له شريك مهما قلّ، وليس له معاون، ولكن هناك شفعاء، يشفعون، بقي هذا، هل بقي غير هذا؟ باقي أنَّ هذه تشفع، يا أخي ما نعبدهم إلّا ليشفعوا؛ كما قال الله عز وجل: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]، هذه الشفاعة شرك؛ لأنَّه قال في آخر الآية: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: ١٨] يعني: هل تنبئ الله عز وجل إذا كان يحتاج إلى شفيع يشفع، هل ينبئه هذا الشفيع بشيء لا يعلمه في السماوات؟ أو بشيء لا يعلمه في الأرض؟!! أم أنَّ الله عز وجل هو العليم بكل شيء؟ لا تخفى عليه خافية، لا في السماوات، ولا في الأرض، قال عز وجل هنا: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: ١٨] عجيب!! كيف يقولون: إنَّ هؤلاء شفعاء؟!! هل هذه الآلهة التي توجّهوا إليها بالشفاعة: اشفع لنا، هل هذه تنبئ الله عز وجل وتخبره بشيء لا يعلمه؟ هل هو محتاج إلى أن يشفع عنده أناس لأنَّه لا يعلم؛ مثل ما يحصل من الملوك؟ الملك لا يعلم حاجات الناس جميعًا، الملك البشري نعم لا يعلم حاجات الناس جميعًا، فيحتاج إلى من يشفع، يوصل له طلبات الناس؛ لأنَّه ناقص، قاصر، ضعيف، ولكن الله عز وجل قال عن نفسه: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي

ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، ولهذا من ادّعى شفيعًا من البشر إلى الله عَزَّوَجَلَّ ، فإنَّه ادّعى فيه أنَّه إله، ويكون أشرك به؛ لذلك قال في آخر الآية: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ في الآية التي معنا، آية سورة سبأ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ الشفاعة عنده لا تنفع أيَّ أحدٍ، لكن تنفع من أذن له بشروطها، هل يأذن الله عَزَّوَجَلَّ لمشرك؟ لا، هل يأذن الله عَزَّوَجَلَّ بالشرك؟ لا.

إذًا متى تنفع الشفاعة؟ تنفع الشفاعة في حالين:

الحالة الأولى في الدنيا: في حال الحياة يشفع، وقد تنفع، وقد لا تنفع، دعاء، وكذلك أنَّه إذا أذن له ورضي الله عَزَّوَجَلَّ ، يتكرّم بجعل الشافع يشفع في الدنيا، ويتكرّم أيضًا بقبول هذه الشفاعة.

الحالة الثانية الآخرة: بشروطها الإذن والرضا، هذه الآية قال فيها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (مدارج السالكين) وفي غيرها: هذه الآية من سورة سبأ تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها[1].

وهذا واقع، ولهذا اهتمّوا بهذه الآية وبفهمها؛ لأنَّ أحوال المشركين هذه الأربعة: إمّا أن يدّعي الاستقلال، وإمَّا أن يُدَّعي الشركة (أنَّ هذه الآلهة شركاء)، وإمَّا أن يقول: معاونة (نتعاون)، أو يقول: هذه شفعاء، فالآية شملت هذه الأنواع الأربعة، وليس ثَمَّ نوع خامس من أنواع الشرك.

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٣٤١).

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ الْمَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خَضَعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ - وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَّفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؛ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ»[١].

ش: قوله: (في الصَّحِيحِ) أي: صحيح البخاري.

قوله: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ». أي: إذا تكلم الله بالأمر الذي يوحيه إلى جبريل بما أراد؛ كما صرح به في الحديث الآتي.

وكما روى سعيد بن منصور وأبو داود وابن جرير عن ابن مسعود: «إذا تكَلَّمَ الله بِالْوَحْيِ، سَمِعَ أهلُ السماءِ صَلْصَلَةً، كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفَوانِ»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٠١، ٤٨٠٠، ٧٤٨١).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور كما في الدر المنثور (٦/ ٦٩٩)، وأبو داود (٤٧٤٠)، وابن جرير في تفسيره (٢٢/ ٩٠).

....

وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ﵄ قال: (لما أوحي الجبار إلى محمد ﷺ دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحي، فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي، فلما كشف عن قلوبهم، سألوا عما قال الله، فقالوا: الحق، وعلموا أن الله لا يقول إلا حقًّا)[١].

قوله: «ضَرَبَتِ الْمَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خَضَعَانًا لِقَوْلِهِ». أي: لقول الله تعالى.

قال الحافظ: «خَضَعَانًا» بفتحتين من الخضوع. وفي رواية بضم أوله وسكون ثانيه. وهو مصدر بمعنى خاضعين[٢].

قوله: «كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ». أي: كأن الصوت المسموع سلسلة على صفوان، وهو الحجر الأملس.

قوله: «يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ» هو بفتح التحتية وسكون النون وضم الفاء والذال المعجمة «ذَلِكَ» أي: القول، والضمير في «يَنْفُذُهُمْ» للملائكة، أي: ينفذ ذلك القول الملائكة. أي: يخلص ذلك القول، ويمضي فيهم، حتى يفزعوا منه.

وعند ابن مردويه من حديث ابن عباس ﵄: «فَلَا يَنْزِلُ عَلَى أَهْلِ سَمَاءٍ إِلَّا صُعِقُوا».

وعند أبي داود وغيره مرفوعًا: «إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا صَلْصَلَةً كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفَوانِ، فَيُصْعَقُونَ فَلاَ يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ جِبْرِيلُ. . . . » الحديث.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه؛ كما في الدر المنثور (٦/ ٦٩٧).
(٢) انظر: فتح الباري (٨/ ٥٣٨).

....

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ تقدم معناه.

قوله: ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ﴾ أي: قالوا: قال الله الحق، فعلموا أن الله لا يقول إلا الحق.

قوله: «فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ». أي: يسمع الكلمة التي قضاها الله، وهم الشياطين يركب بعضهم بعضًا.

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا: «أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ - وَهُوَ السَّحَابُ -، فَتَذْكُرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ، فَتَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ، فَتَسْمَعُهُ، فَتُوحِيهِ إِلَى الْكُهَّانِ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ»(١).

قوله: «وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ، هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ» أي: وصف ركوب بعضهم فوق بعض.

و(سُفْيَانُ) هو ابن عيينة أبو محمد الهلالي الكوفي ثم المكي، ثقة حافظ، فقيه، إمام حجة، مات سنة ثمان وتسعين ومائة، وله إحدى وتسعون سنة.

قوله: «فَحَرَّفَهَا» بحاء مهملة وراء مشددة وفاء.

قوله: «وَبَدَّدَ» أي: فرق بين أصابعه.

قوله: «فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ». أي: يسمع الفوقاني

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢١٠، ٣٢٨٨، ٥٧٦٢، ٦٢١٣، ٧٥٦١).

. . . .

الكلمة، فيلقيها إلى آخر تحته، ثم يلقيها إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن.

قوله: «فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا»، الشهاب هو النجم الذي يرمي به، أي: ربما أدرك الشهاب المسترق.

وهذا يدل على أن الرمي بالشهب قبل المبعث؛ لما روى أحمد وغيره - والسياق له - في المسند من طريق معمر: قَالَ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ أَخْبَرَنَا الزُّهْرِيُّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ - قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ مِنَ الأَنْصَارِ - فَرُمِيَ بِنَجْمٍ عَظِيمٍ فَاسْتَنَارَ قَالَ: مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ إِذَا كَانَ مِثْلُ هَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ. قَالَ: كُنَّا نَقُولُ يُولَدُ عَظِيمٌ، أَوْ يَمُوتُ عَظِيمٌ. قُلْتُ لِلزُّهْرِيِّ: أَكَانَ يُرْمَى بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ. ولَكِنْ غُلِّظَتْ حِينَ بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَأَنَّهُ لاَ يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ ولَكِنَّ رَبَّنَا تَبَارَكَ اسْمُهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا ثُمَّ يَسْتَخْبِرُ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ فَيَقُولُ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ وَيُخْبِرُ أَهْلُ كُلِّ سَمَاءٍ سَمَاءً حَتَّى يَنْتَهِيَ الْخَبَرُ إِلَى هَذِهِ السَّمَاءِ. وَيَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ فَيُرْمَوْنَ؛ فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ وَلَكِنَّهُمْ يَقْذِفُونَ وَيَزِيدُونَ»[١].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٧٢)، ومسلم (٢٢٢٩).

....

قوله: «فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ» أي: الكاهن أو الساحر.

و«كَذْبَةٍ» بفتح الكاف وسكون الذال المعجمة.

قوله: «فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا» هكذا في نسخة بخط المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، وكالذي في صحيح البخاري سواء.

قال المصنف: وفيه قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة، ولا يعتبرون بمائة كذبة؟

وفيه: أن الشيء إذا كان فيه شيء من الحق، فلا يدل على أنه حق كله، فكثيرًا ما يلبس أهل الضلال الحق بالباطل؛ ليكون أقبل لباطلهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

الشرح:

هذا الحديث الّذي رواه البخاري في صحيحه، وهو قول النبي ﷺ: «إِذَا قَضَى الله الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ» بمعنى: إذا تكلّم الربّ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه جاء في روايات (إذا تكلم)، و(إذا أوحى)، فالقضاء هنا بمعنى الكلام أو الوحي، لِمَ سمّي قضاءً؟

لأنَّ كلام الله عَزَّوَجَلَّ إذا تكلّم بالشيء لا معقّب لحكمه، ولا معقّب لقوله ولا لكلامه، فكلامه عَزَّوَجَلَّ بالأمر وبالوحي قضاء نافذ، يعني: إنهاء لذلك، وذلك أنَّ لفظ القضاء يأتي على معاني، (قضى) «إِذَا قَضَى الله الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ» يعني: أتمّ، أتمّ الأمر في السماء، فالقضاء يأتي تارة بمعنى أتمّ، ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢]، يعني: أتمّ الشيء، إمّا أتمّ الخلق، أو

نحو ذلك، ويأتي (قضى) بمعنى: نفذ ومضى؛ كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ [سبأ: ١٤]، يعني: فلمّا أنفذنا عليه الموت، ويأتي قضاء بمعنى أوحى وأخبر؛ كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤]، يعني: أوحينا لهم في الكتاب، وأخبرناهم، وأعلمناهم بذلك، ومنه أيضًا قوله عَزَّوَجَلَّ في آخر سورة الحجر، في قصة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]، ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ يعني: أوحينا إليه ذلك الأمر، ما هذا الوحي ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾. ويأتي قضى بمعنى: وصى وألزم، وهذا هو القضاء الشرعي، يعني: معنى ألزم ووصى؛ كما في قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] (١)، ثُمَّ إنَّ قضاء الله، ينقسم إلى قسمين:

قضاء كوني، وقضاء شرعي، أمّا القضاء الكوني، فهو إنفاذ المقدر الّذي قدره الله عَزَّوَجَلَّ، فقدر الله عَزَّوَجَلَّ سابق، وهو تقديره عَزَّوَجَلَّ لكلّ ما هو كائن قبل أن يكون، بل قبل خلق السماوات والأرض، وهو علمه عَزَّوَجَلَّ بما سيكون كتابته له، وخلقه له، ومشيئته النافذة في كلّ شيء، وإنفاذ القدر يسمّى قضاء(٢). يعني: قبل أن يكون مقضيًا، قبل أن يكون القدر مشاهدًا يقال له: قضاء. هذا عند طائفة من أهل العلم، وطائفة يقولون: لا فرق بين القضاء والقدر، فالقضاء هو القدر، والقدر هو القضاء(٣). لكن لعلّ

---

(١) انظر: مادة: (ق ض ى) في معجم مقاييس اللغة (٥/ ٩٩)، ولسان العرب (١٥/ ١٨٦)، والقاموس المحيط (ص١٧٠٨)، وانظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص٤٤١ - ٤٤٢).

(٢) انظر: فتح الباري (١١/ ٤٨٦)، والدرر السنية (١ / ٥١٢ - ٥١٣).

(٣) قال الزهري: (القضاء والقدر أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما، فقد رام هدم البناء ونقضه). ا.هـ. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٤/ ٧٨)، ولسان العرب (١٥/ ١٨٦)، وشرح قصيدة ابن القيم لابن عيسى (١/ ٧١).

الظاهر أنَّ القضاء هو ما ذكرت من أنَّه إنفاذ ما سبق من القدر، القضاء هو إنفاذ ما سبق من القدر، فقوله هنا في الحديث: «**إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاوَاتِ**» بمعنى: تكلّم به، يعني: أوحى به؛ لأنَّ كلامه وحي عَزَّوَجَلَّ، «**ضَرَبَت الْمَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خَضَعَانًا لِقَوْلِهِ**» فالملائكة عباد مكرمون وجلون خائفون من الله عَزَّوَجَلَّ، يعلمون عظمة الربّ عَزَّوَجَلَّ، يعلمون عظمة الله، ويعلمون جبروته، ويعلمون صفاته، ولهذا هم أشدّ تعظيمًا له، قال: «**ضَرَبَت الْمَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خَضَعَانًا لِقَوْلِهِ**» فتحتين، أو (**خُضْعَانًا**) لقوله، يعني: خاضعين لقوله، لوحيه ولمقاله عَزَّوَجَلَّ، فهم يتلقّون مقاله عَزَّوَجَلَّ ووحيه في سمائه، على نهاية الوجل والخوف والرهبة؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣] يعني: أنَّهم في فزع، وإذا قضى الله الوحي في السماء، سمع له صوت شديد مخيف كجر السلسلة على الصفوان، ينفذ الملائكة ذلك، بمعنى: أنَّه يسمعه جميع الملائكة، ينفذهم بمعنى لا يغادر منهم أحدًا كالسهم إذا نفذ من الرمية، كالسهم إذا نفذ ممّا وجه إليه السهم، يعني: أنَّه مضى، مضى منه، نفذ، دخل فيه ومضى منه، فينفذهم ذلك، يعني: يمرّ بهم جميعًا ذلك، وذلك لعظمة الله عَزَّوَجَلَّ.

هذا الحديث، وما ذكر من شرحه - قبل أن نأتي لتتمّة الكلام على الشهب وما يتعلّق بها - ساقه المصنّف لبيان صفة الله عَزَّوَجَلَّ، ولبيان عظمته، ولبيان خوف الملائكة منه، ولبيان جبروته وتعظيم ملائكة السماء له - تبارك وتعالى -.

وإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ على هذا الوصف، فمعنى ذلك أنَّه هو المستحقُّ أن يُعْبَدَ وحده دون ما سواه؛ لما سبق أن قدّمت من أنَّ البراهين المهمَّة في إثبات أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو المستحقّ للعبادة وحده، معرفة صفاته، والعلم بصفاته، وهذا الحديث يبيّن لك معرفة الملائكة بصفات الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه عَزَّوَجَلَّ مُعَظَّمٌ عندهم، وأنّه ذو الجبروت وذو القهر، وأنهم يرهبون

ويخافون، حتى أنَّ الملائكة تضرب بأجنحتها خَضَعانًا لقوله، ويكون عندهم من الفزع ما الله عَزَّوَجَلَّ به عليم، ولهذا عبدوه وحده دون ما سواه، عبدته الملائكة، ولهذا أيضًا تبرَّأت الملائكة ممّن عبدها، فالملائكة عُبدت، ومع ذلك هي مقرة بأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو المستحقّ للعبادة، لم؟ لأنَّها عارفة وعالمة بصفات الله عَزَّوَجَلَّ، فهي - جنس الملائكة - من عباد الله عَزَّوَجَلَّ، العالمين به - تبارك وتعالى -، لأجل هذا ساقه المصنف بيان صفة الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ هذه من صفاته، ومن يُعظمه الملأ الأعلى بهذا التعظيم هو الحقيق بأن يُعبد وحده دون ما سواه، وأنَّ كل ما سواه لا يستحقّ ذلك، من الّذي تخاف منه الملائكة كهذا الخوف؟ لا يوجد ولا يقارب، ومع أنَّ الملائكة عُبدت، ولكنها خائفة وجلة من الله عَزَّوَجَلَّ، فما دام أنَّها خائفة من العظيم الأعلى، فالمستحقّ لأن يعبد ليس الخائف، وإنَّما الّذي يستحقّ هو المخوف منه، الجبار، القهار، ذو الملك والملكوت عَزَّوَجَلَّ.

ثمّ ذكر النبي ﷺ تتمّة لذلك بسبب وجود الخبر الصادق عند السحرة والكهنة، ما سبب وجود الخبر الصادق عند السحرة والكهنة؟ قال: أنَّ الشياطين يركب بعضها بعضًا، وكما وصفهم سفيان بكفّه وحرفها، يعني هكذا أو هكذا، يركب بعضهم بعضًا، يعني: ليسوا على استقامة، لكن فيه انحراف حتّى يصعدوا إلى السماء، فيسمعون ما قضى الله عَزَّوَجَلَّ وما أوحى به؛ لأنَّ الوحي يصل إلى السماء الدنيا، كلّ سماء ينقل ملائكتها ما سمعوا ممّن فوقهم، إلى أن يصل إلى السماء الدنيا، فيسمع بعض الشياطين بعض مسترقي السمع، يسمعون ذلك القضاء الّذي في السماء، وهذا - والله أعلم - قد يكون قضاء يوم، أو قد يكون القضاء السنوي، ونحو ذلك، الله أعلم، لكن قد يكون القضاء اليومي؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ له تقدير يومي في

خلقه، وقد يكون تقديرًا سنويًا، فيعلم بذلك الّذي استرق السمع، فيلقيه على الكاهن الّذي استرق السمع، يسمعها العلوي، فيلقيها على من تحته، ثُمَّ على من تحته، فيرسل الله عَزَّوَجَلَّ الشهاب لذلك، وهذا لأجل الابتلاء، فيقذفون، وربما ينفذ ذلك، يعني: ينفذ الخبر، فيقتل من فوق، يعني: يُرمون بذلك، ويبقى الآخرون، فيصل الخبر إلى الأرض، والله عَزَّوَجَلَّ قادر على أن لا يسمعوا، ولكنه أراد ذلك كونًا منه، أن يكون منهم الاستراق لحكمة عظيمة في ملكوت الله عَزَّوَجَلَّ ، يسمعون الخبر، الخبر الواحد، وهم لا يسمعون دائمًا، لكن ربّما سمعوا، واحدة، ثنتين، ثلاث في السنة، أربع مثلًا، وهم يلقونها على ذلك الساحر، الساحر يتوسّل أو يستغيث بالجنّ، والجنّ هم الّذين سمعوا ذلك، والخبر عندهم.

فلهذا إذا استغاث ذلك الساحر بالجنّ وتقرّب إليهم، أعلموه ببعض الحوادث.

كذلك الكاهن يتقرّب إلى الجنّ، فيعلمه الجنّ بما سمعوا، فيصدق مرة، يصدق مرة، فيأتي الناس إلى ذلك الساحر أو الكاهن، فيقال: إنَّه في مقاله يصدق دائمًا؛ ألم يقل يوم كذا: كذا وكذا؟ يعني: قد قال مرة وصدق ما رأيتموه، فيستدلّون بهذه المرة على صدقه في جميع المرّات، فيكذب معها مائة كذبة، مائة العدد هنا ليس مقصودًا، ربّما أكثر من ذلك.

ثمّ ننبّه على المسألة المهمّة، وهي أنَّه لما بُعث النبي ﷺ، وتكلّم الله عَزَّوَجَلَّ بالقرآن وبالوحي في السماء، فإنَّ السماء مُلئت بالحرس الشديد، فلا يستمع الجنّ ولا الشياطين إلى شيء من ذلك بعد بعثة النبي ﷺ، وأنَّ من رام ذلك أُرْسِلَ إليه الشهاب، فقذفت ودحرت، قذفت من كل جانب، ودحرت من كلّ جانب: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾﴾ [الصافات: ٨-٩]، وذلك كما قال عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن قول الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾

لمسنا السماء يعني: صعدنا إلى السماء: ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: ٨] يعني: من الملائكة ﴿وَشُهُبًا﴾ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩] يعني: الآن لا يمكن لأحد أن يستمع، انتهى وقت السمع؛ لأنَّه لمّا بُعث النبي ﷺ في زمن بعثه يقضي الله بالوحي وبالقرآن، فحمى الله عَزَّوَجَلَّ كلامه وقرآنه عن أن يخطفه الجنّي، فيسبق ذلك القرآن إلى الساحر قبل ذلك، فيخبر به الساحر، فتقع الفتنة العظيمة.

بذلك حَمى الله عَزَّوَجَلَّ كلامه بالقرآن أن يتسرَّب، وحَمى نبيّه ﷺ أن يخبر أحد بما يوحي الله عَزَّوَجَلَّ إليه.

....

ش: وفي هذه الأحاديث وما بعدها وما في معناها: إثبات علو الله تعالى على خلقه على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء بكلام يسمعه الملائكة، وهذا قول أهل السنة قاطبة سلفًا وخلفًا. خلافًا للأشاعرة والجهمية، ونفاة المعتزلة. فإياك أن تلتفت إلى ما زخرفه أهل التعطيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الشرح:

هنا تكلّم عن العلوّ وصفة الكلام، فقال: إنَّ هذا الحديث فيه إثبات صفة العلوّ لله عَزَّوَجَلَّ ، وأنَّه عَزَّوَجَلَّ لم يزل متكلّمًا إذا شاء كيف شاء، فهاتان صفتان: صفة العلوّ، وصفة الكلام، أمّا العلوّ لله عَزَّوَجَلَّ ، فهو ثلاثة أنواع، ذكرها المؤلف في أول الباب:

النوع الأوَّل: علو الذَّات.

والنوع الثاني: علو القدر.

والنوع الثالث: علو القهر.

والله عَزَّوَجَلَّ عال بذاته على خلقه، وعال بقدره، فقدره أعظم وأجلّ، وأرفع، وعال بقهره في ملكوته وعلى خلقه، فله عَزَّوَجَلَّ هذه الأنواع الثلاثة من العلوّ: علو الذّات، والقدر، والقهر، أهل السنة يثبتونها جميعًا؛ وذلك لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، ومن الأصول المقرّرة أنَّ لفظ (أل) لما دخل على هذه الصفة (علي)، دلّ على استغراق الصفة، يعني جميع معاني العلوّ، (وهو العليُّ)، يعني: وهو الّذي له جميع معاني العلوّ،

العلوّ المقرَّر ثلاثة أنواع عند الجميع: ذاتًا علو الذات، وقهرًا علو القهر، وقدرًا علو القدر[١]. كذلك الله عَزَّوَجَلَّ أخبر بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وهذا يدلّ على علوّ الذات؛ لأنَّ الفوقية هنا سبقت بـ(من) الدالة على أنَّها جهة فوقية، مكان، يعني أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ فوق خلقه بذاته، ليست فوقية قدر ولا قهر، كذلك ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

وأدلّة العلو كثيرة، حتّى أوصلها بعض العلماء إلى ألف دليل، فعلو ذات الله عَزَّوَجَلَّ على خلقه ثابت بالعقل، وثابت بالنقل، وثابت بالفطرة أيضًا، وليس هذا مكان بسط هذه الأدلّة.

وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النونية جمع أنواع الأدلة على العلو، وقسمها إلى أكثر من عشرين نوعًا[٢].

المقصود أنَّ أهل السنة أثبتوا جميع الأنواع، أمّا الضُّلال، فإنَّما أثبتوا

---

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نونيته:

وَهُوَ العَلِيُّ فَكُلُّ أنوَاعِ العُلُوِّ … لَهُ فَثَابِتَةٌ بِلاَ نُكرَانِ

انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ٢١٤).

(٢) قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَقَد أتَانَا عَشرُ أنوَاعٍ مِنَ الـ … مَنقُولِ فِي فَوقِيَةِ الرَّحمَنِ

مَعَ مِثلِهَا أيضًا تَزِيدُ بِوَاحِدٍ … هَا نَحنُ نَسرُدُهَا بِلاَ كِتمَانِ

مِنْهَا استِوَاءُ الرَّبِّ فَوقَ العَرشِ … سَبعٍ أتَت فِي مُحكَمِ الْقُرْآنِ

وَكَذَلِكَ اطَّرَدَت بِلاَ لاَم وَلَو … كَانَت بِمَعنَى اللاَّم فِي الأذهَانِ

لأتَت بهَا فِي مَوضِعٍ كَي يَحمِل الـ … بَاقِي عَلَيهَا بِالبَيَانِ الثَّانِي

وَنَظِير ذَا إضمَارُهُم فِي مَوضِعٍ … حَملًا عَلَى المَذكُورِ فِي التِّبيَانِ

إلى أن قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَهُ العُلُوُّ مِن الوُجوهِ جَمِيعَها … ذَاتًا وَقَهرًا مَعَ عُلُوِّ الشَّانِ

لَكِن نُفَاةُ عُلُوهِ سَلَبُوهُ إكـ … مَالَ العُلُوِّ فَصَارَ ذَا نُقصَانِ

حَاشَاهُ مِن إفكِ النُّفَاةِ وَسَلبِهِم … فَلَهُ الكَمَالُ المُطلَقُ الرَّبَّانِي

وَعُلُوُّهُ فَوقَ الخَلِيقَة كُلِّهَا … فُطِرَت عَلَيهِ الخَلقُ وَالثَّقَلاَنِ

انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٣٩٦ وما بعدها).

النوعين الآخرين (علو القدر، والقهر)، قال: علوه وفوقيته، يقولون: فوقية قدر وقهر، وعلو قدر وقهر، تنتبه لهذا في التفسير حينما يقول: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، يقول: الّذي علا بقدره وبقهره لجميع مخلوقاته، هذا ماذا يعني؟ يعني: أنّه ينفي علوّ الذات، فربّما مرّ على بعض الناس أنّه هنا أثبت العلوّ، لا، العلو الّذي يراد إثباته هو علوّ الذات، أمّا علوّ القهر والقدر، فلا يخالف فيه أهل الضلال، وأنّما يخالفون في علوّه بذاته الّذي ثبت من أوجه كثيرة متعدّدة في القرآن، لا في غيره، كذلك صفة الكلام لله عَزَّوَجَلَّ، هذا الكلام الّذي جاء في هذا الحديث يُسمع، أليس كذلك؟ قال: «يَنْفذهُمْ ذَلِكَ» إذا تكلّم الله بالوحي في السماء، سمع له صلصلة كجرّ السلسلة على الصفوان، هذا يُسمع أم لا؟ يُسمع. المبتدعة الّذين أثبتوا الكلام، أو الّذين نفوا الكلام قالوا: إنَّ كلامه لا يسمع منه، فالأشاعرة مثلًا يقولون: هو متكلّم، وله الكلام، ولكن كلامه صفة قائمة به، وذلك من جهة المعنى لا من جهة الألفاظ، فلا يخرج منه كلامٌ يُسمع، ولا صوت يسمع، وإنّما هو معنى قائم به، وأمّا كلامه الّذي يُسمع، فهو قديم. انتهى. وهم يحجزون الله عَزَّوَجَلَّ عن أن يكون متّصفًا بصفاته في كلّ وقت، ولهذا يقولون: هذه معنى، معنى عبارة، تارة يقولون: عبارة. تارة يقولون: معنى. نقول: من الّذي يأخذ هذا المعنى؟ قال: يُلقى هذا المعنى في روع جبريل، ثم يبلغه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وهذا - والعياذ بالله - معناه: نفي صفة الكلام، وهذا الحديث واضح أنّه يُسمع، أليس كلام الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الحديث مسموعًا؟ بلى، تسمعه الملائكة، بل له صفة، كلامه ليس ككلام غيره، يُسمع، له دويٌّ وصوتٌ ورجّةٌ، والله أعلم بذلك، كيف اتّصافه بذلك، كذلك يوم القيامة يتكلَّمُ الله عَزَّوَجَلَّ والناس في الموقف، فيسمعه من قرُب كما يسمعه من بعُد؛ كما

في الحديث، «**يَحْشُرُ اللَّهُ الْعِبَادَ، فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ، كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ**»(١).

وهذا يبيّن أنَّ كلام الله عَزَّوَجَلَّ وإن كان بصوت وبحرف مسموع متميّز بعضه عن بعض، لكنه ليس ككلام المخلوقين؛ لأنَّ كلام المخلوقين إذا ازدادت المسافة ضعف، وأمّا كلام الله عَزَّوَجَلَّ ، فقال: «**يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ**»، يعني: متساوين فيه.

وهذا - ولا شكّ - يبيّن القاعدة الأصليّة عند أهل السنة والجماعة: أنَّ إثبات الصفات لله - تبارك وتعالى - إثبات وجود ومعنى، لا إثبات كيفيّة، فالكيفيّة ما نعلم كيف هي، كيف اتّصاف الله بصفاته؟ كيف صفة الكلام؟ كيف صفة السمع؟ خلافًا للمبتدعة الذين خاضوا في الكيفية - والعياذ بالله -، وجعلوا القرآن عضين.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٣٧)، وخلق أفعال العباد (٩٨)، والإمام أحمد في المسند (٣/ ٤٩٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٢٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٧٥، ٤/ ٦١٨)، والضياء في المختارة (٩/ ٢٥) من حديث عبد الله بن أنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَعَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّه ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُوحِي بالأمرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، أَخَذَتْ السَّمَاوَات مِنْهُ رَجْفَةٌ - أَوْ قَالَ رَعْدَةٌ - شَدِيدَةٌ، خَوْفًا مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْل السَّمَاوَات صُعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُون أَوَّل مَنْ يَرْفَع رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيُكَلِّمهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيه بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَة، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُول جِبْرِيلُ: قَالَ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣]. قَالَ: فَيَقُولُونَ كُلّهمْ مِثْل مَا قَالَ جِبْرِيلُ. فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إلى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ»(١).

ش: هذا الحديث رواه ابن أبي حاتم بسنده، كما ذكره العماد ابن كثير في تفسيره.

(النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ)، بكسر السين، بن خالد الكلابي، ويقال: الأنصاري. صحابي. ويقال: إن أباه صحابي أيضًا.

قوله: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُوحِي بالأمرِ...». إلى آخره. فيه النص على أن الله تعالى يتكلم بالوحي. وهذا من حجة أهل السنة على النفاة: لم يزل الله متكلمًا إذا شاء.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٢٧)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٣٦)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٣٤٨)، والآجري في الشريعة (٣٠٧)، والطبري في تفسيره (٢٢/ ٩١)، وابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير في تفسيره، وساقه بإسناده (٣/ ٥٣٨)، وأبونعيم في الحلية (٥/ ١٥٢)، والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٦٦)، والبغوي في تفسيره (٣/ ٥٥٧).

....

قوله: «أَخَذَتْ السَّمَاوَات مِنْهُ رَجْفَةٌ» السموات مفعول مقدم، والفاعل رجفة، أي: أصاب السموات من كلامه تعالى رجفة، أي: ارتجفت. وهو صريح في أنها تسمع كلامه تعالى؛ كما روى ابن أبي حاتم عن عكرمة. قال: «إذا قضى الله أمرًا، تكلم - تبارك وتعالى - رجفت السموات والأرض والجبال، وخرت الملائكة كلهم سجدًا».

قوله: «أَوْ قَالَ رَعْدَةٌ شَدِيدَةٌ». شك من الراوي. هل قال النبي ﷺ: رجفة، أو قال: رعدة؟ والراء مفتوحة فيهما.

قوله: «خَوْفًا مِنْ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ»، وهذا ظاهر في أن السموات تخاف الله، بما يجعل تعالى فيها من الإحساس ومعرفة من خلقها.

وقد أخبر تعالى أن هذه المخلوقات العظيمة تسبحه؛ كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقد قرر العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذه المخلوقات تسبح الله وتخشاه حقيقة، مستدلًا بهذه الآيات وما في معناها[١].

وفي البخاري عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ»[٢]، وفي حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن النبي ﷺ أخذ في

(١) انظر: زاد المعاد (١/ ٣٣-٣٤).
(٢) أخرجه البخاري (٣٥٧٩).

....

يده حصيات، فسمع لهن تسبيح...» الحديث[(١)]، وفي الصحيح قصة حنين الجذع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ قبل اتخاذ المنبر[(٢)]. ومثل هذا كثير.

قوله: «صُعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا». الصعوق هو الغشي، ومعه السجود.

قوله: «فَيَكُون أَوَّل مَنْ يَرْفَع رَأْسَهُ جِبْرِيلُ». بنصب أول خبر يكون مقدم على اسمها، ويجوز العكس. ومعنى جبريل: عبد الله؛ كما روى ابن جرير وغيره عن علي بن الحسين قال: «كان اسم جبريل: عبد الله، واسم ميكائيل: عبيد الله، وإسرافيل: عبد الرحمن، وكل شيء رجع إلى إيل، فهو معبد لله عز وجل»[(٣)].

وفيه فضيلة جبريل عليه السلام؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ١٩-٢١].

قال ابن كثير رحمه الله: إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم[(٤)].

وقال أبو صالح في الآية: جبريل يدخل في سبعين حجابًا من نور بغير إذن[(٥)].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (ص٢١٤)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٩٩): رواه البزار بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات، وفي بعضهم ضعف، ورواه الطبراني في الأوسط.

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٨٣) من حديث ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ إِلَى جِذْعٍ فَلَمَّا اتَّخَذَ الْمِنْبَرَ تَحَوَّلَ إِلَيْهِ، فَحَنَّ الْجِذْعُ فَأَتَاهُ فَمَسَحَ يَدَهُ عَلَيْهِ».

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري (١/ ٤٣٧).

(٤) انظر: تفسيرابن كثير (٨/ ٣٣٨).

(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣٠/ ٨٠).

....

ولأحمد بإسناد صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ، وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الأُفُقَ، يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ، مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ»[1].

الشرح:

كلمة (إيل) هنا بمعنى (الله) في اللغة العبرانية أو السريانية.

فهذه تسميات، فجبرائيل، معناه: (عبد الله)، ميكائيل معناه: (عبد الله)، إسرافيل معناه: (عبد الله)، وهكذا، إسرائيل - الذي هو يعقوب عليه السلام - معناها: (عبد الله)، وهكذا، هو يقول هنا: (إسرافيل) لأجل أنَّها إسرافيل، وليست (إيل) صارت عبد الرحمن، إسرافيل (عبد الرحمن)، فيكون إسرائيل هذا (عبد الله)، وإسرافيل (عبد الرحمن) على اللغة التي سمّيت بها الملائكة بهذه الأسماء، الله أعلم، إمّا سريانية أو عبرانية، وبعض أهل العلم جعل منها قوله عز وجل: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠] قال: (إلّا) أصلها (إيلا) يعني نسبة إلى الله عز وجل، فجعلت (إلّا) لأنَّ أصلها النسبة إليه، يعني: لا يرقبون في مؤمن عبادة لله عز وجل، ولا نسبة لله عز وجل، ولا ذمّة، يعني: لا جعلوا فيه قربة؛ لأنَّ هؤلاء يعبدون الله، يمتنع عنهم، ولا كذلك الذّمة والعهد الّذي بينهم وبينهم.

وهذا البحث في (تفسير القرطبي) في أوّل سورة البقرة عند قوله عز وجل:

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٩٥)، وابن جرير في تفسيره (٢٧/ ٤٩)، وأبو يعلى (٩/ ٢٤٣)، وابن حبان (١٤/ ٣٣٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٧٨)، وأصله عند البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: ٩٧-٩٨]، فقوله هنا: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ هذا تعريب، من باب التعريب نطقها بالعربية.

وصفة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ثابتة له. يعني: خلقته الّتي خلقه الله عليها، وهو يتشكّل؛ لأنَّه من نور، لكن يتشكّل، فصفته الّتي خلقه الله عليها أنَّه له ستمائة جناح، كلُّ جناحٍ مدَّ البصر، تَسقط من أجنحته التهاويل، يعني: الألوان الزاهية العجيبة، الّتي تخرج من الجواهر الكريمة، التهاويل، والدرّ، والياقوت، يتناثر تناثرًا، له ستمائة جناح، فهذا مخلوق من مخلوقات الله، ولهذا «**إنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**»، يعني: جمال المخلوقات، هو أثر ضعيف وضئيل لجمال الله عَزَّ وَجَلَّ، فالله عَزَّ وَجَلَّ موصوف بالجمال، فأعطى الله عَزَّ وَجَلَّ بعض مخلوقاته جمالًا؛ ليستدلّ الخلق بذلك الجمال الّذي بهرهم في مخلوقات الله على جمال الله - تبارك وتعالى -، ولهذا لمّا ساق ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في نونيته وصف المخلوقات بالجمال قال:

وَهْوَ الْجَمِيلُ عَلَى الحَقِيقَةِ كَيفَ لاَ ... وَجَمَالُ سَائِرِ هَذِهِ الأَكْوَانِ
مِن بَعضِ آثَارِ الجَمِيلِ فَرَبُّهَا ... أَوْلَى وأجدَرُ عِنْدَ ذِي الْعِرْفَانِ
فَجَمَالُهُ بِالذَّاتِ وَالأوصَافِ وَالـ ... أفعَالِ والأسمَاءِ بِالبُرهَانِ[1]

فربّها أولىَ ولا شكّ - يعني هذا دليل عقليّ واضح - ربّها أولىَ «**إنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**»[2]، ولهذا الناس يختلفون فيما يحبّون وما يشتهون.

---

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى(٢/ ٢١٤).
(٢) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

....

ش: فإذا كان هذا عِظَم هذه المخلوقات، فخالقها أعظم وأجل وأكبر، فكيف يُسوَّى به غيره في العبادة دعاءً، وخوفاً، ورجاءً، وتوكلاً، وغير ذلك من العبادات التي لا يستحقها غيره؟! فانظر إلى حال الملائكة وشدة خوفهم من ا لله تعالى، وقد قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩].

قوله: «فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّه تَعَالَى مَنْ السَّماءِ والأَرْضِ». وهذا تمام الحديث.

والآيات المذكورة في هذا الباب والأحاديث تقرر التوحيد الذي هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله، فإن الملك العظيم الذي تصعق الأملاك من كلامه خوفًا منه ومهابة، وترجف منه المخلوقات، الكامل في ذاته، وصفاته، وعلمه، وقدرته، وملكه، وعزه، وغناه عن جميع خلقه، وافتقارهم جميعًا إليه، ونفوذ تصرفه وقدره فيهم لعلمه وحكمته، لا يجوز شرعًا ولا عقلًا أن يجعل له شريك من خلقه في عبادته التي هي حقه عليهم، فكيف يُجعل المربوبُ ربًا، والعبدُ معبودًا؟! أين ذهبت عقول المشركين؟! سبحان الله عما يشركون.

وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك الشرك، وتنهاهم عن عبادة ما سوى الله. انتهى من شرح سنن ابن ماجه.

الشرح:

هذان الحديثان في باب واحد، وهما يدلان على إثبات عدد من صفات الرب عز وجل، ومن نعته الحسن تعالى.

فمنها: صفة العلو لله عز وجل.

ومنها: صفة الكلام له عز وجل.

والمقصود من إيراد الشيخ رحمه الله لهذين الحديثين أن من الإيمان بالله الإيمان بعلوه وبصفاته وبكلامه عز وجل، كذلك الإيمان بالملائكة، وهذا كله من أصول الإيمان.

ومناسبة الحديثين: أن فيهما برهانًا على أن المستحق للعبادة هو الله جل جلاله؛ وذلك أنه هو المتصف بصفات الكمال والجلال، وهذا الباب فيه ذِكر لصفات الجلال لله عز وجل، والله تعالى كلّ من في السماوات ومن في الأرض خائف منه وجِلٌ في الحقيقة؛ إذْ هو الجليل تعالى؛ ولذلك كان الأعرف به في السماء الملائكة، فإن الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال عز وجل في وصفهم أيضًا: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فصفات الجلال لله عز وجل، وصفات الكمال له تعالى، وصفات الجمال له تعالى، هذه كلها دلائل على أنه هو المستحق للعبادة وحده دون غيره؛ لأنه المتصف بالعظمة الكاملة، فكل ما في السماوات وما في الأرض جارٍ على وفق أمره تعالى.

فهو تعالى ذو الأسماء الحسنى، وذو الصفات العلى؛ ولهذا قال عز وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، : ﴿فُزِّعَ﴾ أزيل الفزع عن قلوب الملائكة، فالملائكة مع أنهم مقربون إلا أنهم شديدو المعرفة بالله عز وجل، شديدو العلم به، عظيم علمهم

بالرب ﷻ ، ومما يعلمونه عن الله ﷻ أنه هو الجبار، وأنه هو الجليل ﷻ ، وأنه ذو الملكوت؛ لهذا يشتد فزعهم منه ﷻ ؛ لأنه لا غِنى بهم عنه ﷻ طرفة عين.

والصفات التي فيها هذا البرهان هي صفات الجلال لله ﷻ ، وصفات الجلال هي الصفات التي تورث الخوف في القلب؛ لأن الصفات تنقسم إلى أقسام متنوعة باعتبارات، ومن تقسيمات الصفات أنها تنقسم إلى: صفات جلال، وصفات جمال.

فالصفات التي تحدث في القلب الخوف والهلع والرهبة من الرب ﷻ تسمى صفات الجلال، والذي يتصف بصفات الجلال على الحقيقة هو الله ﷻ ؛ لأنه هو الكامل في صفاته ﷻ ، فإذا كان كذلك، كان الكامل في صفاته هو المستحق للعبادة، وأمَّا المخلوقون، فإنهم ناقصون في صفاتهم، يعلمون أن حياتهم ليست حياة كاملة، وإنما هي حياة إذا عرض لها أي عارض، صار المخلوق مَيتًا، وإذا عرض له أي عارض، صار مريضًا، وإذا عرض له أي عارض، صار ضعيفًا، لا يستطيع أن يعمل شيئًا، فهم ضعاف فقراء، محتاجون، ليست لهم صفات الكمال، وهذا دليل نقصهم، ودليل عجزهم، ودليل على أنهم مقهورون مربوبون، فيجب أن يتوجه العباد إلى من له صفات الكمال ونعوت الجلال والجمال، وهو الله ﷻ وحده ﷻ .

بقي الكلام على مسألة - وهي من المسائل المهمة -، وهي أن صفة كلام الرب ﷻ في ظاهر الحديث، قال: «إِذَا أَرَادَ اللَّه أَنْ يُوحِي بالأمرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، أَخَذَتْ السَّمَاوَات رَجْفَةٌ - أَوْ قَالَ رَعْدَةٌ - شَدِيدَةٌ، خَوْفًا مِنْ اللَّه ﷻ ، فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْل السَّمَاوَات صُعِقُوا» ، وقد وُصف سماع الملائكة للصوت بأنه كجر السلسلة على الصفوان، أي: على الصخر، وهذا جعله بعض الناس صفة للكلام، وظاهر الحديث أنه وصف للسماع،

لا وصف للكلام، فصفة الكلام لله عَزَّوَجَلَّ ثابتة، لكن لم يثبت فيها شيء من جهة التفصيل، إلا ما جاء في الحديث الصحيح: «**يَحْشُرُ اللَّهُ الْعِبَادَ، فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ، كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ**»(١).

وحديث النواس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هنا قال فيه: «**إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُوحِيَ بِالأمرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، أَخَذَتْ السَّمَاوَات رَجْفَةٌ - أَوْ قَالَ رَعْدَةٌ - شَدِيدَةٌ، خَوْفًا مِنْ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ ، فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْل السَّمَاوَات صُعِقُوا**»، أي: أن السماوات تأخذها الرعدة أو الخوف من كلام الله عَزَّوَجَلَّ .

وقد غلا في صفة الكلام طائفة من المنتسبين للإمام أحمد ولغيره من أهل السنة، فجعلوا صفة كلام الله عَزَّوَجَلَّ بما في هذه الأحاديث التي فيها تكلم الله عَزَّوَجَلَّ بالوحي، وأن صفة كلامه كجر السلسلة على صفوان، أو أن كلامه كما جاء في روايات أخرى، مثل ما ذكرها أبو يعلى في (**إبطال التأويلات**)، وغيره، فهذا ينبغي أن يُترك، لا يقال به، وإنما يؤخذ بما دل عليه النص الذي لا يحتمل التأويل؛ لأن صفة الكلام الواردة في الأحاديث إنما هي محتملة لأن تكون صفة للسماع، أي: لما سُمِع؛ لهذا جاء هنا: «أَخَذَتْ السَّمَاوَات رَجْفَةٌ - أَوْ قَالَ رَعْدَةٌ - شَدِيدَةٌ، خَوْفًا مِنْ اللَّه عَزَّوَجَلَّ ، فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْل السَّمَاوَات صُعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا فَيَكُون أَوَّل مَنْ يَرْفَع رَأْسَهُ: جِبْرِيلُ، فَيُكَلِّمهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيه بِمَا أَرَادَ، فَيَمْضِي جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَة، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتهَا: مَاذَا قَالَ رَبّنَا يَا جِبْرِيلُ، فَيَقُولُ جِبْرِيلُ قَالَ ﴿ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]»، فهذا محتمل أن يكون بعد إرادة الكلام، أو أنه وصْفٌ لما سُمِع من حال السماوات، أما وصف كلام الله عَزَّوَجَلَّ ، فهذا لا يقال فيه بشيء إلا ما ثبت في الحديث أنه: «**يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ، كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ**».

(١) سبق تخريجه (ص٢٨).

فِيهِ مَسَائِلُ:

اَلْأُولَى: تَفْسِيرُ الْآيَةِ.

الثَّانِيَةُ: مَا فِيهَا مِنَ الْحُجَّةِ عَلَى إِبْطَالِ الشِّرْكِ، خُصُوصًا مَنْ تَعَلَّقَ عَلَى الصَّالِحِينَ، وَهِيَ الآيَةُ الَّتِي قِيلَ: إِنَّهَا تَقْطَعُ عُرُوقَ شَجَرَةِ الشِّرْكِ مِنَ الْقَلْبِ.

الثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

الرَّابِعَةُ: سَبَبُ سُؤَالِهِمْ عَنْ ذَلِكَ.

الْخَامِسَةُ: أَنَّ جِبْرِيلَ هُوَ الَّذِي يُجِيبُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «قَالَ كَذَا وَكَذَا».

السَّادِسَةُ: ذِكْرُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ.

السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَقُولُ لِأَهْلِ السَّمَاوَاتِ كُلِّهِمْ، لِأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ.

الثَّامِنَةُ: أَنَّ الْغَشْيَ يَعُمُّ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ كُلَّهُمْ.

التَّاسِعَةُ: اِرْتِجَافُ السَّمَاوَاتِ لِكَلَامِ اللهِ.

الْعَاشِرَةُ: أَنَّ جِبْرِيلَ هُوَ الَّذِي يَنْتَهِي بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: ذِكْرُ اسْتِرَاقِ الشَّيَاطِينِ.

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: صِفَةُ رُكُوبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا.

الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: إِرْسَالُ الشُّهُبِ.

الرَّابِعَةَ عَشَرَ: أَنَّهُ تَارَةً يُدْرِكُهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَتَارَةً يُلْقِيهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ مِنَ الْإِنْسِ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ.

الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: كَوْنُ الْكَاهِنِ يَصْدُقُ بَعْضَ الْأَحْيَانِ.

السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: كَوْنُهُ يَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ.

السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أَنَّهُ لَمْ يَصْدُقْ كَذِبُهُ إِلَّا بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ.

الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: قَبُولُ النُّفُوسِ لِلْبَاطِلِ، كَيْفَ يَتَعَلَّقُونَ بِوَاحِدَةٍ وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِمِائَةٍ؟

التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: كَوْنُهُم يُلْقِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ تِلْكَ الْكَلِمَةَ وَيَحْفَظُونَهَا وَيَسْتَدِلُّونَ بِهَا.

الْعِشْرُونَ: إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ خِلَافًا لِلأَشْعَرِيَّةِ الْمُعَطِّلَةِ.

الْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ تِلْكَ الرَّجْفَةَ وَالْغَشْيَ كَانَا خَوْفًا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: أَنَّهُمْ يَخِرُّونَ للهِ سُجَّدًا.

***

١٦ - بَابُ الشَّفَاعَةِ

ش: قوله: (بَابُ الشَّفَـاعَـةِ).

أي: بيان ما أثبته القرآن منها وما نفاه، وحقيقة ما دل القرآن على إثباته.

الشرح:

هذا: (بَابُ الشَّفَاعَةِ)، وإيرادُ هذا البابِ بعد البابين قبله مناسب جدًا؛ ذلك أن الذين يسألون النبي ﷺ، ويستغيثون به، ويطلبون منه، أو يسألون غيره من الأولياء أو الأنبياء، إذا أقمت عليهم الحجة بما ذُكر من توحيد الربوبية، قالوا: نحن نعتقد ذلك، ولكن هؤلاء مقربون عند الله معظمون، ورفَعَهُم الله عز وجل عنده، ولهم الجاه عند الرب عز وجل، وإذا كانوا كذلك فهم يشفعون عند الله؛ لأن لهم جاهًا عنده، فمن توجَّه إليهم أرضوه بالشفاعة، وهم ممن رفعهم الله، ولهذا يقبل شفاعاتهم.

فكأن الشيخ رحمه الله رأى حال المشركين وحال الخرافيين، واستحضر حججهم، وهوكذلك إذ هو أخبر أهل هذه العصور المتأخرة بحجج المشركين.

استحضر ذلك، فقال: لم يبق إلا الشفاعة لهم، إذا حاججتهم فهذا (بَابُ الشَّفَاعَةِ).

والشفاعة في اللغة: من الشفع، وهو الزوج ضد الفرد؛ لأن الداعي والمتوسط صار زوجًا للسائل، بعد أن كان السائل فردًا، فسمي شفيعًا؛

لأنه شفعه، يعني: صار ثانيًا معه، وحقيقة الشفاعة في اللغة هي: السؤال، سؤال الشافع للمشفوع له في حاجة ما، وطلب ذلك، فرجعت في اللغة إلى معنى السؤال والدعاء، فمن قال لأحد: اشفع لي عند فلان، يعني: اسأل لي، واطلب لي، وتوسط لي، ونحو ذلك(١).

وأما في الاصطلاح: فالشفاعة اسم عام لكل دعاء للنبي ﷺ يوم القيامة لأمته، فكل دعوة يدعو بها ﷺ في العرصات يوم القيامة، فإنها تعد من الشفاعة، مثلما جاء في الحديث: «**أُمَّتِي أُمَّتِي**»(٢)، أو «**أُمَّتِي يا رَبِّ**»(٣)، أو نحو ذلك، هذه كلها شفاعة؛ ولهذا أهل العلم جعلوا الشفاعة عدة أقسام؛ لأجل ما جاء في الأحاديث، ولتنوع العبارات في ذلك.

والشفاعة هي الدعاء، وطلب الشفاعة هو طلب الدعاء، فإذا قال قائل: أستشفع برسول الله، كأنه قال: أطلب من الرسول ﷺ أن يدعو لي عند الله عَزَّوَجَلَّ ، فالشفاعة طلب؛ ولهذا من استشفع، فقد طلب الشفاعة، فالشفاعة دعاء، وهي طلب الدعاء أيضًا، فلهذا صار كل دليل تقدم لنا وكل دليل في الكتاب أو في السنة فيه إبطال أن يُدعَى مع الله عَزَّوَجَلَّ إله آخر يصلح أن يكون دليلًا للشفاعة، يعني: لإبطال الاستشفاع بالموتى، وبالذين غابوا عن دار التكليف؛ لأن حقيقة الشافع أنه طالب؛ ولأن حقيقة المستشفِع أنه طالب، فالشافع في ظن المستشفع يدعو، والمستشفع يدعو من أراد منه الشفاعة، يعني: إذا أتى آتٍ إلى قبر النبي، أو قبر ولي، أو نحو ذلك، فقال: أستشفع بك، أو أسأل الشفاعة. يعني: طلب منه ودعا أن يدعو له،

---

(١) انظر: مادة: (ش ف ع) في النهاية (٢/ ٤٨٥)، وطلبة الطلبة (١/ ٢٥٣)، ولسان العرب (٨/ ١٨٤)، ومختار الصحاح (١/ ١٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٣)، وهو حديث طويل في قصة الشفاعة العظمى لنبينا ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

فلهذا صار صرفها، أو صار التوجه بها إلى غير الله عز وجل شرك أكبر؛ لأنها في الحقيقة دعوة لغير الله؛ لأنها في الحقيقة سؤال من هذا الميت، سؤال وتوجُّه بالطلب والدعاء من غير الله عز وجل ، فيتوجه إلى غير الله بالسؤال والطلب والدعاء.

إذًا فالشفاعة عرفتَ معناها، وأن التوجه إلى غير الله بطلب الشفاعة شرك أكبر، إذا كان هذا المتوجَّه إليه من الأموات، أما إذا كان حيًا، فإنه في دارالتكليف يُطلَب منه أن يشفع عند الله بمعنى أن يدعو، وقد يجاب دعاؤه، وقد لا يجاب، أو كما يحصل أن يشفع بعض الناس لبعض بالشفاعة الحسنة، أو بالشفاعة السيئة: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥]، فهذا يحصل؛ لأنهم في دار تكليف، ويقدرون على الإجابة، وقد أذن الله في طلب الشفاعة منهم بأن يدعو، ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم في عهد النبي ﷺ ربما أتى بعضهم النبي ﷺ وطلب أن يشفع له، يعني: أن يدعو له.

فمسألة الشفاعة من المسائل التي تخفى على كثيرين، ولهذا وقع بعض أهل العلم في أغلاط من جهة طلب الشفاعة من النبي ﷺ، فأوردوا قصصًا في كتبهم فيها استشفاع بالنبي ﷺ دون إنكار؛ كما فعل النووي(١)، وكما فعل ابن قدامة في المغني(٢) وغيرهما، وهذا لا يعدُّ خلافًا في المسألة؛ لأن هذا الخلاف راجع إلى عدم فهم حقيقة هذا الأمر. ومسألة الشفاعة مسألة فيها خفاء؛ ولهذا يقول أهل العلم من أئمة الدعوة - رحمهم الله -: إقامة الحجة في مسائل التوحيد تختلف بحسب قوة الشبهة، فأقل الشبهات ورودًا

(١) انظر: الأذكار (ص١٦٠).
(٢) انظر: المغني (٣/ ٢٩٨).

وأيسر الحجج قدومًا على المخالف فيما يتعلق بأصل دعوة غير الله معه، وبالاستغاثة لغير الله، وفي الذبح لغير الله، ونحو ذلك. ومن أكثرها اشتباهًا - إلا على المحقق من أهل العلم - مسألة الشفاعة؛ ولهذا أتى الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب.

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

ش: **قوله: (وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى:** ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١]) **المخافة والتحذير منها.**

قوله: ﴿بِهِ﴾ **قال ابن عباس** رضي الله عنهما: **بالقرآن** ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، **وهم المؤمنون.**

وعن الفضيل بن عياض: ليس كل خلقه عاتب، إنما عاتب الذين يعقلون، فقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، **وهم المؤمنون أصحاب العقول الواعية.**

قوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، **قال الزجاج: موضع (ليس) نصب على الحال، كأنه قال: متخلين من كل ولي وشفيع. والعامل فيه (يخافون).**

قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ **أي: فيعملون في هذه الدار عملًا ينجيهم الله به من عذاب يوم القيامة.**

الشرح:

الشيخ رحمه الله أتى بهذا الباب، وقال: (**بَابُ الشَّفَاعَةِ**)، وبين بما ساق من الأدلة من الكتاب والسنة أن الشفاعة التي تنفع لا تصح إلا بشروط، وكذلك هناك شفاعة منفية، ليست كل شفاعة تقبل، وإنما هناك شفاعة

تقبل، وهناك شفاعة ترد، تقبل بشروط وترد أيضًا بأوصاف، فإذًا الشفاعة الواردة في القرآن والسنة قسمان: شفاعة منفية، وشفاعة مثبتة.

فهناك فرق بين الشفاعة المثبتة والشفاعة المنفية، يعني: الشفاعة النافعة، والشفاعة المنفية غير النافعة، وهناك فرق أيضًا بين الشفاعة في الدنيا والشفاعة في الآخرة، فالله عز وجل أثبت أن الشفاعة عنده لا تنفع إلا بشروط، قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقال عز وجل: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦] أي: أن أصل الشفاعة عند الله عز وجل ثابتة، وهذه الشفاعة في مقام الافتقار، وليست في مقام الوجاهة، وبيان ذلك أن العبد إذا شفع عند الله عز وجل، فإنه يشفع وهو عبدٌ ذليلٌ، مفتقر إلى الله عز وجل، ليس كحال الشفاعة عند أهل الدنيا؛ وذلك أن الشفاعة عند الناس تكون لمن له جاه وعز عند المشفوع عنده؛ حتى يجيب، والمشفوع عنده كملك، أو أمير، أو مسؤول، أو عالم، أو شيخ، أو تاجر... إلى آخره يجيب شفاعة هذا الشفيع شيئًا؛ لما يرجوه عنده من إجابة شفاعته؛ ولهذا يكون الشفيع متفضلًا على الشافع، وأمَّا الشفاعة عند الله عز وجل، فهي ليست من هذا القبيل، إنما هو عز وجل الذي يُكرم من شاء من عباده أن يكون شفيعًا، ثم يُكرم من شاء من عباده أن يؤذن له في الشفاعة، وأن يلهمه القول الحسن فيها حتى يجاب، فالفضل فيها لله عز وجل ابتداءً وانتهاءً، وهذا بخلاف الشفاعة عند أهل الدنيا.

ولهذا ظن المشركون أن الشفاعة عند الله عز وجل من جنس شفاعة الناس بعضهم لبعض، فاتخذوا الآلهة والأصنام شفعاء؛ لأنهم يظنون أنهم

يشفعون عند الله عَزَّوَجَلَّ ولو لم يأذن الله عَزَّوَجَلَّ بذلك أو لم يرض، فلهم المقام عند الله الذي يجعله عَزَّوَجَلَّ يجيب سؤالهم، ويجيب شفاعتهم.

وهذا الباب يطول البحث فيه، لكن يُفرق فيه بين الشفاعة المثبتة والشفاعة المنفية، التي هي الشفاعة النافعة والشفاعة غير النافعة، والشفاعة في الدنيا والشفاعة في الآخرة، والشفاعة عند المشركين في فهمهم والشفاعة في الشرع، وبهذا يتقرر هذا الباب بما ينفع في باب الاعتقاد العام، وفي توحيد العبادة.

الخلاصة أن الشفاعة المنفية: هي التي نفاها الله عَزَّوَجَلَّ عن أهل الإشراك؛ كما ساق الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أول دليل قال: (**وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى**: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١])، فهذه الشفاعة منفية، وهي منفية عن الجميع، عن الذين يخافون، عن أهل التوحيد وعن غيرهم، أما عن أهل التوحيد، فهي منفية إلا بشروط، وهي: إذن الله للشافع أن يشفع، ورضاه عَزَّوَجَلَّ عن الشافع وعن المشفوع له.

فإذًا قوله هنا: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يعني: أنَّ الشفيع في الحقيقة هو الله عَزَّوَجَلَّ دون ما سواه.

وَقَوْلِهِ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ [الزمر: ٤٤].

ش: قوله: (وَقَوْلِهِ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾)، وقبلها ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣]، وهذه كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، فبين تعالى في هذه الآيات وأمثالها أن وقوع الشفاعة على هذا الوجه منتف وممتنع، وأن اتخاذهم شفعاء شرك، يتنزه الرب تعالى عنه، وقد قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨]، فبين تعالى أن دعواهم أنهم يشفعون لهم بتأليههم أن ذلك منهم إفك وافتراء.

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ أي: هو مالكها، فليس لمن تطلب منه شيء منها، وإنما تطلب ممن يملكها دون كل من سواه، لأن ذلك عبادة وتأليه وتألّه لا يصلح إلى لله.

قال البيضاوي: لعله ردٌّ لما عسى أن يجيبوا به، وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون[١].

وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ [البقرة: ١٠٧] تقرير لبطلان اتخاذ الشفعاء من دونه؛ لأنه مالك الملك، فاندرج في ذلك ملك الشفاعة، فإذا كان هو مالكها، بطل أن تطلب ممن لا يملكها ﴿مَن ذَا

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي (٥/ ٧٠).

. . . .

ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

قال ابن جرير: نزلت لما قال الكفار: ما نعبد أوثاننا هذه إلا ليقربونا إلى الله زُلفى، قال الله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

الشرح:

قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ﴾ فالشفاعة جميعًا ملك لله عز وجل، وأهل الإيمان وغيرهم في الحقيقة ليس لهم من دون الله ولي ولا شفيع، ليس لأحد أن يشفع لهم من دون الله عز وجل، بل لا بد أن تكون الشفاعة بالله، يعني: بإذنه وبرضاه.

فإذا تقرر ذلك، فإنه إذا نُفيَت الشفاعة عن أحد سوى الله عز وجل، وأن الذي يملك الشفاعة إنما هو الله عز وجل وحده، فإذًا بطل التعلق - تعلق قلوب أهل الشفاعة الذين يسألون الموتى الشفاعة - بطل تعلقهم بمسألة الشفاعة؛ لأن الشفاعة ملك لله وهذا لا يملكها.

وشروط الشفاعة النافعة هي:

الشرط الأول: الإذن، وهو نوعان:

إذن كوني: وهو أن لا تحصل شفاعة إلا من بعد أن يأذن الله للشافع

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٥/ ٣٩٥).

كونًا، فلا يمكن أن يشفع شافع من عند نفسه إلا بعد أن يأذن الله له بالشفاعة في كونه، فلا يحدث شيء في ملكوت الله إلا من بعد الإذن الكوني، يعني: ليس لأحد حق الابتداء، فإن لم يرد الله عز وجل للشافع أن يشفع، فإنه لا يُمكنه من أن يشفع أصلًا بأن يصرف قلبه، ويصرف نفسه عن هذه الشفاعة، فلا تقع أصلًا؛ لأنه لابد من أن يكون ثمة إذن كوني بحصول الشفاعة من الشافع.

وإذن شرعي: وهو أن تكون الشفاعة على وفق الشروط الشرعية فيمن شفع له الشافع، وفي الشافع نفسه، فالمشرك لا تنفع شفاعته لأنه مشرك، والمشرك لا ينفع أن يُشفع له؛ كما قال: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٧٠]، فإذًا هو لا ينفع أن يشفع، ولا أن يُشفع فيه، إلا أبا طالب في حالة خاصة، وهذا ظاهر في حال ابن نوح عليه السلام، وحال أبي إبراهيم عليه السلام، وحال عم النبي ﷺ في الدنيا... إلى آخره.

والشرط الثاني: الرضا، وقد جاء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ونحو ذلك من الآيات.

والرضا نوعان:

- رضا عن الشافع.
- ورضا عن المشفوع له.

والرضا إنما يكون عن أهل التوحيد؛ وذلك لما ثبت في الصحيح أن أبا هريرة سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال ﷺ: «**لقد ظَنَنْتُ يا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الحَدِيث أَحَدٌ أَوَّلَى مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ**

بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ»[(١)]، وفي رواية: «خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ»[(٢)]، فهذا شرط الإخلاص، وهو لأهل التوحيد[(٣)].

فالشفاعة لا تنفع إلا أهل التوحيد، أما أهل الإشراك بالله، فلا تنفعهم الشفاعة؛ لأنها إنما تكون لمن ارتضى ربنا عز وجل، وهو تعالى لا يرضى إلا التوحيد، وقد قال عز وجل في المشركين: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، وقال عز وجل أيضًا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠]، وقال عز وجل: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٧٠] الرضا عن الشافع والرضا عن المشفوع له، وهذا الرضا عن الشافع والرضا عن المشفوع له مع الشرط الأول، فقد تقع الشفاعة مع عدم وجود بعض هذه الشروط، فتقع من غير إذن شرعي، فلا تنفع، لكن الإذن الكوني لابد منه حتى تقع الشفاعة، فليس لأحد أن يُحدث شيئًا في ملكوت الله إلا من بعد إذنه الكوني، فإن وقعت الشفاعة من غير رضا عن الشافع أو رضا عن المشفوع له، فإنها لا تنفع، إلا إذا وجدت هذه الشروط مجتمعة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (٩٩).

(٣) قال ابن القيم رحمه الله في نونيته:

وَلَهُ الشَّفَاعَةُ كُلُّهَا وَهُوَ الَّذِي ... فِي ذَاكَ يَأْذَنُ لِلشَّفِيعِ الدَّانِي

لِمَنِ ارْتَضَى مِمَّنْ يُوَحِّدُهُ وَلَمْ ... يُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا لِمَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ

انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٤٥٣).

وَقَوْلِهِ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ش: قال: (وَقَوْلِهِ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]). **قد تبين مما تقدم من الآيات أن الشفاعة التي نفاها القرآن هي التي تطلب من غير الله.**

وفي هذه الآية بيان أن الشفاعة إنما تقع في الدار الآخرة بإذنه؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩] **فبين أنه لا تقع لأحد إلا بشرطين: إذن الرب تعالى للشافع أن يشفع، ورضاه عن المأذون بالشفاعة فيه، وهو تعالى لا يرضى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة إلا ما أريد به وجهه، ولقي العبد به ربه مخلصًا غير شاك في ذلك؛ كما دل على ذلك الحديث الصحيح. وسيأتي ذلك مقررًا أيضًا في كلام شيخ الإسلام** رحمه الله.

الشرح:

هل تنفع الشفاعة مطلقًا، أم لا بد أيضًا من قيود؟

الجواب: الشفاعة تنفع، لكن لا بد من شروط؛ ولهذا أورد هذه الآية، قال عز وجل: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فوجه الاستدلال من الآية: أن فيها قيد الإذن، فليس أحد يشفع إلا بشرط أن يأذن الله له ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ يعني: لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه، لا الملائكة، ولا الأنبياء، ولا المقربون، وإنَّما الله عز وجل هو الذي يملك الشفاعة، وإذا كان كذلك، وأنه لا بد من

إذنه ﷻ ، فمن الذين يأذن الله ﷻ لهم؟؟!! لا أحد إذًا يبتدئ بالشفاعة دون أن يؤذن له، فإذا كان كذلك، فإذًا رجع الأمر إلى أن الله هو الذي يوفِّق للشفاعة، وهو الذي يأذن بها، ولا أحد يبتدئ بالشفاعة. فالشفاعة لها شروط:

الشرط الأول: قال ﷻ : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، يعني: من هذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، وهذا فيه حصر أنه لا يشفع أحد عند الله إلا بعد إذنه.

الشرط الثاني: أنه لا يشفع أحد عند الله ﷻ إلا فيمن يرضاه الله ﷻ أن يُشفع له، والله ﷻ لا يرضى أن يُشفع لغير أهل التوحيد، لغير أهل محبته وتوحيده وطاعته، الطاعة التي هي إخلاص الدين له، فلا حَظَّ لِمشرك في شفاعة أحد عند الله ﷻ ، حاشا النبي ﷺ في شفاعته لأبي طالب أن يُخفف عنه شيء من العذاب(١)، وهذه شفاعة ليست بإخراجه من النار، ولكن بتخفيف العذاب عنه.

قال هنا: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ﴾، والعندية من الألفاظ التي تدل على علو الله ﷻ في القرآن والسنة؛ لأنها عندية ذات، أي: عندية علو، فقوله: ﴿يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ﴾ عني: في علوه ﷻ .

(١) أخرج البخاري (٣٨٨٥)، ومسلم (٢١٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ، وذكر عنده عمه، فقال: «لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ، يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ، يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ».

وَقَـوْلِـهِ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

ش: وقوله: (وَقَـوْلِـهِ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]) **قال ابن كثير** رحمه الله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ **كقوله:** ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [طه: ١٠٩] **فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأنداد عند الله، وهو لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله، وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه؟**[1].

الشـرح:

قال رحمه الله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ يعني: من الشافعين ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ يرضى قول الشافع، ويرضى أيضًا عن المشفوع له.

هذه الشروط فائدتها - وهي فائدة هذا الباب -: أنه لا أحد يتعلق إذًا بأن هذا الذي طُلبَت منه الشفاعة أن له مقامًا عند الله يملك به أن يشفع؛ كما يعتقد أهل الشرك في أن آلهتهم تشفع، ولا بد أن تشفع. فاعتقاد المشركين الذين بُعِثَ إليهم رسول الله ﷺ سواء أكانوا من الأميين، أم من أهل الكتاب، يعتقدون أن من توجهوا له بالشفاعة من الآلهة أنه يشفع جزمًا

(١) انظر: تفسير ابن كثير(٧/ ٤٣٤).

إذا تُوجِّه إليه، وتُذلِّل له، وتُقرِّب إليه بالعبادات، وطُلبَت منه الشفاعة عند الله، فإنه يشفع جزمًا، وأن الله ﷻ لا يَردُّ شفاعته.

فهذه الآيات فيها إبطال لدعوى أولئك المشركين في أنه ثمَّ أحد يملك الشفاعة بدون إذن الله، وبدون رضاه عن المشفوع، وإذا ثبت أنه لا أحد يملكها، وأن من يشفع إنما يشفع بإكرام الله له، وبإذنه ﷻ له، فإذًا كيف يتعلق المتعلق بهذا المخلوق؟ إنما يتعلق بالذي يملك الشفاعة؛ ولهذا شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة حاصلة، لكن نطلبها ممن؟ نطلبها من الله، فنقول: اللهم شفِّع فينا نبيك؛ لأنه هو الذي يفتح، ويُلْهِم النبي ﷺ أن يشفع في فلان وفي فلان فيمن سألوا الله أن يشفع لهم النبي ﷺ.

وَقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣].

ش: قال: (وَقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣]).

قال ابن القيم رحمه الله في الكلام على هذه الآيات: وقد قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعها، فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريد عابده منه، فإن لم يكن مالكًا كان شريكًا للمالك، فإن لم يكن شريكًا له كان معينًا له وظهيرًا، فإن لم يكن له معينًا ولا ظهيرًا كان شفيعًا عنده.

فنفى الله سبحانه المراتب الأربع نفيًا مرتبًا، متنقلًا من الأعلى إلى الأدنى، فنفى الملك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة التي يطلبها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نورًا وبرهانًا وتجريدًا للتوحيد، وقطعًا لأصول الشرك ومواده لمن عقلها.

....

والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له، ويظنونها في نوع وقوم قد خَلوا من قبلُ ولم يُعقبوا وارثًا، فهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن.

ولعمر الله، إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك.

ثم قال: ومن أنواعه - أي الشرك - طلب الحوائج من الموتى والإستغاثة بهم، وهذا أصل شرك العالم؛ فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فضلًا عمن استغاث به، وسأله أن يشفع له إلى الله. وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده، فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سببًا لإذنه، فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سببًا لإذنه، وإنما السبب كمال التوحيد، فجاء هذا الشرك بسبب يمنع الإذن، وهو بمنزلة من استعان في حاجته بما يمنع حصولها.

وهذه حالة كل مشرك، فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبة أهله إلى التنقص بالأموات، وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وأولياءه الموحدين بذمهم وعيبهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص، إذا ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أمروهم به، وأنهم يوالونهم عليه، وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم، وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم

....

إلى الله، واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده، فجرد حبه لله، وخوفه لله، ورجاءه لله، وذله لله، وتوكله على الله، واستعانته بالله، والتجاءه إلى الله، واستغاثته بالله، وقصده لله، متبعًا لأمره، متطلبًا لمرضاته، إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل فهو لله وبالله ومع الله. انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ [1].

وهذا الذي ذكره هذا الإمام في معنى الآية هو حقيقة دين الإسلام؛ كما قال تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

الشرح:

وَقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣] هذه أربع حالات:

الحالة الأولى: أن يدعوا الذين زعموهم من دون الله، وأن ينظروا هل يملكون مثقال ذرة في السماوات أو في الأرض؟! قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإذًا الملك الاستقلالي لهم نُفِي.

الحالة الثانية: قال: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أيضًا نُفِي أن يكونوا

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٣٤٣-٣٤٦).

شركاء لله في الملك، في تدبير السماوات والأرض، في مِلْك شيء من السماوات والأرض، فنُفِي أولًا أن يملكوا استقلالًا، ونُفِي ثانيًا أن يملكوا شَرِكَة.

الحالة الثالثة: قال عَزَّوَجَلَّ بعدها: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ الظهير: هو المعاون والمؤازر، والوزير، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ ﴿مِنْهُم﴾ يعني: من تلك الآلهة من وزير ولا معاون؛ لأنه قد يتبادر إلى ذهن بعض الناس أن ثم من يعين الله على أمره مثل الملائكة، أو مثل الأنبياء، فإذا تُوجِّه إلى أولئك بالدعاء وبالطلب كان التوجُّه إلى من يعين الله، فيكون إذا طلب من الله فإن الله لا يرده؛ لأنه يعينه، بنوا ذلك على تشبيه الخالق عَزَّوَجَلَّ على ما يحصل من المخلوقين فإن الملك في هذه الدنيا، أو الحاكم، أو الأمير، إذا كان له من يعينه ومن يظاهره وشَفَعَ لأحد فإنه لا يَردُّ شفاعته؛ لأنه يحتاجه فلأجل هذه الحاجة لا يرد الأمير، أو الملك، شفاعة من كان له ظهير، فيظن المشركون أن بعض تلك الآلهة معاونة لله عَزَّوَجَلَّ فنَفَى الله هذا الاعتقاد الجاهلي.

الحالة الرابعة: ونَفَى أخيرًا آخر اعتقاد وهو أن تلك الآلهة تملك الشفاعة، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له، فنفى آخر ما نفى الشفاعة وأثبتها بشرط قال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

فالشفاعة تنفع بشرط أن يأذن الله، فإذًا لا يبتديء هذا الشافع فيشفع، فإذا كان كذلك توجه السؤال إذًا الآن من يأذن الله لهم؟! إذا كان ليس له شريك، وليس له ظهير، وليس عنده شفيع إلا بإذن، فمن ذا الذي إذًا يشفع عنده بإذنه؟ مَنْ هم؟ ومن الذي يأذن له الله عَزَّوَجَلَّ؟ **الجواب**: فيما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية فيما ساقه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذلك.

إذًا: فالآيات التي سبقت من أول الباب إلى هنا رتبها الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ ترتيبًا موضوعيًا، فالآيات الأُوَل وجه الاستدلال فيها: أن الشفاعة مِلك لله، الآية الأولى والثانية، وأنه ليس لأحد شيء من الشفاعة، يعني: ليس أحد يملك شيئًا من الشفاعة، فإذا كان لا يملك إذًا من يشفع؟ كيف يشفع؟ يشفع بأن يُعطَى الشفاعة، يُؤذَن له بالشفاعة، يُكرَم بالشفاعة.

مَنْ يشفع هل يشفع استقلالًا؟ نفى شفاعة الاستقلال وأثبت الشفاعة بشرط وهو شرط الإذن والرضا.

إذا كان كذلك فمن الذي يُؤذن له؟ ومن الذي يُرضى له أن يشفع؟ ومن الذي يُرضى عنه أن يُشفَّع فيه، هذه ثلاثة أسئلة جوابها في كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ الذي سيأتي.

قَالَ أبُو العَبَّاسِ: فَنَفَى عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ، أَوْ قِسْطٌ مِنَ الْمُلْكِ، أَوْ يَكُونَ عَوْنًا لِلَّهِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ؛ فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا الْمُشْرِكُونَ؛ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا نَفَاهَا الْقُرْآنُ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلًا، فَإِذَا سَجَدَ وَحَمِدَ رَبَّهُ بِمَحَامِدَ يَفْتَحُهَا عَلَيْهِ؛ يُقَالُ لَهُ: «ارْفَعْ رَأْسَك، وَقُلْ تُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»[(١)].

وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ: «مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِك يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»[(٢)]، وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ الشَّافِعِ الَّذِي أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ، لِيُكْرِمَهُ بِذَلِكَ، وَيَنَالَ بِهِ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ، فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ مُطْلَقًا؛ مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ وَتِلْكَ مُنْتَفِيَةٌ مُطْلَقًا؛ وَلِهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ وَتِلْكَ قَدْ بَيَّنَ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ. انتهى[(٣)].

---

(١) كما في حديث الشفاعة الذي رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «... ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئاً لم يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ....».

(٢) سبق تخريجه (ص٥٠).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٧٧-٧٩).

....

ش: قوله: (قَالَ أَبُو العَبَّاسِ). هذه كنية شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن تيمية الحراني إمام المسلمين رحمه الله.

قوله: (وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ... إلى آخره). هذا الحديث رواه البخاري والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه (١).

ورواه أحمد وصححه ابن حبان وفيه «وَشَفَاعَتِي لِمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصًا يُصَدِّقُ قَلْبُهُ لِسَانَهُ وَلِسَانُهُ قَلْبَهُ»(٢).

وشاهده في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَأَنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يوم الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إن شَاءَ الله من مَاتَ من أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شيئًا»(٣).

وقد ساق المصنف رحمه الله كلام شيخ الإسلام هنا، فقام مقام الشرح والتفسير لما في هذا الباب من الآيات، وهو كاف واف بتحقيق مع الإيجاز. والله أعلم.

وقد عرف الإخلاص بتعريف حسن فقال: الإخلاص محبة الله وحده وإرادة وجهه(٤).

وقال ابن القيم رحمه الله في معنى حديث أبي هريرة رضي الله عنه: تأمل هذا

---

(١) أخرجه البخاري (٩٩، ٦٥٧٠)، والنسائي (٩/ ٤٨٣).
(٢) أخرجه أحمد (١٣/ ٤٣٢)، وابن حبان (٨/ ١٣١).
(٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٤) مختصرًا، وأخرجه مسلم (١٩٩) بلفظه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٨٩).

....

الحديث، كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين أن الشفاعة تنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم، فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد، فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع. ومن جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذه وليًا أو شفيعًا أنه يشفع له، وينفعه عند الله؛ كما يكون خواص الولاة والملوك تنفع من والاهم، ولم يعلموا أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه في الشفاعة، ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضى قوله وعمله؛ كما قال في الفصل الأول: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وفي الفصل الثاني: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ وبقى فصل ثالث، وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا توحيده واتباع رسولن ﷺ. فهذه ثلاثة فصول تقطع شجرة الشرك من قلب من عقلها ووعاها. ا.هـ[١].

وذكر أيضًا رحمه الله أن الشفاعة ستة أنواع:

الأول: الشفاعة الكبرى، التي يتأخر عنها أولو العزم - عليهم الصلاة والسلام - حتى ظتنتهي إليه ﷺ، فيقول: أنا لها. وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم إلى ربهم؛ حتى يريحهم من مقامهم في الموقف[٢].

وهذه شفاعة يختص بها لا يشاركه فيها أحد.

---

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٣٤١).

(٢) سبق تخريجه (ص٦٠).

....

الثاني: شفاعته لأهل الجنة في دخولها. وقد ذكرها أبو هريرة رضي الله عنه في حديثه الطويل المتفق عليه[(١)].

الثالث: شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار بذنوبهم، فيشفع لهم أن لا يدخلوها.

الرابع: شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم[(٢)]، والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ. وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة، وبدَّعوا من أنكرها، وصاحوا به من كل جانب، ونادوا عليه بالضلال.

الخامس: شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم، وهذه مما لم ينازع فيها أحد[(٣)].

وكلها مختصة بأهل الإخلاص الذين لم يتخذوا من دون الله وليًا ولا شفيعًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

السادس: شفاعته في بعض أهل الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه، وهذه خاصة بأبي طالب وحده.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢-٦٥٦٠)، ومسلم (١٨٤)، وفيه: «فَيَخْرُجُونَ مِنْ النَّارِ قَدْ امْتَحَشُوا، فَيُصَبُّ عليهم مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ كما تَنْبُتُ الْحِبَّةُ في حَمِيلِ السَّيْلِ».

(٣) انظر: حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (٧/ ١٣٤) مع مختصر المنذري، قال: والنوع الثاني: شفاعته ﷺ لقوم من المؤمنين في زيادة الثواب ورفعة الدرجات، وهذا قد يستدل عليه بدعاء النبي ﷺ لأبي سلمة رضي الله عنه، وقوله: «اللهم اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ». وقوله في حديث أبي موسى رضي الله عنه: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أَبِي عَامِرٍ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ».

الشرح:

قال المصنف رحمه الله: (قَالَ أَبُو العَبَّاسِ: فَنَفَى عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ، أَوْ قِسْطٌ مِنَ الْمُلْكِ، أَوْ يَكُونَ عَوْنًا لِلَّهِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ؛ فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا الْمُشْرِكُونَ؛ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا نَفَاهَا الْقُرْآنُ، . . .) منتفية يوم القيامة يعني: عن جميع الخلق إلا لمن أثبت الله عز وجل له الاستحقاق، أو أن يكون نائلًا تلك الشفاعة، فالأصل أنْ لا شفاعة إلا لمن رضي الله قوله أو أذن له عز وجل .

قال: (. . وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ) قول الشيخ رحمه الله: (فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا الْمُشْرِكُونَ؛ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا نَفَاهَا الْقُرْآنُ) يعني: منتفية بدون شروط؛ لأن المشركين يعتقدون أنها تحصل بدون إذن من الله ولا رضا؛ لأن الشافع عندهم يملك الشفاعة، ولكن هي تحصل بالشرط؛ كما أثبت ذلك الكتاب والسنة.

قال: (. . وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلًا، فَإِذَا سَجَدَ وَحَمِدَ رَبَّهُ بِمَحَامِدَ يَفْتَحُهَا عَلَيْهِ؛ يُقَالُ لَهُ: «ارْفَعْ رَأْسَك، وَقُلْ تُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»)[١].

وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ: «يا رَسُولَ اللَّهِ من أَسْعَدُ الناس بِشَفَاعَتِكَ يوم الْقِيَامَةِ؟» فقال ﷺ: «أَسْعَدُ الناس بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ»[٢]، فالدليل الأول من السنة في أن النبي ﷺ

(١) سبق تخريجه (ص٦٠).
(٢) سبق تخريجه (ص٥٠).

- وهو سيد ولد آدم - لا يشفع حتى يُؤذَن له: «ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ» هذا في دليل الإذن، من الذي يُؤذَن له؟ يؤذن للنبي ﷺ، ويؤذَن لغيره، لا يبتدئون، وإنما يستأذنون في الشفاعة، فيُؤذَن لهم، لِمَ؟ لأنهم لا يملكونها، وإنما الذي يملكها عند الله إنما هو الله عز وجل.

من الذي يُؤذَن في الشفاعة فيه؟ من الذي يُرضَى عنه في الشفاعة؟ جاء في الحديث الآخر حيث قال أبو هريرة رضي الله عنه للنبي ﷺ: «يا رَسُولَ اللَّهِ من أَسْعَدُ الناس بِشَفَاعَتِكَ يوم الْقِيَامَةِ؟» فقال ﷺ: «أَسْعَدُ النَّاسَ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»، فهذا الذي يُرضَى عنه، فيُشفَع فيه بعد إذن الله عز وجل، هو صاحب الإخلاص، هم أهل التوحيد. فإذًا تلك الشفاعة منتفية عن أهل الشرك؛ لهذا قال: (وَلِهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ وَتِلْكَ قَدْ بَيَّنَ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ)، فإذا كان كذلك، فيكون الذي توجَّه إلى الموتى، إلى الرسل، أو إلى الأنبياء، أو إلى الصالحين، أو إلى الطالحين، يطلب منهم الشفاعة، فإنه مشرك؛ لأنه توجَّه بالدعاء لغير الله، وأولئك لا يملكون الشفاعة، وإنما يشفعون بعد الإذن والرضا، والرضا يكون عن أهل التوحيد، وأهل التوحيد هم الذين لا يسألون الشفاعة أحدًا من الموتى.

فإذًا كل من سأل ميتًا الشفاعة، فقد حَرَم نفسه الشفاعة؛ لأنه أشرك بالله عز وجل، والشفاعة المثبتة إنما هي لأهل الإخلاص ليس لأهل الشرك فيها نصيب.

(وَحَقِيقَتُهُ): يعني حقيقة الشفاعة.

(وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ الشَّافِعِ الَّذِي أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ، لِيُكْرِمَهُ بِذَلِكَ، وَيَنَالَ

بِهِ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ) هذا في حقيقة الشفاعة، فإننا ذكرنا أن الشفاعة نُفِيَ أن يملكها أحد إلا الله عز وجل: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] اللام هذه لام الملك، يعني: الذي يملك الشفاعة هو الله عز وجل، وقال: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١]، فإن الشفاعة إنما هي لله عز وجل، وجاء في الأدلة أن الشفاعة منفية عن المشركين، وأن الشفاعة النافعة إنما هي لأهل الإخلاص بشرطين: الإذن، والرضا.

إذا تقرر ذلك، فما حقيقة الشفاعة؟ يعني: ما حقيقة حصولها؟ وكيف تحصل؟

الجواب: في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قوله: (وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ) يعني: أن الذين شُفِعَ لهم إنما ذلك بتفضل الله عز وجل عليهم، وهم أهل الإخلاص؛ حيث جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «أَسْعَدُ الناس بِشَفَاعَتِي يوم الْقِيَامَةِ من قال لَا إِلَهَ إلا الله خَالِصًا من قَلْبِهِ أو نَفْسِهِ»، فأهل الإخلاص هم الذين يكرمهم الله بالشفاعة، فالمتفضل بالشفاعة هو الله عز وجل، فإذا ثبت ذلك، انقطع القلب من التعلق بغير الله لأجل الشفاعة، فإن الذين توجهوا إلى المعبودات المختلفة - إلى الأولياء، إلى الصالحين، إلى الملائكة، إلى غير ذلك -، توجهوا إليهم رجاء الشفاعة؛ كما قال عز وجل عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فإذًا بطل أن تكون لهم الشفاعة، وثبت أن المتفضل بالشفاعة هو الله عز وجل، فإن الله عز وجل إنما يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة من دعا، بواسطة دعاء الذي أذن له أن يشفع.

وها هنا سؤال: لِم لم يتفضل الله عليهم أن غفر لهم بدون واسطة الشفاعة؟

والجواب عن ذلك: ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هنا بقوله:

(ليكرمه)، فهو إظهار فضل الشافع، إظهار إكرام الله ﷻ للشافع في ذلك المقام إذ - كما هو معلوم - إن الشافع الذي قُبِلت شفاعته ليس في المقام مثل المشفوع له، فالله ﷻ يُظهِر إكرامه لمن أذن له أن يشفع، ويُظهِر رحمته بالشافع؛ لأن الشافع له قرابة يريد أن يشفع لهم، له أحباب يريد أن يشفع لهم؛ لذلك الشفاعة يوم القيامة لأهل الكبائر ليست خاصة بالنبي ﷺ، بل يشفع الأنبياء، وتشفع الملائكة، ويشفع أيضًا الصالحون، فهذه شفاعات مختلفة في أهل الكبائر لإكرام الله (للشافع، ورحمة بالشافع، وأيضًا رحمة بالمشفوع له، وإظهار فضل الله ﷻ على الشافع والمشفوع له.

هذه هي حقيقة الشفاعة أن الله ﷻ يتفضل، فيقبل الشفاعة بإذنه، يتفضل على الشافع، ويكرمه بأن يشفع، يتفضل ويرحم المشفوع له، فيقبل الشفاعة. فإذًا هي كلها دالة - لمن كان له قلب - على عظم الله ﷻ وتفرده بالملك، وتفرده بتدبير الأمر، وأنه الذي يجير ولا يجار عليه ﷻ ، هو الذي له الشفاعة كلها، هو الذي له ملك الأمر كله، ليس لأحد منه شيء، وإنما يُظهِر فضله، ويُظهِر إحسانه، ويُظهِر رحمته، ويُظهِر كرمه لتتعلق القلوب به، فبطل إذًا أن يكون ثَمَّ تعلق للقلب بغير الله ﷻ لأجل الشفاعة.

فالذين تعلقوا بالأولياء، أو تعلقوا بالصالحين، أو بالأنبياء، أو بالملائكة لأجل الشفاعة، هذه هي حقيقة الشفاعة مِنْ أنها فضل من الله ﷻ وإكرام، فإذا كانت كذلك، وجب أن تتعلق القلوب به ﷻ في رجاء الشفاعة؛ إذ هوالمتفضل بها على الحقيقة، والعباد مُكرَمُون بها، لا يبتدئون بالقول، ولا يسبقون بالقول، وإنما يجلون، ويخافون، ويثنون على الله، ويحمدون، حتى يؤذَن لهم بالشفاعة.

(فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ مُطْلَقًا؛ مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ وَتِلْكَ مُنْتَفِيَةٌ مُطْلَقًا) التي نفاها القرآن في مثل قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

هذه شفاعة منفية، هي الشفاعة التي فيها شرك، كذلك الشفاعة للمشركين منفية؛ لأنهم لم يُرضَ عنهم، فالشفاعة التي فيها شرك من جهة الطلب، أو من جهة من سُئل له بأن كان ذلك مشركًا، فإنها منفية عن أهلها لا تنفعهم. فإذًا ثبت بذلك أن الذي هو حقيق بالشفاعة هو الذي أنعم الله عليه بالإخلاص، ووفَّقه لتعظيمه وتعليق القلب به وحده دون ما سواه.

فإذا كل مشرك الشرك الأكبر فالشفاعة عنه منفية؛ لأن الشفاعة فضل من الله لأهل الإخلاص.

أما الشفاعة المثبتة، فهي التي أُثبتت، يعني: جاء إثباتها بشرط الإذن والرضا.

قال شيخ الإسلام بعد ذلك: (وَلِهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ وَتِلْكَ قَدْ بَيَّنَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ) وهذه هي الشفاعة المثبتة: (وَلِهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ) يعني: بشرط الإذن، والإذن: إذن كوني، وإذن شرعي، فالمأذون له لا يمكن أن تحصل منه الشفاعة إلا أن يأذن الله له كونًا بأن يشفع، فإذا منعه الله كونًا أن يشفع، ما حصلت منه الشفاعة، ولا تحرَّك بها لسانه.

كذلك الإذن الشرعي في الشفاعة بأن تكون الشفاعة ليس فيها شرك، وأن يكون المشفوع له ليس من أهل الشرك، ويُخصُّ من ذلك أبو طالب؛ حيث يشفع له النبي ﷺ في تخفيف العذاب عنه، فهي شفاعة ليست في الانتفاع بالإخراج من النار، إنما هي في تخفيف العذاب، وهي خاصة بالنبي ﷺ بما أوحى الله عز وجل إليه وأذن له بذلك.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في آخر كلامه: (قَدْ بَيَّنَ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ) وهذه هي الشفاعة المثبتة، فتبين بهذا الباب أن الشفاعة التي تعلقت بها قلوب الخرافيين والمتعلقين بغير الله باطلة، وأن قولهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَٰؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ هذا قول باطل؛ إذ الشفاعة التي تنفع إنما هي لأهل الإخلاص، وما دام أنهم طلبوا الشفاعة من غير الله، فقد سألوا غير الله عَزَّ وَجَلَّ الشفاعة، وهذا مُؤْذِنٌ بحرمانهم من الشفاعة، فإنما هي لأهل الإخلاص.

وخلاصة الباب: أن تعلُّق أولئك بالشفاعة إنما هو عليهم، ليس لهم؛ لأنهم لما تعلقوا بالشفاعة حُرِمُوها؛ لأنهم تعلقوا بشيء لم يأذن الله عَزَّ وَجَلَّ به شرعًا، بأن استخدموا الشفاعات الشركية، وتوجَّهوا إلى غير الله، وتعلقت قلوبهم بغير الله.

فِيهِ مَسَائِلُ:

اَلْأُولَى: تَفْسِيرُ الْآيَاتِ.

الثَّانِيَةُ: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ الْمَنْفِيَّةِ.

الثَّالِثَةُ: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ الْمُثْبَتَةِ.

الرَّابِعَةُ: ذِكْرُ الشَّفَاعَةِ الْكُبْرَى، وَهِيَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ.

الْخَامِسَةُ: صِفَةُ مَا يَفْعَلُهُ ﷺ، وَأَنَّهُ لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلًا، بَلْ يَسْجُدُ، فَإِذَا أَذِنَ اللهُ لَهُ شَفَعَ.

السَّادِسَةُ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِهَا؟.

السَّابِعَةُ: أَنَّهَا لَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ.

الثَّامِنَةُ: بَيَانُ حَقِيقَتِهَا.

١٧ - بَابُ
قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

ش: سبب نزول هذه الآية موت أبي طالب على ملة عبد المطلب؛ كما سيأتي بيان ذلك في حديث الباب.

قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى لرسوله: إنك يا محمد لا تهدي من أحببت، أي: ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة؛ كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] (١).

قلتُ: والمنَفِيُّ هُنا هِدايةُ التوفيقِ والقبولِ، فإن أمر ذلك إلى الله، وهو القادر عليه. وأما الهداية المذكورة في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فإنها هداية الدلالة والبيان، فهو المبين عن الله والدال على دينه وشرعه.

الشرح:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن الهداية من أعز المطالب، وأعظم ما تعلق به الذين تعلقوا بغير الله أن يكون لهم النفع في الاستشفاع

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٢٤٦).

وفي التوجه في الدنيا وفي الآخرة، والنبي ﷺ - وهو سيد ولد آدم، وهو أفضل الخلق عند ربه عز وجل - نُفِيَ عنه أن يملك الهداية - وهي نوع من أنواع المنافع -، فدل على أنه ﷺ ليس له من الأمر شيء؛ كما جاء فيما سبق في (بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٢])[1] في سبب نزول قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فإذا كان النبي ﷺ ليس له من الأمر شيء، ولا يستطيع أن ينفع قرابته «وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»[2].

فإذا كان هذا في المصطفى ﷺ، وأنه لا يُغنِي من الله عز وجل عن أحبابه شيئًا، وعن أقاربه شيئًا، وأنه لا يملك شيئًا من الأمر، وأنه ليس بيده هداية التوفيق، فإنه أَنْ ينتفي ذلك وما دونه عن غير النبي ﷺ من باب أولى.

فبطل إذًا كُلُّ تعلق للمشركين من هذه الأمة بغير الله عز وجل ؛ لأن كل من تعلقوا به هو دون النبي ﷺ بالإجماع، فإذا كانت هذه حال النبي ﷺ وما نُفِي عنه، فإن نَفْي ذلك عن غيره ﷺ من باب أولى.

قال هنا: (بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾): ﴿لَا﴾ **هنا نافية، وقوله:** ﴿تَهْدِي﴾ الهداية المنفية هنا هي هداية التوفيق والإلهام الخاص والإعانة الخاصة، هي التي يسميها العلماء: هداية التوفيق والإلهام، ومعناها: أن الله عز وجل يجعل في قلب العبد من الإعانة الخاصة على قبول الهدى ما لا يجعله لغيره، فالتوفيق إعانة خاصة لمن أراد الله توفيقه بحيث يقبل الهدى ويسعى فيه، فَجَعْلُ هذا في القلوب

(١) انظر: (١/ ٥٦٢).
(٢) أخرجه البخاري (٢٧٥٣، ٣٥٢٧)، ومسلم (٢٠٤، ٢٠٦).

ليس إلى النبي ﷺ؛ إذ القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء، حتى مَنْ أحب لا يستطيع ﷺ أن يجعله مسلمًا مهتديًا، فمِنْ أنفعِ قرابته له أبو طالب، ومع ذلك لم يستطع أن يهديه هداية توفيق، فالمنفي هنا هو هداية التوفيق.

والنوع الثاني من الهداية المتعلقة بالمكلف: هداية الدلالة والإرشاد، وهذه ثابتة للنبي ﷺ بخصوصه، ولكل داعٍ إلى الله، ولكل نبي ورسول، قال عز وجل: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وقال عز وجل في نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، (لتهدي) يعني: لتدل وترشد إلى صراط مستقيم بأبلغ أنواع الدلالة، وأبلغ أنواع الإرشاد، الدلالة والإرشاد المؤيَّدَان بالمعجزات والبراهين الدالة على صدق ذلك الهادي وصدق ذلك المرشد.

فإذًا الهداية المنتفية هي هداية التوفيق، وهذا يعني: أن النفع وطلب النفع في هذه المطالب المهمة يجب أن يكون من الله عز وجل، وأن محمدًا ﷺ مع عظم شأنه عند ربه، وعظم مقامه عند ربه، وأنه سيد ولد آدم، وأنه أفضل الخلق ﷺ، وأشرف الأنبياء والمرسلين، إلا أنه لا يملك من الأمر شيئًا ﷺ.

فبطل إذًا تعلق القلوب في المطالب المهمة، في الهداية، وفي المغفرة، وفي الرضوان، وفي بعد الشرور، وفي جلب الخيرات، إلا بالله عز وجل؛ فإنه هو الذي تتعلق القلوب به عز وجل خضوعًا، وإنابة، ورغبًا، ورهبًا، وإقبالًا عليه، وإعراضًا عما سواه عز وجل.

في الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ المُسَيَّبِ عَنْ أبيهْ قَالَ: «لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبِ الْوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَام وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فقَالَ لَهُ: يَا عَمِّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أُحاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَقَالاَ لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَعَادَا: فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]»(١).

ش: قوله: (في الصَّحيحِ). أي: في الصحيحين.

و(ابْنِ المُسَيَّبِ) هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمر بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي المخزومي، أحد العلماء والفقهاء الكبار السبعة من التابعين. اتفق أهل الحديث على أن مراسيله أصح المراسيل.

وقال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علمًا منه. مات بعد التسعين، وقد ناهز الثمانين.

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠، ٣٨٨٤، ٤٦٧٥، ٤٧٧٢، ٦٦٨١)، ومسلم (٢٤).

....

وأبوه المسيب صحابي، بقي إلى خلافة عثمان ﷺ، وكذلك جده حزن، صحابي استشهد باليمامة.

قوله: «لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ». أي: علاماتها ومقدماتها.

قوله: «جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ». يحتمل أن يكون المسيب حضر مع الاثنين، فإنهما من بني مخزوم، وهو أيضًا مخزومي، وكان الثلاثة إذ ذاك كفارًا، فقتل أبو جهل على كفره، وأسلم الآخران.

قوله: «يَا عَمِّ» منادي مضاف يجوز فيه إثبات الياء وحذفها، حذفت الياء هنا، وبقيت الكسرة دليلًا عليها.

قوله: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» أمره أن يقولها؛ لعلم أبي طالب بما دلت عليه من نفي الشرك بالله وإخلاص العبادة له وحده.

فإن من قالها عن علم ويقين، فقد برىء من الشرك والمشركين، ودخل في الإسلام؛ لأنهم يعلمون ما دلت عليه، وفي ذلك الوقت لم يكن بمكة إلا مسلم أو كافر. فلا يقولها إلا من ترك الشرك، وبرىء منه.

ولما هاجر النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة كان فيها المسلمون الموحدون والمنافقون الذين يقولونها بألسنتهم، وهم يعرفون معناها، لكن لا يعتقدونها؛ لما في قلوبهم من العداوة والشك والريب، فهم مع المسلمين بظاهر الأعمال دون الباطن، وفيها اليهود، وقد أقرهم رسول الله ﷺ لما هاجر، ووادعهم بأن لا يظاهروا عليه عدوًا؛ كما هو مذكور في كتب الحديث والسير.

قوله: «كَلِمَةً» قال القرطبي: بالنصب على أنه بدل من لا إله إلا الله، ويجوز الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف.

. . . .

قوله: «أُحاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» هو بتشديد الجيم من المحاجة، والمراد بها بيان الحجة بها لو قالها في تلك الحال. وفيه دليل على أن الأعمال بالخواتيم؛ لأنه لو قالها في تلك الحال معتقدًا ما دلت عليه مطابقة من النفي والإثبات، لنفعته.

قوله: «فَقَالاَ لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟» ذكراه الحجة الملعونة التي يحتج بها المشركون على المرسلين؛ كقول فرعون لموسى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

قوله: «فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَعَادَا» فيه معرفتهما لمعنى لا إله إلا الله؛ لأنهما عرفا أن أبا طالب لو قالها، لبرىء من ملة عبد المطلب. فإن ملة عبد المطلب هي الشرك بالله في إلهيته. وأما الربوبية، فقد أقروا بها؛ كما تقدم.

وقد قال عبد المطلب لأبرهة: أَنَا رَبُّ الإبلِ، والبيتُ لَهُ رَبٌّ يَمْنَعَهُ مِنْكَ(١).

وهذه المقالة منهما عند قول النبي ﷺ لعمه: (قل: لا إله إلّا الله) استكبارًا عن العمل بمدلولها. كما قال الله تعالى عنهما وعن أمثالهما من أولئك المشركين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦]، فرد عليهم بقوله: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧].

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٩٠).

....

فبين تعالى أن استكبارهم عن قوله: لا إله إلا الله؛ لدلالتها على نفي عبادتهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله. فإن دلالة هذه الكلمة على نفي ذلك دلالة تضمن، ودلالتها عليه وعلى الإخلاص دلالة مطابقة.

ومن حكمة الرب تعالى في عدم هداية أبي طالب إلى الإسلام ليبين لعباده أن ذلك إليه، وهو القادر عليه دون من سواه، فلو كان عند النبي ﷺ - الذي هو أفضل خلقه - من هداية القلوب وتفريج الكروب، ومغفرة الذنوب، والنجاة من العذاب، ونحو ذلك شيء، لكان أحق الناس بذلك وأولاهم به عمه، الذي كان يحوطه، ويحميه، وينصره، ويؤويه، فسبحان من بَهَرت حكمتُه العقول، وأَرشد العباد إلى ما يدلهم على معرفته وتوحيده، وإخلاص العمل له وتجريده.

قوله: «فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ». الأحسن فيه الرفع على أنه اسم كان، وجملة هو وما بعدها الخبر.

قوله: «هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ». الظاهر أن أبا طالب قال: (أنا) فغيره الراوي استقباحًا للفظ المذكور، وهو من التصرفات الحسنة، قاله الحافظ[1].

قوله: «وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». قال الحافظ: هذا تأكيد من الراوي في نفي وقوع ذلك من أبي طالب.

قال المصنف رحمه الله: وفيه الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه ومضرة أصحاب السوء على الإنسان، ومضرة تعظيم الأسلاف.

(١) انظر: فتح الباري (٨/ ٥٠٧).

....

أي: إذا زاد على المشروع، بحيث تجعل أقوالهم حجة يرجع إليها عند التنازع.

قوله: «فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ».

قال النووي: وفيه جواز الحلف من غير استحلاف. وكان الحلف هنا لتأكيد العزم على الاستغفار تطييبًا لنفس أبي طالب.

وكانت وفاة أبي طالب بمكة قبل الهجرة بقليل.

قال ابن فارس: مات أبو طالب ولرسول الله ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يومًا.

وتوفيت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها بعد موت أبي طالب بثمانية أيام.

قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣] الآية. أي: ما ينبغي لهم ذلك. وهو خبر بمعنى النهي، والظاهر أن هذه الآية نزلت في أبي طالب. فإن الإتيان بالفاء المفيدة للترتيب في قوله: فأنزل الله بعد قوله: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ» يفيد ذلك.

وقد ذكر العلماء أن نزول الآية الثانية واضح في قصة أبي طالب. وأما نزول الآية التي قبلها، ففيه نظر، ويظهر أن المراد أن الآية المتعلقة بالاستغفار نزلت بعد أبي طالب بمدة، وهي عامة في حقه وحق غيره، ويوضح ذلك ما يأتي في التفسير، فأنزل الله بعد ذلك: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] الآية. ونزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

....

كله ظاهر في أنه مات على غير الإسلام. ويضعف ما ذكره السهيلي أنه روى في بعض كتب (المسعودي) أنه أسلم؛ لأن مثل ذلك لا يعارض ما في الصحيح. انتهى.

وفيه تحريم الاستغفار للمشركين وموالاتهم ومحبتهم؛ لأنه إذا حرم الاستغفار لهم، فموالاتهم ومحبتهم أولى.

الشرح:

في هذا القدر من الفائدة أَنَّ هذه الكلمةَ كلمةَ (لا إله إلا الله) ليست كلمةً مجردةً عن المعنى، تنفع من قالها، ولو لم يُقرَّ بمعناها، والعرب كانوا لصلابتهم، وعزتهم، ورجولتهم، ومعرفتهم بما يقولون، كانوا إذا تكلموا بكلام، يعون ما يتكلمون به، يعون كل حرف، وكل كلمة خوطبوا به، أو نطقوا به هم، فلما قيل لهم: قولوا: لا إله إلا الله. مع أنها كلمة يسيرة لكن أبوا؛ لأنهم يعلمون أن هذه الكلمة معناها: إبطال إلهة من سوى الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ في سورة الصافات: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصافات: ٣٥-٣٧]، وكذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن قولهم في أول سورة ص: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، استنكروا (لا إله إلا الله)، وهذا هو الذي حصل مع أبي طالب؛ حيث قال له النبي ﷺ: «**قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ**»، فلو كانت مجردة من المعنى عندهم، أو يمكن أن يقولها دون اعتقاد ما

فيها، ورضىً بما فيها ويقين وانتفاء الريب لقالها، ولكن ليس هذا هو المقصود من قول: (لا إله إلا الله) بل المقصود هو قولها مع تمام اليقين بها، وانتفاء الريب، والعلم، والمحبة، إلى آخر الشروط.

«فَقَالاَ لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟»، وهذا فيه - والعياذ بالله - ضَرَرُ جليسِ السوءِ على المُجَالسِ له.

«فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»، وهذا موطن الشاهد من هذا الحديث، فمناسبة هذا الحديث لهذا الباب أن النبي ﷺ قال: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ»، واللام هنا هي التي تقع في جواب القسم، فثَمَّ قسم مقدَّر، تقديره: والله لأستغفرن لك، وحصل من النبي ﷺ أن استغفر لعمِّه، ولكن هل نفع عمَّه استغفارُ النبي ﷺ له؟ لم ينفعه ذلك.

وطلب الشفاعة والاستشفاع هو من جنس طلب المغفرة، فالاستغفار طلب المغفرة، والشفاعة قد يكون منها طلب المغفرة، فرُدَّ ذلك؛ لأن المطلوب له، المستشفَع له هومشرك؛ لأن المشفوع له مشرك بالله، والاستغفار والشفاعة لا تنفع أهل الشرك، والنبي ﷺ لايملك أن ينفع مشركًا بمغفرة ذنوبه، أو أن ينفع أحدًا ممن توجَّه إليه بشرك في إزالة ما به من كربات أو جلب الخيرات له؛ لهذا قال: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وهذا ظاهر في المقام أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ نهى النبي ﷺ أن يستغفر للمشركين.

كلمة ﴿مَا كَانَ﴾ في الكتاب والسنة تأتي على استعمالين:

الاستعمال الأول: النهي.

والاستعمال الثاني: النفي.

النهي: مثل هذه الآية، وهي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ هذا نهيٌ عن الاستغفار لهم، وكذلك قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]، والنفي كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، نحو ذلك من الآيات.

فإذًا: (ما كان) في القرآن تأتي على هذين المعنيين، وهنا المراد بها: النهي، نهي أن يستغفر أحد لمشرك، وإذا كان كذلك، فالميت الذي هو من الأولياء، من الأنبياء، من الرسل، فإذا نُهِي في الحياة الدنيا أن يستغفر لمشرك، فهو أيضًا لو فُرِضَ أنه يقدر على الاستغفار في حال البرزخ، فإنه لن يستغفر لمشرك، ولن يسأل الله لمشرك توجَّه إليه بالاستشفاع، أو توجه إليه بالاستغاثة، أو بالذبح، أو بالنذر، أو تألهه، أو توكل عليه، أو أنزل به حاجاته من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

قال: «وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]».

فِيهِ مَسَائِلُ:

اَلْأُولَى: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ اَلْآيَةُ.

الثَّالِثَةُ: وَهِيَ الْمَسْأَلَةُ الْكُبْرَى، تَفْسِيرُ قَوْلِهِ ﷺ: «قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ مَنْ يَدَّعِي الْعِلْمَ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَمَنْ مَعَهُ يَعْرِفُونَ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ قَالَ لِلرَّجُلِ: «قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» فَقَبَّحَ اللهُ مَنْ أَبُو جَهْلٍ أَعْلَمُ مِنْهُ بِأَصْلِ الْإِسْلَامِ.

الْخَامِسَةُ: جِدُّهُ ﷺ وَمُبَالَغَتُهُ فِي إِسْلَامِ عَمِّهِ.

السَّادِسَةُ: الرَّدُ عَلَى مَنْ زَعَمَ إِسْلَامَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَسْلَافِهِ.

السَّابِعَةُ: كَوْنُهُ ﷺ اسْتَغْفَرَ لَهُ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، بَلْ نُهِيَ عَنْ ذَلِكَ.

الثَّامِنَةُ: مَضَرَّةُ أَصْحَابِ السُّوءِ عَلَى الْإِنْسَانِ.

التَّاسِعَةُ: مَضَرَّةُ تَعْظِيمِ الْأَسْلَافِ وَالْأَكَابِرِ.

الْعَاشِرَةُ: الشُّبْهَةُ لِلْمُبْطِلِينَ فِي ذَلِكَ، لِاسْتِدْلَالِ أَبِي جَهْلٍ بِذَلِكَ.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الشَّاهِدُ لِكَوْنِ الْأَعْمَالِ بِالْخَوَاتِيمِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَهَا لَنَفَعَتْهُ.

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: التَّأَمُّلُ فِي كِبَرِ هَذِهِ الشُّبْهَةِ فِي قُلُوبِ الضَّالِينَ؛ لِأَنَّ فِي الْقِصَّةِ أَنَّهُمْ لَمْ يُجَادِلُوهُ إِلَّا بِهَا، مَعَ مُبَالَغَتِهِ ﷺ وَتَكْرِيرِهِ، فَلِأَجْلِ عَظَمَتِهَا وَوُضُوحِهَا عِنْدَهُمْ، اقْتَصَرُوا عَلَيْهَا.

١٨ - بَابُ
مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفرِ بَنِي آدمَ وَتَرْكِهِمْ دينَهم هُوَ الغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ

ش: قوله: (بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفرِ بني آدمَ وَتَرْكِهِمْ دينَهم هُوَ الغُلُوُّ في الصَّالِحِينَ).

قوله: (وَتَرْكِهِمْ) بالجر عطفًا على المضاف إليه. وأراد المصنف رحمه الله بيان ما يؤول إله الغلو في الصالحين من الشرك بالله في الإلهية الذي هو أعظم ذنب عصي الله به، وهو ينافي التوحيد الذي دلت عليه كلمة الإخلاص: شهادة أن لا إله إلى الله.

الشرح:

هذا: (بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفرِ بني آدمَ وَتَرْكِهِمْ دينَهم هُوَ الغُلُوُّ في الصَّالِحِينَ).

هذا الباب جاء بعد الأبواب قبله من أول الكتاب إلى هنا، والشيخ رحمه الله فيما سبق بيَّن أصولًا عظيمة، بيَّن شيئًا من البراهين على التوحيد، وبيَّن ما يتعلق به المشركون، وأبطل أصول اعتقادهم بالشريك، أو الظهير، أو الشفيع، ونحو ذلك.

فإذا كان هذا الاعتقاد مع ما أُورِد من النصوص بهذه المثابة من الوضوح والبيان، وأن النصوص دالة على ذلك دلالة واضحة، فكيف إذًا دخل الشرك؟ كيف صار الناس إلى الشرك بالله عز وجل والأدلة على انتفائه

وعلى عدم جوازه وعلى بطلانه واضحة ظاهرة، وأن الرسل جميعًا بعثت ليعبد الله وحده دون ما سواه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]؟ فما سبب الغواية؟ ما سبب الشرك؟ هذا الذي بُين من أوضح الواضحات، الأبواب السالفة دالة بظهور ووضوح على إحقاق عبادة الله وحده، وعلى إبطال عبادة كل من سوى الله - جل جلاله وتقدست أسماؤه -، فإذًا ما سبب وقوع الشرك؟ كيف وقع الشرك في الأمم؟ جاء الشيخ رحمه الله بهذا الباب وما بعده ليبين أن سبب الشرك وسبب الكفر هو الغلو الذي نهى الله عز وجل عنه، ونهى عنه رسوله ﷺ سواء في هذه الأمة أو في الأمم من قبل، فسبب وقوع الكفر والشرك هو الغلو في الصالحين، هذا أحد أسباب وقوع الكفر والشرك، بل هو سببها الأعظم.

قال هنا: (**بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفرِ بني آدمَ وَتَرْكِهِمْ دينَهم هُوَ الغُلُوُّ في الصَّالِحِينَ**) هذا ذِكْرٌ للأسباب بعد ذكر الأصول والعقائد.

قوله: (**هُوَ الغُلُوُّ في الصَّالِحِينَ**) الغلو: مأخوذ من غلا في الشيء، يغلو، غلوًا إذا جاوز به حده[1]، وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ لما رمى الجمرات بحصيات قال: «**بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ فَارْمُوا، وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ**»[2] يعني: مجاوزة الحد حتى في حجم تلك الحصاة، وفي مقدار الحصا، قال: «**بِأَمْثَالِ هَؤُلاءِ، فَارْمُوا**»، فإذا جاوز في المثلية بأن رمى بكبيرة، فإنه قد غلا، يعني: جاوز الحد الذي حُدَّ له في ذلك، فإذًا الغلو هو: مجاوزة الحد.

---

(١) انظر: لسان العرب (١٥/ ١٣٢)، وتهذيب اللغة (٨/ ١٦٧)، ومقاييس اللغة (٤/ ٣٨٨).
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٤٧)، والنسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال هنا: (الغُلُوُّ في الصَّالحِينَ) معناه: أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم الذي أمرهم الله به هو مجاوزة الحد الذي أذن به في الصالحين، والصالحون يشمل: الأنبياء والرسل، ويشمل أيضًا الأولياء، ويشمل كل من اتصف بالصلاح في الأمم.

وأصل كلمة (الصالحين) أصلها جمع (الصالح) والصالح: هو اسم من قام به الصلاح، والصلاح في الكتاب والسنة تارة يكون بمعنى نفي الفساد، ما يقابل الفساد، وتارة يكون بمعنى ما يقابل السيئات، فيُقال: صالح بمعنى: ليس بذي فساد، ويقال أيضًا: صالح بمعنى: ليس بسيء، فهذا جاء وهذا جاء.

والصالحون هنا المراد بهم: أهل الصلاح، يعني: أهل الطاعة والإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، الذين اجتنبوا الفساد، واجتنبوا السيئات، وهم الذين اشتركوا في فعل الطاعات وترك المحرمات، أو كانوا من السابقين بالخيرات، فاسم الصالح يقع شرعًا على المقتصد، وعلى السابق بالخيرات، فالمقتصد صالح، والسابق بالخيرات صالح، وكلٌّ درجات عند الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: (هُوَ الغُلُوُّ في الصَّالحِينَ) يعني: مجاوزة الحد في الصالحين، ما هو الحد الذي أذن به الشرع في الصالحين حتى نعلم ما الذي يكون مجاوزة له؟ الصالحون أذن في حقهم بأن يُحبُّوا في الله، وأن يُوقَّروا في الله، وأن يُقتدَى بهم في صلاحهم، وفي علمهم، وإذا كانوا من الرسل والأنبياء، فإنهم يُؤخَذ بشرائعهم وبما أمروا به، ويُتَّبع ذلك، ويُقتدَى بآثارهم، هذا هو الحد الذي أذن به: احترام، ومحبة، وموالاة لهم، ودفع عنهم، ونصرة لهم، ونحو ذلك من المعاني، أما الغلو فيهم بأن يُجاوَز ذلك الحد، فهو بَحرٌ لا ساحل له، فمما حصل من الغلو فيهم أنهم جُعلَت فيهم خصائص الإلهية،

جُعِلَ في بعض البشر أنه يعلم سر اللوح والقلم، وأنه من جوده الدنيا وضُرَّتها؛ كما قال البوصيري في منظومته الميمية المعروفة[(١)]:

فإنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيا وضَرَّتِهَا وَمَنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوحِ وَالقَلَمِ[(٢)]

وهذا ليس إلا لله عَزَّوَجَلَّ، هذا من الغلو المنهي عنه، كذلك قوله في النبي ﷺ غاليًا فيه أعظم الغلو قال[(٣)]:

لو نَاسَبَتْ قَدْرَهُ آياتُهُ عِظَمًا أَحْيَا اسْمُهُ حِينَ يُدْعَى دَارِسَ الرَّمَمِ

يقول: إن النبي ﷺ لم يُعطَ آية تناسب قدره، قال الشُّرَّاح: حتى القرآن لا يناسب قدر النبي ﷺ - والعياذ بالله - يقولون: القرآن المتلو بخلاف غير المتلو عند الأشاعرة؛ لأنهم يفرقون بين هذا وهذا.

فهذا البويصري يغلو ويقول:

لو نَاسَبَتْ قَدْرَهُ - يعني: النبي ﷺ - **آياتُهُ عِظَمًا** - يعني: في العظمة -

.... **أَحْيَا اسْمُهُ حِينَ يُدْعَى دَارِسَ الرَّمَمِ**

لكان لا يناسب قدره إلا إذا ذُكِراسمه على ميت قد دَرَسَ، وذهب رميمه في الأرض، وذهبت عظامه، لتجمَّعت هذه العظام وحَيت؛ لأجل ذكر اسم النبي ﷺ عليه، وهذا من أنواع الغلو الذي يحصل من الذين يعبدون غير الله عَزَّوَجَلَّ، ويتوجهون إلى الأنبياء والرسل، ويجعلون في حقهم

---

(١) هي قصيدة البردة المعروفة في مائة واثنين وستين بيتًا، الموسومة بـ(الكواكب الدرية في مدح خير البرية، نظمها شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد الدولاصي ثم البوصيري، المتوفى سنة أربع وتسعين وستمائة. انظر: كشف الظنون (٢/ ١٣٣١)، وفوات الوفيات للكتبي(٣/ ٣٦٢)، وشذرات الذهب لابن العماد (٥/ ٤٣٢).

(٢) انظر: ديوان البوصيري (ص٢٥٢).

(٣) انظر: ديوان البوصيري (ص٢٤١).

من خصائص الألوهية ما لا إذن لهم به، بل هو من الشرك الأكبر بالله عَزَّوَجَلَّ ، ومن سوء الظن بالله، ومن تشبيه المخلوق بالخالق، وهذا كفر والعياذ بالله عَزَّوَجَلَّ .

ويقابل ذلك أن هناك حدٌّ مأذون به، وهناك غُلُوٌّ، والحالة الثالثة: الجفاء، الجفاء في حق الصالحين، وهذا بعدم موالاتهم، وعدم احترامهم، وعدم إعطائهم حقهم، وترك محبة الصالحين، فكل تقصير في الأمر يعدُّ جفاء، وكل زيادة فيه يعدُّ غلوًا.

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النساء: ١٧١].

ش: قوله: (**وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى:** ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النساء: ١٧١]) **الغلو هو: الإفراط في التعظيم بالقول والاعتقاد، أي: لا ترفعوا المخلوق عن منزلته التي أنزله الله، فتنزلوه المنزلة التي لا تنبغي إلا لله.**

والخطاب وإن كان لأهل الكتاب فإنه عام يتناول جميع الأمة، تحذيرًا لهم أن يفعلوا بنبيهم ﷺ فعل النصارى في عيسى، واليهود في العزير؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، **ولهذا قال النبي ﷺ: «لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ»[1] . ويأتي.**

فكل من دعا نبيًا أو وليًا من دون الله فقد اتخذ إلهًا، وضاهأ النصارى في شركهم، وضاهأ اليهود في تفريطهم. فإن النصارى غلوا في عيسى عليه السلام، واليهود عادوه وسبوه وتنقصوه. فالنصارى أفرطوا، واليهود فرطوا.

وقال تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥، ٦٨٣٠)، ومسلم (١٦٩١).

....

﴿ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، ففي هذه الآية وأمثالها الرد على اليهود والنصارى.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: ومن تشبه من هذه الأمة باليهود والنصارى، وغلا في الدين، فإفراط فيه أو تفريط، فقد شابههم. قال: وعلي رضي الله عنه حرق الغالية من الرافضة، فأمر بأخاديد خدت لهم عند باب كندة، فقذفهم فيها. واتفق الصحابة على قتلهم. لكن ابن عباس مذهبه أن يقتلوا بالسيف من غير تحريق. وهو قول أكثر العلماء[1].

الشرح:

قوله: (**وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى**: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

مناسبته للباب ظاهرة: وهي أنه نهى أهل الكتاب عن الغلو، فقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ ووجه الاستدلال: أنه قال: ﴿لَا تَغْلُوا۟﴾، و(تغلوا) فعل جاء في سياق النهي، وهذا يعم جميع أنواع الغلو في الدين: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ يعني: لا تغلوا بأي نوع من أنواع الغلو في الدين، فنُهوا عن أي نوع من أنواع الغلو، هذا موطن الشاهد ووجه الاستدلال من الآية على الحديث، وإذا كان كذلك، دخل في هذا العموم الغلو في الصالحين.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٧٠، ٣٩٤).

والمتأمل لحال أهل الكتاب ولما قَصَّ الله عَزَّوَجَلَّ من أخبارهم يجد أنهم قد غلوا في صالحيهم، قد غلا النصارى في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وفي أمه وفي حوارييه، وقد غلا اليهود أيضًا في عزير عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي أصحاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي أحبارهم وفي رهبانهم، وهكذا، فحصل الغلو في أهل الكتاب تارة بأن جَعَلوا الرسل والأنبياء لهم خصائص الألوهية من جهة التوجُّه لهم، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٢-٧٣]، وفي آخر سورة المائدة أيضًا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧] يعني: تنزيهًا وتعظيمًا لك أن أقول لهم ذلك، وذلك من الشرك، فكيف أقول لهم ذلك؟! وهذا كله في التوحيد، فحصل أن غَلا أتباع الرسل وأتباع الأنبياء في الأنبياء والرسل، وغلوا أيضًا في الصالحين من أتباعهم، وجعلوا لهم بعض خصائص الإلهية، جعلوا لهم الشفاعة، جعلوا لهم أنَّ لهم نصيبًا من الملك، أو أنهم يدبرون الأمر، أو أنهم يصرفون شيئًا من الملكوت، فيعتقد الآن بعض الصوفية أن للكون أقطابًا أربعة، وربما في ربع العالم المسؤول عنه فلان، وفي الربع الثاني المسؤول عنه فلان، إلى آخره، فجلعوا لهم نصيبًا من

الملك، جعلوا لهم نصيبًا من الربوبية، وجعلوا لهم أيضًا نصيبًا من الإلهية، فتقربوا إليهم بأنواع القربات: من الذبح، والاستغاثة، والتذلل، والخضوع، والمحبة، والتوكل، والرَّغب، والرهب، وخوف السر، إلى آخر أنواع العبادات القلبية والعملية.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ عَبَاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]. **قَالَ: «هذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ، أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَنُسِيَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ»**(١).

ش: قوله: (وفي الصَّحِيحِ) أي: صحيح البخاري.

وهذا الأثر اختصره المصنف. ولفظ ما في البخاري: عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعْدُ أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ، عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الكَلَاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، . . . » إلى آخره.

وروى عكرمة والضحاك وابن إسحاق نحو هذا.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد قال: حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس أن يغوث ويعوق ونسرًا كانوا قومًا صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم. فلما ماتوا، قال أصحابهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).

....

دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر. فعبدوهم[١].

قوله: «أَنِ انْصِبُوا» هو بكسر الصاد المهملة.

قوله: «أَنْصَابًا» جمع نصب، والمراد به هنا: الأصنام المصورة على صور أولئك الصالحين، التي نصبوها في مجالسهم، وسموها بأسمائهم. وفي سياق حديث ابن عباس ما يدل على أن الأصنام تسمى أوثانًا. فاسم الوثن يتناول كل معبود من دون الله، سواء كان ذلك المعبود قبرًا، أو مشهدًا، أو صورة، أو غير ذلك.

قوله: «حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ» أي: الذين صوروا تلك الأصنام.

قوله: «وَنُسِيَ العِلْمُ عُبِدَتْ»، ورواية البخاري «وَتَنَسَّخَ العِلْمُ» وللكشميهني «ونُسِخَ العِلْمُ» أي: درست آثاره بذهاب العلماء، وعم الجهل حتى صاروا لا يميزون بين التوحيد والشرك، فوقعوا في الشرك ظنًّا منهم أنه ينفعهم عند الله.

قوله: «عُبِدَتْ» لما قال لهم إبليس: إن من كان قبلكم كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر. هو الذي زين لهم عبادة الأصنام وأمرهم بها، فصار هو معبودهم في الحقيقة؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: ٦٠-٦٢]، وهذا يفيد الحذر من الغلو ووسائل الشرك، وإن كان القصد بها حسنًا.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ٩٨).

....

فإن الشيطان أدخل أولئك في الشرك من باب الغلو في الصالحين والإفراط في محبتهم؛ كما قد وقع مثل ذلك في هذه الأمة، أظهر لهم الغلو والبدع في قالب تعظيم الصالحين ومحبتهم؛ ليوقعهم فيما هو أعظم من ذلك، من عبادتهم لهم من دون الله.

وفي رواية أنهم قالوا: ما عظم أولنا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله، أي: يرجون شفاعة أولئك الصالحين الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم، وسموها بأسمائهم.

ومن هنا يعلم أن اتخاذ الشفعاء ورجاء شفاعتهم بطلبها منهم شرك بالله؛ كما تقدم بيانه في الآيات المحكمات.

الشرح:

هذا الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما محمول على الرفع؛ لأن هذ خبر غيبي، وهذا الخبر الغيبي فيه أنه لا يُستقى إلا من مشكاة النبوة، و(ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر) هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام.

نوح عليه السلام أتى بالرسالة بأن يُعبَد الله وحده دون ما سواه، بالتوحيد، فكيف دخل الشرك في قوم نوح؟ في القرآن ذِكْرٌ لأصلين من أصول الشرك، وثمَّ غيرهما أيضًا:

الأصل الأول: شرك قوم نوح عليه السلام.

والأصل الثاني: شرك قوم إبراهيم عليه السلام، وشرك قوم نوح عليه السلام كان بالغلو في الصالحين وأرواح الصالحين، فجاءهم الشيطان من جهة روح

ذلك العبد الصالح وأثر تلك الروح، وأنَّ من تعلَّق به، فإنه يشفع له، ثم ساقهم من ذلك التعظيم إلى الصور والأنصاب والأوثان والأصنام.

والنوع الثاني: شرك قوم إبراهيم عليه السلام، وذلك شرك من جهة النظر في الكواكب ومن يؤثِّر ويحرِّك، فهذا شرك في الربوبية وما تبعه من الشرك في الألوهية؛ لأنهم جعلوا لتلك الكواكب أصنامًا، وجعلوا لها صورًا، وجعلوها أوثانًا، فعبدوها من دون الله عز وجل، وتوجهوا إليها، وأما قوم نوح عليه السلام، فكان شركهم في الغلو في الصالحين؛ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما هنا في بيان أصل وقوع هذا الشرك: «**فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ: أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِيَ العِلْمُ عُبِدَتْ**».

وقَالَ ابْنُ القَيِّمِ: قَالَ غَيرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: «لَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تماثيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ»[1].

ش: قوله: (وقَالَ ابْنُ القَيِّمِ). هو الإمام العلامة محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية.

قال الحافظ السخاوي: العلامة الحجة المتقدم في سعة العلم ومعرفة الخلاف وقوة الجنان، المجمع عليه بين الموافق والمخالف، صاحب التصانيف السائرة والمحاسن الجمة. مات سنة إحدى وخمسين وسبعمائة.

قوله: «قَالَ غَيرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ» هو بمعنى ما ذكره البخاري وابن جرير إلا أنه ذكر عكوفهم على قبورهم قبل تصويرهم تماثيلهم. وذلك من وسائل الشرك، بل هو الشرك؛ لأن العكوف لله في المساجد عبادة، فإذا عكفوا على القبور، صار عكوفهم تعظيمًا ومحبة عبادة لها.

قوله: «ثُمَّ طَالَ عليهِمُ الْأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ» أي: طال عليهم الزمان. وسبب تلك العبادة والموصل إليها هو ما جرى من الأولين من التعظيم بالعكوف على قبورهم، ونصب صورهم في مجالسهم، فصارت بذلك أوثانًا تعبد من دون الله؛ كما ترجم به المصنف رحمه الله.

فإنهم تركوا بذلك دين الإسلام الذي كان أولئك عليه قبل حدوث وسائل هذا الشرك، وكفروا بعبادة تلك الصور، واتخذوهم شفعاء. وهذا أول شرك حدث في الأرض.

قال القرطبي: وإنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بهم ويتذكروا

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ٢٠٣).

....

أفعالهم الصالحة، فيجتهدوا كاجتهادهم، ويعبدوا الله عند قبورهم. ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم، فوسوس لهم الشيطان أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها. ا.هـ.

قال ابن القيم: وما زال الشيطان يوحي إلى عباد القبور، ويلقي إليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين، وأن الدعاء عندها مستجاب، ثم ينقلها من هذه المرتبة إلى الدعاء بها، والإقسام على الله بها، فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه.

فإذا تقرر ذلك عندهم، نقلهم منه إلى دعائه وعبادته، وسؤاله الشفاعة من دون الله، واتخاذ قبره وثنًا تعلق عليه القناديل والستور، ويطاف به، ويستلم، ويقبل، ويحج إليه، ويذبح عنده، فإذا تقرر ذلك عندهم، نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذه عيدًا ومنسكًا، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم.

وكل هذا مما قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ من تجديد التوحيد، وأن لا يعبد إلا الله.

فإذا تقرر ذلك عندهم، نقلهم منه إلى أن من نهى عن ذلك، فقد تنقص أهل هذه الرتب العالية، وحطهم عن منزلتهم، وزعم أنه لا حرمة لهم ولا قدر، فغضب المشركون، واشمأزت قلوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]، وسرى ذلك في نفوس كثير من الجهال

. . . .

والطغام، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين، حتى عادوا أهل التوحيد، ورموهم بالعظائم، ونفروا الناس عنهم، ووالوا أهل الشرك وعظموهم، وزعموا أنهم أولياء الله وأنصار دينه ورسوله، ويأبي الله ذلك: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]. ا.هـ. كلام ابن القيم رحمه الله (١).

وفي القصة فوائد ذكرها المصنف رحمه الله.

ومنها: رد الشبه التي يسميها أهل الكلام عقليات، ويدفعون بها ما جاء به الكتاب والسنة من توحيد الصفات، وإثباتها على ما يليق بجلال الله وعظمته وكبريائه.

ومنها: مضرة التقليد.

ومنها: ضرورة الأمة إلى ما جاء به رسول الله ﷺ علمًا وعملًا بما يدل عليه الكتاب والسنة، فإن ضرورة العبد إلى ذلك فوق كل ضرورة.

الشرح:

الشاهد من هذا: أن أولئك توجهوا إلى الصور - صور الصالحين - فكانوا أهلَ علم، يعلمون أَنَّهم إذا اتخذوا الصُّورَ، فإنهم لن يعبدوها، لكن كانت الصور تلك للصالحين والمعظمين وسيلة وطريق وسبب لأن عُبِدَت في المستقبل لما نُسِيَ العلم، والشيطان ربما أَتَى إلى الصورة، فجعل في عيني الناظر إليها أو المخاطِب لها أنها تتحدث، وأن فَمَ المصوَّر يتكلم،

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ٢١٣).

وأنه يُسمع منه كلام، ونحو ذلك من الأشياء وأصناف التصرفات التي تجعل القلوب تتعلق بتلك الروحانيات كما يقول وتلك الأرواح، فيُغرَى أولئك بهم، وهذا هو الذي حصل عند القوم الذين عكفوا على القبور وعبدوا أهلها مع الله عزوجل ، يأتي ويقول: ذهبت إلى القبر الفلاني، فكلمني أبي، وهو شيطان نطق على لسان أبيه، وربما تصوَّر بصورة أبيه، فخرج له في ظلامٍ ونحوه، فيحدِّثه أبوه بصوته الذي يعرفه، أو يحدثه العالم أو الولي بصوته الذي يعرفه منه، فتقع الفتنة، وهذا من الشيطان؛ ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما هنا كلمة تبين السبب في ذلك، فقال: «**أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ**»، والوحي: إلقاءٌ في خفاء[1]، الشيطان ما يتحدث علنًا، لكن أوحى، يعني: ألقى في خفاء، الوحي هو: إلقاء الخبر في خفاء، فألقى في رُوعِهم، ألقى في أنفسهم ذلك الأمر، فكان سببًا للشرك بالله عزوجل ، أول الأمر ما عُبِدت، جُعِلَت وسائل الشرك من الصور، والأنصاب، والتسمية بأسماء الصالحين، وكان ذلك وسيلة إلى الشرك، لم تُعبَد، جعلوا الوسائل، لكنهم عندهم من العلم ما يحجزهم عن أن يعبدوا أولئك الصالحين، لكن لما نُسِي العلم عُبِدت.

وهذا الفعل الذي فعلوه بإيحاء الشيطان كان من الغلو في أولئك الصالحين، **وهذا وجه الشاهد** من أنَّهم لمَّا مَاتوا عَكفُوا على قبورِهم، أو صوَّرُوا تلك الصور، أو نَصَبُوا الأنصاب في أماكنهم ليتذكروهم، وليكون أنشط لهم في العبادة أو العلم، ولكنهم لما فعلوا ذلك، كان ذلك سببًا من أسبابِ العبادةِ؛ لأنهم غَلُوا في الصالحين، وهذا هو مراد الشيخ رحمه الله من إيراد هذا الأثر.

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (ص١٠٤٦)، والقاموس المحيط (٤/ ٣٩١)، فصل(الحاء باب الواو والياء)، والمصباح المنير (ص٥٣٥)، ومختار الصحاح (ص٧١٣) مادة: (و ح ى).

وَعَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ». أَخْرَجَاهُ[١].

ش: قوله: (وَعَنْ عُمَرَ) هو ابن الخطاب بن نفيل - بنون وفاء مصغرًا - العدوي أمير المؤمنين، وأفضل الصحابة بعد الصديق رضي الله عنهما. ولي الخلافة عشر سنين ونصفا، فامتلأت الدنيا عدلًا، وفتحت في أيامه ممالك كسرى وقيصر، واستشهد في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين رضي الله عنه.

قوله: «لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ». الإطراء مجاوزة الحد في المدح والكذب عليه. قاله أبو السعادات[٢].

وقال غيره: أي: لا تمدحوني بالباطل، ولا تجاوزوا الحد في مدحي.

قوله: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ» أي: لا تمدحوني، فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام، فادعوا فيه الإلهية. وإنما أنا عبد الله ورسوله، فصفوني بذلك كما وصفني ربي، فقولوا عبد الله ورسوله، فأبى المشركون إلا مخالفة أمره وارتكاب نهيه، وعظموه بما نهاهم عنه وحذرهم منه، وناقضوه أعظم مناقضة، وضاهوا النصارى في غلوهم وشركهم، ووقعوا في المحذور، وجرى منهم من الغلو والشرك شعرًا ونثرًا ما يطول عده، وصنفوا فيه مصنفات.

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله عن بعض أهل زمانه أنه جوز الاستغاثة

---

(١) سبق تخريجه (ص٨٨).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١٢٣).

....

بالرسول ﷺ في كل ما يستغاث فيه بالله، وصنف في ذلك مصنفًا رده شيخ الإسلام، ورده موجود بحمد الله[١].

ويقول: إنه يعلم مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله. وذكر لهم أشياء من هذا النمط. نعوذ بالله من عمى البصيرة، وقد اشتهر في نظم البوصيري قوله[٢]:

يا أكرمَ الخلقِ مَا لِيَ مَنْ أَلُوذُ بِهِ   سِوَاكَ عِنْدَ حُدُوثِ الْحَادثِ الْعَمَمِ

وما بعده من الأبيات التي مضمونها إخلاص الدعاء واللياذ والرجاء والاعتماد في أضيق الحالات وأعظم الاضطرار لغير الله، فناقضوا الرسول ﷺ بارتكاب ما نهى عنه أعظم مناقضة، وشاقوا الله ورسوله أعظم مشاقة، وذلك أن الشيطان أظهر لهم هذا الشرك العظيم في قالب محبة النبي ﷺ وتعظيمه، وأظهر لهم التوحيد والإخلاص الذي بعثه الله به في قالب تنقيصه، وهؤلاء المشركون هم المتنقصون الناقصون، أفرطوا في تعظيمه بما نهاهم عنه أشد النهي، وفرطوا في متابعته، فلم يعبؤوا بأقواله وأفعاله، ولا رضوا بحكمه ولا سلموا له. وإنما يحصل تعظيم الرسول ﷺ بتعظيم أمره ونهيه، والاهتداء بهديه، واتباع سنته، والدعوة إلى دينه الذي دعا إليه ونصرته، وموالاة من عمل به، ومعاداة من خالفه. فعكس أولئك المشركون ما أراد الله ورسوله علمًا وعملًا، وارتكبوا ما نهى عنه ورسوله. فالله المستعان.

---

(١) وهو كتاب (الاستغاثة)، أو (الرد على البكري)، وهومطبوع ولله الحمد والمنة.

(٢) انظر: ديوان البوصيري (ص٢٤٨).

الشرح:

هذا فيه نهي عن إطرائه ﷺ، والإطراء هو: **مُجاوزةِ الحدِّ** - أيضًا - في المدح، فالغلو عام في أشياء كثيرة، قد يكون في المدح، قد يكون في الذم، قد يكون في الفهم، قد يكون في العلم، قد يكون في العمل، لكن الإطراء الغلو في المدح، الغلو في الثناء، الغلو في الوصف، والنبي ﷺ نهى عن إطرائه كإطراء النصارى ابن مريم وقال: «**إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ**».

قوله هنا: «**كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ**» (الكاف) هنا بعض الناس يظن أنها كاف المثلية، يعني: لا تطروني بمثل ما أطرت النصارى ابن مريم، ويقول: إن النصارى أطرت ابن مريم في شيء واحد، وهو أن قالوا: هو ولد لله عَزَّوَجَلَّ، والنبي ﷺ نهى أن تُجعَل له رتبة البنوة، فإذا كان كذلك ما عداه فجائز، وهذا هو قول الخرافيين؛ كما قال البوصيري في هذا المقام[١]:

دَعْ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمُ ... وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيهِ واحْتَكِمِ

يعني: لا تقل: إنه ولد لله، أو إنه ابن لله، وبعد ذلك قل ما شئت غير ملوم وغير مُثرَّب عليك.

الوجه الثاني: وهو الفهم الصحيح، وهو الذي يدل عليه السياق: أن (الكاف) هنا هي كاف القياس، أي: لا تطروني إطراءً كما أطرت النصارى ابن مريم.

وكاف القياس هي كاف التمثيل الناقص بأن يكون هناك شبه بين ما بعدها وما قبلها في أصل الفعل «**لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ**

---

(١) انظر: ديوان البوصيري (ص٢٤١).

مَرْيَمَ»، فهنا نَهى أن يُطرى ﷺ كما حصل أن النصارى أطرت، فهو تمثيل للحدث بالحدث، لا تمثيل أو نهي عن نوع الإطراء، قال: «**لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ**»، فنهى عن إطراءٍ له ﷺ لأجل أن النصارى أطرت ابن مريم، فقادهم ذلك إلى الكفر والشرك بالله وادعاء أنه ولد لله عَزَّوَجَلَّ ، ولهذا قال: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ».

فإذًا الكاف هنا ليست كاف التمثيل الكامل بأن يكون ما بعدها مماثلًا لما قبلها تمامًا في الوصف، وإنما هي كاف التمثيل الذي يكون ما بعده مشتركًا مع ما قبله في المعنى، وهي القياسية التي تجمعها العلة؛ ولهذا يقول الفقهاء - كما هو معلوم -: هذا كهذا، يقول مثلًا: نبيذ غيرالتمر والعنب كنبيذ التمر والعنب، مساواة بين هذا وهذا؛ لوجود أصل المعنى بينهما، وهنا نهيٌ عن الإطراء لأجل وجود أصل الإطراء في الاشتراك بين إطراء النصارى وما سبَّبه من الشرك وإطراء ما لو أُطرِي النبي ﷺ وما سيُسبِّبه من الشرك.

والأمة في كثير من طوائفها خالفت ذلك، وأطرت النبي ﷺ إطراءً، حتى بلغ أن جعلوا من علومه علم اللوح والقلم، وأن جعلوا من جوده الدنيا وضرتها، وأن جعلوا له من الملك نصيبًا، وتعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

أرشدهم بقوله: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ»، وهذا هو الكمال في حقه ﷺ أن يكون رسولًا، هذا أشرف مقاماته ﷺ.

وَقَالَ: قَالَ: رَسُولُ الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ»[١].

ش: هذا الحديث ذكره المصنف بدون ذكر راويه. وقد رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وهذا لفظ رواية أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَدَاةَ الْعَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ: هَاتِ، الْقُطْ لِي فَلَقَطْتُ لَهُ حَصَيَاتٍ هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ، فَلَمَّا وَضَعْتُهُنَّ فِي يَدِهِ، قَالَ: بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ».

قال شيخ الإسلام: هذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال، وسبب هذا اللفظ العام رمي الجمار، وهو داخل فيه، مثل الرمي بالحجارة الكبار، بناء على أنه أبلغ من الصغار. ثم علله بما يقتضي مجانبة هدي من كان قبلنا إبعادًا عن الوقوع فيما هلكوا به، فإن المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه من الهلاك[٢].

الشرح:

هذا نهيٌ عن الغلو بأنواعه، وأن من قبلنا إنما أهلكهم الغلو، أهلكهم من جهة الدين، وأهلكهم أيضًا من جهة الدنيا أنهم غلوا في دينهم، فالغلو سبب لكل شر، والاقتصاد سبب في كل فلاح وخير، والغلو منهيٌ عنه

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٠، ٥/ ٢٩٨)، والنسائي (٣٠٥٩)، وابن ماجه (٣٠٢٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٣٢٨-٣٢٩).

بجميع صوره في الأقوال والأعمال، أقوال القلب وأعمال القلوب، وكذلك أقوال اللسان وأعمال الجوارح، فالغلو سبب لهلاك العبد في دينه ودنياه.

والغلو لفظ جاء في الكتاب والسنة؛ كما قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال ﷺ: «**أَمْثَالَ هَؤُلاَءِ فَارْمُوا - لما قبض على حصى الخذف - يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ في الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ في الدِّينِ**»، فنهى عن الغلو، والغلو كما أنه يكون في الاعتقاد، كذلك يكون في العبادة، وحقيقة الغلو في تعريفه الشرعي: (هو الزيادة عما أذن به شرعًا في السلوك، أو في التعبد، أو في الاعتقاد) يعني: في التدين إذا زاد في الدين عما أذن به، فإنه يكون غاليًا، كما أنه إذا زاد في الإنفاق، أو في الفعل عما أذن به، صار مسرفًا، أما التقصير، فهو: ترك ما أمر به العبد، بأن يقصر، ويجفو، ويتبع الشهوات، وهو عكس الغلو، فأولئك يغلون في الاعتقاد، أو يغلون في الإثبات، أو يغلون في السلوك، مثاله: الخوارج غلوا في عدة جوانب، غلوا في العقيدة، فضلوا، وكفروا، وتركوا نهج الصحابة رضي الله عنهم، وغلوا في العبادة، حتى إن أحد الصحابة رضي الله عنهم يحقر صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم؛ كما جاء في الحديث[1]، وغلوا أيضًا في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقاتلوا جهادًا من

---

(١) الخوارج هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه حين جرى أمر المحكمين، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، وفيهم قال النبي ﷺ: «**يَحْقِرُ أحدكم صَلَاتَهُ مع صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مع صِيَامِهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**». أخرجه البخاري (٢٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وكل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيًا، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان. انظر: مقالات الإسلاميين (ص٤، ٨٦)، والفرق بين الفرق (ص٥٤)، والملل والنحل (١/ ١١٤).

لا يستحق القتال شرعًا، بل من يحرم قتاله، حتى آل الأمر بغلوهم أنهم تعبدوا بقتل خيار الناس مثل الصحابة ﷺ، فأكرم الصحابة ﷺ وأعلاهم منزلة وأفضلهم في زمنه علي بن أبي طالب ﷺ، ومع ذلك تقربوا إلى الله بقتله، بل أساس قتل عثمان ﷺ هو من فعل الخوارج، قتلوا عليًا ﷺ، وهم يتمنون الجنة بقتل عثمان وبقتل علي ﷺ لشدة غلوهم؛ كما وصفهم النبي ﷺ: «**يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلَامِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ، لَئِنْ أَنَا أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**»[١]، يعني: أهل الشرك.

وأما التقصير، فهو حال أهل الشهوات الذين تركوا العبادة، وتركوا طاعة الله ﷻ، ولم يبلغوا ما أمر الله ﷻ به، بل هم في تقصير وغشيان للشهوات والمحرمات والكبائر، لا يتوبون، ولا يتذكرون، هؤلاء يقابلون المتشددين، يقابلهم أهل التساهل والكبائر والذنوب والمعاصي.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ. قَالَهَا ثَلَاثًا»(١).

ش: قوله: (وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ. قَالَهَا ثَلَاثًا»).

قال الخطابي: المتنطع: المتعمق في الشيء، المتكلف البحث عنه على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يعنيهم، الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم(٢).

ومن التنطع: الامتناع من المباح مطلقًا، كالذي يمتنع من أكل اللحم والخبز، ومن لبس الكتان والقطن، ولا يلبس إلا الصوف، ويمتنع من نكاح النساء، ويظن أن هذا من الزهد المستحب. قال الشيخ تقي الدين: فهذا جاهل ضال، انتهى(٣).

وقال ابن القيم رحمه الله: قال الغزالي: والمتنطعون في البحث والاستقصاء.

وقال أبو السعادات: هم المتعمقون الغالون في الكلام، المتكلمون بأقصى حلوقهم. مأخوذ من النطع، وهو الغار الأعلى من الفم، ثم استعمل في كل متعمق قولًا وفعلًا(٤).

وقال النووي: فيه كراهة التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٠).
(٢) انظر: معالم السنن (٧/ ١٣).
(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٥١١).
(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث (٥/ ٧٤).

....

الفصاحة، واستعمال وحشي اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم[١].

قوله: «قَالَهَا ثَلَاثًا». أي: قال هذه الكلمة ثلاث مرات، مبالغة في التعليم والإبلاغ، فقد بلغ البلاغ المبين. صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

الشرح:

قوله: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ». أي: الذين تنطعوا في ما يأتون به في أفعالهم، أو أقوالهم، وهم الذين جاوزوا الحد في ذلك، وابتغوا علم شيء، أو تكلفوا شيئًا لم يأذن به الله، فزادوا عما أذن لهم، فأتوا بأشياء لم يُؤذَن لهم فيها.

والتنطع والإطراء والغلو معانٍ متقاربة يجمعها الغلو، الغلو يشمل الإطراء، ويشمل التنطع، فكل تنطع وكل إطراء غلو، والغلو اسم جامع لهذه جميعًا، فالشيخ رحمه الله في هذا الباب بين أن سبب كفر بني آدم وسبب تركهم دينهم هو الغلو في الصالحين بأن جاوزوا الحد فيهم، جاوز قوم نوح الحد في الصالحين فيهم، فعكفوا على قبورهم، وألَّهوها فصارت آلهة، والنصارى غَلَت في رسولهم عيسى عليه السلام وفي الحواريين وفي البطارقة حتى جعلوهم آلهة مع الله عز وجل يستغيثون بهم، ويألهونهم،

---

(١) انظر: رياض الصالحين (ص٥٩٠).

ويسألونهم، ويعبدونهم، وكذلك في هذه الأمة جُعِلَ للنبي ﷺ نصيب من خصائص الإله، وهذا هو عين ما نَهَى عنه ﷺ بقوله: **«لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ»**.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: أَنَّ مَنْ فَهِمَ هَذَا الْبَابَ وَبَابَيْنِ بَعْدَهُ، تَبَيَّنَ لَهُ غُرْبَةَ الْإِسْلَامِ، وَرَأَى مِنْ قُدْرَةِ اللهِ وَتَقْلِيبِهِ لِلْقُلُوبِ الْعَجَبَ.

الثَّانِيَةُ: مَعْرِفَةُ أَوَّلِ شِرْكٍ حَدَثَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَنَّهُ بِشُبْهَةِ الصَّالِحِينَ.

الثَّالِثَةُ: أَوَّلُ شَيْءٍ غُيِّرَ بِهِ دِينُ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَا سَبَبُ ذَلِكَ مَعَ مَعْرِفَةِ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُمْ.

الرَّابِعَةُ: قَبُولُ الْبِدَعِ مَعَ كَوْنِ الشَّرَائِعِ وَالْفِطَرِ تَرُدُّهَا.

الْخَامِسَةُ: أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَزْجُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، فَالْأَوَّلُ: مَحَبَّةُ الصَّالِحِينَ، وَالثَّانِي: فِعْلُ أُنَاسٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ شَيْئًا أَرَادُوا بِهِ خَيْرًا، فَظَنَّ مَنْ بَعْدَهُمْ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهِ غَيْرَهُ.

السَّادِسَةُ: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ نُوحٍ.

السَّابِعَةُ: جِبِلَّةُ الْآدَمِيِّ فِي كَوْنِ الْحَقِّ يَنْقُصُ فِي قَلْبِهِ، وَالْبَاطِلُ يَزِيدُ.

الثَّامِنَةُ: فِيهِ شَاهِدٌ لِمَا نُقِلَ عَنِ السَّلَفِ أَنَّ الْبِدْعَةَ سَبَبُ الْكُفْرِ.

التَّاسِعَةُ: مَعْرِفَةُ الشَّيْطَانِ بِمَا تَؤُولُ إِلَيْهِ الْبِدْعَةُ وَلَوْ حَسُنَ قَصْدُ الْفَاعِلِ.

الْعَاشِرَةُ: مَعْرِفَةُ الْقَاعِدَةِ الْكُلِّيَّةِ، وَهِيَ النَّهْيُ عَنِ الْغُلُوِّ، وَمَعْرِفَةُ مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: مَضَرَّةُ الْعُكُوفِ عَلَى الْقَبْرِ لِأَجْلِ عَمَلٍ صَالِحٍ.

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: مَعْرِفَةُ النَّهْيِ عَنِ التَّمَاثِيلِ، وَالْحِكْمَةِ فِي إِزَالَتِهَا.

الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: مَعْرِفَةُ عِظَمِ شَأْنِ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَشِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا مَعَ الْغَفْلَةِ عَنْهَا.

الرَّابِعَةَ عَشَرَ: وَهِيَ أَعْجَبُ وَأَعْجَبُ قِرَاءَتُهُمْ إِيَّاهَا فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ، وَمَعْرِفَتُهُمْ بِمَعْنَى الْكَلَامِ، وَكَوْنِ اللهِ حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُلُوبِهِمْ حَتَّى اعْتَقَدُوا أَنَّ فِعْلَ قَوْمِ نُوحٍ هُوَ أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّ مَا نَهَى اللهُ وَرَسُولُهُ عَنْهُ، فَهُوَ الْكُفْرُ الْمُبِيحُ لِلدَّمِ وَالْمَالِ.

الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: التَّصْرِيحُ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا إِلَّا الشَّفَاعَةَ.

السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: ظَنُّهُمْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ الَّذِينَ صَوَّرُوا الصُّوَرَ أَرَادُوا ذَلِكَ.

السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: الْبَيَانُ الْعَظِيمُ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ»، فَصَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَى مَنْ بَلَّغَ الْبَلَاغَ الْمُبِينَ.

الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: نَصِيحَتُهُ إِيَّانَا بِهَلَاكِ الْمُتَنَطِّعِينَ.

التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا لَمْ تُعْبَدْ حَتَّى نُسِيَ الْعِلْمُ، فَفِيهَا بَيَانُ مَعْرِفَةِ قَدْرِ وُجُودِهِ وَمَضَرَّةِ فَقْدِهِ.

الْعِشْرُونَ: أَنَّ سَبَبَ فَقْدِ الْعِلْمِ مَوْتُ الْعُلَمَاءِ.

❊ ❊ ❊

١٩ - بَابُ
مَا جَاءَ مَنْ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللَّهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟!

ش: قوله: (بَابُ مَا جَاءَ مَنْ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟!). أي: الرجل الصالح؛ فإن عبادته هي الشرك الأكبر، وعبادة الله عنده وسيلة إلى عبادته، ووسائل الشرك محرمة؛ لأنها تؤدي إلى الشرك الأكبر وهو أعظم الذنوب.

الشرح:

هذا (بَابُ مَا جَاءَ مَنْ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟!). هذا الباب مع الأبواب بعده في بيان أن النبي ﷺ كان حريصًا على هذه الأمة، وكان بالمؤمنين ﷺ رؤوفًا رحيمًا، ومن تمام حرصه على الأمة أنْ حذَّرهم كل وسيلة من وسائل الشرك التي تصل بهم إلى الشرك، وسدَّ جميع الذرائع الموصلة إلى الشرك، وغَلَّظ في ذلك، وشدَّد فيه، وأبدى، وأعاد، حتى إنه بيَّن ذلك خشية أن يفوت تأكيده، وهو يعاني سكرات الموت ﷺ.

فهذه الأبواب في بيان وسائل الشرك الأكبر، وأن الشرك الأكبر له وسائل، وله ذرائع يجب سدها، ويجب منعها رعاية وحماية للتوحيد؛ ولأن النبي ﷺ غَلَّظ فيمن يفعلون شيئًا من تلك الوسائل، أو الذرائع الموصلة إلى الشرك. فهذا الباب في بيانِ أَحد الوسائل الموصلة إلى الشرك، والذرائع التي يحب منعها.

قال رحمه الله: (بَابُ مَا جَاءَ مَنْ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟!) صورة ذلك: أن يأتي إلى قبر رجل صالح يعلم صلاحه، إما أن يكون من الأنبياء والمرسلين، أو أن يكون من صالحي هذه الأمة، أو صالحي أمة غير هذه الأمة، فيتحرى ذلك المكان كي يعبد الله وحده دون ما سواه، فيأتي إلى هذا القبر، أو يأتي إلى هذه البقعة لكي يعبد الله فيها رجاء بركة هذه البقعة.

وهذا يروج عند كثيرين في أن ما حول القبور - قبور الصالحين، أو قبور الأنبياء - مبارك، وأن العبادة عندها ليست كالعبادة عند غيرها، والنبي ﷺ غلَّظ في ذلك، مع أن المغلَّظ عليه لم يعبُد إلا الله عز وجل، ولم يعبد صاحب القبر، لكنه اتخذ ذلك المكان رجاء بركته، ورجاء تنزل الرحمات - كما يقولون - ورجاء تنزل النسمات والفضل من الله عليه، واختاره لأجل بركته، ولكنه لم يعبد إلا الله عز وجل، ومع ذلك لعن النبي ﷺ ذلك الصنف الذين يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد.

(فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ) يعني: لم يشرك بالله، عبد الله وحده، صلى لله مخلصًا، أو دعا لله مخلصًا، أو تضرع واستغاث واستعاذ بالله عز وجل مخلصًا.

(عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ) لكنه تحرى القبر لأجل البركة، والرجل الصالح - كما سبق أن ذكرنا - هو المقتصد الذي أتى بالواجبات، وابتعد عن المحرمات، وأعلى منه درجة السابق بالخيرات، فالصالحون من الرجال والنساء مقامات: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣] بعض أهل العلم يعبر في تعريف الرجل الصالح بقوله: الصالح من عباد الله هو: القائم بحقوق الله، القائم بحقوق عباده، وهذا صحيح، ولأن المقتصد قائم بحقوق الله قائم بحقوق عباده، أتى بالواجبات، وانتهى عن المحرمات، وأعظم منه درجة السابق بالخيرات، فأهل السبق بالخيرات من

العباد لا يجوز أن تُعظَّم قبورهم، وأن يُغلَى فيها بظنٍّ أن البقعة التي حول القبر بقعة مباركة، فإن هذا جاء فيه الوعيد الذي يأتي في هذا الباب وغلّظ فيه ﷺ.

(فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟!) يعني: هذا التغليظ، ولَعْن من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد ومن أسرج على القبور، أو من عظم القبور، وعظَّم من فيها، وعبد الله عَزَّوَجَلَّ عندها، عبد الله وحده، جاء فيه اللعن، وجاء فيه أنه من شرار الخلق عند الله، فكيف إذا توجه ذلك العابد إلى صاحب القبر يدعوه، ويرجوه، أو يخافه، أو يأمل منه، أو يستغيث به، أو يصلي له، أو يذبح له، أو يستشفع به؟!! لاشك أن هذا أعظم وأعظم في التغليظ من عبادة الله وحده عند قبر رجل صالح؛ لهذا قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: من تأمل هذه الأحاديث التي سترد فإنه - هذا مقتضى كلام الشيخ في التبويب - فإنه يجد أن التغليظ يكون أشد وأشد - لو كان في القلوب إيمان ومحبة للنبي ﷺ - يكون أشد وأشد إذا عُبِد صاحب ذلك القبر، فإذا صُلِّي له، هل هو بمنزلة من صلَّى لله عنده؟ ذاك وسيلة، وهذا غاية، هذا شركٌ أكبر، فأولئكَ شرار الخلق عند الله مع أنهم فعلوا وسائل الشرك ووسائل المحرمات، فكيف بمن فعل الشرك الأكبر بعينه، وتوجه إلى قبور الصالحين، واتخذها أوثانًا مع الله عَزَّوَجَلَّ ؟!! لا شك أن هذا أبلغ وأبلغ في التغليظ، وذلك لأنه من الشرك الأكبر المخرج من ملة الإسلام إذا فعله مسلم.

(فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟!) عَبَدهُ يعني: عَبَدَ القبرَ، أو عبدَ الرَّجُلَ؛ لأن العبادة - عبادة القبوريين - تارة تتوجه إلى القبر، وتارة تتوجه إلى صاحب القبر، بل وتارة تتوجه إلى ما حول القبر، فالأبنية المحاطة بالقبور في قبور الأولياء عندهم التي بُنيت على القبور، وصارت مشاهد، تارة تتخذ تلك الستور الحديدية أنها آلهة، فإذا تمسحوا بها، رجوا منها البركة، واتخذوها

وسيلة إلى الله عَزَّوَجَلَّ يعكفون عندها، فيتخذون تلك المشاهد أوثانًا، يعبدونها، ويرجونها، ويخافونها، وإذا ضم أحدهم إلى صدره تلك المشاهد، أو الحديد، أو الستور، ونحو ذلك، فكأنه صار مقرَّبًا عن الله، وقُبلَت وسيلته تلك، وهذا نوع من أنواع اتخاذ المشاهد أوثانًا، كذلك اتخاذ القبور أوثانًا، أو اتخاذ الرجل الصالح، الذي هو متبرئ من أولئك ومن عبادتهم له، يتخذونهم آلهة مع الله إذا توجهوا إليهم بالعبادة، وقد علمنا أن العبادة معناها واسع، وأنه قد تكون بالصلاة له، أو بدعوته، بسؤاله، بطلبه كشف المدلهمات، أو جلب الخيرات، أو الذبح له، أو وضع النذور له، ونحو ذلك من أنواع العبادة، وهذا هو الواقع عند أولئك الذين يعبدون الأوثان وقبور الصالحين.

فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ، ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الحَبَشَةِ وما فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ: أُولَئِكِ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ العَبْدُ الصَّالِحُ، أَوِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكِ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ»[١].

فَهؤلاءِ جَمَعُوا بينَ فِتْنَتَيِنِ: فِتْنَةِ القُبُورِ، وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ[٢].

ش: قوله: (فِي الصَّحِيحِ) أي: الصحيحين.

قوله: «أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ» هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم القرشية المخزومية. تزوجها رسول الله ﷺ بعد أبي سلمة سنة أربع، وقيل: ثلاث، وكانت قد هاجرت مع أبي سلمة إلى الحبشة ماتت سنة اثنتين وستين.

قوله: «ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ»، وفي الصحيحين أن أم حبيبة وأم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ذكرتا ذلك لرسول الله ﷺ، والكنيسة بفتح الكاف وكسر النون: معبد النصارى.

قوله: «أُولَئِكِ» بكسر الكاف خطاب للمرأة.

قوله: «إِذَا مَاتَ فِيهِمُ العَبْدُ الصَّالِحُ، أَوِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ» هذا - والله أعلم - شك من بعض رواة الحديث: هل قال النبي ﷺ هذا أو هذا؟ ففيه التحري في الرواية، وجواز الرواية بالمعنى.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧، ٤٣٤، ١٣٤١، ٣٨٧٨)، ومسلم (٥٢٨).

(٢) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ٢٠٣).

....

قوله: «وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ» الإشارة إلى ما ذكرت أم سلمة وأم حبيبة من التصاوير التي في الكنيسة.

قوله: «أُولَئِكِ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ»، وهذا يقتضي تحريم بناء المساجد على القبور، وقد لعن ﷺ من فعل ذلك كما سيأتي.

قال البيضاوي: لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيمًا لشأنهم، ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها، واتخذوها أوثانًا لعنهم النبي ﷺ.

قال القرطبي: وإنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بها، ويتذكروا أعمالهم الصالحة، فيجتهدوا كاجتهادهم، ويعبدوا الله عند قبورهم، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم، ووسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها. فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك؛ سدًا للذريعة المؤدية إلى ذلك.

قوله: «فَهؤلاءِ جَمَعُوا بينَ فِتْنَتَينِ: فِتْنَةِ القُبُورِ، وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ» فتنة القبورِ وفتنة التماثيلِ. هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ذكره المصنف رحمه الله تنبيهًا على ما وقع من شدة الفتنة بالقبور والتماثيل، فإن الفتنة بالقبور كالفتنة بالأصنام أو أشد.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وهذه العلة - التي لأجلها نهى الشارع ﷺ عن اتخاذ المساجد على القبور - هي التي أوقعت كثيراً من الأمم إما في الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك.

فإن النفوس قد أشركت بتماثيل الصالحين، وتماثيل يزعمون أنها

....

طلاسم الكواكب ونحو ذلك. فإن الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر.

ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون عندها، ويخشعون ويخضعون، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ولا وقت السحر، ومنهم من يسجد لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا رَحِمَهُ اللَّهُ يرجونه في المساجد.

فلأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها، حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقًا، وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته، كما يقصد بصلاته بركة المساجد، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها، لأنها أوقات يقصد فيها المشركون الصلاة للشمس، فنهى أمته عن الصلاة حينئذ، وإن لم يقصد ما قصده المشركون؛ سدًا للذريعة.

وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركًا بالصلاة في تلك البقعة، فهذا عين المحادة لله ولرسوله، والمخالفة لدينه وابتداع دين لم يأذن به الله، فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين الرسول ﷺ: أن الصلاة عند القبور منهي عنها، وأنه ﷺ لعن من اتخذها مساجد، فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك: الصلاة عندها واتخاذها مساجد، وبناء المساجد عليها. وقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه.

وقد صرح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها؛ متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة، وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من

....

أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك، وطائفة أطلقت الكراهة، والذي ينبغي أن تحمل على كراهة التحريم؛ إحسانًا للظن بالعلماء، وأن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله ﷺ لعن فاعله والنهي عنه. ا.هـ. كلامه رحمه الله [(١)].

الشرح:

أم سلمة رضي الله عنها لما كانت في الحبشة رأت كنيسة، ورأت في تلك الكنيسة صور الصالحين، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «**أُولَئِكِ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ العَبْدُ الصَّالِحُ، أَوِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ**» قد يكون نبيًا من أنبيائهم، أو عبدًا من عباد الله الصالحين فيهم، ماذا عملوا معه؟ قال: «**بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا**»، فيجعلون المسجد، وهو مكان العبادة في اللغة بما يدخل فيه الكنيسة، مكان العبادة يقال له: مسجد، والمسجد مكان السجود، والسجود هو: الخضوع والتذلل لله عز وجل، فالمسجد يطلق على كل مكان يتخذ لعبادة الله عز وجل؛ كما قال النبي ﷺ: «**وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**»[(٢)]، فمكان العبادة يقال له: مسجد[(٣)]، فالكنيسة هنا قال النبي ﷺ

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١)، بلفظ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**». واللفظ للبخاري.

(٣) انظر: لسان العرب (٣/ ٢٠٤، ٢٠٥)، وتهذيب اللغة (١٠/ ٣٠١).

في شأنها: «بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا»، يعني: مكانًا للعبادة، فإذًا الكنائس بُنيت على القبور، قبور أولئك الصالحين، وصوروا فيها الصور، جعلوا صورة ذلك العبد على قبره أو فوق قبره على الحائط؛ لكي يدلوا الناس على عبادة الله بتعظيم ذلك الرجل الصالح وتعظيم قبره، فاتخذوا البناء على القبور - الذي هو وسيلة من وسائل الشرك الأكبر ومن البدع التي يحدثها الخلوف بعد الأنبياء - اتخذوا ذلك فوق القبور، وتعبدوا فيها، قال ﷺ: «أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ».

«أُولَئِكِ» الخطاب لأم سلمة ﵂، والخطاب إذا توجَّه إلى مؤنث تُكسر فيه كاف الخطاب «أُولَئِكِ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ».

من هم شرار الخلق عند الله؟ هم الذين عظَّموا الصالحين، فبنوا على قبورهم مساجد، هل في هذا الحديث أنهم توجهوا بالعبادة لأولئك الصالحين؟ لا، إنما عظموا قبور الصالحين، وجعلوا لهم صورًا، فجمعوا بين فتنتين: فتنة القبور، وفتنة الصور، وفتنة الصور وسيلة من وسائل حدوث الشرك الأكبر، وكذلك فتنة القبور بالبناء عليها، وبتعظيمها، وبإرشاد الناس لها، هذا وسيلة إلى أن يُعتقد في صاحب القبر أن له شيئًا من خصائص الإلهية، أو أنه يتوسط عند الله ﷿ في الحاجات؛ كما حصل ذلك فعلًا.

(فَهؤلاءِ جَمَعُوا بينَ فِتنتينِ: فِتنةِ القُبُورِ، وفِتنةِ التَّمَاثيلِ)، وهذا هو الواقع، وهذا التغليظ في أنهم شرار الخلق عند الله نفهم منه تحذير هذه الأمة أنْ يبنوا على قبر أحدٍ مسجدًا؛ لأنه إن بُني على قبر أحد مسجدٌ من بَنى ذلك، ودل الخلق على تعظيم ذلك القبر، فإنَّهُ من شرار الخلقِ عند الله، وقد قال ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى

لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: اليَهُودَ، وَالنَّصَارَى، قَالَ: فَمَنْ؟»[١].

فإذًا وجه الدلالة من هذا الحديث: أنه قال: «**أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ**»، وهذا تغليظ فيمن عبد الله في الكنيسة التي فيها القبور والصور، والقبور والصور من وسائل الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ .

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَلَهُمَا عَنْهَا قَالتْ: «لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ. يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا لَوْلاَ ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنَّ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا» أَخْرَجَاهُ[(١)].

ش: قوله: (وَلَهُمَا عَنْهَا) أي: البخاري ومسلم. وهو يغنى عن قوله: في آخره: أخرجاه. وعنها أي: عائشة لما قالت:....

قوله: «لَمَّا نُزِلَ» هو بضم النون وكسر الزاي. أي نزل به ملك الموت والملائكة الكرام عليهم السلام.

قوله: «طَفِقَ» بكسر الفاء وفتحها، والكسر أفصح. وبه جاء القرآن، ومعناه: جعل.

قوله: «خَمِيصَةً» بفتح المعجمة والصاد المهملة. كساء له أعلام.

قوله: «فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا». أي: عن وجهه.

قوله: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» يُبينُ أَنَّ مَنْ فَعَلَ مِثل ذلك حَلَّ عليه من اللعنة ما حل على اليهودِ والنصاري.

قوله: «يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا» الظاهر أن هذا كلام عائشة رضي الله عنها؛ لأنها فهمت من قول النبي ﷺ ذلك تحذير أمته من هذا الصنيع الذي كانت

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥، ٤٣٦، ١٣٣٠، ١٣٩٠، ٣٤٥٣، ٤٤٤١، ٥٨١٥)، ومسلم (٥٣١).

....

تفعله اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم، فإنه من الغلو في الأنبياء، ومن أعظم الوسائل إلى الشرك.

ومن غربة الإسلام أن هذا الذي لعن رسول الله ﷺ فاعليه؛ تحذيرًا لأمته أن يفعلوه معه ﷺ ومع الصالحين من أمته قد فعله الخلق الكثير من متأخري هذه الأمة، واعتقدوه قربة من القربات، وهو من أعظم السيئات والمنكرات، وما شعروا أن ذلك محادة لله ورسوله.

قال القرطبي في معنى الحديث: وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة من فيها؛ كما كان السبب في عبادة الأصنام. انتهى.

إذ لا فرق بين عبادة القبر ومن فيه وعبادة الصنم، وتأمل قول الله تعالى عن نبيه يوسف بن يعقوب حيث قال: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ [يوسف: ٣٨] نكرة في سياق النفي تعم كل شرك.

قوله: «لَوْلاَ ذَلِكَ» أي: ما كان يحذر من اتخاذ قبر النبي ﷺ مسجدًا لَأُبرِزَ قبره، وجعل مع قبور الصحابة الذين كانت قبورهم في البقيع.

قوله: «غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنَّ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا» روى بفتح الخاء وضمها، فعلى الفتح يكون هو الذي خشي ذلك ﷺ، وأمرهم أن يدفنوه في المكان الذي قبض فيه. وعلى رواية الضم يحتمل أن يكون الصحابة هم الذين خافوا أن يقع ذلك من بعض الأمة، فلم يبرزوا قبره؛ خشية أن يقع ذلك من بعض الأمة غلوًا وتعظيمًا بما أبدى وأعاد من النهي والتحذير منه، ولعن فاعله.

....

قال القرطبي: ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ، فأعلوا حيطان تربته، وسدوا المداخل إليها، وجعلوها محدقة بقبره ﷺ، ثم خافوا أن يُتَّخَذَ موضع قبره قبلة إذا كان مستقبل المصلين، فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين، وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال، حتى لا يمكنوا أحدًا من استقبال قبره. انتهى[١].

الشرح:

هذا الحديث من أعظم الأحاديث التي فيها التغليظ في وسائل الشرك، وبناء المساجد على القبور، واتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد.

ووجه ذلك: أنه ﷺ - وهو في ذلك الغم وتلك الشدة ونزول سكرات الموت به ﷺ يعانيها - لم يغفل ﷺ، بل اهتم اهتمامًا عظيمًا - وهو في تلك الحال - بتحذير الأمة من وسيلة من وسائل الشرك، وتوجيه اللعن والدعاء على اليهود والنصارى بلعنة الله؛ لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

سبب ذلك: أنه ﷺ في تلك الحال يخشى أن يتخذ قبره مسجدًا؛ كما اتخذت قبور الأنبياء قبله مساجد، ومن الذي اتخذ قبور الأنبياء مساجد؟ شرار الخلق عند الله من اليهود والنصارى، الذين لعنهم النبي ﷺ، فقال: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى»، واللعنة هي: الطرد والإبعاد من رحمة

(١) انظر: المفهم لما أشكل على صحيح مسلم (٢/ ١٢٨).

الله[١]، وذلك يدل على أنهم فعلوا كبيرة من كبائر الذنوب، وهذا كذلك؛ فإن البناء على القبور واتخاذ قبور الأنبياء مساجد هذا من وسائل الشرك، وهو كبيرة من الكبائر.

قال: «اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، فإذًا سبب اللعن أنهم اتخذوا قبور الأنبياء مساجد، والنبي ﷺ يلعن ويحذر، وهو في ذلك الموقف العصيب، فقام ذلك مقام آخر وصية أوصى بها ﷺ ألاتُتَّخذ القبور مساجد، فخالف كثير من الفئام في هذه الأمة وصيته ﷺ.

قوله: «اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» اتخاذ القبور مساجد يكون على أحد ثلاث صور:

الصورة الأولى: أن يَسجُد على القبر، يعني: يجعل القبر مكان سجوده: «اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» يعني: جعلوا القبر مكان السجود، هذه صورة، وهذه الصورة في الواقع لم تحصل بانتشار؛ لأن قبور الأنبياء في اليهود والنصارى لم تكن مباشِرة للناس يمكن أن يصلوا على القبر، وأن يسجدوا عليه، بل كانوا يعظمون قبور أنبيائهم، فلا يُصلُّوا عليها مباشرة، لكن قوله: «اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» أبلغ صوره أن يتحذ القبر نفسه مسجدًا، يعني: يصلى عليه مباشرة، وهذه أفظع تلك الأنواع، وهي التي تدل على أعظم وسيلة من وسائل الشرك والغلو بالقبر.

الصورة الثانية: أن يصلى إلى القبر، أن يتخذ القبر مسجدًا، يعني: أن يكون أمام القبر يصلي إليه، فإنه اتخذ القبر - وما حوله له حكمه - اتخذه مكانًا للتذلل والخضوع، والمسجد لا يُعنَى به مكان السجود الذي هو وضع الجبهة على الأرض فقط، وإنما يُعنَى به مكان التذلل والخضوع،

(١) انظر: لسان العرب (١٣/ ٣٨٧)، وتهذيب اللغة (٢/ ٢٤٠)، ومقاييس اللغة (٥/ ٢٥٢).

فاتخذوا قبورهم مساجد، يعني: جعلوها قبلة لهم؛ ولهذا نهى النبي ﷺ أن يُصلَّى إلى القبر؛ لأجل أن الصلاة إليه وسيلة من وسائل التعظيم، وهذا يوافق قول الشيخ رحمه الله في الباب: (**بَابُ مَا جَاءَ مَنْ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللَّهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟!**).

قوله: (**عِنْدَ قَبْرٍ**)، نفهم منه هذه الصورة، التي هي أن يكون أمامه القبر، فيجعل القبر بينه وبين القبلة تعظيمًا للقبر.

الصورة الثالثة: أن يتخذ القبر مسجدًا، بأن يَجعَل القبر في داخل بناء، وذلك البناء هو المسجد، فإذا دُفِنَ النبي، قام أولئك بالبناء عليه، فجعلوا حول قبره مسجدًا، واتخذوا ذلك المكان للتعبد وللصلاة فيه، هذه هي الصورة الثالثة، وهي أيضًا موافقة لقول الشيخ رحمه الله: (**عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ**)، وهذا يبين بعض المناسبة في إيراد هذا الحديث تحت الباب.

«**يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا**» يعني: ما سبب اللعن؟ لماذا لعن النبي ﷺ اليهود والنصارى في ذلك المقام العظيم، وهو أنه في سكرات الموت؟

السبب: أنه يريد أن يحذرالصحابة رضي الله عنهم من ذلك، قالت: «**يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا**»، وقد قَبِل الصحابة رضي الله عنهم تحذيره، وعملوا بوصيته، قالت: «**لَوْلاَ ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ**» يعني: أُظهِر وجُعِل قبره مع سائر القبور في البقيع أو نحو ذلك، ولكن كان من العلل التي جعلتهم لا ينقلونه ﷺ من مكانه الذي يُتوفَّى فيه، قوله هنا ﷺ: «**لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» قالت: «**يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا لَوْلاَ ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ**»، فهذه أحد علتين.

والعلة الثانية: قول أبي بكر رضي الله عنه إنه سمع النبي ﷺ يقول: «**مَا قُبِضَ نَبِيٌّ إِلَّا دُفِنَ حَيْثُ يُقْبَضُ**»[1].

(١) أخرجه ابن ماجه (١٦٢٨)، والبزار (١/ ٧٠، ١٣٠، ١٨٦)، وأبو يعلى (١/ ٣١، ٣٢)، والآجري في الشريعة (٥/ ٢٣٦١).

قالت: «غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ»، أو «خُشِيَ» تروى بالوجهين.

قوله: «غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ» يعني: ﷺ.

قوله: «أَنَّ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا» يعني: أن يتخذ قبره مسجدًا، ويجوز أن تقرأها «غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنَّ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا» يعني: خشي الصحابة ﷺ أن يُتخَذ قبره مسجدًا، وهذا تنبيه على إحدى العلتين.

الصحابة ﷺ قبلوا هذه الوصية، وجعلوا دفنه ﷺ في مكانه، وحجرة عائشة التي دُفِن فيها ﷺ كانت عائشة ﷺ أقامت جدارًا بينها وبين القبور، فكانت غرفة عائشة فيها قسمان: قسم فيه القبر، وقسم هي فيه.

وكذلك لما توفي أبو بكر ﷺ، ودُفِن بعد رسول الله ﷺ من جهة الشمال كانت أيضًا في ذلك المقام في جزء من الحجرة، ثم بعد ذلك لما دُفِن عمر ﷺ تركت الحجرة ﷺ، ثم أُغلِقت الحجرة، فلم يكن ثمَّ باب فيها يُدخَل، وإنما كان فيها نافذة صغيرة، وكانت الغرفة من بناء ليس من حجر ولا من بناء مجصَّص، وإنما كانت من البناء الذي كان في عهده ﷺ من خشب ونحو ذلك.

ثم بعد ذلك لما جاءت الزيادة في المسجد النبوي في عهد الوليد بن عبد الملك، وكان أمير المدينة يومذاك عمر بن عبد العزيز ﷺ، وأخذوا شيئًا من حجر زوجات النبي ﷺ، بقيت حجرة النبي ﷺ كذلك، فأخذوا من الروضة - روضة المسجد - أخذوا منها شيئًا، وجعلوا عليه بناء، فبنوه من ثلاث جهات - جدار آخر غير الجدار الأول - بنوه من ثلاث جهات، وجعلوا الجهة التي تكون شمالًا، يعني: جهة الشمال جعلوها مسنمة، جعلوها مثلثة قائمة هكذا، وصار عندنا الآن جداران:

الجدار الأول: مغلق تمامًا، وهو جدار حجرة عائشة، والجدار الثاني: الذي عُمِل في زمن عمر بن عبد العزيز ﷺ في زمن الوليد بن عبد الملك، جعلوا جهة الشمال - وهي عكس القبلة - جعلوها مسنمة؛ لأنه

في تلك الجهة جاءت التوسعة وسعوها من جهة الشمال، فخشوا أن يكون ذلك الجدار مربعًا، يعني: مسامتًا للمستقبِل، فيكون إذا استقبله أحد استقبالًا للقبر، فجعلوه مثلثًا يبعد كثيرًا عن الجدار الأول، وهو جدار حجرة عائشة رحمها الله؛ لأجل أن لا يمكن أحد أن يستقبل؛ لبعد المسافة، ولأجل أن الجدار صار مثلثًا.

ثم بعد ذلك بأزمان جاء جدار ثالث أيضًا، وبُني حول ذينك الجدارين، وهو الذي قال فيه ابن القيم رحمه الله في النونية في وصف دعاء النبي ﷺ بقوله: «**اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»[١] قال[٢]:

وَدَعَا بِأَنْ لَا يَجْعَلَ الْقَبْرَ الَّذِي ... قَدْ ضَمَّهُ وَثَنًا مِنَ الأَوْثَانِ

فَأَجَابَ رَبُّ العَالَمِينَ دُعَاءَهُ ... وَأَحَاطَهُ بِثَلَاثَةِ الجُدْرَانِ

حَتَّى غَدَتْ أَرْجَاؤُهُ بِدُعَائِهِ ... فِي عِزَّةٍ وَحِمَايَةٍ وَصِيَانِ

فالنبي ﷺ صار قبره في ثلاثة جدران، وكل جدار ليس فيه باب، ولا يمكن لأحد حتى في زمن الصحابة رضي الله عنهم - يعني: في زمن المتأخرين منهم في عهد الوليد وما قبله - لا يمكن أن يدخل ويقف على القبر بنفسه؛ لأنه صار ثمَّ جداران، وكل جدار ليس له باب، ثم بعد ذلك وُضِعَ الجدار الثالث، وهذا الجدار أيضًا كبير مرتفع إلى فوق، وضعت عليه القبة فيما بعد، وهذا الجدار أيضًا ليس له باب، فلا يستطيع الآن أحد أن يدخل إلى القبر، أو أن يصل القبر، أو أن يتمسح بالقبر، أو أن يرى قبر النبي ﷺ، ثم بعد ذلك وُضِع السور الحديدي هذا، وهذا السور الحديدي بينه وبين الجدار الثالث - الذي ذكرت - نحو متر ونصف في بعض المناطق، ونحو متر في بعضها، وبعضها نحو متر وثمانين إلى مترين في بعضها، يضيق

---

(١) سيأتي تخريجه (ص١٥٠).

(٢) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٣٥٢).

ويزداد، لكن من مشى، فإنه يمشي بين ذلك الجدار الحديدي وبين الجدار الثالث، فقبر النبي ﷺ عَمِل المسلمون بوصيته ﷺ وأُبعد تمامًا، فلا يمكن أن يصل أحدٌ إلى القبر، ولا يمكن أيضًا أن يُتخَذَ ذلك القبر مسجدًا؛ ولهذا لما جاء الخرافيون في الدولة العثمانية، جعلوا التوسعة التي هي من جهة الشرق جعلوا فيها ممرًا؛ لكي يُمكِّن من يريد أن يطوف بالقبر أو أن يصلي في تلك الجهة، ذلك الممر الشرقي - الذي هو قدر مترين أو نحو ذلك أو يزيد قليلًا - ذلك الممر الشرقي في عهد الدولة السعودية الأولى وما بعدها مُنِع من الصلاة فيه، فكأنه أُخرج من كونه مسجدًا؛ لأنه إذا كان من مسجد النبي ﷺ، فلا يجوز أن يمنعوا أحدًا من الصلاة فيه، فلما منعوا أحدًا أن يصلي فيه، جعلوا له حكم المقبرة، ولم يجعلوا له حكم المسجد، فلا يمكن لأحد أن يصلي فيه، بل يغلقونه وقت الصلاة، أما وقت السلام أو وقت الزيارة، فإنهم يفتحونه للمرور.

فإذًا تبين بذلك أن قبر النبي ﷺ لم يُتخَذ مسجدًا، وإنما دخلت الغرف بالتوسعة في عهد التابعين في المسجد، ولكن جهتها الشرقية خارجة عن المسجد، فصارت كالشيء الذي دخل في المسجد، ولكن حيطان متعددة تمنع أن يكون القبر في داخل مسجد النبي ﷺ، وإنما فيه أربعة جدران تفصل بين المسجد وبين قبر النبي ﷺ، يعني: مكان الدفن، وأعظم من ذلك - مما يدل على أخذ الصحابة والتابعين ﷺ ومن بعدهم بوصية النبي ﷺ هذه وسَدِّ الطرق الموصلة إلى الشرك به ﷺ، وباتخاذ قبره مسجدًا - أنهم أخذوا من الروضة الشريفة - التي هي روضة من رياض الجنة؛ كما قال ﷺ: **«مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي، رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ»**[(١)]، - أخذوا منها قدر ثلاثة أمتار؛ لكي يقوم الجدار الثاني، ثم يقوم الجدار الثالث، ثم يقوم

(١) أخرجه البخاري (١١٩٥)، ومسلم (١٣٩٠)، من حديث عبد الله بن زيد ﵁، وأخرجه البخاري (١١٩٦)، ومسلم (١٣٩١) من حديث أبي هريرة ﵁.

السور الحديدي، وأكثر من ثلاثة أمتار، فهذا من أعظم التطبيق، وهو أنهم أخذوا من الروضة، وأجازوا أن يأخذوا من المسجد لأجل أن يُحمَى قبر النبي ﷺ من أن يُتخَذ مسجدًا، وهذا ولا شك من أعظم الفقه في من فعل ذلك، ومن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بهذه الأمة، ومِنْ إجابة دعوة النبي ﷺ بقوله فيما سيأتي بعد هذا الباب: «**اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»[1].

إذًا فقوله ﷺ: «**لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ. يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا**»: فإنه ﷺ لم يتخذ قبره مسجدًا.

واليوم الموجود قد يكون صورته عند غير المتأمل وغير الفقيه صورته صورة قبر في داخل مسجد، وفي الحقيقة ليست حقيقته أنه قبر في داخل مسجد؛ لوجود الجدران المختلفة التي تفصل بين المسجد وبين القبر؛ ولأن الجهة الشرقية منه ليست من المسجد؛ ولهذا لما جاءت التوسعة الأخيرة، كان مبتدؤها من جهة الشمال بعد نهاية الحجرة بكثير؛ حتى لا تكون الحجرة في وسط المسجد من جهة أنه يكون ثمَّ توسعة من جهة الشرق، وثمَّ الروضة من جهة الغرب، فتكون وسط المسجد، فيكون ذلك من اتخاذ قبره مسجدًا ﷺ.

المقصود من هذا البيان المهم الذي ينبغي أن تعيه جيدًا: أن قبر النبي ﷺ ما اتخذ مسجدًا، ولكن وصيته ﷺ في التحذير قد أُخذ بها في مسجده وفي قبره، ولكن خالفتها الأمة في قبور الصالحين من هذه الأمة، فاتخذوا قبور بعض آل البيت مساجد، وعظموها كما تعظم الأوثان.

(١) سيأتي تخريجه (ص١٥٠).

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: «أَنَّهُ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ: إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِيَ مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»(١).

فَقَدْ نَهَى عنهُ في آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ أَنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ في السِّياقِ - مَنْ فعلَهُ، والصَّلاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ، وَهُوَ مَعْنَى قولِهَا: «خُشِيَ أَنَّ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»: فَإِنَّ الصَّحابةَ لَمْ يَكُونُوا لِيبنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلاةُ فِيهِ فَقَدِ اتُّخِذَ مَسْجِدًا، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فيهِ يُسَمَّى مَسْجِدًا؛ كَمَا قَالَ: «وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»(٢).

ش: قوله: (عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبدِ اللَّهِ). أي: ابن سفيان البجلي، وينسب إلى جده، صحابي مشهور، مات بعد الستين.

قوله: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ» أي: أمتنع عما لا يجوز لي أن أفعله.

والخلة فوق المحبة، والخليل هو المحبوب غاية الحب، مشتق من الخَلة - بفتح الخاء -، وهي تخلل المودة في القلب؛ كما قال الشاعر:

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢).

(٢) سبق تخريجه (ص١١٩).

. . . .

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي وَلِذَا سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلًا

هذا هو الصحيح في معناها؛ كما ذكره شيخ الإسلام وابن القيم وابن كثير وغيرهم رحمهم الله تعالى[١].

قال القرطبي: وإنما كان ذلك؛ لأن قلبه ﷺ قد امتلأ من محبة الله وتعظيمه ومعرفته، فلا يسع خُلَّة غيره.

قوله: «فَإِنَّ اللهِ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا» فيه بيان أن الخلة فوق المحبة[٢].

قال ابن القيم رحمه الله: وأما ما يظنه بعض الغالطين من أن المحبة أكمل من الخلة، وأن إبراهيم خليل الله، ومحمد حبيب الله. فمن جهلهم، فإن المحبة عامة، والخلة خاصة، وهي نهاية المحبة. وقد أخبر النبي ﷺ أن الله قد اتخذه خليلًا، ونفى أن يكون له خليل غير ربه، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها، ولعمر بن الخطاب، ومعاذ بن جبل وغيرهم رضي الله عنهم. وأيضًا فإن الله يحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب الصابرين، وخلته خاصة بالخليلين[٣].

قوله: «وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا». فيه بيان أن الصديق أفضل الصحابة.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٠٣)، والجواب الكافي (١٣٤).
(٢) انظر: مراتب المحبة في: مدارج السالكين (٣/ ٢٢، ٢٣)، وروضة المحبين (ص٤٧)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص١٦٤).
(٣) انظر: الجواب الكافي (٢٠٠).

. . . .

وفيه الرد على الرافضة وعلى الجهمية، وهما شر أهل البدع، وأخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة.

وبسبب الرافضة حدث الشرك، وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد. قاله المصنف رحمه الله، وهو كما قال بلا ريب.

وفيه إشارة إلى خلافة أبي بكر؛ لأن من كانت محبته لشخص أشد كان أولى به من غيره. وقد استخلفه على الصلاة بالناس، وغضب ﷺ لما قيل يصلي بهم عمر، وذلك في مرضه الذي توفى فيه ﷺ [(١)].

واسم أبي بكر: عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة الصديق الأكبر، خليفة رسول الله ﷺ، وأفضل الصحابة بإجماع من يعتد بقوله من أهل العلم. مات في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، وله ثلاث وستون سنة رضي الله عنه [(٢)].

قوله: «أَلَا». حرف استفتاح «أَلَا وَأَنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، . . .». الحديث.

قال الخلخالي: وإنكار النبي ﷺ صنيعهم هذا مخرج على وجهين:

أحدهما: أنهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيمًا.

الثاني: أنهم يجوزون الصلاة في مدافن الأنبياء والتوجه إليها حالة الصلاة، نظرًا منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة في تعظيم الأنبياء.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٦٤، ٧١٢، ٧١٣)، ومسلم (٤١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، وفيه: «. . . مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ. . .».

(٢) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ١٦٩).

....

والأول: هو الشرك الجلي. والثاني: الخفي، فلذلك استحقوا اللعن.

قوله: (فَقَدْ نَهَى عنهُ في آخِرِ حَيَاتِهِ، أي: كما في حديث جندب. وهذا من كلام شيخ الإسلام، وكذا ما بعده.

قوله: (ثُمَّ أَنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ في السِّياقِ - مَنْ فعلَهُ). كما في حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

قلت: فكيف يسوغُ بعد هذا التغليظ من سيد المرسلين أن تعظم القبور، ويبنى عليها، ويصلى عندها وإليها؟ هذا أعظم مشاقة ومحادة لله تعالى ولرسوله لو كانوا يعقلون.

قوله: (والصَّلاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ)، أي: من اتخاذها مساجد الملعون فاعله. وهذا يقتضي تحريم الصلاة عند القبور وإليها.

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا: «الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدٌ إِلَّا الْحَمَّامَ وَالْمَقْبَرَةَ». رواه أحمد وأهل السنن وصححه ابن حبان والحاكم[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: وبالجملة فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه وفهم عن رسول الله ﷺ مقاصده، جزم جزمًا لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة واللعن والنهي بصيغته - صيغة: (لا تفعلوا) وصيغة: (فإني أنهاكم عن ذلك) - ليس لأجل النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٢)، والترمذي (٣١٧)، وابن ماجه (٧٤٥)، وأحمد (١٨/ ٣٠٧، ٣١٢)، وابن حبان (٣/ ١٠٣، ٤/ ٣٢)، والحاكم (١/ ٢٥١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

....

اللاحقة لمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه، واتبع هواه، ولم يخش ربه ومولاه، وقل نصيبه أوعدم من لا إله إلا الله.

فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريد له، وغضب لربه أن يعدل به سواه، فأبى المشركون إلا معصية لأمره وارتكابًا لنهيه، وغرهم الشيطان بأن هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم لها أشد تعظيمًا وأشد فيهم غلوا، كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد.

ولعمر الله، من هذا الباب دخل الشيطان على عباد يعوق ويغوث ونسر، ودخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة، فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم، فهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها من العبودية وسلب خصائص الإلهية عنهم[١].

قال الشارح رحمه الله: وممن علل بخوف الفتنة بالشرك: الإمام الشافعي، وأبو بكر الأثرم، وأبو محمد المقدسي، وشيخ الإسلام وغيرهم - رحمهم الله -. وهو الحق الذي لا ريب فيه[٢].

قوله: (فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيبنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا). أي: لما علموا من تشديده في ذلك وتغليظه النهي عنه، ولعن من فعله.

قوله: (وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلاةُ فِيهِ فَقَدِ اتُّخِذَ مَسْجِدًا). أي: وإن

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ٢٠٨).

(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص٣٢٩).

....

لم يبن مسجدًا، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجدًا، يعني: وإن لم يقصد بذلك؛ كما إذا عرض لمن أراد أن يصلي، فأوقع الصلاة في ذلك الموضع الذي حانت الصلاة عنده من غير أن يقصد ذلك الموضع بخصوصه، فصار بفعل الصلاة فيه مسجدًا.

قوله: (كَمَا قَالَ: «وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»). أي: فسمى الأرض مسجدًا، تجوز الصلاة في كل بقعة منها إلا ما استثنى من المواضع التي لا تجوز الصلاة فيها، كالمقبرة ونحوها.

قال البغوي في شرح السنة: أراد أن أهل الكتاب لم تبح لهم الصلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، فأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا، تخفيفًا عليهم وتيسيرًا، ثم خص من جميع المواضع: الحمام والمقبرة والمكان النجس. انتهى[(١)].

الشرح:

سبب ذلك أنَّ الخِلةَ هي أعظم درجات المحبة، وهي التي تتخلل الروح، وتتخلل القلب وشغاف الصدر، بحيث لا يكون ثَمَّ مكان لغير ذلك الخليل؛ لهذا النبي ﷺ ليس له من أصحابه خليل قال: «**وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا**».

وجه الشاهد من هذا الحديث قوله بعد ذلك: «**أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**

---

(١) انظر: شرح السنة للبغوي (٢/ ٤١٢).

كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»، وهذا جاء في رواية أخرى أيضًا: «كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ»، وهذا هو الذي وقع في هذه الأمة، وهذا وسيلة من وسائل الشرك.

مناسبة الحديث للباب ظاهرة: من أن تحريم اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، مع أنه قد يكون العابد لا يعبد إلا الله؛ لأنها وسيلة من وسائل الشرك الأكبر، والوسائل تفضي إلى ما بعدها، وقد تقرر في القواعد الشرعية وأجمع عليها المحققون أن سد الذرائع الموصلة إلى الشرك وإلى المحرمات واجبة، فإن الذريعة التي توصل إلى المحرم يجب سدها؛ لأن الشريعة جاءت بسد أصول المحرمات وسد الذرائع إليها، فيجب أن يُغلَق كل باب من أبواب الشرك بالله، ومِنْ ذلك اتخاذ قبور الأنبياء والصاحين مساجد؛ ولهذا لا تصح الصلاة في مسجد بُني على قبر، المسجد الذي يبنى على قبر فإنه لا تصح الصلاة فيه؛ لأن ذلك منافٍ لنهي النبي ﷺ، النبي ﷺ نهى، وهم فعلوا، والنهي توجه إلى بقعة الصلاة، فبطلت الصلاة، فالذي يصلي في مسجد أقيم على قبر صلاته باطلة لا تصح؛ لقوله ﷺ: «أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ» يعني: بالبناء عليها وبالصلاة حولها: «فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ» قوله: (فَقَدْ نَهَى عنهُ في آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ أَنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ في السِّياقِ - مَنْ فعلَهُ، والصَّلاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ، وَهُوَ مَعْنَى قولِهَا: «خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»). يعني: الصلاة عند القبور لا تجوز، سواء صَلَّى إليها أو صَلَّى عندها رجاء بركة ذلك المكان، أو لم يَرجُ بركة ذلك المكان، وإنما صلَّى صلاة نافلة غير صلاة الجنازة عندها، كل هذا لا يجوز سواء كان ثَمَّ بناء على القبر كمسجد، أو كان قبرًا أو قبرين في غير بناء عليهما، فإن الصلاة لا تجوز؛ ولهذا جاء في الصحيح أن

النبي ﷺ قال: «**اجْعَلُوا مِنْ صَلَاتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ، وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا**»[١]، وفي البخاري أيضًا معلقًا من كلام عمر رضي الله عنه قال: «**وَرَأَى عُمَرُ ابْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه يُصَلِّي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: القَبْرَ، القَبْرَ، وَلَمْ يَأْمُرْهُ بِالإِعَادَةِ**»[٢] يعني: احذر القبر، احذر القبر، وهذا يدل على أن الصلاة عند القبور لا تجوز؛ لأنها وسيلة من وسائل الشرك، وأعظم إذا كان ثَمَّ بنيان واتخاذ لما حول القبر من الأبنية مسجدًا للصلاة، والدعاء، والقراءة، ونحو ذلك.

قوله: (وَهُوَ مَعْنَى قولِهَا: «خُشِيَ أَنَّ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»: فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيبنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلاةُ فِيهِ فَقَدِ اتُّخِذَ مَسْجِدًا، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فيهِ يُسَمَّى مَسْجِدًا؛ كَمَا قَالَ: «وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»). وهذا ظاهر.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٢)، ومسلم (٧٧٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه البخاري معلقًا مجزومًا به (١/ ٥٢٤ فتح)، باب هل تنبش قبور المشركين.

وَلِأَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءُ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ». وَرَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي صَحِيحِهِ(١).

ش: قوله: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ» بكسر الشين جمع شرير.

قوله: «مَنْ تُدْرِكُهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءُ». أي: مقدمتها؛ كخروج الدابة، وطلوع الشمس في مغربها. وبعد ذلك ينفخ في الصور نفخة الفزع.

قوله: «وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ». معطوف على خبر إن في محل نصب على نية تكرار العامل، أي: وإنَّ من شرارِ النَّاسِ الذين يتخذُون القبور مساجد أي بالصلاة عندها وإليها، وبناء المساجد عليها. وتقدم في الأحاديث الصحيحة أن هذا من عمل اليهود والنصارى، وأن النبي ﷺ لعنهم على ذلك؛ تحذيرًا للأمة أن يفعلوا مع نبيهم وصالحيهم مثل اليهود والنصارى. فما رَفَعَ أكثرهم بذلك رَأْسًا، بل اعتقدوا أنَّ هذا الأمر قربة لله تعالى، وهو مما يبعدهم عن الله، ويطردهم عن رحمته ومغفرته. والعجب أن أكثر من يدعي العلم ممن هو من هذه الأمة لا ينكرون ذلك، بل ربما استحسنوه ورغبوا في فعله، فلقد اشتدت غربة الإسلام، وعاد المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والسنة بدعة والبدعة سنة، نشأ على هذا الصغير، وهرم عليه الكبير.

قال شيخ الإسلام: أما بناء المساجد على القبور، فقد صرح عامة

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٥)، وابن حبان (٦٨٤٧).

....

الطوائف بالنهي عنه؛ متابعة للأحاديث الصحيحة، وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريمه، ثم ذكر الأحاديث في ذلك، إلى أن قال: وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين، أو الملوك وغيرهم تتعين إزالتها بهدم أو غيره. هذا مما لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء المعروفين(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يجب هدم القباب التي بنيت على القبور؛ لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ(٢).

وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما في القرافة من الأبنية، منهم ابن الجُمَّيزي، والظهير التَّزْمَنتي وغيرهما.

وقال القاضي ابن كجّ: ولا يجوز أن تجصص القبور، ولا أن يبنى عليها قباب، ولا غير قباب، والوصية بها باطلة.

وقال الأذْرُعي: وأما بطلان الوصية ببناء القباب وغيرها من الأبنية وإنفاق الأموال الكثيرة، فلا ريب في تحريمه.

وقال القرطبي في حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: نهى أن يجصص القبر أو يبنى عليه. وبظاهر هذا الحديث قال مالك، وكره البناء والجص على القبور. وقد أجازه غيره، وهذا الحديث حجة عليه.

وقال ابنُ رُشْد: كره مالك البناء على القبر، وجعل البلاطة المكتوبة، وهو من بدع أهل الطول، أحدثوه إرادة الفخر والمباهاة والسمعة، وهو مما لا اختلاف عليه.

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٦٧).

(٢) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ٢٢٨).

....

وقال الزَّيْلعي في شرح الكنز: ويكره أن يبنى على القبر. وذكر قاضي خان: أنه لا يجصص القبر، ولا يبني عليه؛ لما روى عن النبي ﷺ أنه نهى عن التجصيص وللبناء فوق القبر. والمراد بالكراهة - عند الحنفية رحمهم الله - كراهة التحريم. وقد ذكر ذلك ابن نجيم في شرح الكنز(١).

وقال الشافعي رحمه الله: أكره أن يعظم مخلوق، حتى يجعل قبره مسجدًا؛ مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس(٢). وكلام الشافعي رضي الله عنه يبين أن مراده بالكراهة كراهة التحريم.

قال الشارح رحمه الله: وجزم النووي رحمه الله في شرح المهذب بتحريم البناء مطلقًا(٣)، وذكر في شرح مسلم نحوه أيضًا(٤).

وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة إمام الحنابلة صاحب المصنفات الكبار كالمغنى، والكافى وغيرهما رحمه الله: ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور؛ لأن النبي ﷺ قال: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى...» الحديث.

وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام: تعظيم الأموات واتخاذ صورهم، والتمسح بها والصلاة عندها، انتهى(٥).

---

(١) انظر: البحر الرائق (٢/ ٢٠٩).
(٢) انظر: الأم (١/ ٢٧٨).
(٣) انظر: المجموع شرح المهذب (٥/ ٢٧٠).
(٤) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم (٧/ ٣٧).
(٥) انظر: المغني (٢/ ٥٠٨).

....

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وأما المقبرة، فلا فرق فيها بين الجديدة والعتيقة، انقلبت تربتها أو لم تنقلب. ولا فرق بين أن يكون بينه وبين الأرض حائل أو لا؛ لعموم الاسم وعموم العلة؛ ولأن النبي ﷺ لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ومعلوم أن قبور الأنبياء لا تنجس.

وبالجملة فمن علل النهي عن الصلاة في المقبرة بنجاسة التربة خاصة، فهو بعيد عن مقصود النبي ﷺ، ثم لا يخلو أن يكون القبر قد بُني عليه مسجد، فلا يصلى في هذا المكان، سواء صلي خلف القبر أو أمامه بغير خلاف في المذهب؛ لأن النبي ﷺ قال: «أَلَا وَأَنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»، وخص قبور الأنبياء؛ لأن عكوف الناس على قبورهم أعظم، واتخاذها مساجد أشد، وكذلك إن لم يكن عليه بني مسجد، فهذا قد ارتكب حقيقة المفسدة التي كان النهي عن الصلاة عند القبور من أجلها، فإن كل مكان صلي فيه يسمى مسجدًا؛ كما قال ﷺ: «وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»[1]، وإن كان موضع قبر أو قبرين.

وقال بعض أصحابنا: لا يمنع الصلاة فيها؛ لأنه لا يتناولها اسم المقبرة، وليس في كلام أحمد ولا بعض أصحابه هذا الفرق، بل عموم كلامهم يقتضي منع الصلاة عند كل قبر.

وقد تقدم عن علي رضي الله عنه أنه قال: «لا أصلي في حمام ولا عند قبر».

---

(١) سبق تخريجه (ص١١٩).

....

فعلى هذا ينبغي أن يكون النهي متناولًا لحريم القبر وفنائه، ولا تجوز الصلاة في مسجد بني في مقبرة، سواء كان له حيطان تحجز بينه وبين القبور أو كان مكشوفًا.

قال في رواية الأثرم: إذا كان المسجد بين القبور لا يصلى فيه الفريضة، وإن كان بينها وبين المسجد حاجز فرخص أن يصلى فيه على الجنائز ولا يصلى فيه على غير الجنائز. وذكر حديث أبي مرثد عن النبي ﷺ: «لَا تُصَلُّوا عَلَى الْقُبُورِ...»[١]، وقال: إسناده جيد، انتهى[٢].

ولو تتبعنا كلام العلماء في ذلك، لاحتمل عدة أوراق.

فتبين بهذا أن العلماء - رحمهم الله - بينوا أن علة النهي ما يؤدي إليه ذلك من الغلو فيها وعبادتها من دون الله؛ كما هو الواقع، والله المستعان.

وقد حدث بعد الأئمة الذين يعتد بقولهم أناس كثر في أبواب العلم بالله اضطرابهم، وغلظ عن معرفة ما بعث الله به رسوله من الهدى والعلم حجابهم، فقيدوا نصوص الكتاب والسنة بقيود أوهنت الانقياد، وغيروا بها ما قصده الرسول ﷺ بالنهي وأراد، فقال لتنجسها بصديد الموتى.

وهذا كله باطل من وجوه: منها: أنه من القول على الله بلا علم، وهو حرام بنص الكتاب.

ومنها: أن ما قاله لا يقتضي لعن فاعله والتغليظ عليه، وما المانع له أن يقول: من صَليَّ في بقعة نجسة، فعليه لعنة الله.

(١) أخرجه مسلم (٩٧٢).

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٧٢).

....

ويلزم على ما قاله هؤلاء أن النبي ﷺ لم يبين العلة، وأحال الأمة في بيانها على من يجيء بعده ﷺ وبعد القرون المفضلة والأئمة، وهذا باطل قطعًا وعقلًا وشرعًا، لا يلزم عليه من أن الرسول ﷺ عجز عن البيان أو قصر في البلاغ، وهذا من أبطل الباطل.

فإن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين، وقدرته في البيان فوق قدرة كل أحد، فإذا بطل اللازم، بطل الملزوم.

ويقال أيضًا: هذا اللعن والتغليظ الشديد إنما هو فيمن اتخذ قبور الأنبياء مساجد، وجاء في بعض النصوص ما يعم الأنبياء وغيرهم، فلو كانت هذه هي العلة، لكانت منتفية في قبور الأنبياء؛ لكون أجسادهم طرية لا يكون لها صديد يمنع من الصلاة عند قبورهم، فإذا كان النهي عن اتخاذ المساجد عند القبور يتناول قبور الأنبياء بالنص، علم أن العلة ما ذكره هؤلاء العلماء الذين قد نقلت أقوالهم.

والحمد لله على ظهور الحجة وبيان المحجة، والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الشرح:

وجه الشاهد من هذا الحديث: أنه قال: «وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ» يعني: أنهم من شرار الناس، فالذين يتخذون القبور مساجد من شرار الناس؛ وذلك لأن اتخاذ القبور مساجد وسيلة من وسائل الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: «وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ» هذا يعمُّ كلَّ متخذ القبر مسجدًا، سواء اتخذه بالصلاة عليه، أو بالصلاة إليه، أو بالصلاة عنده، فذلك القصد للصلاة عند القبر يجعل من قَصَد في شرار الناس الذين وصفهم النبي ﷺ بذلك.

ومناسبة هذا الحديث للباب ظاهرة: فإنه ذَكَر أن من شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد، والقصد من اتخاذ القبر مسجدًا أن يَعبُدَ الله عند قبر ذلك الرجل الصالح، فكيف حال الذي توجه إلى النبي ﷺ بالعبادة؟!! القبر لا يُخلَص إليه، والاستغاثة بالنبي ﷺ وتأليه النبي ﷺ هذا قد يقع بحسب الاعتقادات وبحسب المناداة؛ كما حصل من الجاهليين مناداة الملائكة واتخاذ الملائكة آلهة مع الله عز وجل .

كذلك اتخاذ الأولياء معبودين، هل هؤلاء من خيار الناس عند الله؟!! بل هم أشر من الذين وصفهم النبي ﷺ بقوله: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءُ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»، فإن الذي اتخذ القبر مسجدًا ملعون بلعنة النبي ﷺ، ولوكان لم يعبد إلا الله عز وجل ، فكيف حال الذي عَبَد صاحب ذلك القبر؟!! نسأل الله العافية والسلامة من كل وسائل الشرك.

تأمل هذا مع ما فشا في بلاد المسلمين من البناء على القبور والقباب عليها، ومن بناء المشاهد وتعظيم ذلك، وتوجيه الناس إليها، وذِكْر الحكايات الطويلة في مناقب أولئك الأولياء، وفي إجابتهم للدعوات، وإغاثتهم للهفات، ونحو ذلك، يتبين لك غربة الإسلام أشد غربة في هذه الأزمنة وما قبلها، كيف إذا قالوا: إن ذلك جائز، وذلك توحيد!! بل كيف إذا اتهموا من نهاهم عن ذلك بعدم المعرفة، وعدم الفهم، وهو يدعوهم إلى الله عز وجل وهم يدعونه إلى النار، نسأل الله السلامة والعافية.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: مَا ذَكَرَ الرَّسُولُ ﷺ فِيمَنْ بَنَى مَسْجِدًا يُعْبَدُ اللهُ فِيهِ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، وَلَوْ صَحَتْ نِيَّةُ الْفَاعِلِ.

الثَّانِيَةُ: النَّهْيُ عَنِ التَّمَاثِيلِ، وَغِلَظُ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ.

الثَّالِثَةُ: الْعِبْرَةُ فِي مُبَالَغَتِهِ ﷺ فِي ذَلِكَ، كَيْفَ بَيَّنَ لَهُمْ هَذَا أَوَّلًا، ثُمَّ قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسٍ قَالَ مَا قَالَ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ فِي السِّيَاقِ لَمْ يَكْتَفِ بِمَا تَقَدَّمَ.

الرَّابِعَةُ: نَهْيُهُ عَنْ فِعْلِهِ عِنْدَ قَبْرِهِ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ الْقَبْرُ.

الْخَامِسَةُ: أَنَّهُ مِنْ سُنَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي قُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ.

السَّادِسَةُ: لَعْنُهُ إِيَّاهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

السَّابِعَةُ: أَنَّ مُرَادَهُ ﷺ تَحْذِيرُهُ إِيَّانَا عَنْ قَبْرِهِ.

الثَّامِنَةُ: الْعِلَّةُ فِي عَدَمِ إِبْرَازِ قَبْرِهِ.

التَّاسِعَةُ: فِي مَعْنَى اتِّخَاذِهَا مَسْجِدًا.

الْعَاشِرَةُ: أَنَّهُ قَرَنَ بَيْنَ مَنِ اتَّخَذَهَا مَسْجِدًا وَبَيْنَ مَنْ تَقُومُ عَلَيْهِمُ السَّاعَةُ، فَذَكَرَ الذَّرِيعَةَ إِلَى الشِّرْكِ قَبْلَ وُقُوعِهِ مَعَ خَاتِمَتِهِ.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: ذِكْرُهُ فِي خُطْبَتِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسٍ: الرَّدُّ عَلَى الطَّائِفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ هُمَا شَرُّ أَهْلِ الْبِدَعِ، بَلْ أَخْرَجَهُمْ بَعْضُ السَّلَفِ مِنَ الثِّنْتَيْنِ وَالسَّبْعِينَ فِرْقَةً، وَهُمُ الرَّافِضَةُ وَالْجَهْمِيَّةُ وَبِسَبَبِ الرَّافِضَةِ حَدَثَ الشِّرْكُ وَعِبَادَةُ الْقُبُورِ، وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ بَنَى عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ.

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: مَا بُلِيَ بِهِ ﷺ مِنْ شِدَّةِ النَّزْعِ.

الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: مَا أُكْرِمَ بِهِ مِنَ الْخُلَّةِ.

الرَّابِعَةَ عَشَرَ: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا أَعْلَى مِنَ الْمَحَبَّةِ.

الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الصِّدِّيقَ أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ.

السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: الْإِشَارَةُ إِلَى خِلَافَتِهِ.

٢٠ - بَابُ

مَا جَاءَ أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مَنْ دُونِ اللَّهِ

ش: قوله: (بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مَنْ دُونِ اللَّهِ).

الشرح:

قوله: (بَابُمَا جَاءَ أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مَنْ دُونِ اللهِ). الغلو في قبور الصالحين وسيلة من وسائل الشرك، بل يصل الغلو إلى أن يكون شركًا بالله عز وجل، وأن يُصيِّر ذلك القبر وثنًا يُعبَد، فالغلو درجات مَرَّ علينا في الأبواب قبله بعض الغلو في القبور، وهنا بين أن الغلو يصل إلى أن يصير تلك القبور أوثانًا تُعبَد من دون الله.

و(الْغُلُوَّ) هو: مجاوزة الحد[1]، و(القبور) - قبور الصالحين وغير الصالحين - صفتها في الشرع واحدة، لم يميز الشرع، ولم يأتِ دليل في الشريعة بأن قبر الصالح يُميز عن قبر غيره، بل القبور تتساوى هذا وهذا لا يُفرَّق بين قبر صالح وبين قبر طالح، بل الصفة واحدة، وهو إما أن يكون القبر في ظاهره مسنمًا، وإما أن يكون مربعًا، وهذه الصورة من حيث الظاهر واحدة.

---

(١) راجع معنى الغلو (ص٨٤).

فنهى النبي ﷺ عن الكتابة عليها، وعن تجصيص القبر، وعن رفع القبر، في أنواع من السنن التي جاءت في أحكام القبور، وهذا لأجل سد الطرق التي توصل إلى الغلو في قبور الصالحين.

فإذًا مجاوزة الحد في قبور الصالحين هي مجاوزة ما أُمِر به أو نُهِي عنه في القبور؛ لأن قبور الصالحين لا تختلف عن قبور غير الصالحين، فالغلو فيها يكون بالكتابة عليها، يكون برفعها، يكون بالبناء عليها، يكون بأن تُتخَذ مساجد، يكون الغلو فيها - ذلك الذي سبق كله من جهة الوسائل - يكون الغلو في قبور الصالحين بأن يُجعَل القبر وسيلة من الوسائل التي تقرِّب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويُجعَل القبر أو من في القبر شفيعًا لهم عند الله عَزَّوَجَلَّ، يُجعَل القبر له حق أن يُنذَر له، أو أن يُذبَح له، أو أن يُستشفَع بترابه اعتقادًا أنه وسيلة عند الله عَزَّوَجَلَّ، ونحو ذلك من أنواع الشرك الأكبر بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لهذا الغلو في قبور الصالحين يكون بمجاوزة ما أذن فيها، فمن المجاوزة ما هو من الوسائل، ومن المجاوزة ما هو من اتخاذها أوثانًا من دون الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مَنْ دُونِ اللهِ**).

وقوله: (يُصَيِّرُهَا) يعني: يجعلها، قد يكون جَعْل الوسائل للغايات، يعني: أن الغلو صار وسيلة لاتخاذها أوثانًا، وقد يكون أن الغلو جعلها وثنًا يُعبَد من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا هو الذي حصل، ويُرَى في البلاد من أن القبور صارت أوثانًا تُعبَد من دون الله لما أُقيمَت عليها المشاهد والقباب، ودُعِي الناس إليها، وذُبِح لها، وقُبِلت النذور لها، وصار يُطَاف حولها، ويُعكَف عندها، ونحو ذلك من أنواع الشرك الأكبر بالله.

وَرَوَىٰ مَالِكٌ فِي الـمُوطَّأِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»(١).

ش: هذا الحديث رواه مالك مرسلًا عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار: «أن رسول الله ﷺ قال...» الحديث.

ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن ابن عجلان عن زيد بن أسلم به، ولم يذكر عطاء، ورواه البزار عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا.

وله شاهد عند الإمام أحمد بسنده عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه: «اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا، لَعَنَ اللَّهُ قَوْمًا اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»(٢).

قوله: (وَرَوَىٰ مَالِكٌ في المُوطَّأِ). هو الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي، أبو عبدالله المدني. إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة، وأحد المتقنين للحديث؛ حتى قال البخاري: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر، مات سنة تسع وسبعين ومائة. وكان مولده سنة ثلاث وتسعين، وقيل: أربع وتسعين. وقال الواقدي: بلغ تسعين سنة.

قوله: «اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ» قد استجاب الله دعاءه.

---

(١) أخرجه مالك (٨٥)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٤٥)، والبزار (١٢/ ٢١٦، ١٤/ ١٦٣).
(٢) أخرجه أحمد (١٢/ ٣١٤).

. . . .

كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [(١)]:

فَأَجَابَ رَبُّ العَالَمِينَ دُعَاءَهُ وَأَحَاطَهُ بِثَلاثَةِ الجُدْرَانِ

حَتَّى غَدتْ أَرْجَاؤهُ بْدُعَائِهِ فِي عِزةٍ وَحِمَايَةٍ وَصِيَانِ

ودل الحديث على أن قبر النبي ﷺ لو عبد، لكان وثنًا، لكن حماه الله تعالى بما حال بينه وبين الناس، فلا يوصل إليه.

ودل الحديث على أن الوثن هو ما يباشره العابد من القبور والتوابيت التي عليها.

وقد عظمت الفتنة بالقبور لتعظيمها وعبادتها؛ كما قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَتَّخِذُهَا النَّاسُ سُنَّةً، فَإِذَا غُيِّرَتْ قَالُوا: غُيِّرَتِ السُّنَّةُ»[(٢)] انتهى[(٣)].

ولخوف الفتنة نهى عمر عن تتبع آثار النبي ﷺ.

قال ابن وضاح: سمعت عيسى بن يونس يقول: «أَمَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِقَطْعِ الشَّجَرَةِ الَّتِي بُويِعَ تَحْتَهَا النَّبِيُّ ﷺ، فَقَطَعَهَا؛ لِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَذْهَبُونَ فَيُصَلُّونَ تَحْتَهَا، فَخَافَ عَلَيْهِمُ الْفِتْنَةَ»[(٤)].

---

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٣٥٢).

(٢) أخرجه الدارمي (١٩١)، وابن ماجه (٢٨٦٥)، والبدع لابن وضاح (٨٠).

(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص٣٤٠).

(٤) أخرجه ابن وضاح في البدع (١٠٢)، وابن سعد في الطبقات (٢/ ١٠٠)، وابن أبي شيبة (٢/ ١٥٠).

....

وقال المعرور بن سويد: «خَرَجْتُ مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ مَنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا صَلَّى بِنَا الْغَدَاةَ، ثُمَّ رَأَى النَّاسَ يَذْهَبُونَ مَذْهَبًا فَقَالَ: أَيْنَ يَذْهَبُ هَؤُلَاءِ؟ قِيلَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَسْجِدٌ صَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُمْ يَأْتُونَ يُصَلُّونَ فِيهِ، فَقَالَ: أَنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِمِثْلِ هَذَا، يَتَّبِعُونَ آثَارَ أَنْبِيَائِهِمْ فَيَتَّخِذُونَهَا كَنَائِسَ وَبِيَعًا، مَنْ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فِي هَذِهِ الْمَسَاجِدِ فَلْيُصَلِّ، وَمَنْ لَا فَلْيَمْضِ، وَلَا يَتَعَمَّدَهَا»[1].

وفي مغازي ابن إسحاق من زيادات يونس بن بكير عن أبي خلدة خالد ابن دينار. حدثنا أبو العالية قال: لما فتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريرًا عليه رجل ميت، عند رأسه مصحف. فأخذنا المصحف، فحملناه إلى عمر، فدعا له كعبًا، فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل قرأه من العرب، قرأته مثل ما أقرأ القرآن. فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد. قلت: فماذا صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبرًا متفرقة. فلما كان الليل دفناه، وسوينا القبور كلها لنعميه عن الناس لا ينبشونه. قلت: وما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره، فيمطرون. فقلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له دانيال. فقلت: منذ كم وجدتموه مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة.

(١) أخرجه ابن وضاح في البدع (١٠٠)، وعبد الرزاق (١١٨/٢).

. . . .

قلت: ما كان تغير منه شيء؟ قال: لا، إلا شعيرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تُبليها الأرضُ[1].

قال ابن القيم رحمه الله: ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم من تعمية قبره لئلا يفتتن به، ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به، ولو ظفر به المتأخرون، لجالدوا عليه بالسيف، ولعبدوه من دون الله[2].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وهو إنكار منهم لذلك، فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها - ولم يستحب الشارع قصدها -، فهو من المنكرات، وبعضه أشد من بعض، سواء قصدها ليصلي عندها، أو ليدعو عندها، أو ليقرأ عندها، أو ليذكر الله عندها، أو لينسك عندها، بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التى لم يشرع تخصيصها به لا نوعًا ولا عينًا، إلا أن ذلك قد يجوز بحكم الاتفاق، لا لقصد الدعاء فيها؛ كمن يزورها ويسلم عليها، ويسأل الله العافية له وللموتى؛ كما جاءت به السنة. وأما تحرى الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه فى غيره، فهذا هو المنهى عنه. انتهى ملخصًا[3].

قوله: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ». فيه تحريم البناء على القبور، وتحريم الصلاة عندها، وأن ذلك من الكبائر.

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٢/ ٣٧).
(٢) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ٢٢٢).
(٣) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٨١).

....

وفي القِرَى للطبري من أصحاب مالك عن مالك أنه كره أن يقول: زرت قبر النبي ﷺ، وعلل ذلك بقوله ﷺ: «اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ». الحديث.

كره إضافة هذا اللفظ إلى القبر؛ لئلا يقع التشبه بفعل أولئك، سَدًّا للذريعة[١].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: ومالك قد أدرك التابعين، وهم أعلم الناس بهذه المسألة، فدل ذلك على أنه لم يكن مَعروفًا عِندهم ألفاظ زيارة قبر النبي ﷺ.

إلى أن قال: وقد ذكروا أسباب كراهته لأن يقول: زُرت قبر النبي ﷺ؛ لأن هذا اللفظ قد صار كثير من الناس يريد به الزيارة البدعية، وهو قصد الميت لسؤاله ودعائه، والرغبة إليه في قضاء الحوائج، ونحو ذلك مما يفعله كثير من الناس، فهم يعنون بلفظ الزيارة مثل هذا. وهذا ليس بمشروع باتفاق الأئمة.

وكَره مالك أن يتكلم بلفظ مجمل يدل على معنى فاسد، بخلاف الصلاة والسلام عليه، فإن ذلك مما أمر الله به. أما لفظ الزيارة في عموم القبور، فلا يفهم منها مثل هذا المعنى.

أَلا ترى إلى قوله: «فَزُورُوا الْقُبُورَ؛ فَأَنَّهَا تُذَكِّرُكُمُ الْآخِرَةَ». مع زيارته لقبر أمه[٢]. فإن هذا يتناول قبور الكفار، فلا يفهم من ذلك زيارة

(١) انظر: القِرَي لقاصد أم القرى (ص٦٢٩).

(٢) أخرجه مسلم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

الميت لدعائه وسؤاله والاستغاثة به، ونحو ذلك مما يفعله أهل الشرك والبدع، بخلاف ما إذا كان المزور معظمًا في الدين كالأنبياء والصالحين، فإنه كثيرًا ما يعني بزيارة قبورهم هذه الزيارة البدعية الشركية؛ فلهذا كره مالك ذلك في مثل هذا، وإن لم يكره ذلك في موضع آخر ليس فيه هذه المفسدة.ا.هـ[١].

وفيه: أَنَّ النبي ﷺ لم يستعذ إلا مما يُخاف وقوعه. ذكره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ.

الشرح:

قوله: «**اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**». هذه استعاذة ودعاء لخوف أن يقع ذلك، ولوكان ذلك لا يقع أصلًا، ولا يمكن أن يقع لما دعا النبي ﷺ بذلك الدعاء العظيم، بل دعا أن لا يُجعَل القبر وثنًا يُعبَد كما جُعِلت قبور غيره من الأنبياء والمرسلين ﷺ، فإنَّ عددًا من قبور الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلاة والسلام - اتُخِذَت أوثانًا تُعبَد قال: «**اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**». معنى ذلك أن القبر يمكن أن يكون وثنًا يعبد، قال ﷺ: «**اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»، فالغاية أن يكون القبر وثنًا يعبد، ودعا النبي ﷺ بأن لا يكون، والوسيلة إلى ذلك ما جاء بعد ذلك؛ قال: «**اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»، وهذا هو الغلو غُلو الوسائل، فاتخاذ قبور الأنبياء مساجد غلو من غلو الوسائل، يصير تلك القبور أوثانًا،

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٧٦٢)، ومجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٥٨).

فالنبي ﷺ في هذا الحديث جمع بين ذ كر الوسيلة، والتنفير منها، واشتداد غضب الله على من فعلها، وذِكْر نهاية ما تصل إليه بأصحابها تلك الوسيلة، وهي أَنْ تكون القبور أوثانًا تعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ .

فإذًا هذا الحديث فيه بيان أن القبر يمكن أن يكون وثنًا، والخرافيون يقولون: القبور لا يمكن أن تكون أوثانًا، والأوثان هي أوثان الجاهلية وأصنام الجاهلية.

ونقول: إن الجاهليين إذا كانوا تَعلقوا بأَصنام، وبأحجار، وبأشجار، وبغير ذلك من الأشياء، واعتقدوا فيها، ووصلوا فيها إلى الشرك الأكبر، مع أن المبرر العقلي والمبرر النفسي غير قوي فيها، فلأَن تُتخَذ قبورُ الصالحين والأنبياء والمرسلين أوثانًا، أو أن يُتوجَّه إلى أصحابها بالعبادة ذلك من باب أولى؛ لأَنَّ تعلق القلوب بالصالحين أولى من تعلقها بالأحجار، تعلق القلوب بالأنبياء والمرسلين أولى من تعلقها بالجن، أو تعلقها بالأشجار، أو بالأحجار، أو نحو ذلك.

فإذًا سَببُ الشِّركِ ووسيلة الشرك في القبور أولى وأظهر من النظر في الأصنام ونحو ذلك؛ لأنها جميعًا من جهة اعتقاد القلب وتأثير تلك الأصنام والأوثان في الحالين جميعًا في الشفاعة عند الله، فأولئك المشركون يقولون في آلهتهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقالوا أيضًا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]، والعصور التي فشا فيها الشرك إذا سألتهم يقولون: هذا توسل، وهذا استشفاع، والحال واحدة، والسبيل الذي جعل تلك القبور أوثانًا هو اتخاذ تلك القبور مساجد، والبناء عليها، والحث على مجيئها، وذِكْر الكرامات التي تحصل عندها، أو إجابة الدعوات عندها، أو التبرك بها، إلى غير ذلك.

وَلابْنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفيانَ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ مُجاهِدٍ فِي قولِهِ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩]، قَالَ: «كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قَبرِهِ»[١].

وَكَذَا قَالَ أَبُو الجَوْزَاءِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ للحَاجِّ»[٢].

ش: قوله: (وَلابْنِ جَرِيرٍ) هو الإمام الحافظ محمد بن جرير بن يزيد الطبري، صاحب التفسير والتاريخ والأحكام وغيرها. قال ابن خزيمة: لا أعلم على الأرض أعلم من محمد بن جرير. وكان من المجتهدين لا يقلد أحدًا. وله أصحاب يتفقهون على مذهبه ويأخذون بأقواله. ولد سنة أربع وعشرين ومائتين، ومات ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة.

قوله: (عَنْ سُفيانَ) الظاهر: أنه سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله الكوفي، ثقة حافظ فقيه إمام عابد، كان مجتهدًا، وله أتباع يتفقهون على مذهبه. مات سنة إحدى وستين ومائة، وله أربع وستون سنة.

قوله: (عَنْ مَنْصُورٍ) هو ابن المعتمر بن عبد الله السلمي ثقة ثبت فقيه. مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

قوله: (عَنْ مُجاهِدٍ) هو ابن جبر - بالجيم الواحدة - أبو الحجاج المخزومي مولاهم المكي، ثقة، إمام في التفسير، أخذ عن ابن عباس

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٧/ ٥٨).
(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٧/ ٥٩).

....

وغيره ﵄. مات سنة أربع ومائة، قاله يحيى القطان، وقال ابن حبان: مات سنة اثنتين أو ثلاث ومائة وهو ساجد، ولد سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر ﵁.

قوله: «كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قَبرِهِ».

في رواية: «فيطعم من يمر من الناس. فلما مات عبدوه، وقالوا: هو اللات». رواه سعيد بن منصور.

ومناسبته للترجمة: أنهم غَلوا فيه لصلاحه، حتى عَبدُوه، وصَار قبره وثنًا من أوثان المشركين.

قوله: (وَكَذَا قَالَ أبو الجَوْزَاءِ). هو أوس بن عبد الله الرَّبْعي، فتح الراء والباء، مات سنة ثلاث وثمانين.

قال البخاري: حدثنا مسلم - وهو ابن إبراهيم - حدثنا أبو الأشهب حدثنا أبو الجوزاء عن ابن عباس قال: «كَانَ اللَّاتُ رَجُلًا يَلُتُّ سَوِيقَ الحَاجِّ»[١].

قال ابن خزيمة: وكذا العزى، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، بين مكة والطائف، كانت قريش يعظمونها؛ كما قال أبو سفيان يوم أحد: «لَنَا الْعُزَّى، وَلاَ عُزَّى لَكُمْ...»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٩).
(٢) أخرجه البخاري (٣٠٣٩، ٣٩٨٦، ٤٠٤٣، ٤٠٦٧، ٤٥٦١).

الشرح:

الشاهد منه: قول مجاهد: «فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قَبرِهِ»: لأجل أنه رجل كان ينفعهم بِلتِّ السويق لَهم على قراءة: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّاتَّ وَالْعُزَّى﴾ [النجم: ١٩] (١) بتشديد التاء.

ووجه المناسبة ظاهر: من أن صلاح ذلك الرجل جعلهم يغلون في قبره، «فَعَكَفُوا عَلَى قَبرِهِ»، والعكوف على القبور يُصيرها أوثانًا، العكوف معناه: لزوم القبر بتعظيمه، واعتقاد البركة في لزومه، والثواب، والنفع، ودفع الضر، هذا معنى العكوف.

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٥٨)، والحجة في القراءات العشر (ص٣٦٦).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ». رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ(١).

ش: قلت: وفي الباب حديث أبي هريرة وحديث حسان بن ثابت. فأما حديث أبي هريرة، فرواه أحمد والترمذي وصححه(٢).

وحديث حسان أخرجه ابن ماجه من رواية عبد الرحمن بن حسان بن ثابت عن أبيه قال: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ....»(٣).

وحديث ابن عباس هذا في إسناده أبو صالح مولى أم هانئ، وقد ضعفه بعضهم، ووثقه بعضهم. قال علي بن المديني عن يحيى القطان: لم أر أحدًا من أصحابنا ترك أبا صالح مولى أم هانئ. وما سمعت أحدًا من الناس يقول فيه شيئًا، ولم يتركه شعبة ولا زائدة ولا عبد الله بن عثمان. وقال ابن معين: ليس به بأس، ولهذا أخرجه ابن السكن في صحيحه. انتهى من الذهب الإبريز عن الحافظ المزي.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد جاء عن النبي ﷺ من طريقين: فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن رسول الله ﷺ لَعَنَ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ»، وذكر حديث ابن عباس. ثم قال: ورجال هذا ليس رجال هذا، فلم يأخذه أحدهما عن الآخر. وليس في الإسنادين من يتهم بالكذب، ومثل هذا حجة بلا ريب.

وهذا من أجود الحسن الذي شرطه الترمذي، فإنه جعل الحسن ما

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٧، ٣٥٦)، والترمذي (١٠٥٦).
(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، والنسائي (٢٠٤٣).
(٣) أخرجه ابن ماجه (١٥٧٤).

....

تعددت طرقه، ولم يكن فيه متهم، ولم يكن شاذًا، أي: مخالفًا لما ثبت بنقل الثقات.

وهذا الحديث تعددت طرقه، وليس فيها متهمن ولا خالفه أحد من الثقات، هذا لو كان عن صاحب واحد، فكيف إذا كان رواه عن صاحب وذاك عن آخر؟ فهذا كله يبين أن الحديث في الأصل معروف.

والذين رخصوا في الزيارة اعتمدوا على ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها زارت قبر أخيها عبد الرحمن، وقالت: «لَوْ شَهِدْتُكَ مَا زُرْتُكَ»[١]، وهذا يدل على أن الزيارة ليست مستحبة للنساء كما تستحب الرجال؛ إذ لو كان كذلك لاستحبت زيارته، سواء شهدته أم لا[٢].

قلت: فعلى هذا لا حجة فيه لمن قال بالرخصة.

وهذا السياق لحديث عائشة رواه الترمذي من رواية عبد الله بن أبي مليكة عنها، وهو يخالف سياق الأثرم له عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ: «أنَّ عَائِشَةَ أَقْبَلَتْ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْمَقَابِرِ فَقُلْتُ لَهَا: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتِ؟ قَالَتْ: مِنْ قَبْرِ أَخِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، فَقُلْتُ لَهَا: أَلَيْسَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، كَانَ قَدْ نَهَى، ثُمَّ أُمِرَ بِزِيَارَتِهَا»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي (١٠٥٥)، وأحمد (٤/ ٣٦٥)، وابن أبي شيبة (٣/ ٢٩).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٤٥-٣٥١).
(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٥٣٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٣١).

....

فأجاب شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذا، وقال: ولا حجة في حديث عائشة فإن المحتج عليها احتج بالنهي العام، فدفعت ذلك بأن النهي منسوخ، ولم يذكر لها المحتج النهي الخاص بالنساء، الذي فيه لعنهن على الزيارة.

يبين ذلك قولها: «ثُمَّ أُمِرَ بِزِيَارَتِهَا». فهذا يبين أنه أمر بها أمرًا يقتضي الاستحباب، والاستحباب إنما هو ثابت للرجال خاصة.

ولو كانت تعتقد أن النساء مأمورات بزيارة القبور، لكانت تفعل ذلك كما يفعله الرجال، ولم تقل لأخيها لما زرتك، واللعن صريح في التحريم، والخطاب بالإذن في قوله: «فَزُورُوهَا»[1] لم يتناول النساء، فلا يدخلن في الحكم الناسخ، والعام إذا عرف أنه بعد الخاص لم يكن ناسخًا له عند جمهور العلماء، وهو مذهب الشافعي وأحمد في أشهر الروايتين عنه، وهو المعروف عند أصحابه، فكيف إذا لم يعلم أن هذا العام بعد الخاص؟! إذ قد يكون قوله: «لَعَنَ اللهُ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ» - بعد إذنه للرجال في الزيارة - يدل على ذلك أنه قرنه بالمتخذين عليها المساجد والسرج، ومعلوم أن اتخاذ المساجد والسرج المنهي عنها محكم؛ كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة وكذلك الآخر.

والصحيح: أن النساء لم يدخلن في الإذن في زيارة القبور لعدة أوجه:

أحدها: أن قوله ﷺ: «فَزُورُوهَا» صيغة تذكير. وإنما يتناول النساء

(١) أخرجه مسلم (٩٧٧) من حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

. . . .

أيضًا على سبيل التغليب، لكن هذا فيه قولان، قيل: إنه يحتاج إلى دليل منفصل، وحينئذ فيحتاج تناول ذلك للنساء إلى دليل منفصل، وقيل: إنه يحتمل على ذلك عند الإطلاق.

وعلى هذا فيكون دخول النساء بطريق العموم الضعيف، والعام لا يعارض الأدلة الخاصة، ولا ينسخها عند جمهور العلماء، ولو كان النساء داخلات في هذا الخطاب، لاستحب لهن زيارة القبور، وما علمنا أحدًا من الأئمة استحب لهن زيارة القبور، ولا كان النساء على عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين يخرجن إلى زيارة القبور.

ومنها: أن النبي ﷺ علل الإذن للرجال بأن ذلك: «تُرِقُّ الْقَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ». هكذا في مسند أحمد(١).

ومعلوم أن المرأة إذا فتح لها هذا الباب، أخرجها إلى الجزع والندب والنياحة؛ لما فيها من الضعف وقلة الصبر.

وإذا كانت زيارة النساء مظنة، وسببًا للأمور المحرمة، فإنه لا يمكن أن يحد المقدار الذي لا يفضي إلى ذلك، ولا التمييز بين نوع ونوع.

ومن أصول الشريعة: أن الحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها، فيحرم هذا الباب سدًا للذريعة؛ كما حرم النظر إلى الزينة الباطنة، وكما حرم الخلوة بالأجنبية وغير ذلك. وليس في ذلك من المصلحة ما يعارض هذه المفسدة، فإنه ليس في ذلك إلا دعاؤها للميت، وذلك ممكن في بيتها.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١/ ١٤٠، ٢٢٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

....

ومن العلماء من يقول: التشييع كذلك، ويحتج بقوله ﷺ: «ارْجِعْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ، فإنكنَّ تَفتنَّ الْحَيَّ وتُؤذِينَ الْمِيَتَ»[١]، وقوله لفاطمة: «أَما إِنَّكِ لَوْ بَلَغْتِ مَعَهُمُ الْكُدَى، مَا رَأَيْتِ الْجَنَّةَ»[٢]، ويؤيده ما ثبت في الصحيحين من أنه نهى النساء عن اتباع الجنائز[٣]، ومعلوم أن قوله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَى جَنَازَةٍ وَلَمْ يَتْبَعْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ، فَإِنْ تَبِعَهَا فَلَهُ قِيرَاطَانِ»[٤]، وهو أدل على العموم من صيغة التذكير.

فإن لفظ (من) يتناول الرجال والنساء باتفاق الناس، وقد علم بالأحاديث الصحيحة أن هذا العموم لم يتناول النساء لنهي النبي ﷺ لهن عن اتباع الجنائز، فإذا لم يدخلن في هذا العموم، فكذلك في ذلك بطريق الأولى. انتهى ملخصًا[٥].

قلت: ويكون الإذن في زيارة القبور مخصوصًا للرجال، خص بقوله: «لَعَنَ اللهُ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ...» الحديث. فيكون من العام المخصوص.

وعن ما استدل به القائلون بالنسخ أجوبة أيضًا.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٣/ ٤٥٦).
(٢) أخرجه أبو داود (٣١٢٣)، وأحمد (١١/ ٦٥٣)، وابن حبان (٧/ ٤٥١)، والحاكم (١/ ٥٢٩)، والطبراني في الكبير (١٣/ ٢٤، ١٤/ ٤٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٩٩).
(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣١٣، ١٢٧٨، ١٢٧٩، ٥٣٤٠، ٥٣٤١، ٥٣٤٢، ٥٣٤٣)، ومسلم (٩٣٨).
(٤) أخرجه البخاري (١٣٢٥)، ومسلم (٩٤٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٥) انظر: مجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٤٣-٣٥٦).

....

منها: أن ما ذكروه عن عائشة وفاطمة رضي الله عنهما معارض مما ورد عنهما في هذا الباب، فلا يثبت به نسخ.

ومنها: أن قول الصحابي وفعله ليس حجة على الحديث بلا نزاع، وأما تعليمه عائشة كيف تقول إذا زارت القبور ونحو ذلك، فلا يدل على نسخ ما دلت عليه الأحاديث الثلاثة من لعن زائرات القبور؛ لاحتمال أن يكون ذلك قبل هذا النهي الأكيد والوعيد الشديد، والله أعلم.

قال محمد بن إسماعيل الصنعاني رحمه الله في كتابه تطهير الاعتقاد: فإن هذه القباب والمشاهد التي صارت أعظم ذريعة إلى الشرك والإلحاد، وأكبر وسيلة إلى هدم الإسلام وخراب بنيانه: غالب - بل كل - من يعمرها هم الملوك والسلاطين والرؤساء والولاة، إما على قريب لهم، أو على من يحسنون الظن فيه من فاضل أو عالم أو صوفي أو فقير أو شيخ أو كبير، ويزوره الناس الذي يعرفونه زيارة الأموات من دون توسل به ولا هتف باسمه، بل يدعون له ويستغفرون حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم، فيأتي من بعدهم، فيجد قبرًا قد شيد عليه البناء، وسرجت عليه الشموع، وفرش بالفراش الفاخر، وأرخيت عليه الستور، وألقيت عليه الأوراد والزهور، فيعتقد أن ذلك لنفع أو دفع ضر، وتأتيه السدنة يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل، وأنزل بفلان الضر والنفع؛ حتى يغرسوا في جبلته كل باطل، والأمر ما ثبت في الأحاديث النبوية من لعن من أسرج على القبور، وكتب عليها، وبنى عليها، وأحاديث ذلك واسعة معروفة،

....

فإن ذلك في نفسه منهى عنه، ثم هو ذريعة إلى مفسدة عظيمة. انتهى[١].

ومنه تعلم مطابقة الحديث للترجمة، والله أعلم.

قوله: «وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ» تقدم شرحه في الباب قبله.

قوله: «وَالسُّرُجَ». قال أبو محمد المقدسي: لو أبيح اتخاذ السرج عليها، لم يلعن من فعله؛ لأن فيه تضييعًا للمال في غير فائدة، وإفراطًا في تعظيم القبور أشبه بتعظيم الأصنام.

وقال ابن القيم ﷺ: اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر[٢].

قوله: (رواه أهل السنن). يعني: أن أبا داود والترمذي وابن ماجه فقط، ولم يروه النسائي[٣].

الشرح:

وجه الدلالة من الحديث ظاهرة: أن النبي ﷺ لعن المتخذين على القبور المساجد والسُّرج، المساجد سبق الكلام عليها، والسُّرج لأنها وسيلة لتعظيم تلك القبور، ونوع من أنواع الغلو فيها، فتُسرَج القبور، ويُجعَل عليها في الزمن الماضي القناديل، واليوم تُجعَل عليها الأنوار

---

(١) انظر: تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد (ص٤٨).

(٢) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ٢١٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، و ابن ماجه (١٥٧٤)، وقد رواه النسائي (٢٠٤٣).

العظيمة التي تُبين أَنَّ هذا المكان مقصود، وأنه مطلوب، ويُجعَل عليها من عقود الأنوار والكشافات، التي تسطع ما يدل الناس على تعظيم هذا القبر، فهؤلاء مَلعُونون بلعنة رسول الله ﷺ، فلا يجوز أَنْ تُتخَذَ السرج على القبور؛ لأن اتخاذ السرج على القبور من نوع الغلو فيها؛ ولأنه يدعو الناس إليها، وذلك قد يكون بعده أن تُتخَذ آلهة وأوثانًا مع الله عز وجل .

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ الْأَوْثَانِ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ الْعِبَادَةِ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَسْتَعِذْ إِلَّا مِمَّا يَخَافُ وُقُوعَهُ.

الرَّابِعَةُ: قَرْنُهُ بِهَذَا اتِّخَاذَ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ مَسَاجِدَ.

الْخَامِسَةُ: ذِكْرُ شِدَّةِ الْغَضَبِ مِنَ اللهِ.

السَّادِسَةُ: وَهِيَ مِنْ أَهَمِّهَا: مَعْرِفَةُ صِفَةِ عِبَادَةِ اللَّاتِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَكْبَرِ الْأَوْثَانِ.

السَّابِعَةُ: مَعْرِفَةُ أَنَّهُ قَبْرُ رَجُلٍ صَالِحٍ.

الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ اسْمُ صَاحِبِ الْقَبْرِ، وَذِكْرُ مَعْنَى التَّسْمِيَةِ.

التَّاسِعَةُ: لَعْنُهُ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ.

الْعَاشِرَةُ: لَعْنُهُ مَنْ أَسْرَجَهَا.

❊ ❊ ❊

٢١ - بَابُ

مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى جَنَابَ التَّوْحِيدِ وَسدِّه كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِّلُ إِلَى الشِّركِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٨-١٢٩].

ش: **قوله**: (بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى جَنَابَ التَّوْحِيدِ وَسدِّه كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِّلُ إِلَى الشِّركِ).

الجناب: هو الجانب. والمراد حمايته عما يقرب منه أو يخالطه من الشرك وأسبابه.

قوله: (وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٨-١٢٩]).

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول الله تعالى ممتنًا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولًا من أنفسهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم؛ كما قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]،

. . . .

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، أي: منكم؛ كما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي[١]، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولًا منا نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته... وذكر الحديث[٢].

قال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية[٣].

وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته، ويشق عليها، ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه ﷺ أنه قال: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»[٤]، وفي الصحيح: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ»[٥]، وشريعته كلها سمحة سهلة كاملة، ميسرة على من يسرها الله عليه.

قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٢٦٦، ٢٧/ ١٧٢)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١١٥)، والبيهقي في سننه (٩/ ٩)، وابن خزيمة (٤/ ١٣)، وانظر: تاريخ الإسلام (١/ ١٩٢-١٩٣)، والبداية والنهاية (٣/ ٩٣)، والكامل في التاريخ (١/ ٦٧٧).

(٢) أخرجه الطبري في التاريخ (٣/ ٤٩٦)، وأبو نعيم في الدلائل (١/ ٥٤٥ رقم ٤٧٦)، وانظر: البداية والنهاية (٧/ ٤٩).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١١/ ٧٦)، والبيهقي في السنن (٧/ ١٩٠).

(٤) أخرجه أحمد (٣٦/ ٦٢٤، ٦٢٥) من حديث عائشة ﵂.

(٥) أخرجه البخاري (٣٩، ٥٦٧٣، ٦٤٦٣، ٧٢٣٥) من حديث أبي هريرة ﵁.

....

وعن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «تَرَكْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي الْهَوَاءِ، إِلَّا وَهُوَ يُذَكِّرُنَا مِنْهُ عِلْمًا، قَالَ: فَقَالَ: ﷺ: مَا بَقِيَ شَيْءٌ يُقَرِّبُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ، إِلَّا وَقَدْ بُيِّنَ لَكُمْ»[(١)].

وقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، كما قال تعالى ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء: ٢١٥-٢١٧]، وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: عما جئتم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

قلت: فاقتضت هذه الأوصاف التي وصف بها رسول الله ﷺ في حق أمته أن أنذرهم وحذرهم الشرك الذي هو أعظم الذنوب، وبين لهم ذرائعه الموصلة إليه، وأبلغ في نهيهم عنها، ومن ذلك تعظيم القبور والغلو فيها، والصلاة عندها وإليها، ونحو ذلك مما يوصل إلى عبادتها، كما تقدم، وكما سيأتي في أحاديث الباب.

الشرح:

هذا الباب من جنس الأبواب التى قبله في حماية النبي ﷺ جناب التوحيد وفي سده كل طريق يوصل إلى الشرك، وأتى بآية براءة.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ١٥٥).

قوله: (وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]).

قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ يعني: عزيز عليه عنتكم، عزيز عليه العنت، يعني: أن تكونوا في عنت ومشقة هذا عزيز عليه، لا يرغب فيه ﷺ.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ فهو ﷺ عزيز عليه عنت أمته، وهذا يؤدي أن يأمرهم بكل خير، وأن ينهاهم عن كل شر، وأن يحمي حِمَى ما أمرهم به وما نهاهم عنه؛ لأن الناس إذا أقدموا على ما نُهوا عنه، فإنهم أقدموا على مهلكتهم، وأقدموا على ما فيه عنتهم في الدنيا وفي الآخرة، والنبي ﷺ عزيز عليه عنتهم، عزيز عليه أن يقعوا في وبال عليهم وفي مشقة عليهم؛ ولهذا قال بعدها: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾؛ لأن هذه وهذه متلازمة، ومن حرصه علينا ﷺ ومن كونه يعزُّ عليه عنتنا ﷺ أَنْ حمى حمى التوحيد، وحمى جناب التوحيد، وسدَّ كل طريق قد نصل بها إلى الشرك ﷺ، وهذا وجه الاستدلال من الآية على الباب.

وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ». رَوَاهُ أَبُو دَاودَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ رُواتُهُ ثِقَاتٌ[(١)].

ش: **قوله: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا».**

قال شيخ الإسلام: أي: لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحري العبادة في البيوت، ونهى عن تحريهما عند القبور، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تَشَبَّهَ بهم من هذه الأمة.

وفي الصحيحين عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «اجْعَلُوا مِنْ صَلَاتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ، وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا»[(٢)]، وفي صحيح مسلم عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ»[(٣)(٤)].

قوله: «وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا» قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد، عائدًا إما بعود السنة، أو بعود الأسبوع، أو الشهر، ونحو ذلك[(٥)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: العيدُ ما يُعتاد مَجيئه وقَصده من زمان ومكان،

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٤٢)، وابن أبي شيبة (٢/ ٦٠)، والطبراني في الأوسط (٨/ ٨١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٥٢).
(٢) أخرجه البخاري (٤٣٢، ١١٨٧)، ومسلم (٧٧٧).
(٣) أخرجه مسلم (٧٨٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٤) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٥٧).
(٥) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٤١).

. . . .

مأخوذ من المعاودة والاعتياد. فإذا كان اسمًا للمكان، فهو المكان الذي يقصد فيه الاجتماع وانتيابه للعبادة وغيرها؛ كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيدًا للحنفاء ومثابة؛ كما جعل أيام العيد فيها عيدًا.

وكان للمشركين أعياد زمنية ومكانية، فلما جاء الله بالإسلام أبطلها، وعوض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى، كما عوضهم من أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر[1].

قوله: «وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ».

قال شيخ الإسلام ﷺ: يشير بذلك إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبعدكم، فلا حاجة لكم إلى اتخاذه عيدًا[2].

قوله: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا». تقدم كلام شيخ الإسلام في معنى الحديث قبله. ا. هـ.

الشرح:

وأما حديث أبي هريرة ﷺ، فوجه الشاهد منه قوله: «وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا»، والعيد يكون عيدًا مكانيًا؛ كما جاء هنا، ويكون عيدًا زمانيًا

(١) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ٢٠٩).
(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٧٥٦).

«وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا»، يعني: مكانًا تعودون إليه في وقت معلوم من السنة، أو في أوقات معلومة تعتادون المجيء إلى القبر، فإن هذا قد يوصل إلى أن يُعظَّم النبي ﷺ، وأن يُجعَل تعظيمه كتعظيم الله عز وجل، فإن اتخاذ القبور عيدًا من وسائل الشرك؛ ولهذا قال: «وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ».

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو، فَدَعَاهُ فَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَمَا كُنْتُمْ». رَوَاهُ فِي الْمُخْتَارَةِ[١] .

ش: هذا الحديث والذي قبله جيدان حسنا الإسنادين[٢] .

أما الأول، فرواه أبو داود وغيره من حديث عبد الله بن نافع الصائغ، قال: أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة، فذكره، ورواته ثقات مشاهير، لكن عبد الله بن نافع قال فيه أبو حاتم: ليس بالحافظ، تعرف وتنكر. وقال ابن معين: هو ثقة. وقال أبو زرعة: لا بأس به.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: ومثل هذا إذا كان لحديث شواهد علم أنه محفوظ، وهذا له شواهد متعددة[٣] .

وقال الحافظ محمد بن عبد الهادي: هو حديث حسن جيد الإسناد، وله شواهد يرتقي بها إلى درجة الصحة[٤] .

وأما الحديث الثاني، فرواه أبو يعلى والقاضي إسماعيل والحافظ الضياء محمد بن عبد الواحد المقدسي في المختارة.

---

(١) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (٢/ ٤٩)، وابن أبي شيبة (٢/ ١٥٠)، وأبو يعلى (١/ ٣٦١).

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٥٤).

(٣) انظر: الصارم المنكي في الرد على السبكي (٤١٤).

(٤) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٦٠).

. . . .

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب النسب وقرب الدار؛ لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم، فكانوا له أضبط. ا.هـ[(١)].

وقال سعيد بن منصور في سننه: حدثنا عبد العزيز بن محمد أخبرني سهيل بن أبي سهل قال: رآني الحسن بن علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ عند القبر، فناداني، وهو في بيت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يتعشى، فقال: هلم إلى العشاء. فقلت: لا أريده. فقال: ما لي رأيتك عند القبر؟ فقلت: سلمت على النبي ﷺ. فقال: إذا دخلت المسجد، فسلم. ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ مقابر، وَصَلُّوا عَلِيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي، لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا، مَا أَنْتُمْ وَمَنْ بِالْأَنْدلُسِ إِلَّا سَوَاءً»[(٢)].

وقال سعيد أيضًا: حدثنا حبان بن علي، حدثنا محمد عجلان عن أبي سعيد مولى المهري قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي»[(٣)].

---

(١) أخرجه إسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي ﷺ (ص٤٠) من مراسيل الحسن بن علي، وابن أبي شيبة (٢/ ١٥٠، ٣/ ٣٠)، وعبد الرزاق (٣/ ٥٧٦)، وأما سنن سعيد بن منصور فأكثره مفقود، وهذا الحديث لم أجده في المطبوع منه.

(٢) وقد ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٦٠) وعزاه إلى سنن سعيد بن منصور، وقال: (فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث، لاسيما وقد احتج به من أرسله، وذلك يقتضي ثبوته عنده لو لم يكن روي من وجوه مسندة غير هذين، فكيف وقد تقدم مسندًا؟!).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ١٥٠، ٣/ ٣٠)، وعبد الرزاق (٣/ ٥٧٦).

....

قال شيخ الإسلام: فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث، لا سيما وقد احتج به من أرسله، وذلك يقتضي ثبوته عنده، هذا لو لم يرو من وجوه مسندة غير هذين، فكيف وقد تقدم مسندًا؟![١].

قوله: (علي بن الحسين). أي: ابن علي بن أبي طالب، المعروف بزين العابدين رضي الله عنه، أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم.

قال الزهري: ما رأيتُ قُرشيًا أفضل منه[٢].

مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح. وأبوه الحسين سبط رسول الله ﷺ وريحانته، حفظ عن النبي ﷺ واستشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين وله ست وخمسون سنة رضي الله عنه.

قوله: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ» بضم الفاء وسكون الراء، وهي الكوة في الجدار والخوخة ونحوهما.

قوله: «فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو» هذا يدل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: ما علمت أحدًا رخص فيه؛ لأن ذلك نوع من اتخاذه عيدًا، ويدل أيضًا على أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلي منهي عنه؛ لأن ذلك لم يشرع[٣].

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٦٠).
(٢) انظر: تقريب التهذيب (ص٤٠٠)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٦٧).
(٣) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٥٦).

....

وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل الإنسان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ؛ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك، قال: ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها[(١)].

وكان الصحابة والتابعون ﷺ يأتون إلى مسجد النبي ﷺ فيصلون، فإذا قضوا الصلاة، قعدوا أو خرجوا، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام؛ لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل، وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك، أو للصلاة والدعاء، فلم يشرعه لهم، بل نهاهم عنه في قوله: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي».

فبين أن الصلاة تصل إليه من بعد وكذلك السلام، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد[(٢)].

وكانت الحجرة في زمانهم يدخل إليها من الباب، إذا كانت عائشة ﷺ فيها، وبعد ذلك إلى أن بنى الحائط الآخر، وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون عليه، لا للسلام ولا للصلاة، ولا للدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم، ولا لسؤال عن حديث أو علم، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلامًا أو سلامًا، فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم، وبين لهم الأحاديث، أو أنه قد رد عليهم السلام بصوت يسمع من خارج؛ كما طمع الشيطان في غيرهم، فأضلهم عند

(١) انظر: تنقيح تحقيق أحاديث التعليق لابن عبد الهادي (٢/ ٤٢٣).
(٢) سبق تخريجه (ص١٥٠).

. . . .

قبره وقبر غيره، حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم، ويفتيهم، ويحدثهم في الظاهر، وأنه يخرج من القبر ويرونه خارجًا من القبر، ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم، وأن روح الميت تجسدت لهم، فرأوها كما رآهم النبي ﷺ ليلة المعراج[(١)].

والمقصود: أن الصحابة ﷺ لم يكونوا يعتادون السلام عليه عند قبره؛ كما يفعله من بعدهم من الخلوف، وإنما كان بعضهم يأتي من خارج، فيسلم عليه إذا قد من سفر؛ كما كان ابن عمر يفعله.

قال عبيد الله بن عمر عن نافع كان ابن عمر ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ أَتَى قَبْرَ النبي ﷺ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَتَاهُ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ»[(٢)].

قال عبيد الله: ما نعلم أحدًا من أصحاب النبي ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر، وهذا يدل على أنه لا يقف عند القبر للدعاء إذا سلم كما يفعله كثير.

قال شيخ الإسلام ﷺ: لأن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة، فكان بدعة محضة[(٣)].

وفي المبسوط: قال مالك: لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ، ولكن يسلم ويمضي.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٨٦).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٦٦)، والبيهقي في الصغرى (٢/ ٢١٠)، وفي الكبرى (٥/ ٤٠٢، ٤٠٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٥، ٥٢)، وابن أبي شيبة (٣/ ٢٨)، وعبد الرزاق (٣/ ٥٧٦).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٩٦).

. . . .

ونص أحمد أنه يستقبل القبلة، ويجعل الحجرة عن يساره؛ لئلا يستدبره.

وبالجملة فقد اتفق الأئمة على أنه إذا دعا لا يستقبل القبر، وتنازعوا: هل يستقبله عند السلام عليه أم لا؟[١].

وفي الحديث دليل على منع شد الرحال إلى قبره وإلى غيره من القبور والمشاهد؛ لأن ذلك من اتخاذها أعيادًا، بل من أعظم أسباب الإشراك بأصحابها.

وهذه هي المسألة التي أفتى بها شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ - أعني: من سافر لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين -، ونقل فيها اختلاف العلماء، فمن مبيح لذلك - كالغزالي وأبي محمد المقدسي - ومن مانع لذلك - كابن بطة وابن عقيل، وأبي محمد الجويني، والقاضي عياض -، وهو قول الجمهور، نص عليه مالك، ولم يخالفه أحد من الأئمة، وهو الصواب.

لما في الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِي هَذَا، وَالمَسْجِدِ الأَقْصَى»[٢]، فدخل في النهي شدها لزيارة القبور والمشاهد، فإما أن يكون نهيًا، وإما أن يكون نفيًا.

وجاء في رواية بصيغة النهي، فتعين أن يكون للنهي، ولهذا فهم منه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ المنع؛ كما في الموطأ والمسند والسنن عن بَصْرَةَ بْنَ أَبِي

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٢٣٠).
(٢) أخرجه البخاري (١١٩٧، ١٩٩٥)، ومسلم (٨٢٧).

....

بَصْرَةَ الْغِفَارِيّ أنه قَالَ لأبي هريرة رضي الله عنه ، وقد جاء مِنَ الطُّورِ، قَالَ: لَوْ أَدْرَكْتُكَ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ إِلَيْهِ، مَا خَرَجْتَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا تُعْمَلُ الْمَطِيُّ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِي وَمَسْجِدِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ»(١).

وروى الإمام أحمد وعمر بن شبة في أخبار المدينة بإسناد جيد عن قَزَعَةَ، قَالَ: «أَتَيْتُ ابْنَ عُمَرَ فَقُلْتُ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ آتِيَ الطُّورَ قَالَ: إِنَّمَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ مَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَدَعْ عَنْكَ الطُّورَ فَلَا تَأْتِهِ»(٢).

فابن عمر وبصرة بن أبي بصرة الغفاري جعلا الطور مما نهي عن شد الرحال إليه؛ لأن اللفظ الذي ذكراه فيه النهي عن شدها إلى غير الثلاثة مما يقصد به القربة، فعلم أن المستثنى منه عام في المساجد وغيرها، وأن النهي ليس خاصًا بالمساجد، ولهذا نهيا عن شدها إلى الطور مستدلين بهذا الحديث.

والطور إنما يسافر من يسافر إليه لفضيلة البقعة، فإن الله سماه الوادي المقدس، والبقعة المباركة، وكلم كليمه موسى عليه السلام هناك، وهذا هو الذي عليه الأئمة الأربعة وجمهور العلماء، ومن أراد بسط القول في

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١٦)، وأحمد (٣٩/ ٢٦٧)، والنسائي في الكبرى (٢/ ٢٩٣)، والبيهقي في الصغرى (١/ ٢٣٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٨/ ٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٥٨)، والفاكهي في أخبار مكة (٢/ ٨٧).

....

ذلك والجواب عما يعارضه، فعليه بما كتبه شيخ الإسلام مجيبًا لابن الاخنائي فيما أعترض به على ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة وأخذ به العلماء وقياس الأولى؛ لأن المفسدة في ذلك ظاهرة.

وأما النهي عن زيارة غير المساجد الثلاثة، فغاية ما فيها: أنها لا مصلحة في ذلك توجب شد الرحال، ولا مزية تدعو إليه.

وقد بسط القول في ذلك الحافظ محمد بن عبد الهادي في كتاب الصارم المنكي في رده على السبكي(١)، وذكر فيه علل الأحاديث الواردة في زيارة قبر النبي ﷺ.

وذكر هو وشيخ الإسلام - رحمهما الله تعالى - أنه لا يصح منها حديث عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه، مع أنها لا تدل على محل النزاع؛ إذ ليس فيها إلا مطلق الزيارة، وذلك لا ينكره أحد بدون شد الرحال، فيحمل على الزيارة الشرعية التي ليس فيها شرك ولا بدعة.

قوله: (رَوَاهُ فِي المُخْتَارةِ). المختارة: كتاب جمع فيه مؤلفه الأحاديث الجياد الزائدة عن الصحيحين.

ومؤلفه: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي الحافظ ضياء الدين الحنبلي أحد الأعلام.

قال الذهبي: أفنى عمره في هذا الشأن مع الدين المتين، والورع والفضيلة التامة والإتقان. فالله يرحمه ويرضى عنه(٢).

---

(١) انظر: الصارم المنكي في الرد على السبكي (ص٤١).
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٢٦).

....

وقال شيخ الإسلام: تصحيحه في مختاراته خير من تصحيح الحاكم بلا ريب. مات سنة ثلاث وأربعين وستمائة[١].

الشرح:

حديث علي بن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أَلَا أُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَمَا كُنْتُمْ» في معنى ما قبله، ونَهَى الرجل الذي كان يعتاد المجيء إلى فرجة كانت عند القبر؛ لأن اعتياده أن يدعو عند القبر هذا نوع غلو ووسيلة من وسائل تعظيم القبور، واتخاذها عيدًا، وهذا من وسائل الشرك، فَحمى النبي ﷺ حِمى التوحيد وحَمى جنابه، وَسَدَّ كل طريق توصل إلى الشرك حتى في قبره ﷺ. إذا كان كذلك، فمن باب أولى قبور غيره - قبور الصالحين والأنبياء والمرسلين -؛ فإنهم أولى بذلك، فالذي حصل أن هذه الأمة لم تقبل - في كثير من فئامها - حماية النبي ﷺ ذلك، واتخذت القبور مساجد وعيدًا، بل بنت عليها المشاهد، بل أسرجتها، بل قبلت لها الذبائح والنذور، وطِيف حولها، وجُعِلت كالكعبة، وجُعِلت الأمكنة حولها مقدسة أعظم من تقديس بقاع الله المباركة، بل إنَّ عُبَّاد القبور تجد عندهم من الذل والخضوع والإنابة والرغب والرهب حين يأتون إلى قبر النبي ﷺ، أو قبر الرجلِ الصالحِ، أو قبر الولي ما ليس في قلوبهم إذا كانوا في خلوة مع الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا عين المحادة لله عَزَّ وَجَلَّ، ولرسوله ﷺ.

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٥٥).

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَةٍ.

الثَّانِيَةُ: إِبْعَادُهُ أُمَّتَهُ عَنْ هَذَا الْحِمَى غَايَةَ الْبُعْدِ.

الثَّالِثَةُ: ذِكْرُ حِرْصِهِ عَلَيْنَا وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ.

الرَّابِعَةُ: نَهْيُهُ عَنْ زِيَارَةِ قَبْرِهِ عَلَى وَجْهٍ مَخْصُوصٍ، مَعَ أَنَّ زِيَارَتَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ.

الْخَامِسَةُ: نَهْيُهُ عَنِ الْإِكْثَارِ مِنَ الزِّيَارَةِ.

السَّادِسَةُ: حَثُّهُ عَلَى النَّافِلَةِ فِي الْبَيْتِ.

السَّابِعَةُ: أَنَّهُ مُتَقَرِّرٌ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ لَا يُصَلَّى فِي الْمَقْبَرَةِ.

الثَّامِنَةُ: تَعْلِيلُهُ ذَلِكَ بِأَنَّ صَلَاةَ الرَّجُلِ وَسَلَامَهُ عَلَيْهِ يَبْلُغُهُ وَإِنْ بَعُدَ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى مَا يَتَوَهَّمُهُ مَنْ أَرَادَ الْقُرْبَ.

التَّاسِعَةُ: كَوْنُهُ ﷺ فِي الْبَرْزَخِ تُعْرَضُ أَعْمَالُ أُمَّتِهِ فِي الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ.

٢٢ - بَابُ
مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةَ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ

ش: قوله: (بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةَ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ).

الوثن يطلق على ما قصد بنوع من أنواع العبادة من دون الله من القبور والمشاهد وغيرها؛ لقول الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، ومع قوله: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١]، وقوله: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥]، فبذلك يعلم أن الوثن يطلق على الأصنام وغيرها مما عبد من دون الله؛ كما تقدم في الحديث.

الشرح:

قال: (بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةَ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ)، وكتاب التوحيد من أوله إلى هذا الموضع ذَكَر فيه الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله مسائل كثيرة: مِنْ بيان وجوب معرفة التوحيد والعلم به، والخوف من الشرك، وبيان بعض أفراد التوحيد، وبعض أفراد الشرك الأكبر والأصغر، ثم بين شيئًا مما يتعلق بوسائل ذلك، وما يتعلق بالصور المختلفة التي وقعت من هذا الشرك في الأمم قبلنا وعند الجاهليين - يعني: في الأميين -، وفي أهل الكتاب، وكذلك مما وقع في هذه الأمة، ثم ذكر وسائل ذلك وطرقه الموصلة إلى الشرك، ووسائل الشرك التي توصل إليه، وطرق الشرك الموصلة إليه.

بعد هذا يأتي احتجاج المشركين والخرافيين من أن هذه الأمة حماها الله عز وجل من أن تعود إلى عبادة الأوثان، فاستحضر بعد كل ما سبق أن قائلًا يقول له: كل هذا صحيح، ولكن هذه الأمة عُصِمَت أن تقع في الشرك الأكبر؛ وذلك لقول النبي ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**»[1]، فلما قال ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ**»، علمنا أن عبادة الشيطان لا تكون في هذه الأمة، وأن الشرك الأكبر لا يكون، هذا قاله الخرافيون.

والجواب: أن هذا الاحتجاج في غير موضعه، وفهم ذلك الدليل وذلك الحديث ليس على ذلك النحو، وجواب ما قالوا من أن قوله ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**». نقول: أيس الشيطان، والشيطان لا يعلم الغيب، وهو حريص على إغواء بني آدم: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، هو أيس، ولكن لم يُأيِّسه الله عز وجل، أيس بنفسه لما رأى عز الإسلام، ولما رأى ظهور التوحيد على الكفر في جزيرة العرب، فأيس لما رأى ذلك، ولكنه لم يأيسه الله عز وجل من أن يُعبد في جزيرة العرب.

ثم إن في قوله: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ**» إن المصلين لا شك أنهم آمرون بالمعروف ناهون عن المنكر؛ لأن المصلي هو الذي أقام الصلاة، ومن أقام الصلاة، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأعظم المنكر الذي سينكره المصلي هو الشرك بالله عز وجل، فإن الشيطان ييأس أن يعبده من قام بالصلاة على حقيقتها، وأقامها كما أراد الله عز وجل.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٢) من حديث جابر رضي الله عنه.

فإذًا نقول: هذا الحديث ليس فيه أن العبادة - عبادة الشيطان - لا تكون في هذه الأمة، بل فيه أن الشيطان أيس لما رأى عز الإسلام، ولكنه لم يُأيَّس؛ ولهذا لما كان بعد وفاة النبي ﷺ بقليل، وارتدت طائفة من العرب، كان ذلك من عبادة الشيطان؛ لأن عبادة الشيطان بطاعته؛ كما قال ﷻ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]، وعبادة الشيطان - كما في تفسير الآية -: بطاعته في الأمر والنهي، طاعته في الشرك، وطاعته في ترك الإيمان وترك لوازمه.

إذًا هذا الدليل استحضره الإمام ؒ، وقال: إن هذا الدليل ليس واقعًا كما زعمه أولئك، والدليل على ذلك التفسير ما جاء في الأدلة أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان، فيُصحِّحُ ما فهمنا من أن معنى الحديث أن الشيطان أيس بنفسه، ولم يأيس، وإياسه بنفسه لأجل عدم اطلاعه على علم الغيب مع حرصه على دعوة الناس إلى عبادة غير الله تبارك وتعالى وجل وتقدس.

قال الإمام ؒ: (بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةَ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ). يعني: أن عبادة الأوثان واقعة في هذه الأمة بنصِّ النبي ﷺ؛ كما وقعت في الأمم السالفة، فهذه الأمة تقع فيها عبادة غير الله ﷻ.

وقوله: (بَابُ مَا جَاءَ) يعني: من النصوص في الكتاب وفي السنة.

(بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةَ) هذا التبعيض؛ لأن عبادة الأوثان لم تكن من الأمة كلها، وإنما كانت من بعض هذه الأمة، وإلا فلا تزال طائفة من هذه الأمة ظاهرة على الحق؛ كما قال ﷺ: **«لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»**[١].

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤١) من حديث معاوية ؓ، ومسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان ؓ.

فإذًا قوله: (بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةَ) يعني: ذلك البعض المرذول، فنفهم منه أن هناك من يقوم بالاستمساك بالأمر الأول الذي كان عليه الرسول ﷺ، وكان عليه صحابته في أمر التوحيد وأمر العبادة والسنن.

(بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةَ) المقصود بقوله: (هَذِهِ الأُمَّةَ) أمة الدعوة أو أمة الإجابة؟ إذا قلنا أمة الدعوة، فلا شك أن هناك من أمة الدعوة - وهم جميع الناس، بل من الجن والإنس - منهم من عبد الأوثان، واستمر على عبادتها بعد بعثة النبي ﷺ، ولم يرضَ ببعثته، ولم يقبل ذلك.

وإذا قلنا إن المراد بالأمة: أمة الإجابة، يعني: أن من أجاب الرسول ﷺ في دعوته تتقادم بهم العهود، حتى يرتدوا على أدبارهم، ويتركوا دينهم؛ كما جاء في بابٍ سَلَف في أن سبب كفر بني آدم وترْكِهم دينهم الغلو في الصالحين، فإن الظاهر هنا أن قوله: (بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةَ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ) يعني به أمة الإجابة في أنهم يتركون دينهم، ويتوجهون إلى الأوثان يعبدونها.

و(الأَوْثَانَ): جمع وثن، والوثن هو: كل شيء توجه إليه الناس بالعبادة، إما بأن يدعوه مع الله ﷻ ، أو أن يستغيثوا به، أو أن يعتقدوا فيه أنه ينفع ويضر بدون إذن الله ﷻ ، أو أنه يُرجَى رجاء العبادة، ويُخَاف منه كخوفٍ من الله ﷻ خوف السر، ونحو ذلك من الأشياء، من اعتُقِد فيه ذلك، فذلك الشيء وثن من الأوثان، وقد يكون راضيًا بتلك العبادة، وقد لا يكون راضيًا بتلك العبادة. والوثن ليس مصورًا على شكل صورة، والصنم هو ما كان على شكل صورة؛ كما سبق أن ذكرنا(١).

فالفرق بين الأوثان والأصنام: أن الأصنام هي: الآلهة التي صُوِّرت

(١) راجع معنى الوثن والصنم (١/ ١٨٨).

على شكل صور، كأن يجعل لنبي من الأنبياء صورة، ويعبدها، أو يجعل لرجل من الرجال - كبوذا ونحوه - صورة، ويسجد لها، ويعبدها، هذه أصنام. أو أن تكون أوثانًا، والأوثان هي الأشياء التي تُعبَد، قد يكون جدارًا، وقد يكون قبرًا، وقد يكون رجلًا ميتًا، وقد يكون صفة من الصفات يتخذها معبودة من دون الله، فكل ما تَوجَّه إليه العباد بنوع من أنواع العبادة، فهو وثن من الأوثان.

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

ش: قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ روى ابن أبي حاتم عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: «جَاءَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ وَكَعْبَ بْنَ الأَشْرَفِ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، فَقَالُوا لَهُمْ: أَنْتُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ وَأَهْلُ الْعِلْمِ، فَأَخْبِرُونَا عَنَّا وَعَنْ مُحَمَّدٍ، فَقَالُوا: مَا أَنْتُمْ وَمَا مُحَمَّدٌ؟ فَقَالُوا: نَحْنُ نَصِلُ الأَرْحَامَ وَنَنْحَرُ الْكَوْمَاءَ[١]، وَنَسْقِي الْمَاءَ عَلَى اللَّبَنِ، وَنَفُكُّ الْعُنَاةَ، وَنَسْقِي الْحَجِيجَ، وَمُحَمَّدٌ صُنْبُورٌ[٢]، قَطَعَ أَرْحَامَنَا وَاتَّبَعَهُ سُرَّاقُ الْحَجِيجِ بنوا غفار، فنحن خير أم هو؟ قَالُوا: أَنْتُمْ خَيْرٌ وَأَهْدَى سَبِيلا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]»[٣].

وفي مسند أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما نحوه.

---

(١) الكوماء هي النَّاقة الْعَظِيمَة السنام طويلته، والكَوَمُ: العِظَمُ في كل شيء. انظر: مادة (كوم) في العين للخليل (٥/ ٤١٨)، وغريب الحديث للقاسم ابن سلام (٣/ ٨٤)، وتهذيب اللغة (١٠/ ٢٢٠)، ومقاييس اللغة (٥/ ١٤٨)، ولسان العرب (١٥/ ٢٣٢).

(٢) الصُّنْبُور: أَيْ أَبْتَرُ، لاَ عَقِبَ لَهُ. قال ابن الأعرابي: (الصُّنْبُور: الوَحيدُ، و الصُّنْبُور: الضعيف، و الصُّنْبُور: الذي لا ولد له، ولا عشيرة، ولا ناصر من قريب ولا غريب). انظر: مادة (صنبر) في لسان العرب (٤/ ٤٦٩)، وغريب الحديث لابن الجوزي (١/ ٦٠٥)، وتهذيب اللغة (١٢/ ١٩٠). وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٥٥): (وأصل الصنبور: سعفه تنبت في جذع النخلة لا في الأرض، وقيل: هي النخلة المنفردة التي يدق أسفلها. أرادوا أنه إذا قُلع انقطع ذكره، كما ذهب أثر الصنبور؛ لأنه لا عقب له).

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٩٧٤)، ونقله عنه ابن كثير (٢/ ٣٣٠).

. . . .

قال عمر بن الخطاب ﷺ : الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان[١].

وكذلك قول ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وغيرهم. وعن ابن عباس وعكرمة وأبي مالك الجبت: الشيطان. زاد ابن عباس: بالحبشية.

وعن ابن عباس ﷺ أيضًا: الجبت: الشرك. وعنه: الجبت: الأصنام.

وعنه: الجبت: حيى بن أخطب.

وعن الشعبي: الجبت: الكاهن.

وعن مجاهد: الجبت: كعب بن الأشرف[٢].

قال الجوهري: الجبت: كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك[٣].

قال المصنف ﷺ: وفيه معرفة الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع هل هو اعتقاد قلب، أو هو موافقة أصحابها، مع بغضها ومعرفة بطلانها؟

---

(١) انظر: تفسير الطبري [(٥/ ٤١٧) برقم (٥٨٣٤، ٥٨٣٥)]، والمحرر الوجيز (١/ ٣٣٨)، وتفسير ابن أبي حاتم [(٢/ ٤٩٥)، و(٣/ ٩٧٥)].

(٢) أخرج هذه الآثار الطبري في تفسيره (٥/ ١٣٤، ١٣٥).

(٣) انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١/ ٢٤٥).

الشرح:

الجبت: اسم عام لكل ما فيه مخالفة لأمر الله عَزَّوَجَلَّ ، وأمر رسوله ﷺ في الاعتقاد، قد يكون الجبت سحرًا - وهذا هو الذي فسره كثير من السلف بأن الجبت: السحر - وقد يكون الجبت الكاهن، وقد يكون الجبت الشيء المرذول الذي يضر صاحبه.

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ يعني: يؤمنون بالسحر، ويؤمنون بالباطل، وبعبادة غير الله عَزَّوَجَلَّ .

ويؤمنون بـ﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ والطاغوت مشتق من الطغيان، وهو: مجاوزة الحد[1]، فالطاغية هو الذي تجاوز الحد في أمر الدين بأن جعل ما لله له؛[2] ولهذا يُعرِّف ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الطاغوت بأنه: (**مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ، أَوْ مَتْبُوعٍ، أَوْ مُطَاعٍ**)[3]، فإذا تجاوز به العبد حده، يعني: حد ذلك الشيء الذي توجهوا إليه، الذي أذن به شرعًا له، تجاوزوا الحد به، فتوجهوا إليه بالعبادة، أو اعتقدوا فيه بعض خصائص الإلهية: من أنه يغيثهم كيفما شاء، ومن أنه يملك غوثهم، ويملك الاستشفاع لهم، ويملك أن يغفر لهم، وأن يعطيهم، ويملك أن يقربهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ ، ونحو ذلك مما لا يملكه المعبودون. فإن ذلك مجاوزة بذلك عن الحد الذي جُعِلَ له في الشرع.

مجاوزة الحد في المعبودين، أو المتبوعين: (**مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ**

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ١٩)، ولسان العرب (١٥/ ٨).

(٢) قال الطبري في تفسيره (٣/ ١٩): (والصواب من القول عندي في الطاغوت أنه كل ذي طغيان على الله فعبد من دونه، إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له إنسانًا كان ذلك المعبود أو شيطانًا أو وثنًا أو صنمًا أو كائنًا ما كان من شيء).

(٣) انظر: إعلام الموقعين (١/ ٥٣).

مِنْ مَعْبُودٍ، أَوْ مَتْبُوعٍ، أَوْ مُطَاعٍ) **(أَوْ مَتْبُوعٍ)** مثل: العلماء، والقادة في أمرالدين، إذا تجاوز الناس بهم حدهم، فصاروا يتبعونهم في كل ما قالوا، وإن أحلُّوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال، أو جعلوا لهم السنة بدعة والبدعة سنة، وهم يعلمون أصل الدين، ولكنهم خالفوا لأجل ما قال فلان، فإن هذا قد تُجُوِّز به حده.

فإنَّ حد المتبوع في الدين أن يكون آمرًا بما أَمَر به الشرع، ناهيًا عما نهى عنه الشرع، فإذا أحل الحرام، أو حرم الحلال، فإنه يعتبر طاغوتًا، ومن اتبعه، فإنه يكون قد تجاوز به حده، وقد أقر بأنه طاغوت، واتخذه كذلك.

(أَوْ مُطَاعٍ) يطاع كذلك من الأمراء، والملوك، والحكام، والرؤساء الذين يأمرون بالحرام، فيُطاعُون، ويأمرون بتحريم الحلال، فيطَاعُون في ذلك مع علم المُطيع بما أمر الله ﷻ به، فهؤلاء اتخذوهم طواغيت؛ لأنهم جاوزوا بهم حدهم.

قال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ فيدخل في الطاغوت كل هذه الأنواع: الذين عُبِدوا، والذين اتُّبِعُوا، والذين أُطِيعُوا.

وجه مناسبة هذه الآية للباب: أن ذلك - وهو الإيمان بالجبت والطاغوت - حَصَل وَوقع مِنَ الذين أوتُوا نصيبًا من الكتاب من اليهود والنصارى، والنبي ﷺ أخبر أن ما وقع في الأمم قبلنا سيقع في هذه الأمة؛ كما قال في حديث أبي سعيد رضي الله عنه الآتي: «**لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اليَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ**»[1]، فمثل بشيء صغير، وهو

(١) سيأتي تخريجه (ص٢٠٣).

دخول جحر الضب - الذي لا يمكن أن يُفعَل - تنبيهًا على أن ما هو أعلى من ذلك سيقع من هذه الأمة؛ كما وقع من الأمم قبلنا. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]، وهذا حصل من هذه الأمة، فإن منهم من آمن بالسحر، ومنهم من آمن بعبادة غير الله، ومنهم من أطاع العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، فكانوا بذلك متبعين سنن من كان قبلهم، وحصل منهم إيمان بالجبت والطاغوت؛ كما حصل من الأمم قبلهم.

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

ش: **قوله: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى:** ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾)، **يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد: هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا؟ وهم أنتم أيها المتصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله: من لعنه الله. أي: أبعده من رحمته، وغضب عليه. أي: غضبًا لا يرضى بعده أبدًا،** ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ **وقد قال الثوري: عن علقمة بن مرثد عن المغيرة بن عبد الله اليشكري عن المعرور بن سويد أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ، أهي مِمَّا مُسِخَ؟ فَقَالَ: أنَّ اللَّهَ لَمْ يُهْلِكْ قَوْمًا، - أو قَالَ: - لم يَمْسخْ قومًا فَيَجْعَلَ لَهُمْ نَسْلًا وَلَا عَاقِبَةً، وَأنَّ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ كانوا قَبْلَ ذَلِكَ»[١]، ورواه مسلم[٢].**

قال البغوي في تفسيره: قل يا محمد: هل أنبئكم - أخبركم - بشر من ذلك الذي ذكرتم - يعني قولهم: لم نر أهل دين أقل حظًا في الدنيا والآخرة منكم، ولا دينًا شرًا من دينكم -، فذكر الجواب بلفظ الإبتداء،

---

(١) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور (٣/ ١٩٠)، وأحمد (٦/ ٢٣٠، ٢٣١، ٢٩٢، ٣١٢- ٧/ ٣٩، ٤٠، ١٠٢، ١٩١، ٢٨٦، ٤٣٩، ٤٤٠)، والبزار (٥ / ٣٠٠)، وأبويعلي (٩/ ٢١٢، ٢١٥)، وابن أبي حاتم (٤/ ١١٦٥)، والطيالسي (١/ ٢٤٣)، وابن أبي شيبة (١/ ١٩٥، ٦/ ١٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٦٣).

....

وإن لم يكن الإبتداء شرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ﴾ [الحج: ٧٢].

وقوله: ﴿مَثُوبَةً﴾: ثوابًا وجزاء، نصب على التفسير عند الله، من لعنه الله، أي: هو من لعنه الله وغضب عليه، يعني: اليهود ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ فالقردة أصحاب السبت، والخنازير كفار مائدة عيسى.

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أن المسخين كلاهما من أصحاب السبت، فشبابهم مسخوا قردة، وشيوخهم مسخوا خنازير.

﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أي: وجعل منهم من عبد الطاغوت، أي: أطاع الشيطان فيما سول له)[1].

وقرأ ابن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (وَعَبَدُوا الطَّاغُوتَ)، وَقَرَأَ حَمْزَةُ (وَعَبُدَ) بِضَمِّ الْبَاءِ (الطَّاغُوتِ) بِجَرِّ التَّاءِ، أَرَادَ الْعَبُدَ وَهُمَا لُغَتَانِ (عَبْدٌ) بِجَزْمِ الْبَاءِ، وَ(عَبُدٌ) بِضَمِّ الْبَاءِ، مِثْلُ (سَبْعٍ)، وَ(سَبُعٌ)، وَقِيلَ: هُوَ جَمْعُ الْعِبَادِ، وَقَرَأَ الْحَسَنُ (وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ)، عَلَى الْوَاحِدِ[2].

وفي تفسير الطبري: قرأ حمزة وحده (وَعَبُدَ الطَّاغُوتِ) بضم الباء وجر التاء، والباقون (وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ) بنصب الباء وفتح التاء.

وقرأ ابن عباس وابن مسعود وإبراهيم النخعي والأعمش وأبان بن تغلب (وعُبُدَ الطَّاغُوتِ) بضم العين والباء وفتح الدال وخفض التاء.

---

(١) انظر: تفسير البغوي (٢/ ٤٩).
(٢) انظر: تفسير البغوي (٣/ ٧٥).

. . . .

قال: وحجة حمزة في قراءته: (وَعَبُدَ الطَّاغُوتِ) أنه يحمله على ما عمل فيه، جعل كأنه (وجعل منهم عبد الطاغوت).

ومعنى (جَعَلَ): خلق؛ كقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وليس (عبد) لفظ جمع؛ لأنه ليس من أبنية الجموع شيء على هذا البناء، ولكنه واحد يراد به الكثرة، ألا ترى أن في الأسماء المفردة المضافة إلى المعارف ما لفظه الإفراد ومعناه الجمع؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، ولأن بناء فعل يراد به المبالغة والكثرة نحو: يقظ ودنس، وكأن تقديره: أنه ذهب في عبادة الطاغوت كل مذهب.

وأما من فتح، فقال: (وعَبَدَ الطَّاغُوتِ)، فإنه عطفه على بناء المضي الذي في الصلة وهو قوله: (لعنه الله)، وأفرد الضمير في عبد، وإن كان المعنى فيه الكثرة؛ لأن الكلام محمول على لفظه دون معناه، وفاعله ضمير (من) كما أن فاعل الأمثلة المعطوف عليها ضمير (من)، فأفرد لحمل ذلك جميعًا على اللفظ. وأما قوله: (عبد الطاغوت)، فهو جمع عبد.

وقال أحمد بن يحيى: عبد جمع عابد، كبازل وبزل، وشارف وشرف، وكذلك عبد جمع عابد. ومثله عباد وعبَّاد. ا.هـ[1].

وقال شيخ الإسلام في قوله: (وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ): الصواب أنه معطوف على ماقبله من الأفعال، أي: من لعنه وغضب عليه، ومن جعل

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٢٩٤، ٢٩٥).

....

منهم القردة والخنازير ومن عبد الطاغوت. قال: والأفعال المتقدمة الفاعل فيها اسم الله، مظهرًا أو مضمرًا، وهنا الفاعل اسم من عبد الطاغوت، وهو الضمير في عبد ولم يعد سبحانه من؛ لأنه جعل هذه الأفعال صفة لصنف واحد وهم اليهود(١).

قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ مما تظنون بنا ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر له مشارك كقوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٌ مُّسۡتَقَرًّا وَأَحۡسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] **قاله العماد ابن كثير في تفسيره، وهو ظاهر(٢).**

الشرح:

وجه الشاهد من هذه الآية: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ على هذه القراءة: (**وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ**)، فإنَّ الطاغوت مفعول (عبد)، و(عبد) تكون معطوفة على قوله: (لعن) ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ إلى أن قال: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ يعني: كأنه قال بتقديم وتأخير: من لعنه الله ومن عبد الطاغوت، وعبادة الطاغوت وقعت في أولئك الملعونين، وبما أن ما وقع في الأمم السالفة بخبر النبي ﷺ سيقع في هذه الأمة، فإننا نعلم أن في هذه الأمة من سيعبد الطاغوت؛ كما عبدها أولئك، وعبادة الطاغوت عامة - كما ذكرنا - يدخل فيها عبادة الأوثان مِنْ عبادة القبور، وتأليه أصحابها، والتوسل بهم إلى

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٥٥).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٤٤).

الله عَزَّوَجَلَّ ، يعني: الاستشفاع بهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ ، أو طلب الشفاعة منهم، ونحو ذلك من الوسائل الشركية، أو ما هو من الشرك الأكبر، فحصلت عبادة للأوثان من القبور، ومن المشاهد، ومن الأشجار، ومن الأحجار، ونحو ذلك مما اعتقد فيه الجهلة الذين تركوا دين محمد ﷺ .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

ش: (قوله: وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١])، **والمراد أنهم فعلوا مع الفتية بعد موتهم ما يذم فاعله؛ لأن النبي ﷺ قال: «لَعَنَ اللَّهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»**(١)**. أراد تحذير أمته أن يفعلوا كفعلهم.**

الشرح:

قوله: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾) قصة أصحاب الكهف معروفة، وهذه الجملة بعض آية من قصة أصحاب الكهف، ولَمَّا حصل أن جعلهم الله عَزَّوَجَلَّ آية: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]، ثم أحياهم الله عَزَّوَجَلَّ ، واطَّلع الناس على أنهم مكثوا أحياء هذه المدة الطويلة، وأنهم أماتهم الله ثم أحياهم، اعتقدوا فيهم، ولَمَّا اعتقدوا فيهم وماتوا، تنازعوا في أمرهم: فمنهم من قال: افعلوا لهم كذا: ﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾، ومنهم من قال: اجعلوا لهم فناء ودارًا وعظِّموا مكانهم، واختلف الناس فيهم في ذلك الزمان، قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ مَنْ الذين غلبوا على الأمر؟ اختلف المفسرون في ذلك:

القول الأول: قال قائلون: هم المسلمون - مسلمو ذلك الزمان -

---

(١) سبق تخريجه (ص١٥٠).

حصل منهم تعظيم لأصحاب الكهف، ﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ [الكهف: ٢١]، وقالوا: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ تعظيمًا لهم ودلالةً للناس عليهم، فإذا كان هذا القول راجحًا، فإنه من وسائل الشرك بالله، ويؤدي إلى عبادة تلك القبور والاعتقاد في أصحاب الكهف، وهذا القدر حصل في هذه الأمة.

والقول الثاني: أن الذين غلبوا على أمرهم هم المشركون، يعني: أتباع ذلك الدين لاعتقادهم الجاهلي، ولما في قلوبهم من الشرك والبدع التي خالفوا بها أنبياءهم، قالوا: ابنوا عليهم مسجدًا؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ هنا: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

والقول الثالث - وهو الذي رجحه ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ورجحه عدد أيضًا من أهل العلم -: أن الذين غلبوا على أمرهم هم الكبراء، والأمراء، وأصحاب النفوذ فيهم، يعني: الذين كانت لهم الغلبة في الأمر، والذي له الغلبة في الأمر هو من يملك الأمر والنهي في الناس، وهم الكبراء، وأصحاب النفوذ، وملوك ذلك الزمان، وأمراء ذلك الزمان، فأولئك عظَّموا أولئك الصالحين وقالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[1].

وقد حصل هذا في تلك الأمة، وما دام أنه حصل، فإنه سيحصل في هذه الأمة؛ لأنه ما من خصلة من الشرك حصلت في الأمم قبلنا إلا وحصلت في هذه الأمة، حتى ادعى بعض هذه الأمة أنه هو الله عَزَّوَجَلَّ، وأن الله يحل فيه ونحو ذلك، بل قد ادعوا أن روح الإله تتناسخ في أناس معينين؛ كما هو اعتقاد طوائف من الباطنيين ونحو ذلك، وهذا كما قال ﷺ: «**لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ**»[2].

(١) انظر هذه الأقوال في: تفسير الطبري (١٧/ ٦٤٠)، وزاد المسير (٣/ ٧٤)، والقرطبي (١٠/ ٣٥١)، وابن كثير (٥/ ١٣٣).

(٢) سيأتي تخريجه الصفحة القادمة.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اليَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟». أَخْرَجَاهُ[1].

ش: قوله: (عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اليَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟» أَخْرَجَاهُ)، وهذا سياق مسلم.

قوله: «سَنَنَ» بفتح المهملة أي: طريق من كان قبلكم. قال المهلب: فتح أولى.

قوله: «حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ» بنصب (حَذْوَ) على المصدر. والقذة بضم القاف واحدة القذذ، وهو ريش السهم. أي: لتتبعن طريقهم في كل ما فعلوه، وتشبهوهم في ذلك؛ كما تشبه قذة السهم القذة الآخرى. وبهذا تظهر مناسبة الآيات للترجمة، وقد وقع كما أخبر، وهو علم من أعلام النبوة.

قوله: «حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»، وفي حديث آخر: حَتَّى لَوْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يَأْتِي أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، والطبراني في الكبير (١٣/ ٣٠).

....

أراد ﷺ أن أمته لا تدع شيئًا مما كان يفعله اليهود والنصارى إلا فعلته كله، لا تترك منه شيئًا، ولهذا قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا، ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا، ففيه شبه من النصارى. ا. هـ(١).

قلت: فما أكثر الفريقين! لكن من رحمة الله تعالى ونعمته أن جعل هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة؛ كما في حديث ثوبان الآتي قريبًا.

قوله: «قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اليَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟» من برفع اليهود خبر مبتدأ محذوف، أي: أهم اليهود والنصارى الذين نتبع سننهم؟ ويجوز النصب بفعل محذوف تقديره: تعني.

قوله: «قَالَ: فَمَنْ؟» استفهام إنكاري. أي: فمن هم غير أولئك؟

الشرح:

وهذا الحديث - وهو حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ».

قوله: «سَنَن» هذه تُروَى هكذا «سَنَن» بفتحتين: فتح السين، والنون.

وتُروَى أيضًا «سُنن»، والسُّنَن جمع سنة، وهي: الطريقة، يعني: كأنه قال: «لَتَتْبَعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»، يعني: طرائق من كان قبلكم أيعني: في الدين -، وعلى الضبط الآخر الذي أقرأ به: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ».

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ١٩٧)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٥١).

السَّنَن مفرد، وهو: السبيل والطريق، يعني: لتتبعن سبيل من كان قبلكم.

واللام في قوله: «لَتَتْبَعُنَّ» هي الواقعة في جواب القسم، نفهم من وجود اللام أن النبي ﷺ أقسم على ذلك، فقال مؤكدًا: والله لتتبعن سنن من كان قبلكم؛ لأن اللام هذه واقعة في جواب القسم، فإذا رأيت اللام هذه المفتوحة، فهي الواقعة في جواب القسم، فكأنه بل قد أقسم عليه، والقسم محذوف، واللام واقعة في جوابه.

لِمَ أقسم ﷺ؟ ليؤكد هذا الأمر تأكيدًا عظيمًا بأن هذه الأمة ستتبع طريق وسبيل من كان قبلها من الأمم، وهذا تحذير؛ لأن الأمم السالفة إما أن تكون من أهل الكتاب اليهود والنصارى، وهؤلاء قد وصفهم الله ﷻ بأنهم مغضوب عليهم وضالون، فإذا اتُّخذَت سبيلهم سبيلًا في هذه الأمة، معنى ذلك أن هذه الأمة تعرضت للغضب واللعنة، وهذا حصل في هذه الأمة، فإن منهم من سلك سبيل اليهود، ومنهم من سلك سبيل النصارى؛ ولهذا قال بعض السلف: من فسد من علمائنا، ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا، ففيه شبه من النصارى؛ لأن اليهود خالفوا على علم، والنصارى خالفت على ضلالة، وقد قال ﷻ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، والمغضوب عليهم هم اليهود، والضالون هم النصارى؛ كما فسرها النبي ﷺ.

قوله: «حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ» يعني: من التساوي، القذة، والقذة تكون في السهم، وتكون هذه مساوية لتلك، لا تُفرِّق بين واحدة والأخرى، فإذا نظرت في هذه، ونظرت في هذه، وجدت أنهما متماثلتان لا فرق بينهما، وهذا هو الواقع؛ فإنه في هذه الأمة وقع التماثل، ففي هذه الأمة حصل من مثل ما حصل في الأمم قبلنا في أبواب الربوبية، وفي أبواب الإلهية، وفي الأسماء والصفات، وكذلك في العمل، وكذلك في السلوك، وكذلك في

أفعال الله عَزَّوَجَلَّ ، فكل شيء كان فيمن قبلنا جاء ووقع في هذه الأمة، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ السلامة والعافية.

قوله: «حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اليَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟» أخرجاه.

وجه الدلالة من هذ الحديث ظاهرة، بل عماد هذا الباب على هذا الحديث مِنْ أن كل كفر وشرك وقع في الأمم السالفة فسيقع في هذه الأمة، الأمم السالفة عبدت الأوثان، وكفرت بالله عَزَّوَجَلَّ ، فسيقع في هذه الأمة من يعبد الأوثان ومن يكفر بالله عَزَّوَجَلَّ في الربوبية، وفي الإلهية، وفي الأسماء والصفات، وفي أفعال الله عَزَّوَجَلَّ ، وفي الحكم والتحاكم، وهكذا في أنواع كثيرة مما حصل فيمن قبلنا، حتى في أمور السلوك والبدع، بل حتى في أمور الأخلاق والعادات، التي قد تتصل بالدين، فإنه سلكت هذه الأمة مسلك الأمم قبلها مخالفة نهي النبي ﷺ.

ولِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَأَنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»(١).

وَرَوَاهُ الْبُرْقَانِي فِي صَحِيحِهِ وَزَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تُعْبَدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيُّهُمْ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٨٩).

(٢) أخرجه بهذه الزيادة: أبو داود (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، وأحمد (٥/ ٢٧٨).

....

ش: هذا الحديث رواه أبو داود في سننه، وابن ماجه بالزيادة التي ذكرها المصنف.

قوله: «عَنْ ثَوْبَانَ». هو مولى النبي ﷺ صحبه، ولازمه، ونزل بعده الشام، ومات بحمص سنة أربع وخمسين.

قوله: «زَوَى لِي الْأَرْضَ». قال التُّورْبِشْتي[(١)]: زَويت الشيء: جمعته وقبضته، يريد تقريب البعيد منها، حتى اطلع عليه اطلاعه على القريب[(٢)]. وحاصله أنه طوى له الأرض، وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرآة ينظره.

قال الطيبي[(٣)]: أي: جمعها، حتى بصرت ما تملكه أمتي من أقصى المشارق والمغارب منها.

قوله: «وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا». قال القرطبي: هذا الخبر وجد مخبره كما قال، وكان ذلك من دلائل نبوته، وذلك أن ملك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى طنجة - بالنون والجيم - الذي هو منتهى عمارة المغرب، إلى أقصى المشرق مما هو وراء خراسان والنهر، وكثير

---

(١) هو شهاب الدين فضل الله بن حسن التوربشتي، محدث وفقيه من أهل شيراز، قال السبكي في طبقات الشافعية الكبرى (٨/ ٣٤٩): (شرح مصابيح البغوي شرحًا حسنًا، وروى صحيح البخاري... وأظن هذا الشيخ مات في حدود الستين والستمائة، وواقعة التتار أوجبت عدم المعرفة بحاله). وانظر: طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٢/ ٣٤).

(٢) انظر: تحفة الأحوذي (٦/ ٣٣٢).

(٣) هو الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي، الإمام المشهور، صاحب شرح المشكاة، وحاشية الكشاف، وغيرهما، كان كريمًا، متواضعًا، حسن المعتقد، شديد الرد على الفلاسفة والمبتدعة، مظهرا فضائحهم، مع استيلائهم على بلاد المسلمين في عصره، توفي سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة. انظر: الدرر الكامنة (٢/ ١٨٥)، والبدر الطالع (١/ ٢٢٩).

....

من بلاد السند والهند والصغد، ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال. وذلك لم يذكر ﷺ أنه أريه، ولا أخبر أن ملك أمته يبلغه[1].

قوله: «مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا». يحتمل أن يكون مبنيًا للفاعل، وأن يكون مبنيًا للمفعول.

قوله: «وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ». قال القرطبي: عني به كنز كسرى، وهو ملك الفرس، وكنز قيصر، وهو ملك الروم وقصورهما وبلادهما.

وقد قال ﷺ: «إِذَا هَلَكَ كِسْرَى، فَلاَ كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ، فَلاَ قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ»[2]، وعبر بالأحمر عن كنز قيصر؛ لأن الغالب عندهم كان الذهب، وبالأبيض عن كنز كسرى لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة.

ووجد ذلك في خلافة عمر ﷺ، فإنه سيق إليه تاج كسرى وحليته وما كان في بيوت أمواله، وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها، وكذلك فعل الله بقيصر. والأبيض والأحمر منصوبان على البدل.

قوله: «وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ». هكذا ثبت في أصل المصنف ﷺ (بِعَامَّةٍ) بالباء، وهي رواية صحيحة في صحيح مسلم، وفي بعضها بحذفها.

---

(١) انظر: المفهم لما أشكل على صحيح مسلم (٧/ ٢١٧).
(٢) أخرجه البخاري (٣١٢٠)، ومسلم (٢٩١٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.
وأخرجه البخاري (٣١٢١)، ومسلم (٢٩١٩) من حديث جابر بن سمرة ﷺ.

....

قال القرطبي: وكأنها زائدة لأن (عامة): صفة السنة[١].

والسنة: الجدب الذي يكون به الهلاك العام، ويسمى الجدب والقحط: سنة. يجمع على سنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠] أي: الجدب المتوالي. قوله: «مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ». أي: من غيرهم من الكفار من إهلاك بعضهم بعضًا، وسبي بعضهم بعضًا، كما هو مبسوط في التاريخ فيما قيل، وفي زماننا هذا، نسأل الله العفو والعافية.

قوله: «فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ».

قال الجوهري: بيضة كل شيء جوزته، وبيضة القوم ساحتهم[٢].

وعلى هذا فيكون معنى الحديث: إن الله تعالى لا يسلط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع ما حازوه من البلاد والأرض، ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض، وهي جوانبها. وقيل: بيضتهم: معظمهم وجماعتهم، وإن قلوا.

قوله: «حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»، والظاهر أن (حَتَّى) عاطفة، أو تكون لانتهاء الغاية، أي إن أمر الأمة ينتهي إلى أن يكون بعضهم يهلك بعضًا. وقد سلط بعضهم على بعض كما هو الواقع؛ وذلك لكثرة اختلافهم وتفرقهم.

قوله: «وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ».

---

(١) انظر: المفهم لما أشكل على صحيح مسلم (٧/ ٢١٧).
(٢) انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٣/ ١٠٦٨)، وانظر: مادة (بيض) في لسان العرب (٧/ ١٢٧)، ومختار الصحاح (ص٢٩).

....

قال بعضهم: أي إذا حكمت حكمًا مبرمًا نافذًا، فإنه لا يرد بشيء، ولا يقدر أحد على رده، كما قال النبي ﷺ: «وَلَا رَادَّ لِمَا قَضَيْتَ»[١].

قوله: (وَرَوَاهُ البُرْقَاني في صَحِيحِهِ). هو الحافظ الكبير أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب الخوارزمي الشافعي، ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، ومات سنة خمس وعشرين وأربعمائة.

قال الخطيب: كان ثبتًا ورعًا، لم نر في شيوخنا أثبت منه، عارفًا بالفقه كثير التصانيف. صنف مسندًا ضمنه ما اشتمل عليه الصحيحان، وجمع حديث الثوري، وحديث شعبة وطائفة[٢].

وهذا الحديث رواه أبو داود بتمامه بسنده إلى أَبِي قِلَابَةَ، عَنْ أَبِي أَسْمَاءَ، عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ - أَوْ قَالَ: - إِنَّ رَبِّي زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَلَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَأَنَّ رَبِّي قَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً، فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَلَا أُهْلِكُهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَلَا أُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ٤٤٠)، وعبد بن حميد في مسنده (ص١٥٠)، والطبراني في الكبير (١٩٦٣٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٥٣) من حديث المغيرة ﷺ.

(٢) انظر: تاريخ دمشق (٥/ ١٩٧)، وسير أعلام النبلاء (١٧/ ٤٦٥)، وطبقات الشافعية الكبرى (٤/ ٤٧).

....

أَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ بِأَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَحَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَسْبِي بَعْضًا، وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وُضِعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي لَمْ يُرْفَعْ عَنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ - قَالَ ابْنُ عِيسَى: ظَاهِرِينَ. ثُمَّ اتَّفَقَا - لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالى»[(١)].

وروى أبو داود أيضًا عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «تَدُورُ رَحَى الْإِسْلَامِ لِخَمْسٍ وَثَلَاثِينَ، أَوْ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ، أَوْ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ، فَإِنْ يَهْلَكُوا فَسَبِيلُ مَنْ هَلَكَ، وَإِنْ يَقُمْ لَهُمْ دِينُهُمْ، يَقُمْ لَهُمْ سَبْعِينَ عَامًا، قَالَ: قُلْتُ: أَمِمَّا بَقِيَ أَوْ مِمَّا مَضَى؟ قَالَ: مِمَّا مَضَى»[(٢)].

وروى في سننه أيضًا عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيَنْقُصُ الْعِلْمُ، وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ، وَيُلْقَى الشُّحُّ، وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيَّةُ هُوَ؟ قَالَ: الْقَتْلُ، الْقَتْلُ»[(٣)].

قوله: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ». أي: الأمراء والعلماء والعباد، فيحكمون فيهم بغير علم، فيضلونهم؛ كما قال تعالى:

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٠٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٥٤).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٥٥)، وأصله في البخاري (٨٥، ١٠٣٦)، ومسلم (١٥٧).

....

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وكان بعض هؤلاء يقول لأصحابه: من كان له حاجة، فليأت إلى قبري، فإني أقضيها له، ولا خير في رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب، ونحو هذا.

وهذا هو الضلال البعيد، يدعو أصحابه إلى أن يعبدوه من دون الله، ويسألوه ما لا يقدر عليه من قضاء حاجاتهم وتفريج كرباتهم، وقد قال تعالى: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [الحج: ١٢-١٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وأمثال هذا في القرآن كثير، يبين الله تعالى به الهدى من الضلال.

ومن هذا الضرب من يدعي أنه يصل مع الله إلى حال تسقط فيها عنه التكاليف، ويدعي أن الأولياء يدعون ويستغاث بهم في حياتهم ومماتهم، وأنهم ينفعون ويضرون، ويدبرون الأمور على سبيل الكرامة، وأنه يطلع على اللوح المحفوظ، يعلم أسرار الناس وما في ضمائرهم، ويجوز بناء المساجد على قبور الأنبياء والصالحين وإيقادها بالسرج ونحو ذلك من الغلو والإفراط والعبادة لغير الله. فما أكثر هذا الهذيان والكفر والمحادة لله ولكتابه ولرسوله!

. . . .

وقوله ﷺ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ». أتى بإنما التي قد تأتي للحصر بيانًا لشدة خوفه على أمته من أئمة الضلال، وما وقع في خلد النبي ﷺ من ذلك إلا لما أطلعه الله عليه من غيبه أنه سيقع نظير ما في الحديث قبله من قوله: «لَتَتْبَعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ..» الحديث[(١)].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الْأَئِمَّةُ الْمُضِلُّونَ». رواه أبو داود الطيالسي[(٢)].

وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ». رواه الدارمي[(٣)].

وقد بين الله تعالى في كتابه صراطه المستقيم الذي هو سبيل المؤمنين، فكل من أحدث حدثًا ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ، فهو ملعون، وحدثه مردود؛ كما قال ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحْدِثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ، وَالْمَلَائِكَةِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا، وَلَا عَدْلًا»[(٤)] وقال: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ»[(٥)]، وقال: «كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[(٦)]، وهذه أحاديث صحيحة، ومدار أصول الدين وأحكامه على هذه الأحاديث ونحوها.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٥)، وأصله في البخاري (٨٥، ١٠٣٦)، ومسلم (١٥٧).
(٢) أخرجه أحمد (٤٥/٤٧٨)، والطيالسي (٢/ ٣١٢).
(٣) أخرجه الدارمي (٢١٧).
(٤) أخرجه البخاري (١٨٧٠، ٣١٧٢، ٣١٧٩، ٦٧٥٥)، ومسلم (١٣٧٠).
(٥) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رحمها الله.
(٦) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣، ٤٤)، =

....

وقد بين الله تعالى هذا الأصل في مواضع من كتابه العزيز؛ كما قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨]، ونظائرها في القرآن كثير.

وَعَنْ زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ قَالَ: قَالَ لِي عُمَرُ رضي الله عنه: «هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الإِسْلَامَ؟ قَالَ: قُلْتُ: لاَ. قَالَ: يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالِمِ، وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ، وَحُكْمُ الأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ». رواه الدارمي(١).

وقال يَزِيدُ بْنَ عُمَيْرَةَ - وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه - قَالَ: «كَانَ لَا يَجْلِسُ مَجْلِسًا لِلذِّكْرِ حِينَ يَجْلِسُ إِلَّا قَالَ: اللَّهُ حَكَمٌ قِسْطٌ هَلَكَ الْمُرْتَابُونَ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ يَوْمًا: أَنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ فِتَنًا يَكْثُرُ فِيهَا الْمَالُ، وَيُفْتَحُ فِيهَا الْقُرْآنُ حَتَّى يَأْخُذَهُ الْمُؤْمِنُ وَالْمُنَافِقُ، وَالرَّجُلُ، وَالْمَرْأَةُ، وَالصَّغِيرُ، وَالْكَبِيرُ، وَالْعَبْدُ، وَالْحُرُّ، فَيُوشِكُ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ: مَا لِلنَّاسِ لَا يَتَّبِعُونِي وَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ؟ مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّى أَبْتَدِعَ لَهُمْ غَيْرَهُ، فَإِيَّاكُمْ وَمَا ابْتُدِعَ، فَأَنَّ مَا ابْتُدِعَ ضَلَالَةٌ، وَأُحَذِّرُكُمْ زَيْغَةَ الْحَكِيمِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الضَّلَالَةِ عَلَى لِسَانِ الْحَكِيمِ، وَقَدْ يَقُولُ الْمُنَافِقُ كَلِمَةَ الْحَقِّ، قَالَ: قُلْتُ لِمُعَاذٍ: مَا يُدْرِينِي رَحِمَكَ اللَّهُ أَنَّ الْحَكِيمَ قَدْ يَقُولُ

= وأحمد (٢٨/ ٣٧٣، ٣٧٥)، والدارمي (٩٦)، والطبراني في الكبير (٦٢٣)، وابن حبان (١/ ١٧٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٧٦)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٤).

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٢١٤).

....

كَلِمَةَ الضَّلَالَةِ وَأَنَّ الْمُنَافِقَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الْحَقِّ؟ قَالَ: بَلَى، اجْتَنِبْ مِنْ كَلَامِ الْحَكِيمِ الْمُشْتَهِرَاتِ الَّتِي يُقَالُ لَهَا مَا هَذِهِ، وَلَا يُثْنِيَنَّكَ ذَلِكَ عَنْهُ، فَإِنَّهُ لَعَلَّهُ أَنْ يُرَاجِعَ، وَتَلَقَّ الْحَقَّ إِذَا سَمِعْتَهُ فَإِنَّ عَلَى الْحَقِّ نُورًا». رواه أبوداود وغيره[١].

قوله: «وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، وكذلك وقع. فإن السيف لما وقع بقتل عثمان ﷺ لم يرفع، وكذلك يكون إلى يوم القيامة، ولكن قد يكثر تارة ويقل أخرى، ويكون في جهة، ويرتفع عن أخرى.

قوله: «وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ». الحي واحد الأحياء، وهي القبائل، وفي رواية أبي داود: «حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ»، والمعنى: أنهم يكونون معهم، ويرتدون برغبتهم عن أهل الإسلام، ويلحقون بأهل الشرك.

وقوله: «وَحَتَّى تُعْبَدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ». الفئام بكسر الفاء مهموز: الجماعات الكبيرة، قاله أبو السعادات[٢].

وفي رواية أبي داود: «وَحَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ». وهذا هو شاهد الترجمة، ففيه الرد على من قال بخلافه من عباد القبور الجاحدين لما يقع منهم من الشرك بالله بعبادتهم الأوثان.

وذلك لجهلهم بحقيقة التوحيد وما يناقضه من الشرك والتنديد، فالتوحيد هو أعظم مطلوب، والشرك هو أعظم الذنوب.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦١١).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٤٠٧).

....

وفي معنى هذا الحديث ما في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَى ذِي الخَلَصَةِ».

قال: «وَذُو الخَلَصَةِ طَاغِيَةُ دَوْسٍ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَ فِي الجَاهِلِيَّةِ»(١).

وروى ابن حبان عن معمر قال: «إِنَّ عَلَيْهِ الْآنَ بَيْتًا مَبْنِيًّا مُغْلَقًا»(٢).

قال العلامة ابن القيم ﷺ في قصة هدم اللات، لما أسلمت ثقيف: فيه أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يومًا واحدًا، وكذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور، والتي اتخذت أوثانًا تعبد من دون الله، والأحجار التي تقصد للتبرك والنذر لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة، أو أعظم شركًا عندها وبها.

فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم، وسلكوا سبيلهم حذو القذة بالقذة، وغلب الشرك على أكثر النفوس؛ لظهور الجهل وخفاء العلم، وصار المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والسنة بدعة والبدعة سنة، وطمست الأعلام، واشتدت غربة الإسلام، وقل العلماء، وغلب السفهاء، وتفاقم الأمر، واشتد البأس، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين،

(١) أخرجه البخاري (٧١١٦)، ومسلم (٢٩٠٦).
(٢) أخرجه ابن حبان (١٥/ ١٥٠).

....

ولأهل الشرك والبدع مجاهدين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين. ا.هـ. ملخصًا[(١)].

قلت: فإذا كان هذا في القرن السابع وقبله، فما بعده أعظم فسادًا؛ كما هو الواقع.

وقوله: «أَنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ».

قال القرطبي: وقد جاء عددهم معينًا في حديث حذيفة ﵁ قال: أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ وَدَجَّالُونَ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ: مِنْهُمْ أَرْبَعُ نِسْوَةٍ، وَإِنِّي خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي». أخرجه أبو نعيم، وقال: هذا حديث غريب. انتهى[(٢)]. وحديث ثوبان أصح من هذا.

قال القاضي عياض: عد من تنبأ من زمن رسول الله ﷺ إلى الآن ممن اشتهر بذلك، وعرف واتبعه جماعة على ضلالة، فوجد هذا العدد فيهم، ومن طالع كتب الأخبار والتواريخ، عرف صحة هذا.

وقال الحافظ: وقد ظهر مصداق ذلك في زمن رسول الله ﷺ، فخرج مسيلمة الكذاب باليمامة، والأسود العنسي باليمن، وفي خلافة أبي بكر: طليحة بن خويلد في بني أسد بن خزيمة، وسجاح في بني تميم، وقتل الأسود قبل أن يموت النبي ﷺ، وقتل مسيلمة في خلافة أبي بكر ﵁، قتله وحشي قاتل حمزة يوم أحد، وشاركه في قتل مسيلمة يوم اليمامة

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٠٦).

(٢) أخرجه أحمد (٣٨/ ٣٨٠)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٧٩)، والطبراني في الكبير (٣٠٢٦) والأوسط (٥/ ٣٢٧) من حديث حذيفة ﵁.

....

رجل من الأنصار، وتاب طليحة، ومات على الإسلام في زمن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ونقل أن سجاح تابت أيضًا.

ثم خرج المختار بن أبي عبيد الثقفي، وغلب على الكوفة في أول خلافة الزبير، وأظهر محبة أهل البيت، ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين، فتتبعهم، فقتل كثيرًا ممن باشر ذلك، وأعان عليه، فأحبه الناس، ثم ادعى النبوة، وزعم أن جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يأتيه، ومنهم الحرث الكذاب، خرج في خلافة عبد الملك بن مروان فقتل، وخرج في خلافة بني العباس جماعة.

وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقًا، فإنهم لا يصحون كثرة؛ لكون غالبهم تنشأ دعوته عن جنون أو سوداء، وإنما المراد من قامت له شوكة، وبدا له شبهة؛ كمن وصفنا.

وقد أهلك الله تعالى من وقع له منهم ذلك، وبقي منهم من يلحقه بأصحابه، وآخرهم الدجال الأكبر[1].

قوله: «وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ». قال الحسن: الخاتم الذي ختم به يعني أنه آخر النبيين؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وإنما ينزل عيسى ابن مريم في آخر الزمان حاكمًا بشريعة محمد ﷺ مصليًا إلى قبلته، فهو كأحد من أمته، بل هو أفضل هذه الأمة. قال النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ٦١٧).

. . . .

لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ المَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ»[(١)].

قوله: «وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالى». قال يزيد بن هارون، وأحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث، فلا أدري من هم؟[(٢)].

قال ابن المبارك وعلي بن المديني، وأحمد بن سنان والبخاري وغيرهم: إنهم أهل الحديث.

وعن ابن المديني رواية: (هم العرب)، واستدل برواية من روى: (هم أهل الغرب)، وفسر الغرب بالدلو العظيمة؛ لأن العرب هم الذين يستقون بها[(٣)].

قال النووي: يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقيه ومحدث ومفسر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهد وعابد، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد، وافتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد، وأن يكونوا في بعض دون بعض منه، ويجوز إخلاء الأرض من بعضهم أولًا بأول إلى

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٢٢، ٣٤٤٨)، ومسلم (١٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) انظر: معرفة علوم الحديث للحاكم (ص٢)، وشرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي (ص٢٥، ٢٦)، وتاريخ بغداد (٤/ ١١٨)، وعمدة القاري (٢/ ٥٢)، وفتح الباري (١/ ١٦٤، ١٣/ ٢٩٣)، وشرح النووي على صحيح مسلم (١٣/ ٦٧).

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/ ٦٧).

....

أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا، جاء أمر الله. ا.هـ. ملخصًا. مع زيادة فيه. قاله الحافظ[1].

قال القرطبي: وفيه دليل على أن الإجماع حجة؛ لأن الأمة إذا اجتمعت، فقد دخل فيهم الطائفة المنصورة.

قال المصنف ﷺ: وفي الآية العظيمة: أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، وفيه البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية.

قلت: واحتج به الإمام أحمد على أن الاجتهاد لا ينقطع ما دامت هذه الطائفة موجودة.

قوله: «حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالى». الظاهر أن المراد به ما رُوي مِنْ قبض مَنْ بقي من المؤمنين بالريح الطيبة، ووقوع الآيات العظام، ثم لا يبقى إلا شرار الناس؛ كما روى الحاكم أن عبد الله بن عمر ﷺ قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ، هُمْ شَرٌّ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَدْعُونَ اللهَ بِشَيْءٍ إِلَّا رَدَّهُ عَلَيْهِمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، فَقَالَ لَهُ مَسْلَمَةُ: يَا عُقْبَةُ، اسْمَعْ مَا يَقُولُ عَبْدُ اللهِ، فَقَالَ عُقْبَةُ: هُوَ أَعْلَمُ، وَأَمَّا أَنَا فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللهِ، قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: أَجَلْ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا، كَرِيحِ الْمِسْكِ مَسُّهَا مَسُّ الْحَرِيرِ، فَلَا تَتْرُكُ نَفْسًا فِي قَلْبِهِ

---

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/ ٦٧)، وفتح الباري (١٣/ ٢٩٥).

....

مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا قَبَضَتْهُ، ثُمَّ بَقِيَ شِرَارُ النَّاسِ عَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ»[١].

وفي صحيح مسلم: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللَّهُ، اللَّهُ»[٢].

وعلى هذا فالمراد بقوله في حديث عقبة وما أشبهه: (حتى تأتيهم الساعة) ساعتهم، وهي وقت موتهم بهبوب الريح. ذكره الحافظ[٣].

وقد اختلف في محل هذه الطائفة، فقال ابن بطال: إنها تكون في بيت المقدس؛ كما رواه الطبراني من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَ: بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ»[٤]، قَالَ مُعَاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَهُمْ بِالشَّامِ»[٥].

وفي كلام الطبري ما يدل على أنه لا يجب أن تكون في الشام أو في بيت المقدس دائمًا، بل قد تكون في موضع آخر في بعض الأزمنة.

قلت: ويشهد له الواقع وحال أهل الشام وأهل بيت المقدس، فإنهم من أزمنة طويلة لا يعرف فيهم من قام بهذا الأمر بعد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ وأصحابه في القرن السابع وأول الثامن، فإنهم كانوا في زمانهم على الحق يدعون إليه، ويناظرون عليه، ويجاهدون فيه. وقد يجيء من

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٤)، والحاكم (٤/ ٥٠٣).
(٢) أخرجه مسلم (١٤٨).
(٣) انظر: فتح الباري (١٣/ ٢٩٥).
(٤) أخرجه الطبراني (٧٦٤٣)، وأحمد (٣٦/ ٦٥٧).
(٥) أخرجه البخاري (٣٦٤١).

....

أمثالهم بعد بالشام من يقوم مقامهم بالدعوة إلى الحق والتمسك بالسنة. والله على كل شيء قدير.

ومما يؤيد هذا أن أهل الحق والسنة في زمن الأئمة الأربعة وتوافر العلماء في ذلك الزمان وقبله وبعده لم يكونوا في محل واحد، بل هم في غالب الأمصار في الشام منهم الأئمة، وفي الحجار وفي مصر، وفي العراق واليمن، وكلهم على الحق يناضلون، ويجاهدون أهل البدع، ولهم المصنفات التي صارت أعلامًا لأهل السنة، وحجة على كل مبتدع.

فعلى هذا فهذه الطائفة قد تجتمع وقد تتفرق، وقد تكون في الشام، وقد تكون في غيره، فإن حديث أبي أمامة وقول معاذ لا يفيد حصرها بالشام، وإنما يفيد أنها تكون في الشام في مصر بعض الأزمنة لا في كلها.

وكل جملة من هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فإن كل ما أخبر به النبي ﷺ في هذا الحديث وقع كما أخبر ﷺ.

وقوله: «تَبَارَكَ وَتَعَالى». قال ابن القيم: البركة نوعان:

أحدهما: بركة هي فعلة، والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة وبأداة على تارة، وبأداة في تارة، والمفعول منها مبارك، وهو ما جعل منها كذلك، فكان مباركًا بجعله تعالى.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له تعالى، فهو سبحانه المتبارك، وعبده ورسوله المبارك؛ كما قال المسيح عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي

يجعلهم يفرضون على الناس أشياء ويلزمونهم بأشياء مضادة لشرع محمد ﷺ من أمور العقيدة والتوحيد، ومن أمور السلوك والعمل، ومن أمور الحكم والتحاكم، وهكذا وقع في هذه الأمة، وخوف النبي ﷺ من الأئمة المضلين وقع ما خاف منه ﷺ، فَكَثُرَ الأئمة المضلون في الأمة، الأئمة المضلون من جهة الاتباع، والأئمة المضلون من جهة الطاعة.

«وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تُعْبَدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ»: هذا نص صحيح من رواية البرقاني في صحيحه قال: «وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ». يلحقوا بالمشركين هل هو من جهة ترك بلاد المسلمين والذهاب إلى أرض المشركين؟ أم يلحقوا بالمشركين في الصفات والخصال؟ يحتمل هذا وهذا «حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ». يعني: من جهة ترك بلاد الإسلام والذهاب إلى بلاد المشركين رضى بهم وبدينهم، أو «حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ». من جهة الصفات، فيشركون كما أشرك المشركون ويرتدوا على أدبارهم.

«وَحَتَّى تُعْبَدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ»: الفئام، هي: الجماعات الكبيرة، قال: «وَحَتَّى تُعْبَدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ»، وهذا ظاهر المناسبة للباب في قول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في الباب: (بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةَ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ).

إلى أن قال ﷺ في هذا الحديث: «وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» هذه الطائفة المنصورة هي التي قال فيها ﷺ في حديث آخر: «وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ»، وهي التي قال فيها ﷺ: «وَسَتَفْتَرِقُ

هذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً» قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**هِيَ الْجَمَاعَةُ**»[(١)].

فالطائفة المنصورة هي الفرقة الناجية، وهي الجماعة بجمع أحاديث النبي ﷺ.

وسميت منصورة؛ لأن الله عز وجل نصرها على من ناوءها بالحجة والبيان، نَصْرُها الذي وُعِدَت به ليس نصرًا بالسنان، ولكنه نصر بالحجة والبيان فهم وإن هُزِمُوا في بعض المعارك أو أُدِيلَت دولتهم في بعض الأحيان فهم الظاهرون على من سواهم بالحجة والبيان، وهم المنصورون بما أعطاهم الله عز وجل من الحجة والنصوص والصواب والحق على من سواهم فهم على الحق وسواهم على الباطل.

هذان اللفظان: فرقة ناجية، وطائفة منصورة، اسمان لشيء واحد وإنما هو من باب تنوع الصفات فقال عنها الطائفة المنصورة هنا «**وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ**»: لأنها موعودة بالنصر كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، فهم منصورون كما قال الله عز وجل أيضًا: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، فقولهم هو المنصور وهو الظاهر وحجتهم هي الظاهرة، وقد يكون أيضًا لهم من النصر والتمكين في أرض الله ما أعطاهم الله عز وجل من ذلك.

وهم أيضًا الفرقة الناجية التي جاءت في حديث الافتراق، ناجية: يعني

---

(١) هذا حديث الافتراق المشهور، وهو حديث حسن، وله طرق، وورد عن عدد من الصحابة بنحو هذا اللفظ، منهم: معاوية رضي الله عنه عند أبي داود في السنن (٤٥٩٧)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٧٧). وعوف بن مالك رضي الله عنه عند ابن ماجه (٣٩٩٢)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٧٠). وأنس رضي الله عنه عند ابن ماجه (٣٩٩٣)، وأحمد في المسند (٣/ ١٤٥)، وأبي يعلى في مسنده (٧/ ١٥٥). وانظر تمام تخريجه في السلسلة الصحيحة (ح ٢٠٤).

موعودة بالنجاة من النار، فهم موصوفون بالنصر، وموصوفون بالنجاة من النار، وموصوفون بالنصر على عدوهم بالحجة والبيان، وقد يكون مع ذلك نصر بالسيف والسنان ونحو ذلك.

و(**الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ**)، الفرقة هي: الطائفة من الناس، أو الطائفة من أي شيء، فيُقال: فرقة من الطير؛ كما جاء في الحديث الصحيح: «**اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا**»[1] يعني طائفتان من طير صواف، وكما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]، (الطود): هو الجبل، يعني انفلق البحر فكان هذا كالجبل العظيم وهذا كالجبل العظيم، وما بينهما يابس آية لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقال تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]، والفرقة الناجية سميت فرقة لأجل أنها طائفة، ولأنها مقابلة بالفرق الأخرى، ولم يرد - فيما أعلم - هذا النص (**الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ**) في الحديث، لكن العلماء أخذوه مما جاء في حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره، في حديث الافتراق المشهور أن النبي ﷺ قال: «**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ. قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: الْجَمَاعَةُ**»[2].

فيفهم من هذا الحديث أن هذه الفرقة التي هي الجماعة هي الفرقة

---

(١) أخرجه مسلم (٨٠٤) من حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه (الصفحة السابقة).

الناجية، وغيرها من الفرق فرق هالكة؛ ولهذا قال أهل العلم في وصف من اعتقد الاعتقاد الحق وكان مع الجماعة: إنه من الفرقة الناجية. ووصفها بأنها ناجية يعني: ناجية من النار، وهي ناجية في الدنيا من عقاب الله عَزَّوَجَلَّ، ومن أنواع عقوباته وسخطه، وناجية في الآخرة من النار لقوله ﷺ: «**وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**». **قَالُوا: مَنْ هي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «هي الْجَمَاعَةُ»**.

فكل الفرق متوعدة بالهلاك، وأما هذه الفرقة فهي الناجية.

فإذًا (الناجية) هي صفتها في الآخرة، يعني: ناجية في الآخرة، والفرقة الناجية والطائفة المنصورة بمعنى واحد، ولكن وصفها بأنها ناجية باعتبار الآخرة وفي ذلك أيضًا نجاة في الدنيا، ووصفها بأنها منصورة باعتبار الدنيا، وهذا لأجل ما جاء في الأحاديث الكثيرة أن النبي ﷺ قال: «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**»[1]، فهي طائفة منصورة، وهم على الحق ظاهرون ومنصورون، ينصرهم الله عَزَّوَجَلَّ على من عاداهم، إما بالحجة نَصْرَ بيانٍ، وإما بالسنان نَصر سِنان إذا كان ثم جهاد قائم، وهذا لا يخلو منه أهل السنة والجماعة، وقد قال الإمام أحمد وغيره في تحديد من هي الفرقة الناجية المنصورة: (**إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم**)[2]؛ وذلك لأن أهل الحديث في زمن الإمام أحمد، كانوا هم القائمين لنصرة الدين، والمنافحة عن الاعتقاد الصحيح، والرد على المخالفين من أهل البدع الذين أدخلوا في الإسلام ما ليس منه، الذين رَاموا تحريف الكلم عَنْ مواضعه.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٠٧).

(٢) سبق عزوه (ص٢٢٠).

والإمام البخاري رحمه الله لما ذكر هذا الحديث، قال: (**الجماعة هم أهل العلم**)[١]، وإليه مال الترمذي في جامعه وغيره[٢].

فالفرقة الناجية المنصورة هم أهل الحديث؛ كما عليه أقوال أكثر أهل العلم، وهم أهل العلم، وهم الذين اعتقدوا الاعتقاد الحق، فمن اعتقد الاعتقاد الحق فهو ناجٍ بوعد الله عز وجل له، ووعد الرسول ﷺ له في الآخرة، وهو منصور في الدنيا ومنصور في الآخرة؛ كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، فهم منصورون في الدنيا ومنصورون في الآخرة.

فهذا النعت يُنبئ عما كان كالإجماع عند أهل السنة والجماعة، وعند أهل الحديث، وعند أئمة الإسلام أن الفرقة الناجية والطائفة المنصورة كلها تدل على طائفة واحدة وعلى فرقة واحدة، وهم الذين اعتقدوا الاعتقاد الحق، وساروا على نهج السلف الصالح رضي الله عنهم.

وقد عُقد لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مجلس محاكمة على العقيدة الواسطية لما ألفها[٣]، وقيل له: إنك تقول في هذا الاعتقاد: (**فَهَذَا اعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ**)، فهل معنى ذلك أنك تقول: إن من لم يعتقد هذا الاعتقاد فليس بناجٍ من النار؟ فقال رحمه الله مجيبًا في المجلس الذي حُوكِمَ فيه مِنْ قبل القضاة ومشايخ زمنه: لَمْ أقل هذا ولم يقتضه كَلامي، وإنما قُلتُ: فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة، فمن اعتقد هذا الاعتقاد، كان موعودًا بالنجاة، ومن لم يعتقد هذا الاعتقاد، لم

---

(١) قال البخاري رحمه الله: (باب ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وما أمر النبي ﷺ بلزوم الجماعة وهم أهل العلم) ا.هـ. انظر: فتح الباري (١٣/ ٣١٦).

(٢) قال أبو عيسى الترمذي في جامع السنن (٤/ ٤٦٦): (وتفسير الجماعة عند أهل العلم: هم أهل الفقه والعلم والحديث). ا.هـ.

(٣) انظر: قصة المحاكمة ومجالسها في مجموع الفتاوى (٣/ ١٦٠وما بعدها).

يكن موعودًا بالنجاة، وكان متوعدًا بالعذاب، وقد ينجو بأسباب، منها: صدق المقام في الإسلام، وكثرة الحسنات الماحية في الجهاد في نصرة الإسلام، وذلك لمن عنده نوع مخالفة لهذا الاعتقاد.

كما هو عند طائفة من أهل العلم، فإنهم قد يكون عندهم - كما قال شيخ الإسلام - من الحسناتِ الماحيةِ وصدق المقام في نصرة الإسلام ما يكفِّر الله عَزَّوَجَلَّ به عنهم المعصية والكبيرة التي عملوها، وهي سوء الاعتقاد الذي اعتقدوه، ولم يعتقدوا ما كان عليه أهل السنة والجماعة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ)**، يعني: إلي قيام ساعة المؤمنين، أي: الطائفة المنصورة، وذلك يكون قبل طلوع الشمس من مغربها بزمن قليل عند كثير من أهل العلم؛ كما قال النبي ﷺ فيما صح عنه في الحديث: **«.. يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّأْمِ فَلاَ يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلاَّ قَبَضَتْهُ حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبَدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ، فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلاَمِ السِّبَاعِ لاَ يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا..»**(١).

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ النِّسَاءِ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْمَائِدَةِ.

الثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْكَهْفِ.

الرَّابِعَةُ: وَهِيَ أَهَمُّهَا: مَا مَعْنَى الْإِيمَانِ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؟: هَلْ هُوَ اعْتِقَادُ قَلْبٍ، أَوْ هُوَ مُوَافَقَةُ أَصْحَابِهَا مَعَ بُغْضِهَا وَمَعْرِفَةِ بُطْلَانِهَا؟.

الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُمْ إِنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ كُفْرَهُمْ أَهْدَى سَبِيلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

السَّادِسَةُ: وَهِيَ الْمَقْصُودُ بِالتَّرْجَمَةِ: أَنَّ هَذَا لَا بُدَ أَنْ يُوجَدَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، كَمَا تَقَرَّرَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ.

السَّابِعَةُ: التَّصْرِيحُ بِوُقُوعِهَا، أَعْنِي عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي جُمُوعٍ كَثِيرَةٍ.

الثَّامِنَةُ: الْعَجَبُ الْعُجَابَ خُرُوجُ مَنْ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ، مِثْلَ الْمُخْتَارِ، مَعَ تَكَلُّمِهِ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَتَصْرِيحِهِ بِأَنَّهُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ وَفِيهِ أَنَّ مُحَمَّدًا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَمَعَ هَذَا يُصَدَّقُ فِي هَذَا كُلِّهِ مَعَ التَّضَادِ الْوَاضِحِ. وَقَدْ خَرَجَ الْمُخْتَارُ فِي آخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ، وَتَبِعَهُ فِئَامٌ كَثِيرَةٌ.

التَّاسِعَةُ: الْبِشَارَةُ بِأَنَّ الْحَقَّ لَا يَزُولُ بِالْكُلِّيَّةِ كَمَا زَالَ فِيمَا مَضَى، بَلْ لَا تَزَالُ عَلَيْهِ طَائِفَةٌ.

الْعَاشِرَةُ: الْآيَةُ الْعُظْمَى أَنَّهُمْ مَعَ قِلَّتِهِمْ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ ذَلِكَ الشَّرْطَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: مَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ، مِنْهَا: إِخْبَارُهُ بِأَنَّ اللهَ زَوَى لَهُ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ، وَأَخْبَرَ بِمَعْنَى ذَلِكَ فَوَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ، بِخِلَافِ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ، وَإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ أُعْطِيَ الْكَنْزَيْنِ، وَإِخْبَارُهُ بِإِجَابَةِ دَعْوَتِهِ لِأُمَّتِهِ فِي الاثْنَتَيْنِ، وَإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ مُنِعَ الثَّالِثَةَ، وَإِخْبَارُهُ بِوُقُوعِ السَّيْفِ، وَأَنَّهُ لَا يُرْفَعُ إِذَا وَقَعَ، وَإِخْبَارُهُ بِإِهْلَاكِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا وَسَبْيِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَخَوْفُهُ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ، وَإِخْبَارُهُ بِظُهُورِ الْمُتَنَبِّئِينَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَإِخْبَارُهُ بِبَقَاءِ الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ. وَكُلُّ هَذَا وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ، مَعَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا أَبْعَدُ مَا يَكُونُ مِنَ الْعُقُولِ.

الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: حَصْرُ الْخَوْفِ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ.

الرَّابِعَةَ عَشَرَ: التَّنْبِيهُ عَلَى مَعْنَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ.

٢٣ - بَابُ
مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ

ش: قوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ). أي: والكهانة.

السحر في اللغة: عبارة عما خفي ولطُف سببه[١]، ولهذا جاء الحديث: «إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا»[٢].

وسمي السحر سحرًا؛ لأَنَّهُ يقع خفيًّا آخر الليل.

قال أبو محمد المقدسي في الكافي: (السحر عزائم، ورُقى، وعقد يؤثر في القلوب والأبدان، فيمرض ويقتل، ويفرق بين المرء وزوجه. قال الله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]، يعني: السَّواحرَ اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن. ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر الله بالاستعاذة منه.

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «سُحِرَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَنَّهُ لَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ عِنْدِي، دَعَا اللَّهَ وَدَعَاهُ، ثُمَّ قَالَ: أَشَعَرْتِ يَا عَائِشَةُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ. قُلْتُ: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: جَاءَنِي رَجُلَانِ، فَجَلَسَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي، وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟

---

(١) انظر: مادة (سحر) في: تهذيب اللغة (٤/ ١٧٠)، ومقاييس اللغة (٣/ ١٣٨)، ولسان العرب (٤/ ٣٤٨)، والتعاريف (ص١٩١).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٤٦، ٥٧٦٧) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

....

قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ اليَهُودِيُّ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ، قَالَ: فِيمَا ذَا؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ وَجُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ، قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بِئْرِ ذِي أَرْوَانَ، قَالَ: فَذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى البِئْرِ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَعَلَيْهَا نَخْلٌ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى عَائِشَةَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ، وَلَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَأَخْرَجْتَهُ؟ قَالَ: لاَ، أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَافَانِيَ اللَّهُ وَشَفَانِي، وَخَشِيتُ أَنْ أُثَوِّرَ عَلَى النَّاسِ مِنْهُ شَرًّا، وَأَمَرَ بِهَا فَدُفِنَتْ»[1]. رواه البخاري[2].

الشرح:

هذا: (بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ).

ومناسبة ذكر السحر لكتاب التوحيد: أَنَّ السَّحرَ نوعٌ من الشرك، وقد قال ﷺ: «مَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ»[3]، فالسحر أحدُ أنواعِ الشرك الأكبر بالله ﷻ، فمناسبته ظاهرة: أَنَّه مُضادٌ لأصل التوحيد.

والسِّحر في اللغة هو: عبارة عما خفي ولطف سببه، خفي يعني: صار سبب ذلك الشيء خفيًا، لا يقع بظهور، وإنما يقع على وجه الخفاء؛ ولهذا سمي آخر الليل سحرًا لذلك، وكذلك قيل في أكلة آخر الليل: سحور؛

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٦٣)، ومسلم (٢١٨٩).

(٢) انظر: الكافي في فقه الإمام أحمد (٤/ ١٦٤).

(٣) أخرجه النسائي (٤٠٧٩)، والطبراني في الأوسط (٢/ ١٢٨) من حديث أبي هريرة ﵁.

وذلك لأنَّها تقعُ على وجه الخفاء، وعدم الاشتهار، والظهور من الناس(١).

فهذه اللفظة (**سِحْرٌ**)، وما اشتقت منه تدلُّ على خفاءٍ في الشيء؛ ولهذا فإنه في اللغة يُطْلَقُ السحر على أشياء كثيرة، منها ما يكون من جهة المقال، ومنها ما يكون من جهة الفعل، ومنها ما يكون من جهة الاعتقاد، وسيأتي في هذا الباب، وفي الباب الذي بعده: (**بَابُ بَيَانِ شيءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ**) ما يتصل بذلك.

وأما السحر الذي هو كفر وشرك أكبر بالله عز وجل، فهو استخدام الشياطين، والاستعانة بها لحصول أمر بواسطة التقرب لذلك الشيطان بشيء من أنواع العبادة.

والسحر عَرَّفه الفقهاء بقولهم: رُقَى وعَزائم وعُقَد يُنفَث فيها، فيكون سحرًا يضُرُّ حقيقة، ويُمرِض حقيقةِ، ويَقْتُلْ حقيقة(٢).

فإذًا حقيقة السحر: أنه استخدام للشياطين في التأثير، ولا يمكن للساحر أن يصل إلى إنفاذ سحره، حتى يكون متقربًا إلى الشياطين؛ فإذا تقرب إليها، خدمته شياطين الجن، بأن أثَّرت في بدن المسحور، فلكل سحر خادم من الشياطين يخدمه، ولكل ساحر مستعان به من الشياطين، فلا يمكن للساحر أن يكون ساحرًا على الحقيقة إلا وهو يتقرب إلى الشياطين؛ ولهذا نقول: السحر شركٌ بالله عز وجل.

وهناك شيء قد يكون في الظاهر أَنَّه سحر، ولكنه في الباطن ليس بسحر، وهذا الكلام ليس فيه، وإنما الكلام، فيما كان من السحر

---

(١) راجع (ص٢٣٣).
(٢) انظر: المغني (٩/ ٢٨)، والكافي في فقه الإمام أحمد (٤/ ١٦٤).

بالاستعانة بالشياطين، وباستخدام الرقى والتعويذات والعُقَد والنَّفث فيها، وقد قال ﷻ: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]، والنفاثات: هَنَّ السَّواحرَ اللاتي يعقدن العقد، وينفثن فيها، خُصَّت الإناث بذلك بالاستعاذة؛ لأن الغالب في السحر - ممن يستخدمه في الجاهلية، وعند أهل الكتاب - أنَّ الذي يستخدمه النساء، فجرى ذلك مجرى الغالب، قال ﷻ: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾ النفاثات: جمع نفَّاثة، صيغة مبالغة في النفث؛ لأنها تكثر النفث في العقدة، وتنفث برقى وتعازيم وتعويذات، تستخدم فيها الجن؛ لتخدم هذه العقدة التي فيها شيء من بدن المسحور، أو فيها شيء يتعلق بالمسحور، حتى يكون ذلك مؤثرًا فيه.

وقد سحر يهودي النبي ﷺ في مُشْطٍ ومُشَاطَة[1]، يعني: في أشياء من شعره ﷺ، حتى يخيل للنبي ﷺ أنه يفعل الشيء ولا يفعله من جهة نسائه ﷺ، يعني: كان سِحْر ذلك اليهودي مؤثرًا في بدنه ﷺ، لكنه لم يكن مؤثرًا في علمه، ولا في عقله، ولا في روحه ط، وإنما في بدنه، يخيل إليه أنه قد واقع نساءه، وهو لم يواقع، ونحو ذلك.

هذا السحر الذي فيه استخدام الشياطين شرك وكفر بالله ﷻ، قد قال ﷻ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ﴾ [البقرة: ١٠٢]، والذي تلته الشياطين على ملك سليمان هو ما قرؤوا في كتب السحر وما يتصل بذلك من عمل السحر، قال ﷻ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾، فعلل كفر الشياطين بقوله ﷻ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ﴾، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ﴾ [البقرة: ١٠٢].

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٣٤).

فإذًا تَعَلُّم السحر من جهة فهم كيف يكون السحر، وكيف يعمل السحر، هذا لايمكن أن يكون إلا بالكفر والشرك، لكن هناك مرتبة أنه يتعلم ذلك نظريًا، ولا يعمله، وهناك مرتبة أنه يتعلمه، ويعمله ولو مرة، وهناك مرتبة الساحر الذي يتعلم ويعمل به دائمًا، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

فَدلَ على أن تعلُّمه بمجردهِ كفرٌ؛ ولهذا نقول: الصحيح أن تعلم السحر ولو بدون عمل شرك وكفر بالله عَزَّوَجَلَّ بنصِّ الآية، لِمَ؟ لأنه لا يمكن أن يتعلم السحر إلا بتعلم الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ وكيف يُشرك، وإذا تعلم الشرك، فهو مشركٌ بالله عَزَّوَجَلَّ.

بعض العلماء يقول: السحر قسمان - كقول الشافعي وغيره[(١)] -: منه ما يكون بالاستعانة بالشياطين، فهذا كفر وشرك أكبر، ومنه ما يكون بالأدوية والتدخينات، فهذا فسقٌ ومحرم، ولا يكفر فاعله إلا إذا استحله.

وهذا التقسيم من الشافعي وممن تبعه هو من جهة الواقع، يعني: نظروا في الذين يمارسون ذلك، فمنهم من يقول: إنه ساحر، وليس كذلك من جهة السحر الشرعي الحقيقي، يعني: السحر الذي وُصِفَ في الشرع، فيقول هو ساحر، وهو يستخدم أدوية وتعويذات، وفي الحقيقة هو مشعوذ، ولا يصْدُق عليه اسم الساحر، وهذا فيما يَفْعَل يُؤَثِّر عن طريق الأدوية.

وأما الصَّرفُ والعطفُ، يعني: جلب محبة امرأة لزوجها أو صرف محبة المرأة لزوجها، أو العكس، فهذا من القسم الأول؛ لأنه من نواقض الإسلام، فالسحر من نواقض الإسلام؛ لأنه شرك بالله، ومنه الصرف والعطف؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يصل إلى روح وقلب من يُراد صرفه أو

---

(١) انظر: الأم (١/ ٢٥٦).

العطف إليه إلا بالشرك؛ لأن الشيطان هو الذي يُؤَثِّر على النفس، ولن يخدم الشيطان الإنسي الساحر إلا بعد أن يشرك بالله عَزَّوَجَلَّ .

إذًا فتحصل أنَّ السِّحر بجميع أنواعه فيه استخدام للشياطين واستعانة بها، والشياطين لا تخدم إلا من تَقرَّب إليها، يتقرَّب إليها بأي شيء؟ بالذبح، يتقرَّب إليها بأي شيء؟ بالاستغاثة، يتقرب إليها بالاستعاذة، ونحو ذلك، يعني: يصرف إليها شيئًا من أنواع العبادة، بل قد نظرت في بعض كتب السحر، فوجدت أن الساحر - بحسب ما وَصَفَ ذلك الكاتب - لا يصل إلى حقيقة السحر، وتخدمه الجن كما ينبغي حتى يُهين القرآن، ويُهين المصحف، وحتى يكفر بالله، ويسبُّ الله عَزَّوَجَلَّ ونبيه ﷺ، وهذا قد ذكره أيضًا بعضُ من اطلع على حقيقة الحال.

إذًا فنقول: السِّحر شركٌ بالله تعالى، وكلُّ ساحرٍ مشرك، وقتل الساحر - فيما سيأتي - على الصحيح أنه قتل ردة، لا قتل تعزير - كما سيأتي -، فالشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَقَدَ هذا الباب (**بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ**) لبيانِ تلك المسألةِ.

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ش: قال ابن عباس رضي الله عنهما: من نصيب[١].

قال قتادة: قد علم ذلك أهل الكتاب في عهد الله إليهم أن الساحِرَ لا خلاقَ لهُ عندَّ الله يوم القيامة[٢].

وقال الحسن: ليس له دينٌ[٣].

فدلت الآية على تحريم السحر، وكذلك هو محرم في جميع أديان الرسل عليهم السلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]، وقد نص أصحاب أحمد أنه يكفر بتعلمه وتعليمه[٤].

وروى عبد الرزاق عن صفوان بن سليم قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ شَيْئًا مِنَ السِّحْرِ قَلِيلًا، أَوْ كَثِيرًا، كَانَ آخِرُ عَهْدِهِ مَعَ اللَّهِ»[٥]، وهذا مرسل.

واختلفوا: هل يكفر الساحر أو لا؟ فذهب طائفة من السلف إلى أنه يكفر، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد - رحمهم الله - قال لأصحابه: إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقي شيء يضر، فلا يكفر.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٩٥).
(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢/ ٤٥١).
(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ٥٤).
(٤) انظر: المغني (٩/ ٢٩).
(٥) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٠/ ١٨٤).

....

وقال الشافعي: إذا تعلم السحر، قلنا له: صف لنا سحرك، فإن وصف ما يوجب الكفر، مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس منها، فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر، فإن اعتقد إباحته كفر. ا. هـ[١].

وقد سماه الله كفرا بقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

قال ابن عباس ﵄ في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمَا عَلِمَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَالْكُفْرَ وَالْإِيمَانَ، فَعَرَفَا أَنَّ السِّحْرَ مِنَ الْكُفْرِ[٢].

الشرح:

قوله: (وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾) [البقرة: ١٠٢] **وجه الاستدلال بهذه الآية قوله:** ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ﴾ ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ يعني: ماله في الآخرة من نصيب، الخلاق بمعنى: النصيب ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ يعني: اشترى السحر، والاشتراء فيه دفع شيء، يعني: أن يأخذ شيئًا، ويدفع عوضه، حقيقة الشراء أن تشتري سلعة مثلًا تدفع ثمنها، تأخذ مثمنًا، وتدفع ثمنه، والساحر اشترى، من تعلم السحر، اشترى أي شيء؟ اشترى السِّحرَ، بذل أي شيء؟ بذل توحيده، فالثمن هو التوحيد، الثمن هو الإيمان بالله وحده، والمُثَمَّنْ هو السحر؛ ولهذا قال ﷻ هنا:

(١) انظر: المغني (٩/ ٢٩-٣٠).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٦٢).

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ يعني: من دفع دينه عوضًا عن ذلك الشيء الذي أخذه وهو السحر ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ يعني: من نصيب، وهكذا المشرك ليس له في الآخرة من نصيب، فوجه الاستدلال ظاهر مِنْ أن الساحر قَد جعل دِينهُ عوضًا عن ذلك الذي اشتراه، وتعلمه وعمل به.

وَقَوْلِهِ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قَالَ عُمَرُ ﷺ: الْجِبْتُ: السِّحْرُ. والطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ[١].

وَقَالَ جَابرٌ: الطَّوَاغِيتُ كُهَّانٌ كَانَ ينزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٍ[٢].

ش: قوله: (قَالَ عُمَرُ ﷺ: الجبتُ: السِّحْرُ. والطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ). هَذَا الأَثَرُ رَوَاهُ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيره.

قوله: (وَقَالَ جابرٌ: الطَّوَاغِيتُ كُهَّانٌ كَانَ ينزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيطانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٍ). هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم بنحوه مطولًا عَن وهب بن مُنَبّه قَالَ: «سَأَلت جَابر بن عبد الله عَنِ الطَّوَاغِيتِ الَّتِي كَانُوا يتحاكون إِلَيْهَا قَالَ: إن فِي جُهَيْنَة، وَاحِدًا، وَفِي أسلم وَاحِدًا، وَفِي هِلَال وَاحِدًا، وَفِي كُلِّ حَيّ وَاحِدًا، وَهُمْ كُهَّانٌ تنزل عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينَ».

قوله: (وَقَالَ جَابرٌ). هو عبد الله بن حرام الأنصاري.

قوله: (الطَّوَاغِيتُ). أراد أن الكهان من الطواغيت: فهو من إفراد المعنى.

قوله: (كَانَ ينزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ). أراد الجنس لا الشيطان الذي هو

---

(١) أخرج هذا الأثر الطبري في تفسيره (٥/ ١٣١)، وأخرجه مقتصرًا على شطره الأول ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٩٧٤). وأخرجه البخاري معلقًا في صحيحه (ص٨٣٥)، كتاب تفسير القرآن، (باب: وإن كنتم مرضى أو على سفر).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ١٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٩٧٦)، وأخرجه البخاري معلقًا في صحيحه (ص٨٣٥)، كتاب تفسير القرآن، (باب: وإن كنتم مرضى أو على سفر).

....

إبليس خاصة، بل تنزل عليهم الشياطين، ويخاطبونهم، ويخبرونهم بما يسترقون من السمع، فيصدقون مرة، ويكذبون مائة.

قوله: (فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٍ). الحيُّ واحد الأحياء، وهم القبائل، أي: في كل قبيلة كاهن يتحاكمون إليه، ويسألونه عن الغيب، وكذلك كان الأمر قبل مبعث النبي ﷺ، فأبطل الله ذلك بالإسلام، وحرست السماء بكثرة الشهب.

الشرح:

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

وقوله: (قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: الجِبْتُ: السِّحْرُ. والطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ)، وهذا في ذم أهل الكتاب، فإن أهل الكتاب لما آمنوا بالسحر ذمهم الله عز وجل، ولعنهم وغضب عليهم، وهذا يكثر في اليهود، فيكثر السحر واستعمال السحر فيهم؛ ولهذا ذمهم الله عز وجل، ولعنهم، وغضب عليهم، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: **(الجِبْتُ: السِّحْرُ)**، وإذا كان الله ذمهم ولعنهم وغضب عليهم لأجل ذلك، فهذا يفيد أنه من المحرمات، ومن الكبائر، وإذا كان فيه إشراك بالله عز وجل، فظاهر أنه شرك بالله عز وجل، وهكذا جميع أصنافه كذلك.

(والطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ): يعني: الجبت اسم عام يشمل أشياء كثيرة - كما ذكرنا -، ومِنْ أبرزها وأظهرها عند اليهود السحر، فيؤمنون بالجبت يعني: بالسحر؛ لأنه هو أظهر الأشياء عندهم، ويؤمنون بالطاغوت يعني:

بالشيطان، وهو كل ما توجهوا إليه بالطاعة، وبَعُدَ عن الحق وعن الصواب.

قوله: (وَقَالَ جَابرٌ: الطَّوَاغِيتُ كُهَّانٌ كَانَ ينزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيطانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٍ)، وهذا يأتي بيانه في: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي الكُهَّانِ**).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ»[١].

ش: كذا أورده المصنف غير مَعْزُوٍّ. وقد رواه البخاري ومسلم.

قوله: «اجْتَنِبُوا».

أي: ابعدوا، وهو أبلغ من قوله: دعوا واتركوا؛ لأن النهي عن القربان أبلغ؛ كقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

قوله: «المُوبِقَاتِ». بموحدة وقاف - أي: المهلكات -، وسميت هذه موبقات؛ لأنها تهلك فاعلها في الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات، وفي الآخرة من العذاب.

وفي حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عند البخاري في الأدب المفرد والطبري في التفسير، وعبد الرزاق مرفوعًا وموقوفًا قال: «الكَبَائِرُ تِسْعٌ» - وذكر السبع المذكورة - وزاد: «والإِلْحَادُ في الْحَرَمِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ»[١].

ولابن أبي حاتم عن علي قال: الكبائر - فذكر السبع - إلَّا مَالَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦، ٥٧٦٤، ٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨)، وابن جرير (٨/ ٢٣٥)، وعبد الرزاق (١٠/ ٤٦٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٣١٣)، وفي شعب الإيمان (١/ ٤٥٠).

....

اليتيم - وزَادَ - وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَالتَّعَرُّبُ بَعْدَ الْهِجْرَةِ، وَفِرَاقُ الْجَمَاعَةِ، وَنَكْثُ الصَّفْقَةِ»[١].

قال الحافظ: ويحتاج عندي هذا الجواب عن الحكمة في الاقتصار على سبع.

ويجاب: بأن مفهوم العدد ليس بحجة، وهو ضعيف، أو بأنه أعلم أولًا بالمذكورات، ثم أعلم بما زاد، فيجب الأخذ بالزائد، أو أن الاقتصار وقع بحسب المقام بالنسبة إلى السائل.

وقد أخرج الطبراني وإسماعيل القاضي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «الْكَبَائِرُ سَبْعٌ؟ قَالَ: هُنَّ أَكْثَرُ من سَبْعٍ وسَبْعٍ»[٢].

وفي رواية: «هِيَ إِلَى السَّبْعِينَ أَقْرَبُ»[٣]، وفي رواية: «إِلَى السَّبْعِمَائَةِ»[٤].

قوله: «قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ». هو أن يجعل لله ندًا يدعوه ويرجوه، ويخافه كما يخاف الله، بدأ به لأنه أعظم ذنب عصي الله به؛ كما في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه: «سَأَلتُ النبي ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ...». الحديث[٥].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٩٣٣).
(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٨/ ٢٤٥).
(٣) أخرجه عبد الرزاق (١/ ٤٧٧)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٣٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤٦٣)، وابن جرير (٨/ ٢٤٥).
(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٨/ ٢٤٥). وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٨٣).
(٥) أخرجه البخاري (٤٤٧٧، ٦٠٠١، ٦٨١١، ٧٢٥٠)، ومسلم (٨٦).

....

وأخرج الترمذي بسنده عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ، قَالَ: «قَالَ يَهُودِيٌّ لِصَاحِبِهِ: اذْهَبْ بِنَا إِلَى هَذَا النَّبِيِّ فَقَالَ صَاحِبُهُ: لَا تَقُلْ نَبِيٌّ، أَنَّهُ لَوْ سَمِعَكَ كَانَ لَهُ أَرْبَعَ أَعْيُنٍ، فَأَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَاهُ عَنْ تِسْعِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ. فَقَالَ لَهُمْ: لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَلَا تَمْشُوا بِبَرِيءٍ إِلَى ذِي سُلْطَانٍ لِيَقْتُلَهُ، وَلَا تَسْحَرُوا، وَلَا تَأْكُلُوا الرِّبَا، وَلَا تَقْذِفُوا مُحْصَنَةً، وَلَا تُوَلُّوا الفِرَارَ يَوْمَ الزَّحْفِ، وَعَلَيْكُمْ خَاصَّةً اليَهُودَ أَنْ لَا تَعْتَدُوا فِي السَّبْتِ، قَالَ: فَقَبَّلُوا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ. فَقَالَا: نَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ. . . .». الحديث. وقال: حسن صحيح[١].

قوله: «وَالسِّحْرُ» تقدم معناه. وهذا وجه مناسبة الحديث للترجمة.

وقوله: «وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ». أي: حَرَّمَ قتلها، وهي نفسُ المُسلمِ المعصومِ.

قوله: «إِلَّا بِالحَقِّ». أي: بأن تفعل ما يوجب قتلها؛ كالشرك، والنفس بالنفس، والزاني بعد الإحصان، وكذا قتل المعاهد؛ كما في الحديث: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا، لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ»[٢].

واختلف العلماءُ في من قتل مؤمنًا متعمدًا، وهل له توبة أم لا؟ فذهب ابن عباس وأبو هريرة وغيرهما إلى أنه لا توبة له؛ استدلالًا بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٧٣٣، ٣١٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٦٦، ٦٩١٤) من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ.

....

[النساء: ٩٣] [(١)]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «هِيَ آخِرُ مَا نَزَلَ، وَمَا نَسَخَهَا شَيْءٌ»[(٢)]، وفي رواية: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ فِي آخِرِ مَا نَزَلَ، مَا نَسَخَهَا شَيْءٌ حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَمَا نَزَلَ وَحْيٌ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ»[(٣)].

وروي في ذلك آثار تدل لما ذهب إليه هؤلاء؛ كما عند الإمام أحمد والنسائي وابن المنذر عن معاوية رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ، إِلَّا الرَّجُلُ يَمُوتُ كَافِرًا، أَوِ الرَّجُلُ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا»[(٤)].

وذهب جمهور الأمة سلفًا وخلفًا إلى أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله، فإن تاب وأناب عمل صالحًا بدل الله سيئاته حسنات؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠] الآيات.

قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ قال أبو هريرة وغيره: «هُوَ جَزَاؤُهُ إِنْ جَازَاهُ»[(٥)].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٥/ ٢١٧ . ٢٢١)، وزاد المسير (٢/ ١٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٩٠، ٤٧٦٦)، ومسلم (٣٠٢٣).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤٤)، وابن جرير (٩/ ٦٣).

(٤) أخرجه أحمد (٢٨/ ١١٢)، والنسائي (٣٩٤٨)، وفي الكبرى (٣٤٣٢)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٦٤)، والأوسط (٥/ ٢١٩)، والحاكم (٤/ ٣٩١).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني كما في الدر المنثور (٢/ ٦٢٧).

....

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ما يوافق قول الجمهور، فروى عبد بن حميد والنحاس عن سعيد بن عبادة أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يقول: «لِمَنْ قَتَلَ مُؤمنًا تَوْبَة»[(١)]، وكذلك ابن عمر رضي الله عنهما [(٢)].

وَرُوِي مَرْفُوعًا: «جَزَاؤُهُ جَهَنَّم إِن جَازَاهُ»[(٣)].

قوله: «وَأَكْلُ الرِّبَا». أي: تناوله بأي وجه كان؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] الآيات. قال ابن دقيق العيد: وهو مجرب لسوء الخاتمة. نعوذ بالله من ذلك.

قوله: «وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ». يعني: التعدي فيه، وعبر بالأكل لأنه أعم وجوه الانتفاع؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

قوله: «وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ». أي: الإدبار عن الكفار وقت التحام القتال، وإنما يكون كبيرة إذا فر إلى غير فئة، أو غير متحرف لقتال؛ كما قيد به في الآية.

قوله: «وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ»، وهو بفتح الصاد:

المحفوظات من الزنا، وبكسرها الحافظات فروجهن منه، والمراد بالحرائر العفيفات، والمراد رميهن بزنا أو لواط.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد والنحاس كما في الدر المنثور (٢/ ٦٢٩).
(٢) أخرجه النحاس كما في الدر المنثور (٢/ ٦٢٩).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٢/ ٦٢٧).

....

و«الغَافِلاَتِ»، أي: عن الفواحش وما رمين به، فهو كناية عن البريئات؛ لأَنَّ الغافلَ بريءٌ عما بُهِتَ به. والمؤمنات، أي: بالله تعالى؛ احترازًا من قذف الكافرات.

الشرح:

قوله: (وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ».

وجه الاستدلال من ذلك: أن السحر من الموبقات، والموبقات هي التي توبِق صاحبها، وتجعله في هلاك وخسار في الدنيا وفي الآخرة، وهي أكبر الكبائر، هذه السبع، وعَطْفَ السحر على الشرك بالله ليس عطفًا بين متغايرين في الحقيقة، وإنما هو عطف بين خاص وعام، فالشرك بالله يكون بالسحر، ويكون بغيره، فعَطَفَ السحر على الشرك للتنصيص عليه، والسحر أحد أفراد الشرك بالله عز وجل، وعَطْفُ الخاص على العام أمثلته كثيرة؛ كقوله عز وجل: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]، هنا عطف جبريل وميكال على الملائكة، وهذا من عطف الخاص على العام.

وَعَنْ جُنْدُبٍ مَرْفُوعًا: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ. وَقَالَ: الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ[١].

ش: قوله: (وَعَنْ جُنْدُبٍ). ظاهر صنيع الطبراني في الكبير أنه جندب بن عبد الله البجلي[٢]. لا جندب الخير الأزدي قاتل الساحر، فإنه رواه في ترجمة جندب البجلي من طريق خالد العبد عن الحسن عن جندب عن النبي ﷺ. وخالد العبد ضعيف.

قال الحافظ: والصواب أنه غيره. وقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان من وجهين عن الحسن عن جندب الخير: «أنه جاء إلى ساحر، فضربه بالسيف حتى مات، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول...» - فذكره[٣].

وجُندب الخير هو جُندب بن كعب، وقيل: جُندب بن زهير، وقيل: هما واحد؛ كما قال ابن حبان: أبو عبد الله الأزدي الغامدي صحابي.

روى ابن السكن من حديث بريدة أن النبي ﷺ قال: «يُضْرَبُ ضَرْبَةً وَاحدةً، فَيَكُونُ أُمةً وَاحدةً».

قوله: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ». وروي بالهاء وبالتاء، وكلاهما صحيح.

وبهذا الحديث أخذ مالك وأحمد وأبو حنيفة، فقالوا: يقتل الساحر.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٤٦٠)، والدارقطني (٤/ ١٢٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٣٤)، والطبراني في الكبير (٢/ ١٦١)، و عبد الرزاق في المصنف (١٠/ ١٨٤)، والحاكم (٤/ ٤٠١).
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٦٥، ١٦٦٦).
(٣) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ٥١٢).

....

وروي ذلك عن عمر، وعثمان، وابن عمر، وحفصة، وجندب بن عبد الله، وجندب بن كعب، وقيس بن سعد، وعمر بن عبد العزيز.

ولم ير الشافعي القتل عليه بمجرد السحر، إلا إن عمل في سحره ما يبلغ الكفر[١]. وبه قال ابن المنذر، وهو رواية عن أحمد[٢].

والأول أولى للحديث، ولأثر عمر، وعمل به الناس في خلافته من غير نكير.

الشرح:

قوله: (وَعَنْ جُنْدُبٍ مرفوعًا: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ». رَوَاهُ الترمِذِيُّ. وَقَالَ: الصحيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ) رويت هكذا «ضَرْبُهُ»، وهو الأصح، ورُويت: «ضَرْبَةٌ» «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ».

فعلى رواية: «ضَرْبَةٌ» لا يكون لها مفهوم، يعني: إن مات بضربة أو يضرب ضربتين أو ثلاث؛ لأن العدد لا مفهوم له.

قوله: «حَدُّ السَّاحِرِ». هنا لم يُفصِّل بين ساحر وساحر، فقال: «حَدُّ السَّاحِرِ». ولم يأتِ في أدلة الكتاب والسنة التفصيل في اسم الساحر الذي يُحَدّ، أو الذي وُصِف بالكفر، بين نوع ونوع من التأثير، فالأنواع التي يستخدمها السحرة مما يصْدق عليه أنه سحر في التأثير، وفي الإمراض، وفي التفريق، وفي التأثير على العقول وعلى القلوب، ونحو ذلك من أنواع

---

(١) انظر: الاستذكار (٨/ ١٦٠، ١٦١)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٤٨)، وفتح الباري (١٠/ ٢٢٤).
(٢) انظر: المغني (١٢/ ٣٠٢).

التأثير الخفي، الذي يكون باستخدام الشياطين، أو بأمور خفية، فهذا كله لا يفرَّق فيه بين فاعل وفاعل، والأدلة ما فرَّقت؛ فلهذا قال العلماء: الصحيح أن الساحر من أي نوع حَدُّه أن يقتل، وهل حدُّه حدُّ كفر وردة، أو حد لأجل أنه قتل، فيكون حدًّا لأجل القتل، أو حد تعزير؟ اختلف العلماء في ذلك، والصحيح من هذه أنه في الجميع حد ردة؛ لأن حقيقة السحر أنه لا بد أن يكون فيه إشراك بالله عَزَّوَجَلَّ، فمن أشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، فقد ارتد وحل دمه وماله.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية له تفصيل يقول فيه: إن الساحر قد لا تُدرَك حقيقة سحره، فيُترك الأمر في قتله إلى الإمام، إذا رأى المصلحة في قَتْله، قَتَله، وإن لم ير المصلحة في قَتْله، لم يَقْتُله، ويعني بالمصلحة: المصلحة الشرعية[1].

فتحصَّل في ذلك أنه ثَمَّ أقوالٌ في حدِّ السَّاحِرِ:

القول الأول: أنه يقتل مطلقًا ردة؛ لأنه لا يكون السحر إلا بشرك.

والقول الثاني: أنه يقتل ردة إذا كان سحره بشرك، ويقتل حدًّا إذا كان سحره أدى إلى قتل غيره بغير ما فيه إشراك، مِنْ مثل الأدوية، والتعوذيات، ونحو ذلك الذي ذكرنا.

والقول الثالث الذي عُزِي إلى شيخ الإسلام: مِنْ أنه كالزنديق يُترك أمره إلى الإمام بحسب ما يراه، إنْ رأى المصلحة الشرعية في قَتْله، قَتَله، وإلا عاقبه بما دون القتل.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٤٦).

وَفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ عَنْ بَجَالَةَ بنِ عَبْدَةَ قَالَ: «كَتَبَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ، قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ»(١).

ش: هذا الأثر رواه البخاري؛ كما قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ، لكن لم يذكر قتل السواحر.

قوله: (عَنْ بَجَالَةَ). بفتح الموحدة بعدها جيم، ابن عبدة - بفتحتين - التميمي العنبري، بصرى ثقة.

قوله: «كَتَبَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ. قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ»، وظاهره أنه يقتل من غير استتابة.

وهو كذلك على المشهور عن أحمد، وبه قال مالك؛ لأن علم السحر لا يزول بالتوبة.

وعن أحمد يستتاب، فإن تاب، قبلت توبته، وبه قال الشافعي؛ لأن ذنبه لا يزيد عن الشرك، والمشرك يستتاب، وتقبل توبته؛ ولذلك صح إيمانُ سَحرةِ فِرعونَ وتوبتهِم.

الشرح:

هذا ظاهر في الأمر بقتل الساحر والساحرة بدون تفصيل؛ ولأن حقيقة السحر لا تكون إلا بشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ، وذلك ردة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٤٣)، وأحمد في المسند (١/ ١٩٠)، والشافعي في مسنده (ص٣٨٣). وأخرجه البخاري بغير هذا اللفظ، ولم يذكر قتل السواحر (٣١٥٦).

وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ أَنَّها أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا فَقُتِلَتْ»[١]، وَكَذَلِكَ صَحَ عَنْ جُنْدُبٍ.

قَالَ أَحْمَدُ: عَنْ ثَلاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ.

ش: هذا الأثر رواه مالك في الموطأ.

وحفصة هي أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب، تزوجها النبي ﷺ بعد خنيس بن حذافة، وماتت سنة خمس وأربعين.

قوله: (وَكَذَلِكَ صَحَ عَنْ جُنْدُبٍ). أشار المصنف بهذا إلى قتلة الساحر؛ كما رواه البخاري في تاريخه عن أبي عثمان النهدي قال: «كان عند الوليد رجل يلعب، فذبح إنسانًا، وأبان رأسه، فعجبنا، فأعاد رأسه، فجاء جندب الأزدي، فقتله»[٢].

ورواه البيهقي في الدلائل مطولًا. وفيه: فأمر به الوليد فسجن، فذكر القصة بتمامها[٣]، ولها طرق كثيرة.

قوله: (قَالَ أَحْمَدُ: عَنْ ثَلاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ). أحمد هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل.

قوله: (عَنْ ثَلاثَةٍ). أي: صَحَّ قتلُ الساحِرِ عن ثلاثةٍ، أو جاءَ قتلُ السَّاحرِ عن ثلاثةٍ من أصحابِ النبي ﷺ، يعني: عمر، وحفصة، وجندبًا. والله أعلم.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٧٨١)، والشافعي في مسنده (ص٣٨٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٤٥٣)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ١٣٦).
(٢) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٢/ ٢٢٢).
(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٣٦).

الشرح:

قوله: (وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ أنها أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا فَقُتِلَتْ"، وَكَذَلِكَ صَحَ عَنْ جُندُبٍ. قَالَ أَحْمَدُ: عَنْ ثَلاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ) يعني: أن الساحر يجب أن يقتل، وهذا حده، سواء قلنا: يقتل لحد الردة، أو يقتل لحد القتل، أو يقتل تعزيرًا، فالصحابة ﷺ أفتوا بقتله، وأمروا بقتله، وذلك بدون تفريق، وهذا هو الواجب ألا يفرَّق بين نوع ونوع، والواجب على المسلمين أن يحذروا السحر بأنواعه، وأن يتعاونوا في الإبلاغ - براءة للذمة، وإنكارًا للمنكر - عن كل من يعلمون عنده شعوذة، أو استخدامًا لشيء من الخرافات أو السحر ونحو ذلك؛ لأنه - كما قال الأئمة - ما يدخل السحرة إلى بلد إلا ويفشو فيها الفساد، والظلم، والاعتداء، والطغيان؛ ذلك لأنهم يستخدمون الشياطين، فتطيع الشياطين السحرة، أعاذنا الله منهم ومن أقوالهم وأعمالهم وتأثيراتهم.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ النِّسَاءِ.

الثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُ الْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ الطَّاغُوتَ قَدْ يَكُونُ مِنَ الْجِنِّ، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْإِنْسِ.

الْخَامِسَةُ: مَعْرِفَةُ السَّبْعِ الْمُوبِقَاتِ الْمَخْصُوصَاتِ بِالنَّهْيِ.

السَّادِسَةُ: أَنَّ السَّاحِرَ يَكْفُرُ.

السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يُقْتَلُ وَلَا يُسْتَتَابُ.

الثَّامِنَةُ: وُجُودُ هَذَا فِي الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ، فَكَيْفَ بَعْدَهُ؟

٢٤ - بَابُ
بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ

ش: قوله: (بَابُ بَيَانِ شيءٍ مِنْ أَنْوَاعِ).

قلت: ذكر الشارح رحمه الله ها هنا شيئًا من الخوارق وكرامات الأولياء، وذكر ما اغتر به كثير من الناس من الأحوال الشيطانية التي غرت كثيرًا من العوام والجهال، وظنوا أنها تدل على ولاية من جرت على يديه ممن هو من أولياء الشيطان، لا من أولياء الرحمن، ثم قال: ولشيخ الإسلام كتاب (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان). فراجعه. انتهى[1].

الشرح:

هذا: (بَابُ بَيَانِ شيءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ).

لما ذكر الإمام رحمه الله ما جاء في السحر، وما اتصل بذلك من حكمه، وتفصيل الكلام عليه، ذَكَر أن السحر قد يأتي في النصوص، ولا يراد منه السحر الذي يكون بالشرك بالله عز وجل ، فإن اسم السحر عام في اللغة، يدخل فيه ذلك الاسم الخاص الذي فيه استعانة بالشياطين، وتقرب إلى الشياطين، وعبادة الشياطين لتخدم الساحر، وقد يكون بأسماء أخر يُطلِق عليها الشارع أنها سحر، وليست كالسحر الحقيقي الأول في الحقيقة، ولا في الحكم.

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص٣٩٨)، ولشيخنا الشارح صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ - حفظه الله - شرح ممتع عليه، وهو مطبوع ولله الحمد والمنة.

وهو درجات، فمما يسمى سحرًا البيان، والبيان - كما جاء في آخر الباب -: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»[1] البيان ليس سحرًا فيه استعانة بالشياطين، ولكنه داخل في حقيقة السحر اللغوية؛ لأنه تأثير خفي على القلوب، فإن الرجل البليغ - ذا البيان، وذا الإيضاح، وذا اللسان الجميل الفصيح - يؤثر على القلوب حتى يسبيها، وربما قلب الحق باطلًا والباطل حقًّا ببيانه، فسُمِّي سحرًا لخفاء وصوله إلى القلوب وقلب الرأي وفهم المخاطَب من شيء إلى آخر.

كذلك ما ذَكر من أن الطيرة من السحر، فالطيرة نوع اعتقاد، كذلك العيافة، وهي شبيهة بها، أو بعض أنواعها، كذلك الخط في الرمل، ونحو ذلك من الأشياء التي ربما أُطلق عليها أنها سحر، وهي ليست كالسحر الأول في الحد، والحقيقة، ولا في الحكم.

إذًا هذا الباب قال فيه الإمام رحمه الله: (بَابُ بَيَانِ شيءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ)، وأنواع السحر منها ما هو شرك أكبر بالله عز وجل، وهوالمراد إذا قلنا: السحر. وهذه هي الحقيقة العرفية.

وهناك في ألفاظ الشرع أشياء يكون المرجع فيها إلى الحقيقة اللغوية، وهناك أشياء يكون المرجع فيها إلى الحقيقة العرفية، ويكون هناك أشياء المرجع فيها إلى الحقيقة الشرعية، وهنا في هذا الباب فيما يشمل ما يطلق عليه لغة أنه سحر، ويطلق عليه عرفًا أنه سحر، ويطلق عليه شرعًا أنه سحر.

فإذًا التفريق بين هذه الأنواع مهم؛ ولهذا ذكر الإمام هذا الباب حتى تفرِّق بين نوع وآخر، فالحد الذي فيه: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ»[2] لا ينطبق على كل هذه الأنواع التي ستذكر؛ لأنها سحر لغة وليست بسحر شرعًا.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٣٣).

(٢) سبق تخريجه (ص٢٥١).

قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ حَيَّانَ، حَدَّثَنِي قَطَنُ ابْنُ قَبِيصَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعِيَافَةَ، وَالطَّرْقَ، وَالطِّيَرَةَ مِنَ الْجِبْتِ، قَالَ عَوْفٌ: الْعِيَافَةُ: زَجْرُ الطَّيْرِ، وَالطَّرْقُ: الْخَطُّ يُخَطُّ فِي الْأَرْضِ، وَالْجِبْتُ، قَالَ الْحَسَنُ: رَنَّهُ الشَّيْطَانُ»[١]. إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ.

وَلِأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ وابنِ حِبَّانَ فِي (صَحِيحِهِ) الْمُسْنَدِ مِنْهُ[٢].

ش: قوله: (قَالَ أَحْمَدُ). هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل.

و(مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ) هو المشهور بغندر الهذلي البصري، ثقة مشهور، مات سنة ست ومائتين.

و(عَوْفٌ) هو ابن أبي جميلة - بفتح الجيم - العبدي البصري، المعروف بعوف الأعرابي، ثقة مات سنة ست أو سبع وأربعين، وله ست وثمانون سنة.

و(حَيَّانَ) بن العلاء هو بالتحتية، ويقال حيان بن مخارق، أبو العلاء البصري، مقبول.

و(قَطَنُ)، بفتحتين أبو سهل البصري، صدوق.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٤/ ٢٠٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٠٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٢٤)، وابن حبان في صحيحه (١٣/ ٥٠٢).

....

قوله: (عَنْ أَبِيهِ) هو قبيصة - بفتح أوله - ابن مخارق - بضم الميم - أبو عبد الله الهلالي. صحابي، نزل البصرة.

قوله: «إِنَّ الْعِيَافَةَ، وَالطَّرْقَ، وَالطِّيَرَةَ مِنَ الْجِبْتِ».

قَالَ عَوْفٌ: «الْعِيَافَةُ: زَجْرُ الطَّيْرِ»، والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها، وهو من عادات العرب، وكثير من أشعارهم، يقال: عاف يعيف عيفًا. إذا زجر وحدس وظن[1].

قوله: «وَالطَّرْقُ: الْخَطُّ يُخَطُّ فِي الْأَرْضِ». كذا فسره عوف، وهو كذلك. وقال أبو السعادات: هو الضَّربُ بالحصَى الذي يفعله النساء[2].

وأما «الطِّيَرَةَ»، فيأتي الكلام عليها في بابها إن شاء الله تعالى.

قوله: «وَالْجِبْتُ». أي: السحر. قال القاضي: والجبت في الأصل: الفشل الذي لا خير فيه، ثم استعير لما يعبد من دون الله، وللساحر والسحر.

قوله: «قَالَ الْحَسَنُ: رَنَّهُ الشَّيْطَانُ». قلت: ذكر إبراهيم بن محمد بن مفلح أن في تفسير بقي بن مخلد: «إِنَّ إِبْلِيسَ رَنَّ أَرْبعَ رَنَّاتٍ: رَنَّةً حِينَ لُعَنَ، وَرَنَّةً حِينَ أُهْبِطَ، وَرَنَّةً حِيْنَ وُلِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَرَنَّةً حِينَ أُنْزِلَتْ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ»[3].

---

(١) انظر: مادة (عيف) في: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٣٣٠)، ولسان العرب (٩/ ٢٦١).
(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١٢١).
(٣) انظر: الروض الأنف للسهيلي (١/ ٢٧٨)، وتفسير القرطبي (١/ ١٠٩)، والبداية والنهاية (٢/ ٢٦٦).

....

قال سعيد بن جبير: «لَمَّا لَعَنَ اللَّهُ إِبْلِيسَ تَغَيَّرَتْ صُورَتُهُ عَنْ صُورَةِ الْمَلَائِكَةِ، فَرَنَّ رَنَّةً، فَكُلُّ رَنَّةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ مِنْ رَنَّةِ إِبْلِيسَ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ». رواه ابن أبي حاتم[(١)].

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لَمَّا افْتَتَحَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ رَنَّ إِبْلِيسُ رَنَّةً اجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ جُنُودُهُ، فَقَالَ: ايْئَسُوا أَنْ نُرِيدَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَى الشِّرْكِ بَعْدَ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَلَكِنِ افْتُنُوهُمْ فِي دِينِهِمْ، وَأَفْشُوا فِيهِمُ النَّوْحَ». رواه الحافظ الضياء في المختارة: الرنين الصوت[(٢)]. وقد رَنَّ يَرِنُّ رنينًا، وبهذا يظهر معنى قول الحسن رحمه الله.

قوله: (ولأَبِي دَاوُدَ والنَّسَائِيِّ وابنِ حِبَّانَ في (صحيحِهِ): المُسْنَدِ مِنْهُ)، ولم يذكر التفسير الذي فسره به عوف. وقد رواه أبو داود بالتفسير المذكور بدون كلام الحسن.

الشرح:

قال في الحديث الأول: «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعِيَافَةَ، وَالطَّرْقَ، وَالطِّيَرَةَ مِنَ الْجِبْتِ»: العيافة مأخوذة من عِيَاف الشيء وهو تركه، عاف الشيء يعافه إذا تركه، فلم تبغِه نفسه، والعيافة - كما فسرها عوف -: «الْعِيَافَةُ: زَجْرُ الطَّيْرِ»، وهذا أحد تفسيرات العيافة[(٣)]، وزجر الطير أن يحرِّك

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٦٣). وانظر: الروض الأنف للسهيلي (١/ ٢٧٨)، وتفسير القرطبي (١/ ١٠٩)، والبداية والنهاية (٢/ ٢٦٦).

(٢) أخرج الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٦/ ١٨٨)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١١)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٦٢). وانظر: النهاية في غريب الأثر (٢/ ٢٧١).

(٣) راجع (ص٢٦١).

طيرًا؛ حتى ينظر إلى أين تتحرك، ويزجر الطير في حركته، ثم يفهم من ذلك الزجر هل هذا الأمر الذي سيُقدِم عليه أنه أمر محمود أو أمر مذموم، أو يطَّلع بحقيقة زجر الطير على مستقبل الحال، فهذا نوع من الجبت، وهو السحر، لِمَ؟ سبق بيان أن معنى الجبت هو الشيء المرذول المطَّرح الذي يصرف الواحد عن الحق.

والسحر شيءٌ خفي، يؤثر على النفوس، والعيافة من التأثر بالطير وبزجرها وبانتقالها من هنا إلى هنا أو بحركتها، شيء خفي دخل في النفس، فأثر عليها من جهة الإقدام أو الكف، فصار نوعًا من السحر لأجل ذلك، وهو جبت؛ لأنه شيء مرذول أدى إلى الإقبال أو الامتناع، والطيرة أعم من العيافة؛ لأن العيافة - على حسب تفسير عوف، وهو أحد تفسيراتها - متعلق بالطير وحده، وأما الطيرة، فهو اسم عام لما فيه تشاؤم أو تفاؤل بشيء من الأشياء، وسيأتي باب مستقل لذكر أحكام الطيرة، وصورتها، وما يقي منها، يأتي إن شاء الله تعالى.

وحقيقة الطيرة أنه يرى شيئًا كان في الأول من الطير تحرك يمينًا أو يسارًا، فلما رآه تحرك يمينًا، قال: هذا تفاؤل أنني سأنجح في هذا العمل أو في هذا السفر، وإذا رآه تحرك شمالًا، قال: هذا معناه أني سَأُضَرُّ في هذا السفر، أو سيصيبني مكروه، فرجع، وقد قال ﷺ: «**مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ**»[1].

قد يتشاءم بحركة شيء، بكلمة يسمعها، بشيء في الجو، بتصادم سيارة أمامه، بسواد في الجو حصل أمامه، أو في ذلك اليوم الذي سينتقل فيه، أو تشاءم بشيء حصل له في أول زواجه، ونحو ذلك من أنواع التشاؤم، أو التشاؤم بالأشهر، أو بالأيام، هذا كله من أنواع الطيرة.

---

(١) سيأتي تخريجه (ص٣٣٨).

ومتى يكون طيرة؟ إذا ردَّه عن حاجته، أو جعله يقبل على حاجته، فإذا تشاءم، وذلك التشاؤم حينما سيطر على قلبه جعله يُقدِم أو يُحجِم، فإنه يكون متطيرًا.

وكذلك في باب التفاؤل، إذا رأى شيئًا، فجعله ذلك الشيء يُقدِم، ولولا ذلك الشيء لما جعله يُقدِم، فإن ذلك أيضًا من الطيرة، وهي نوع من أنواع التأثيرات الخفية على القلوب، وذلك ضرب من السحر.

وأما الطرق، فهو مأخوذ من وضع طرق في الأرض، وهي الخطوط، فيأتي بخطوط متنوعة، ويخطها في الأرض، خطوط كثيرة ليس لها عدد، ثم يبدأ الكاهن الذي يستخدم الخطوط فيمسح خطًا خطًا أو يمسح خطين خطين بسرعة، ثم ينظر ما بقي، فيقول: هذا الذي بقي يدل على كذا وكذا، هذا الذي بقي يدل على أنك ستغتني، يدل على أنك سيصيبك كذا وكذا، ونحو ذلك، وهو نوع من أنوع الكهانة، والكهانة ضرب من السحر.

قال هنا: «وَالطَّرْقُ: الْخَطُّ يُخَطُّ فِي الْأَرْضِ، وَالْجِبْتُ، قَالَ الْحَسَنُ: رَنَّهُ الشَّيْطَانُ»، وهو من أنواع السحر؛ لأن الشيطان يدعو إلى ذلك بصوته وبعويله.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ، فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ». رَوَاهُ أَبُو دَاودَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ(١).

ش: قوله: وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ، فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ». رواه أبو داود بإسناد صحيح. وكذا صححه النووي والذهبي ورواه أحمد وابن ماجه.

قوله: «مَنِ اقْتَبَسَ». قال أبو السعادات: قبست العلم واقتبسته إذا علمته. اهـ(٢).

قوله: «شُعْبَةً». أي: طائفة من علم النجوم - والشعبة الطائفة - ومنه الحديث: «الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»(٣). أي: جزء منه.

قوله: «فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ». المحرم تعلمه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩](٤).

قوله: «زَادَ مَا زَادَ». من تعلم علم النجوم زاد في الإثم الحاصل بزيادة الاقتباس من شعبه، فإن ما يعتقده في النجوم من التأثير باطل، كما أن تأثير السحر باطل.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦)، وأحمد في المسند (١/ ٢٢٧).
(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٤).
(٣) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٤) انظر: مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩٣).

الشرح:

هذا الحديث فيه بيان أَنَّ تعلم النجوم تَعَلمٌ للسحر، ويأتي في باب خاص (بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ) أنواع تعلم النجوم، وما جعل الله عَزَّوَجَلَّ النجوم له.

«مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً». يعني: من تعلم بعضًا من علم النجوم؛ لأن الشعبة هي الطائفة من الشيء أو جزء من أجزائه، فكل جزء من أجزاء علم النجوم - الذي هو علم التأثير - نوعٌ من أنواع السحر.

قال: «فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ» يعني: كلما زاد في تعلم علم النجوم، زاد في تعلم السحر، حتى يصل إلى آخر حقيقة علم التأثير - كما يسمونه -، فيصبح سحرًا، وكهانة على الحقيقة، ويأتي أَنَّ التنجيم منه علم التأثير، وهو جعل الكواكب والنجوم في حركتها، والتقائها، وافتراقها، وطلوعها، وغروبها مؤثرة في الحوادث الأرضية، أو دالة على ما سيحدث في الأرض، فيجعلونها دالة على علم الغيب، دالة على المغيبات، وهذا القدر من السحر؛ لأنه يشترك معه في حقيقته، وهو أنه جَعْلٌ للتأثير بأمر خفي.

وَلِلنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً، ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا، فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ، فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا، وُكِلَ إِلَيْهِ»[(١)].

ش: قوله: (وَلِلنَّسائِي مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً، ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا، فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ، فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا، وُكِلَ إِلَيْهِ»). هذا حديث ذكره المصنف من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعزاه للنسائي. وقد رواه النسائي مرفوعًا، وحسنه ابن مفلح[(٢)].

قوله: (وَلِلنَّسَائِيِّ) هو الإمام الحافظ أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار أبو عبد الرحمن صاحب السنن وغيرها، وروى عن محمد بن المثنى وابن بشار وقتيبة وخلق، وكان إليه المنتهي في العلم بعلل الحديث، مات سنة ثلاث وثلثمائة، وله ثمان وثمانون سنة رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً، ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا، فَقَدْ سَحَرَ». اعلم أن السحرة إذا أرادوا عمل السحر، عقدوا الخيوط، ونفثوا على كل عقدة، حتى ينعقد ما يريدون من السحر، قال الله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤] يعني: السواحر اللاتي يفعلن ذلك، والنفث هو النفخ مع الريق، وهو دون التفل. والنفث فعل الساحر، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده المسحور، ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة، نفخ في تلك العقيدة نفخًا معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى مقارن للريق الممازج لذلك، وقد يتساعد هو والروح

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٢/ ٣٠٧) والمجتبى (٧/ ١١٢)، والطبراني في الأوسط (٢/ ١٢٨).
(٢) انظر: الآداب الشرعية (٣/ ٦٨، ٦٩).

....

الشيطانية على أذى المسحور، فيصيبه بإذن الله الكوني القدري لا الشرعي، قاله ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١].

قوله: «وَمَنْ سَحَرَ، فَقَدْ أَشْرَكَ». نص في أن الساحر مشرك؛ إذ لا يتأتى السحر بدون الشرك؛ كما حكاه الحافظ عن بعضهم.

قوله: «وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا، وُكِلَ إِلَيْهِ» أي: من تعلق قلبه شيئًا، بحيث يعتمد عليه ويرجوه، وكله الله إلى ذلك الشيء. فمن تعلق على ربه وإلهه وسيده ومولاه رب كل شيء ومليكه، كفاه، ووقاه، وحفظه، وتولاه. فنعم المولى، ونعم النصير. قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، ومن تعلق على السحرة والشياطين وغيرهم من المخلوقين، وكله الله إلى من تعلق، فهلك، ومن تأمل ذلك في أحوال الخلق، ونظر بعين البصيرة، رأى ذلك عيانًا، وهذا من جوامع الكلم. والله أعلم.

الشرح:

قوله: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً، ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا، فَقَدْ سَحَرَ». إن عقد العقد والنفث فيها من أنواع السحر، والنفث المقصود به هنا: النفث الذي فيه استعاذة، واستعانة بالشياطين، فليس كل نفث في عقدة يعقد السحر، بل لا بد أن يكون النفث بأدعية معينة، ورقى شركية وتعويذات، وكلام تحضر الجن عند تلاوته، وتخدم هذه العقدة السحرية، «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً، ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا، فَقَدْ سَحَرَ» على ما كان يتعاطاه الناس المردة في ذلك الزمان - زمان

(١) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢٢١).

النبي ﷺ - من النفث في العقد؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]، وهن السواحر.

«فَقَدْ سَحَرَ»: لأن الجني يخدم هذا السِّحر بالنفث في العقدة، وفائدة العقدة عند السحرة أَنَّهُ لا ينحل السحر ما دامت معقودة، فينعقد الأمر الذي أراده الساحر بشيئين: بالعقدة، وبالنفث، العقدة عقدة حبل أو خيط أو نحو ذلك، وبالنفث فيها بالأدعية الشركية والاستعانة بالشياطين، ومن الأمور المهمة أن تُعْلَمَ في هذا الباب أَنَّ العقد هذه تارة تكون مرئية واضحة، وتارة تكون صغيرة جدًا.

«وَمَنْ سَحَرَ، فَقَدْ أَشْرَكَ»: هذا عام؛ لأنه رتب جزاء على فعل بصيغة (مَنْ)، فكأنه قال: كل من سحر، فقد أشرك. يعني: سحر بذلك النحو الذي ذُكر، وهو أن يعقد عقدة، ثم ينفث فيها، «وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ» هذا دليل لما ذكرت في الباب قبله أن كل سحر يعد من أنواع الشرك؛ لأنه لا يمكن أن يحدث السحر إلا بالنفث في العقد، أو باستحضار الجني، وبعبادة الجن، ونحو ذلك، وهذا شرك بالله.

«وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا، وُكِلَ إِلَيْهِ»: هذا سبق مثاله، ومعنى هذا الحديث: أن القلب إذا تعلق شيئًا - بمعنى أحبه ورضيه وتعلق القلب به - فإنه يوكل إليه، ويُجعَل هو السبب الذي من أجله يجيء نفعه، أو يجيء ضره، ومعلوم أن كل الأسباب الشركية تعود على فاعلها أو على الراضي بها بالضرر، لا بالنفع، والعبد إذا تخلى عن الله ﷻ، ووُكِل إلى نفسه، أو وكل إلى غير الله ﷻ، فقد خاب وخسر، وضُرَّ أعظم الضرر، فسعادة العبد وعِظَم صلاح قلبه، وعِظَم صلاح روحه بأن يكون تعلقه بالله ﷻ وحده.

وقوله هنا: «وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا، وُكِلَ إِلَيْهِ»، فإنه من تعلق بالله، فإن الله كافيه، من تعلق قلبه بالله إنزالًا لحوائجه بالله، ورغبًا فيما عند الله، ورهبًا

مما يخافه ويؤذيه أيعني: يؤذي العبد - فإن الله عز وجل كافيه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وإذا تعلق العبد بغير الله، فإنه يوكل إلى ذلك العبد، والعباد فقراء إلى الله، والله عز وجل هو ولي النعمة وولي الفضل، قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، فمن أنزل حاجته بالله، أفلح، ومن تعلق قلبه بالله، أفلح، وأما من تعلق بالخرافات، أو تعلق بالأمور الشركية - كالسحر، وكالذهاب إلى الأولياء، وطَلَب المدد منهم، أو طلب الإغاثة منهم -، فإنه يوكل إلى المخلوق، ومن يوكل إلى المخلوق، فإنه يضره ذلك أعظم الضرر؛ كما قال عز وجل: ﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٣].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: أَلَا أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)].

ش: قوله: (أَلَا أُنَبِّئُكُمْ). أُخبركم و(الْعَضْهُ). بفتح المهملة وسكون المعجمة.

قال أبو السعادات: هكذا يروي في كتب الحديث. والذي في كتب الغريب «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعِضَهُ». بكسر العين وفتح الضاد[(٢)].

قال الزمخشري: أصلها (العِضْهَة) فعلة من العضة، وهو البهت. فحذفت لامه، كما حذفت من السَّنة والشَّفة، وتجمع على عِضِين، ثم فسره بقوله: هي النميمة القالة بين الناس، فأطلق عليها العضه؛ لأنها لا تنفك من الكذب والبهتان غالبًا. ذكره القرطبي.

وذكر ابن عبد البر عن يحيى بن أبي كثير قال: يُفْسدُ النَّمام والكذَّاب في ساعةٍ مَا لا يُفْسِدِ السَّاحرِ في سنةٍ[(٣)].

وقال أبو الخطاب في عيون المسائل: ومن السِّحرِ السعيِ بالنميمةِ والإفسادِ بين الناسِ[(٤)].

قال في الفروع: ووجهه أن يقصد الأذى بكلامه وعمله على وجه المكر والحيلة، أشبه السحر، وهذا يعرف بالعرف والعادة أنه يؤثر وينتج ما يعمله

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠٦).
(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث (٣/ ٢٥٤).
(٣) انظر: الفروع (١٠/ ٢١١).
(٤) انظر: الفروع (١٠/ ٢١٠)، والإنصاف للمرداوي (١٠/ ٣٥٢).

....

السحر، أو أكثر، فيعطى حكمه تسوية بين المتماثلين أو المتقاربين. لكن يقال: الساحر إنما يكفر لوصف السحر، وهو أمر خاص، ودليله خاص، وهذا ليس بساحر. وإنما يؤثر عمله ما يؤثره، فيعطى حكمه إلا فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة. انتهى ملخصًا[١].

وبه يظهر مطابقة الحديث للترجمة. وهو يدل على تحريم النميمة، وهو مجمع عليه.

قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: اتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة في غير النصيحة الواجبة[٢].

وفيه دليل على أنها من الكبائر.

قوله: «الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ». قال أبو السعادات: أي: كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس، ومنه الحديث: «فَشَتْ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ»[٣].

الشرح:

في الحديث: (العَضْهُ)، هكذا تُروى في كتب الحديث (العَضْهُ)، وفي كتب غريب الحديث واللغة تنطق هكذا (العِضَه) «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟» فأشباهما في وزنها[٤]، وهي كما فسرها النبي ﷺ: «هِيَ النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ».

---

(١) انظر: مراتب الإجماع (ص١٥٦).
(٢) انظر: الفروع (١٠/ ٢١٠).
(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث (٤/ ١٢٣).
(٤) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٥٩): (هذه اللفظة رووها على وجهين: =

وأصل العَضْه في اللغة يطلق على أشياء، ومنها السحر، والنميمة القالة بين الناس نوع من أنواع السحر، وهي كبيرة من الكبائر، ومحرم من المحرمات.

ووجه الشَّبهِ بين النَّميمةِ وبين السحرِ: أن تأثير السحر في التفريق بين المتحابِّين، أو في جمع المتفارقين، تأثيره على القلوب خفي، وهذا عمل النَّمامِ، فإنه يفرق بين الأحباب، لأجل كلام يسوقه لهذا، وكلام يسوقه لذاك، فيفرق بين القلوب، ويجعل العداوة والبغضاء بين قلب هذا وهذا، فحقيقة النميمة كما قال الله عز وجل عن السحر: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢]، والنميمة هي القالة بين الناس، وهذا - كما هو ظاهر - من أنواع السحر، وهذا النوع محرم؛ لأنه كبيرة من الكبائر؛ لأن النميمة نوع من أنواع الكبائر، والكبائر من أعظم الذنوب العملية.

= أحدهما: العِضَة بكسر العين وفتح الضاد المعجمة، على وزن العدة والزنة، والثاني: العَضْه بفتح العين وإسكان الضاد، على وزن الوجه، وهذا الثاني هو الأشهر في روايات بلادنا، والأشهر في كتب الحديث وكتب غريبه، والأول أشهر في كتب اللغة).

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا»[١].

ش: «البَيَانِ»: البلاغة والفصاحة.

قَالَ صَعْصَعَةُ بْنُ صُوحَانَ: «صَدَقَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ، فَالرَّجُلُ يَكُونُ عَلَيْهِ الْحَقُّ وَهُوَ أَلْحَنُ بِالْحُجَجِ مِنْ صَاحِبِ الْحَقِّ، فَيَسْحَرُ الْقَوْمَ بِبَيَانِهِ فَيَذْهَبُ بِالْحَقِّ»[٢].

وقال ابن عبد البر: تأوله طائفة على الذم. لأن السحر مذموم، وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح؛ لأن الله تعالى مدح البيان. قال: وقد قال عمر بن عبد العزيز لرجل سأله عن حاجة فأحسن المسألة فأعجبه قوله. قال: هذا والله السحر الحلال. انتهى[٣].

والأول أصح والمراد به البيان الذي فيه تمويه على السامع وتلبيس.

فِي زُخْرفِ الْقُولِ تَزيينٌ لِبَاطِلِهِ وَالْحَقُّ قَدْ يَعْترِيهِ سُوءُ تَعْبِيرِ

مَأخُوذٌ مَنْ قَوْلِ الشَاعِرِ[٤]:

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٦، ٥٧٦٧) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. وأخرجه مسلم (٨٦٩) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠١٢)، والبغوي في شرح السنة (١٢/ ٣٦٥).

(٣) انظر: التمهيد لابن عبد البر (٥/ ١٧٤).

(٤) نظم ابن الرومي، علي بن العباس بن جريج أبو الحسن، الشاعر المشهور، في ديوانه (ص٢٢٦٩)، أبياتًا تشبه هذه الأبيات، فقال:

فِي زُخْرفِ الْقُولِ تَرْجِيحٌ لِقَائِلِهِ وَالْحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ بعضُ تَغْيِيرِ
تَقُولُ هَذَا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ وإنْ تعِبْ قُلْتَ ذَا قَيْءُ الزَّنَابِيرِ =

....

تَقُولُ هَذَا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ   وَإِنْ تَشَا قُلْتَ ذَا قَيءُ الزَّنَابِيرِ
مَدْحًا وَذَمًّا وَمَا جَاوَزْتَ وَصْفَهُمَا   وَالْحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرِ

قوله: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا». هذا من التشبيه البليغ؛ لكون ذلك يعمل عمل السحر، فيجعل الحق في قالب الباطل، والباطل في قالب الحق، فيستميل به قلوب الجهال؛ حتى يقبلوا الباطل، وينكروا الحق. ونسأل الله الثبات والاستقامة على الهدى.

وأما البيان الذي يوضح الحق ويقرره، ويبطل الباطل ويبينه، فهذا هو الممدوح. وهكذا حال الرسل وأتباعهم، ولهذا علت مراتبهم في الفضائل وعظمت حسناتهم.

وبالجملة فالبيان لا يحمد إلا إذا لم يخرج إلى حد الإسهاب والإطناب، وتغطية الحق، وتحسين الباطل، فإذا خرج إلى هذا، فهو مذموم. وعلى هذا تدل الأحاديث كحديث الباب وحديث: «إِنَّ اللَّهَ يَبْغَضُ البَلِيغَ مِنْ الرِّجَالِ الذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ، كَمَا تَتَخَلَّلُ البَقَرَةُ بِلِسَانِهَا». رواه الترمذي وأبو داود[(١)].

= مَدْحًا وَذَمًّا وَمَا جَاوَزْتَ وَصْفَهُمَا   سِحْرُ البَيَانِ يُرِي الظَلْمَاءَ كَالنُّورِ
وانظر: الإيضاح في علوم البلاغة (ص٢٢٥).

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٠٥)، والترمذي (٢٨٥٣)، والإمام أحمد في المسند (٢/ ١٦٥، ١٨٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣٠٠)، والبزار في مسنده (٦/ ٤٢٢)، والطبراني في الأوسط (٥/ ٢٠٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٥١).

الشرح:

قال عن البيان: إن منه ما هو سحر، والمقصود بالبيان هنا: التبيين عما في النفس بالألفاظ الفصيحة البينة، التي تأخذ المسامع والقلوب، فتسحر القلوب، فتقلب ربما الحق باطلًا والباطل حقًا، حتى يغدو ذلك - الذي يعد من أهل البيان والفصاحة - يغدو في قلوب الناس أَنَّ ما قاله هو الحق، وأن ما لم يقله أو رده هو الباطل، وهذا ضرب من السحر؛ لأنه تأثير خفي على النفوس بالألفاظ، هذا التأثير الخفي، بقلب الحق باطلًا وبقلب الباطل حقًا تأثيره خفي، كتأثير السحر في الخفاء؛ ولهذا قال: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا».

والصحيح من أقوال أهل العلم: أنَّ هذا فيه ذم للبيان، وليس مدحًا له، قال: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا» على جهة الذم، وبعض أهل العلم يقول: إن ذاك على جهة المدح؛ لأنَّه يصل في التأثير إلى أن يؤثِّر تأثيرًا بالغًا، كتأثير السحر في النفوس، والتأثير البالغ إذا كان من جهة البيان يقولون: فإنه جائز، وهذا من جهة المدح له، وبيان عِظَمِ تأثيره، ولكن هذا فيه نظر، والظاهر أنه لما جعل البيان سحرًا، علمنا أنه أراد ذمه؛ ولهذا أورده الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في هذا الباب الذي اشتمل على أنواع من المحرمات.

فالذي يستغل ما آتاه الله عَزَّ وَجَلَّ من اللسان والبيان والفصاحة في قلب الباطل حقًا، وفي قلب الحق باطلًا، هذا لا شك أنه من أهل الوعيد ومذموم على فعله؛ لأن البيان إنما يُقصَد به نصرة الحق، لا أن يَجعل ما أبطله الله عَزَّ وَجَلَّ حقًا في أنفس النَّاس وفي قلوبهم.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: أَنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الْجِبْتِ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ الْعِيَافَةِ وَالطَّرْقِ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ عِلْمَ النُّجُومِ نَوْعٌ مِنَ السِّحْرِ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْعَقْدَ مَعَ النَّفْثِ مِنْ ذَلِكَ.

الْخَامِسَةُ: أَنَّ النَّمِيمَةَ مِنْ ذَلِكَ.

السَّادِسَةُ: أَنَّ مِنْ ذَلِكَ بَعْضَ الْفَصَاحَةِ.

٢٥ - بَابُ
مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمِ

ش: قوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمِ).

الكاهن: هو الذي يأخذ عن مسترق السمع، وكانوا قبل المبعث كثيرًا. وأما بعد المبعث، فإنهم قليل؛ لأن الله تعالى حرس السماء بالشهب.

وأكثر ما يقع في هذه الأمة: ما يخبر به الجن أولياءهم من الإنس، عن الأشياء الغائبة بما يقع في الأرض من الأخبار، فيظنه الجاهل كشفًا وكرامة، وقد اغتر بذلك كثير من الناس يظنون المخبر لهم بذلك عن الجن وليًا لله، وهو من أولياء الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

الشرح:

هذا: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمِ)، وقد أتى به بعد أبواب السحر؛ لأن حقيقة عمل الكاهن أنه يستخدم الجن لإخباره بالأمور المغيبة، إما التي غابت في الماضي، أو الأمور المغيبة في المستقبل التي لا يعلمها إلا الله عز وجل، فالكاهن يجتمع مع الساحر في أن كلًا منهما يستخدم الجن لغرضه ويستمتع بالجن لغرضه.

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد: أن الكهانة استخدام للجن، واستخدام الجن كفر وشرك أكبر بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه لا يجوز أن يستخدم الجن في مثل هذه الأشياء، واستخدام الجن في مثل هذه الأشياء لا يكون إلا بأن يتقرب إلى الجن بشيء من العبادات، فالكُهَّان لابد حتى يُخدَمُوا بذكر الأمور المغيبَة لهم أن يتقربوا إلى الجني ببعض العبادات: إما بالذبح، أو الاستغاثة، أو بالكفر بالله عَزَّوَجَلَّ بإهانة المصحف، أو بسب الله، أو نحو ذلك من الأعمال الشركية الكفرية.

فالكهانة صنعة مضادة لأصل التوحيد، والكاهن مشرك بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه يستخدم الجن، ويتقرب إلى الجن بالعبادات؛ حتى تخدمه الجن وتخبره بالمغيبَات، وهذا لا يمكن إلا بأن يتقرب إلى الجن بأنواع العبادات.

وأصل الكهان في الجاهلية أنهم كانوا كما سبق في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في باب سبق أن الكهان كانت منتشرة في بلاد العرب في الجزيرة وفي غيرها، والكهان أُناس يُدَّعَى فيهم الولاية والصلاح عندهم، وأن عندهم عِلْم ما سيكون في المستقبل، أو عندهم علم المغيبات، التي ستحدث للناس، أو تحدث في الأرض؛ ولهذا كانت العرب تعظِّم الكهان، وكانت تخاف من الكهان، وكانت تُعطِي الكاهن أجرًاعظيمًا؛ لأجل ما يُخبِر عنه.

والكاهن - كما ذكرنا - لا يصل إلى حقيقة عمله بأن يُخبِر عن الأمور المغيبة إلا باستخدام الجن، والتقرب إلى الجن التقربات الشركية، فتستمتع الجن به من جهة ما صرف لها من العبادة، ويستمتع هو بالجني من جهة ما يُخبره به الجن من الأمور المغيبة.

والجن تصل إلى الأمور المغيبة التي تصدق فيها عن طريق استراق

السمع، فإن بعضهم يركب بعضًا؛ حتى يسمعوا الوحي الذي يوحيه الله عَزَّوَجَلَّ في السماء، فربما أدرك الشهابُ الجنيَّ قبل أن يلقي الكلمة لمن تحته، وربما أدرك الشهابُ الجنيَّ بعد أن ألقى الكلمة، فتأتي هذه الكلمة للجن، فيعطونها الكُهَّان، فيكذب معها الكاهن، أو تكذب معها الجن مئة كذبة؛ حتى يعظُم شأن الكهان، وحتى تعظُم عبادة الإنس للجن.

وقبل بعثة النبي ﷺ كان استراق السمع كثيرًا جدًا، وبعد بعثته ﷺ حُرِسَت السماء من أن تسترق الجن السمع؛ لأجل تنزل القرآن والوحي؛ حتى لا يقع الاشتباه في أصل الوحي والنبوة، وبعد وفاة النبي ﷺ يقع الاستراق، ولكنه قليل بالنسبة لما كان عليه قبل البعثة، فصارت عندنا أحوال استراق السمع ثلاثة:

الحالة الأولى: قبل البعثة: كثيرٌ جدًا.

الحالة الثانية: وبعد بعثة النبي ﷺ: لم يحصل استراق من الجن، وإن حصل، فهو نادر في غير وحي الله عَزَّوَجَلَّ بكتابه لنبيه.

الحالة الثالثة: بعد وفاته ﷺ: رجع استرق السمع أيضًا، ولكنه ليس بالكثرة التي كانت قبل ذلك؛ لأن السماء مُلِئَت حرسًا شديدًا وشهبًا، والله عَزَّوَجَلَّ بيَّن ذلك في القرآن في آيات كثيرة من أن النجوم والشهب تَرمي الجن؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨]، ونحو ذلك من الآيات التي فيها أن الشهب مرصدة للجن.

إذا ظهر ذلك؛ فالكاهن قد يُطلق عليه العراف، وهذان الاسمان (الكاهن أو العرَّاف) اسمان متداخلان، قد يكون أحدهما يدل على الآخر، وعند بعض الناس، أو في بعض الفئات يُستخدَم الكاهن للإخبار بما يحصل في المستقبل، ويستخدم كلمة أو لفظ العرَّاف لمن يُخبر عن الغائب عن الأعين مما حصل في الماضي من مثل مكان المسروق، أو السارق من

هو؟ ونحو ذلك مما هو غائب عن الأنظار، وإنما يعلمه العرَّاف بواسطة الجن.

والصحيح في ذلك ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية[١] أن العرَّاف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم، ممن يتكلمون في معرفة الأمور بتلك الطرق، من تكلم في معرفة الأمور المغيبة - إما الماضية أو المستقبلة - بتلك الطرق - طريق التنجيم، أو الخط في الرمل بطريق الطرق، أو بالودع - ونحو ذلك من الأساليب، أو بالخشبة المكتوب عليها أبا جاد، ونحو ذلك من قراءة الفنجان، أو قراءة الكف، كل من يخبر عن الأمور المغيبة بشيء يجعله وسيلة لمعرفة الأمور المغيبة يسمى كاهنًا، ويسمى عرافًا؛ لأنه لا يحصل له أمره إلا بنوع من أنواع الكهانة، وسيأتي ذلك إن شاء الله.

(بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمِ): يعني من العرافين، والمنجمين، والذين يخطون في الرمل، والذين يكتبون على الخشب، ونحو ذلك.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٧٣).

رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، فَصَدَّقَهُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»[١].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». رَوَاهُ أَبُو دَاودَ[٢].

وَلِلأَرْبَعَةِ وَالْحَاكِمِ - وَقَالَ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»[٣]. وَلأَبِي يَعْلَى بِسَنَدٍ جَيْدٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلُهُ مَوْقُوفًا[٤].

ش: قوله: «عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ»، هي حفصة، ذكره أبو مسعود الثقفي؛ لأنه ذكر هذا الحديث في الأطراف في مسندها.

قوله: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا» سيأتي بيان العراف إن شاء الله تعالى.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٠) من طريق نافع عن صفية بنت أبي عبيد عن بعض أزواج النبي عن النبي ﷺ، وليس فيه: «فَصَدَّقَهُ».

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٠٤)، والدارمي (١١٣٦).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ أحمد في المسند (٢/ ٤٢٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٩) وصححه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه بنحوه أبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥)، وابن ماجه (٦٣٩)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٢٣)، والدارمي في سننه (١١٣٦). قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/ ٢١٧): (وله شاهد من حديث جابر وعمران بن حصين، أخرجهما البزار بسندين جيدين).

(٤) أخرجه أبو يعلى (٩/ ٢٨٠).

....

وظاهر هذا الحديث أن الوعيد مرتب على مجيئه وسؤاله، سواء صدقه أو شك في خبره. فإن في بعض روايات الصحيح: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»[1].

قوله: «لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ» إذا كانت هذه حال السائل، فكيف بالمسؤول؟!

قال النووي وغيره: معناه أنه لا ثواب له فيها، وإن كانت مجزئة بسقوط الفرض عنه، ولا بد من هذا التأويل في هذا الحديث، فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلاة أربعين ليلة.ا.هـ. ملخصًا[2].

وفي الحديث النهي عن إتيان الكاهن ونحوه.

قال القرطبي: يجب على من قدر على ذلك من محتسب وغيره أن يقيم من يتعاطى شيئًا من ذلك من الأسواق، وينكر عليهم أشد النكير، وعلى من يجيء إليهم، ولا يغتر بصدقهم في بعض الأمور ولا بكثرة من يجيء إليهم ممن ينتسب إلى العلم، فإنهم غير راسخين في العلم، بل من الجهال بما في إتيانهم من المحذور.

قال: (وَعَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ. رَوَاهُ أَبُو دَاودَ)، وفي رواية أبي داود: «أَوْ أَتَى امْرَأَةً» قَالَ مُسَدَّدٌ: «امْرَأَتَهُ حَائِضًا، أَوْ أَتَى

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٠).

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/ ٢٢٧).

....

امْرَأَةً» قَالَ مُسَدَّدٌ: «امْرَأَتَهُ فِي دُبُرِهَا فَقَدْ بَرِئَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». فناقل هذا الحديث من السنن حذف منه هذه الجملة، واقتصر على ما يناسب الترجمة.

قال: (وَلِلأَرْبَعَةِ وَالْحَاكِم - وَقَالَ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». هكذا بيض المصنف لاسم الراوي.

وقد رواه أحمد والبيهقي والحاكم عن أبي هريرة مرفوعًا.

قوله: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا» قال بعضهم: لا تعارض بين هذا وبين حديث: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا». هذا على قول من يقول: هو كفر دون كفر، أما على قول من يقول بظاهر الحديث، فيسأل عن وجه الجمع بين الحديثين.

وظاهر الحديث أنه يكفر متى اعتقد صدقه بأي وجه كان. وكان غالب الكهان قبل النبوة إنما كانوا يأخذون عن الشياطين.

قوله: «فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». قال القرطبي: المراد بالمنزل الكتاب والسنة. ا.هـ. وهل الكفر في هذا الموضع كفر دون كفر، فلا ينقل عن الملة، أم يتوقف فيه، فلا يقال: يخرج عن الملة ولا يخرج؟ وهذا أشهر الروايتين عن أحمد رحمه الله.

قوله: (وَلأَبِي يَعْلَى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلَهُ مَوْقُوفًا).

أبو يعلى اسمه أحمد بن علي بن المثنى الموصلى الإمام صاحب التصانيف كالمسند وغيره، روى عن يحيى بن معين وأبى بكر بن أبي شيبة وخلق، وكان من الأئمة الحفاظ، مات سنة سبع وثلاثمائة.

....

وهذا الأثر رواه البزار أيضًا، ولفظه: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا، أَوْسَاحِرًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»[1]، وفيه دليل على كفر الكاهن والساحر؛ لأنهما يّدعيانِ علم الغيب، وذلك كفر، والمصدق لهما يعتقد ذلك، ويرضى به، وذلك كفر أيضًا.

الشرح:

هذا الحديث نبَّه الشُّراح على أن لفظه في مسلم: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»[2].

بدون كلمة: «فَصَدَّقَهُ»، وكلمة «فَصَدَّقَهُ» هذا الحديث موجودة في مسند الإمام أحمد، فالشيخ رحمه الله ذكر هذا اللفظ، وعَزَاه لمسلم على طريقة أهل العلم في عَزْو الحديث لأحد صاحبي الصحيح إذا كان أصله فيهما لاتحاد الطريق أو نحو ذلك.

«مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا» هذا الحديث فيه جزاء الذي يأتي العراف، فيسأل العراف، وقلنا: إن العراف يشمل اسم الكاهن ونحو ذلك، فمن أتى عرافًا، فسأله بمجرد سُؤال، ولم يصدقه، فإنه لا تقبل له صلاة أربعين يَوْمًا.

والمقصود من قوله: «لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً» أنها تقع مجزئة، لا يجب عليه قضاؤها، ولكن لا ثواب له فيها؛ لأن الذنب والإثم الذي

(١) أخرجه البزار (٥/٢٥٦، ٣١٥).
(٢) سبق تخريجه (ص٢٨٢).

حصله حين أتى العراف، فسأله عن شيء يقابل ثواب الصلاة أربعين يومًا، فأسقط هذا هذا، ويدل ذلك على عظم ذنب الذي يأتي العراف، فيسأل العراف عن شيء، ولو لم يصدقه، وهذا عند أهل العلم على حالتين:

الحالة الأولى: من أتى العراف، فسأله عن شيء رغبة في الاطلاع، أما من أتى العراف، فسأله للإنكار عليه، وحتى يتحقق أنه عراف، فلا يدخل في ذلك؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد.

الحال الثانية: أن يأتي العراف أو الكاهن، فيسأل عن شيء، فإذا أخبره الكاهن أو العراف، صدقه بما يقول، فالحديث الأول الذي عن بعض أزواج النبي ﷺ فيه أنه: «**لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا**»، والحديث الثاني فيه أنه: «**فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**»، فيتضح بالحديثين أن الحال الثانية - وهي من أتى العراف أو الكاهن فسأله عن شيء فصدقه - أنه كفر بما أنزل على محمد ﷺ وأنه لا تقبل له صلاة أربعين يومًا.

وهذا الحال يدل على أن الذي أتى الكاهن أو العراف، فصدقه أنه لم يخرج عن الملة؛ لأنه حَدَّ ﷺ عدم قبول صلاته بأربعين يومًا، والذي أتى الكاهن إذا حُكِم عليه بأنه كافر كفرًا أكبر، ومرتد وخارج من الملة؛ فإن صلاته لا تقبل بتاتًا حتى يرجع إلى الإسلام.

قال طائفة من أهل العلم: دلَّ قوله: «**فَصَدَّقَهُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا**» على أن قوله: «**فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**» أنه كفر أصغر، وليس بالكفر المخرج من الملة، **وهذا القول هو القول الأول وهوالصحيح**، وهو الذي يتعين جمعًا بين النصوص، فإن قول النبي ﷺ: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، فَصَدَّقَهُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا**» يدل على أنه لم يخرج من الإسلام، والحديث الآخر - وهو قوله: «**مَنْ**

أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» - يدل على كفره، فعلمنا بذلك أن كفرَه كفر أصغر، وليس كفرًا مخرجًا من الملة، هذا أحد الأقوال في مسألة كفر من أتى الكاهن فصدقه بما يقول.

والقول الثاني: أنه يُتوقَّف فيه، فلا يقال: يكفر كفرًا أكبر، ولا يقال: أصغر، وإنما يقال: إتيان الكاهن وتصديقه كُفْرٌ بالله عز وجل، ويُسْكَت عن ذلك، ويُطْلَق القول كما جاء في الأحاديث، وهذا لأجل التهديد والتخويف؛ حتى لا يتجاسر الناس على هذا الأمر، وهذا هو مذهب الإمام أحمد في المنصوص عنه.

والقول الثالث من أقوال أهل العلم في ذلك: أن الذي يصدِّق الكاهن كافر كفرًا أكبر، كفره مخرج من الملة، إذا أتى الكاهن فسأله فصدقه، أو صدق الكُهَّان بما يقولون، قال طائفة من أهل العلم: كفره كُفْرٌ مخرِج من الملة، وهذا القول فيه نظر من جهتين:

الجهة الأولى: ما ذكرنا من الدليل من أن قوله ﷺ: «لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا» يدل على أنه لم يكفر الكفر الأكبر، ولو كان كفر الكفر الأكبر لم يحدد عدم قبول صلاته بتلك المدة من الأيام.

والجهة الثانية: أن تصديق الكاهن فيه شبهة، وادعاء علم الغيب، أو تصديق أحد ممن يدعي علم الغيب كُفْرٌ بالله عز وجل كفر أكبر، لكن هذا الكاهن الذي ادَّعى علم الغيب، كما نعلم أنه يُخبِر بالأمور المغيبة فيما صدق فيه عن طريق استراق الجن للسمع، فيكون إذًا هو نقل ذلك الخبر عن الجني، والجن نقلوه عمَّا سمعوه في السماء، وهذه شبهة قد يأتي الآتي الذي يأتي إلى الكاهن ويقول: أنا أصدقه فيما أخبر من الغيب؛ لأنه قد جاءه علم ذلك الغيب من السماء عن طريق الجن، وهذه الشبهة تمنع من التكفير، تكفير (من صدق الكاهن) الكفر الأكبر.

فصار عندنا إذًا أن القول الأظهر أن كفرَه كفرٌ أصغر، وليس بأكبر؛ لدلالة الأحاديث، ولظهور التعليل في ذلك.

«فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»، وهو القرآن؛ لأنه قد جاء في القرآن وما بينه النبي ﷺ من السنة أن الكاهن والساحر والعراف لا يفلحون، وأنهم إنما يكذبون، ولا يصدقون.

وَعَنْ عِمْرَانَ بنِ حُصَينٍ ﷺ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». رَوَاهُ البَزارُ بِإِسْنَادٍ جَيْدٍ[1]، وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الأَوْسطِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَاسٍ دُونَ قَوْلِهِ: «وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا....» إِلَى آخِرِهِ[2].

ش: قوله: «لَيْسَ مِنَّا» فيه وعيد شديد يدل على أن هذه الأمور من الكبائر، وتقدم أن الكهانة والسحر كفر.

قوله: «مَنْ تَطَيَّرَ». أي: فعل الطيرة، «أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ». أي: قبل قول المتطير له، وتابعه كذا معنى «أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ»: كالذي يأتي الكاهن، ويصدقه ويتابعه، وكذلك من عمل الساحر له السحر.

فكل من تلقى هذه الأمور عمن تعاطاها فقد بريء منه رسول الله ﷺ؛ لكونها إما شركًا كالطيرة، أو كفرًا كالكهانة والسحر، فمن رضي بذلك، وتابع عليه، فهو كالفاعل؛ لقبوله الباطل واتباعه.

قوله: (رَوَاهُ البَزارُ) هو أحمد بن عمر بن عبد الخالق، أبو بكر البزار البصري، صاحب المسند الكبير. وروى عن ابن بشار وابن المثنى وخلق، مات سنة اثنتين وتسعين ومائتين.

---

(١) أخرجه البزار (٩/ ٥٢).
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/ ٣٠٢).

الشرح:

حديث عمران بن حصين ﷺ يأتي في (بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ).

«لَيْسَ مِنَّا»: يدل على أن الفعل محرم، وبعض أهل العلم يقول: إن قوله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا» يدل على أنه من الكبائر، فقال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ»، والطيرة من الكبائر «أَوْ تَكَهَّنَ» يعني: ادعى علم الغيب، وادعى أنه كاهن، أو أخبر بأمور من المغيبة، يخدع من رآه بأنه كاهن، قال: «أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ» يعني: من رضي أن يُتكهَّن له، فأتى فسأل عن شيء.

«أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»، وهذا كله لأجل أن تصديق الكاهن فيه إعانة له على الشرك الأكبر بالله ﷻ، هذا حكم الذي يأتي الكاهن.

أما الكاهن، فذكرنا حكمه، وهو أنه مشركٌ الشرك الأكبر بالله؛ لأنه لا يمكن له أن يُخبَر بالأمور المغيبة إلا بأن يُشرِك.

قَالَ البَغَوِيُّ: (العَرَّافُ: الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى المَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ)[١].

وَقِيلَ: (هُوَ الكَاهِنُ، وَالكَاهِنُ: هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ المُغَيَّبَاتِ فِي المُسْتَقبلِ، وَقِيلَ: الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ).

وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (العَرَّافُ اسْمٌ للكَاهِنِ، وَالمُنَجِّم، وَالرَّمَّالِ، وَنَحْوِهِمْ، مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ)[٢].

ش: قوله: (قَالَ البَغَوِيُّ. . . .) إلى آخره البَغَوي - بفتحتين - هو الحسين ابن مسعود الفراء الشافعي، صاحب التصانيف، وعالم أهل خراسان، كان ثقة، فقيهًا زاهدًا، مات في شوال سنة ست عشرة وخمسمائة رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: (العَرَّافُ): الذي يدعى معرفة الأمور، ظاهره أن العراف هو الذي يخبر عن الوقائع: كالسرقة، وسارقها، والضالة، ومكانها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (العَرَّافُ اسْمٌ للكَاهِنِ، وَالمُنَجِّمِ، وَالرَّمَّالِ)، وَنَحْوِهِمْ؛ كالحازر الذي يدعي علم الغيب، أو يدعي الكشف.

وقال أيضًا: والمنجم يدخل في اسم العراف، وعند بعضهم هو معناه. وقال أيضًا: والمنجم يدخل في اسم الكاهن عند الخطابي وغيره

---

(١) انظر: شرح السنة (١٢/ ١٨٢).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٧٣).

....

من العلماء، وحكى ذلك عن العرب. وعند آخرين هو من جنس الكاهن، وأسوأ حالًا منه، فيلحق به من جهة المعنى[١].

وقال الإمام أحمد: العرافة: طرف من السحر، والساحر أخبث.

وقال أبو السعادات: العراف: المنجم، والحازر: الذي يدعي علم الغيب، وقد استأثر الله تعالى به[٢].

وقال ابن القيم رحمه الله: من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه عائفًا وعرافًا[٣].

والمقصود من هذا: معرفة أَنَّ من يدعى علم الشيء من المغيبات، فهو إما داخل في اسم الكاهن، وإما مشارك له في المعنى، فيلحق به. وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف.

ومنه ما هو من الشياطين، ويكون بالفأل، والزجر، والطيرة، والضرب بالحصى، والخط في الأرض، والتنجيم، والكهانة، والسحر، ونحو هذا من علوم الجاهلية، ونعني بالجاهلية: كل من ليس من أتباع الرسل عليهم السلام؛ كالفلاسفة، والكهان، والمنجمين، وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي ﷺ؛ فإن هذه علوم لقوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل عليهم السلام.

وكل هذه الأمور تسمى صاحبها كاهنًا، أو عرافًا، أو في معناهما،

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٧٣، ١٩٣).
(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث (٣/ ٢١٨).
(٣) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٢٩).

....

فمن أتاهم، فصدقهم بما يقولون، لحقه الوعيد. وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام، فادعوا بها علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه، وادعوا أنهم أولياء، وأن ذلك كرامة. ولا ريب أن من ادعى الولاية، واستدل بإخباره ببعض المغيبات، فهو من أولياء الشيطان، لا من أولياء الرحمن.

إن الكرامة أمر يجريه الله على يد عبده المؤمن التقي، إما بدعاء، أو أعمال صالحة لا صنع للولي فيها، ولا قدرة له عليها، بخلاف من يدعي أنه ولي، ويقول للناس: اعلموا أني أعلم المغيبات، فإن هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب، وإن كانت أسبابًا محرمة كاذبة في الغالب.

ولهذا قال النبي ﷺ في وصف الكهان: «فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ»[1]، فبين أنهم يصدقون مرة، ويكذبون مئة، وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعي الولاية والعلم بما في ضمائر الناس، مع أن نفس دعواه دليل على كذبه؛ لأن في دعواه الولاية تزكية النفس المنهي عنها بقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]، وليس هذا من شأن الأولياء، فإن شأنهم الإزراء على نفوسهم وعيبهم لها، وخوفهم من ربهم، فكيف يأتون الناس، ويقولون: اعرفوا أننا أولياء، وأنا نعلم الغيب؟ وفي ضمن ذلك طلب المنزلة في قلوب الخلق واقتناص الدنيا بهذه الأمور.

وحسبك بحال الصحابة والتابعين ﷺ - وهم سادات الأولياء -، أفكان عندهم من هذه الدعاوى والشطحات شيء؟ لا، والله، بل كان

(١) أخرجه البخاري (٣٢١٠، ٣٢٨٨، ٥٧٦٢، ٦٢١٣، ٧٥٦١)، ومسلم (٢٢٢٨).

....

أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن؛ كالصديق ﵁ [١]، وكان عمر ﵁ يُسْمع نَشيجه من وراءِ الصفوفَ يبكي في صلاته[٢]، وكان يمر بالآية في ورده من الليل، فيمرض منها ليالي يعودونه[٣]، وكان تميم الداري ﵁ يتقلب على فراشه، ولا يستطيع النوم إلا قليلًا خوفًا من النار، ثم يقوم إلى صلاته.

ويكفيك في صفات الأولياء ما ذكره الله تعالى في صفاتهم في سورة الرعد، والمؤمنين، والفرقان، والذاريات، والطور. فالمتصفون بتلك الصفات هم الأولياء الأصفياء، لا أهل الدعوى، والكذب، ومنازعة رب العالمين فيما اختص به: من الكبرياء، والعظمة، وعلم الغيب، بل مجرد دعواه علم الغيب كفر، فكيف يكون المدعى لذلك وليًّا لله؟! ولقد عظم الضرر، واشتد الخطب بهؤلاء المفترين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين، ولبسوا بها على خفافيش القلوب، نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة.

الشرح:

قوله: (قَالَ البَغَوِيُّ: العَرَّافُ: الذي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يَسْتَدِلُ بِهَا عَلَى المَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ): هذا الذي ذكرنا من

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٧١٦)، ومسلم (٤١٨).
(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري معلقًا (٢/ ٢٠٦ فتح)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٥٥).
(٣) كما في الحديث الذي أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٢٦٩).

أن العرَّاف عند بعض أهل العلم مَن يُخبر بأمور سبقت، لكنها خفية غيبية عن الناس، لكنها من حيث الوجود وقعت في ملكوت الله.

(وَقِيلَ: هُوَ الكَاهِنُ): يعني: أن العرَّاف والكاهن اسمان لشيء واحد.

قوله: (وَقِيلَ: هُوَ الكَاهِنُ، وَالكَاهِنُ: هُوَ الذي يُخْبِرُ عَنْ المُغَيَّبَاتِ فِي المُسْتَقبلِ، وَقِيلَ: الذي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ. وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: العَرَّافُ اسْمٌ للكَاهِنِ، وَالمُنَجِّمِ، وَالرَّمَّالِ، وَنَحْوِهِمْ، مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الأُمُورِ بِهَذِهِ الطُرُقِ.) (وَالمُنَجِّمِ): هو الذي يستخدم علم التأثير، يقول: ظهر نجم كذا، والتقى بنجم كذا، فمعناه أنه سيحدث كذا وكذا، أو إذا وُلِد لفلان ولد في برج كذا، فإنه سيحصل كذا وكذا له من الغنى، والفقر، أو السعادة، أو الشقاوة، ونحو ذلك. فيستدلون بحركة النجوم على حال الأرض وحال الناس فيها، وسيأتي تفصيله إن شاء الله.

(وَالرَّمَّالِ): الرَّمَّالُ هو صاحبُ الطَّرق، أو الذي يخط في الرمل، أو يستخدم الحصى على الرمل، يقال له: رمَّال.

(وَنَحْوِهِمْ): يعني: مِنْ مثل الذين يقرؤون الكف، ويقرؤون الفنجان، أو في هذا العصرالذين يكتبون في الصحف والجرائد والمجلات البروج، وما يحصل في ذلك البرج، وأنت إذا ولدت في هذا البرج، فمعناه أنه سيحصل لك في هذا الشهر كذا وكذا، هذه كلها من أنواع الكهانة كما سيأتي.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ (أَبَا جَادٍ)، وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ: «مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ»(١).

ش: قوله: «وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ (أَبَا جَادٍ)، . . . . إلى آخره). هذا الأثر رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعًا. وإسناده ضعيف، ولفظه: «رُبَّ مُعَلِّم حُرُوفِ أَبَا جَادٍ، دَارِسٍ فِي النُّجُومِ، لَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللهِ خَلَاقٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢).

ورواه حمد بن زنجويه عنه بلفظ: «رُبَّ نَاظِرٍ فِي النُّجُومِ، وَمُتَعَلِّمٍ حُرُوفَ أَبَا جَادٍ، لَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللهِ خَلَاقٌ».

قوله: «مَا أَرَى» يجوز فتح الهمزة بمعنى: لا أعلم. ويجوز ضمها بمعنى: لا أظن، وكتابة أبي جاد وتعلمها لمن يدعي بها علم الغيب هو الذي يسمى علم الحرف، وهو الذي جاء في الوعيد، فأما تعلمها للتهجي وحساب الحمل، فلا بأس به.

قوله: «وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ». أي: يعتقدون أن لها تأثيرًا - كما سيأتي في باب التنجيم -، وفيه من الفوائد عدم الاغترار بما يؤتاه أهل الباطل من معارفهم وعلومهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١١/ ٢٦)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ١٣٩) وشعب الإيمان (٤/ ٣٠٦)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٤٠).
(٢) أخرجه الطبراني (١١/ ٤١).

الشرح:

قوله: (وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ (أَبَا جَادٍ)، وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ، مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ»)، ذلك لأن كتابة (أَبَا جَادٍ)، والنظر في النجوم للتأثير نوع من أنواع الكهانة، والكهانةُ محرمة وكفر بالله عَزَّوَجَلَّ .

بقي أن نقول: إن أصناف الكهانة كثيرة جدًا، وجامعها الذي يجمعها أنه يستخدم الكاهن وسيلة ظاهرية عنده ليقنع السائل بأنه وصل إليه العلم عن طريق أمور ظاهرية علمية، تارة يقول: عن طريق النجوم، وتارة يقول: عن طريق الخط، أو عن طريق الطرق، أو عن طريق الودع، أو عن طريق الفنجان، أو عن طريق الكف، أو عن طريق النظر في الأرض في حصى يجعله، أو عن طريق الخشب ونحو ذلك، هذه كلها وسائل يغرُّ بها الكاهن من يأتيه، في الحقيقة هي وسائل لا تحصِّل العلم ذاك؛ ولكن العلم جاءه عن طريق الجن، وهذه الوسيلة إنما هي وسيلة للضحك على الناس، وسيلة لكي يظن الظان أنَّها تؤدي إلى العلم، وأن هؤلاء أصحاب علم وفن بهذه الأمور، وفي الواقع هولا يتحصل على العلم الغيبي عن طريق خط، أو عن طريق فنجان، أو عن طريق النظر في البروج، أو نحو ذلك، وإنما يأتيه العلم عن طريق الجن، وهو يُظهِر هذه الأشياء؛ حتى يحصل على المقصود؛ حتى تصدقه الناس أنه لا يستخدم الجن، لكنه ولي من الأولياء، كيف يستنتج المغيبات من هذه الأمور الظاهرية؟ في بعض البلاد كغرب أفريقيا، وبعض شمالها ونحو ذلك، وفي كثير من البلاد يجعلون من يتعاطى هذه الأشياء وليًا من الأولياء، ويقولون: الملائكة تخبره بكذا، فهو لا يفعل الفعل إلا بإرشاد من الملائكة، فالذين يفعلون هذه الأفعال من الأمور السحرية، أو الكهانية عندهم أنهم أولياء، ولهذا ترى بعض الشُّرَّاح

يذكر في مقدمة هذه الأبواب أن أولياء الله تعالى لا يتعاطون الشرك، ولا يتعاطون مثل هذه الأمور، فأولياء الله مقيدون بالشرع، وليسوا من أولياء الجن.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: لَا يَجْتَمِعُ تَصْدِيقُ الْكَاهِنِ مَعَ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ.

الثَّانِيَةُ: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُ كُفْرٌ.

الثَّالِثَةُ: ذِكْرُ مَنْ تُكُهِنَ لَهُ.

الرَّابِعَةُ: ذِكْرُ مَنْ تُطُيِّرَ لَهُ.

الْخَامِسَةُ: ذِكْرُ مَنْ سُحِرَ لَهُ.

السَّادِسَةُ: ذِكْرُ مَنْ تَعَلَّمَ أَبَا جَادَ.

السَّابِعَةُ: ذِكْرُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْكَاهِنِ وَالْعَرَّافِ.

٢٦ - بَابُ
مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ

ش: قوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ). بضم النون؛ كما في القاموس[(١)].

قال أبو السعادات: النُّشْرَةُ ضرب من العلاج والرقية، يعالج به من يظن أن به مسًا من الجن، سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء، أي: يكشف ويزال.

قال الحسن: النُّشْرَةُ من السِّحْرِ[(٢)]، وقد نُشِرت عنه تَنشيرًا، ومنه الحديث: «فَلَعَلَ طَبًّا أَصَابَهُ، ثُمَّ نَشَّره بـ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١] أي: رَقَاهُ»[(٣)].

وقال ابن الجوزي: النُّشْرَةُ: حل السحر عن المسحور. ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر[(٤)].

الشرح:

(بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ) النشرة متعلقة بالسحر، وأصلها من النَّشْر، وهو: قيام المريض صحيحًا، النشرة اسم لعلاج المسحور، سميت نشرة؛ لأنه ينتشر بها، أي: يقوم، ويرجع إلى حاله المعتادة.

---

(١) انظر: تاج العروس من جواهر القاموس (١٤/ ٢١٧).
(٢) أخرجه الخطابي في معالم السنن (٤/ ٢٠١).
(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث (٥/ ٥٤).
(٤) انظر: غريب الحديث لابن الجوزي (٢/ ٤٠٨).

....

وقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هنا: (بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ)، يعني: من التفصيل، وهل النشرة جميعًا - وهي حل السحر - مذمومة؟ أو أن منها ما هو مذمومٌ، ومنها ما هو مأذونٌ به؟

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ظاهرة: وهي أنه كما أن السحر شرك بالله عَزَّوَجَلَّ ، يقدح في أصل التوحيد، وأن الساحر مشرك الشرك الأكبر بالله، فالنشرة - التي هي حلُّ السحر - قد تكون من ساحر، وقد تكون من غير ساحر بالأدوية المأذون بها، أو الأدعية ونحو ذلك، فإذا كانت من ساحر، فإنها مناقضة لأصل التوحيد، ومنافية لأصله.

فإذًا المناسبة ظاهرة في الصلة بين هذا الباب، و(**بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ**)، وكذلك مناسبتها لباب التوحيد؛ لأن كثيرين ممن يستعملون النشرة يشركون بالله عَزَّوَجَلَّ .

والنشرة - كما جاء في الباب - قسمان: نشرة جائزة، ونشرة ممنوعة.

القسم الأول النشرة الجائزة: هي ما كانت بالقرآن، أو بالأدعية المعروفة، أو بالأدوية عند الأطباء، ونحو ذلك، فإن السحر يكون - كما سبق - عن طريق الجن، والسحر يحصل منه إمراض حقيقة في البدن، ويحصل منه تغيير حقيقة في العقل والذهن والفهم، وإذا كان كذلك، فإنه يُعالَج بالمضادات التي تزيل ذلك السحر، فمما يزيله: القرآن، والقرآن هو أعظم ما ينفع في إزالة السحر، وكذلك الأدعية، والأوراد، ونحو ذلك مما هو معروف من الرقى الشرعية.

ونوع من السحر يكون في البدن - يعني: من جهةٍ عضوية -، فهذا أحيانًا يُعالَجَ بالرقى والأدعية والقرآن، وأحيانًا يعالج عن طريق الأطباء العضويين، وذلك لأن السحر - كما سبق - يُمرِض حقيقة، فإذا أُزيل

....

المرض، أو سبب المرض، فإنه يَبطُل السحر؛ ولهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ - كما سيأتي في آخر الكلام -: (**وَالثَّانِي: النَّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ، وَالتَّعَوُّذَاتِ، وَالأَدْوِيَةِ، وَالدَّعَوَاتِ الْمبَاحَةِ فَهَذَا جَائِزٌ**)؛ لأنه يحصل منه المرض، وإذا كان كذلك، فإنه يُعالج بما أذن به شرعًا من الرقى والأدوية المباحة.

والقسم الثاني من النشرة وهي التي من أنواع الشرك: أن يُنشَّر عنه بغيرالطريق الأول، بطريق السحر، فيحل السحر بسحر آخر، يحل السحر الأول بسحر آخر، وذكرنا أن السحر لا ينعقد أصلًا إلا بأن يتقرب الساحر للجني، أو أن يكون الجني يخدم الساحر الذي يشرك بالله دائمًا فيخدِم.

كذلك حل السحر لا بد فيه من إزالة سببه، وهو خدمة شياطين الجن للسحر، وهذا لا يمكن إلا الجن، فإن الساحر الثاني الذي يُنشِّر السحر، ويرفع السحر لا بد أن يستغيث، أو أن يتوجه إلى بعض جِنِّه في أن يرفع أولئك الجن الذين عقدوا هذا السحر، أن يرفعوا أثره، فصار إذًا هذه الجهة أنها من حيث العقد والابتداء لا تكون إلا بالشرك بالله، ومن حيث الرفع والنشر لا تكون إلا بالشرك بالله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال: «**لَا يَحُلُّ السِّحْرِ إِلَّا سَاحِرٌ**»[1]، يعني: لا يحل السحر بغير الطريق الشرعية المعروفة إلا ساحر، لا يأتي أحد، ويقول: أنا أحل السحر، هل تستخدم القراءة والتلاوة والأدعية؟ قال: لا، قال: أنت طبيب تُطِبُّ ذلك المسحور؟ قال: لا، إذًا فهو ساحر، إذا لم يستخدم الطريق الثانية، فإنه لا يمكن أن يَحُل السِّحر إلا ساحر؛ لأنه فَكُّ أثر الجن في ذلك السحر، ولا يمكن إلا عن طريق شياطين الجن، الذين يؤثرون على ذاك.

---

(١) سيأتي تخريجه (ص٣٠٧).

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ، فَقَالَ: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَد جَيْدٍ، وَأَبُو دَاودَ، وَقَالَ: «سُئِلَ أَحْمَدَ عَنْهَا فَقَالَ: ابْنُ مَسْعودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ»[١].

ش: هذا الحديث رواه أحمد، ورواه عنه أبو داود في سننه، والفضل بن زياد في كتاب المسائل عن عبد الرزاق عن عقيل بن معقل بن منبه عن جابر، فذكره، قال ابن مفلح: إسناد جيد، وحسَّن الحافظ إسناده[٢].

قوله: «سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ»، والألف واللام في النشرة للعهد، أي: النشرة المعهودة التي كان أهل الجاهلية يصنعونها، هي من عمل الشيطان.

قوله: (وَقَالَ: «سُئِلَ أَحْمَدَ عَنْهَا فَقَالَ: ابْنُ مَسْعودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ»).

أراد أحمد رَحِمَهُ اللهُ أن ابن مسعود يكره النشرة - التي هي من عمل الشيطان - كما يكره تعليق التمائم مطلقًا.

الشرح:

قوله: (عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ، فَقَالَ: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»): السائل سأله عما كان معهودًا معروفًا عندهم في هذا الاسم، وهو اسم النُّشْرة، والذي كان معروفًا معهودًا هو أن اسم النُّشْرة إنما هو من جهة الساحر، النُّشْرة عند العرب: هي حل السحر بمثله، هذه هي النُّشْرة عند العرب؛ لهذا سُئِلَ النبي ﷺ عن النُّشْرة، فقال: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ».

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٤)، وأبو داود (٣٨٦٨).
(٢) انظر: الآداب الشرعية (٣/ ٦٣)، وفتح الباري (١٠/ ٢٣٣).

قال العلماء: (ال)، أو لام التعريف في قوله: «النُّشْرَةِ» هذه للعهد، يعني: النُّشْرة المعهود استعمالها، وهي حل السحر بمثله، فقال ﷺ: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»: لأن رفع السحر لا يكون إلا بعمل شيطان جني؛ ولهذا قال ﷺ: «هِيَ» - يعني: الرفع والنشر - «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»: لأن العقد أصلًا من عمل الشيطان، والرفع والنشر من عمل الشيطان.

فإذًا هو سؤال عن النشرة التي كانت تستخدم في الجاهلية.

قوله: (رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَد جَيْدٍ، وَأَبُو دَاودَ، وَقَالَ: «سُئِلَ أَحْمَدَ عَنْهَا فَقَالَ: ابْنُ مَسْعودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ»): يعني: أن تكون النُّشْرة عن طريق التمائم، التي فيها القرآن؛ لأنه مَرَّ فيما سبق أن ابن مسعود رضي الله عنه كان يكره جميع أنواع التمائم، حتى من القرآن؛ كما قال إبراهيم النخعي رحمه الله: «كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا، مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ»[1]، يعني: أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه، وابن مسعود رضي الله عنه كذلك، فابن مسعود رضي الله عنه كان يكره التمائم من القرآن، وهو أن يُعلِّق شيئًا من القرآن لأي غرض لدفع العين، أو لإزالة السحر ورفع الضرر؛ لهذا الإمام أحمد لما قال أبو داود: «سُئِلَ أَحْمَدَ عَنْهَا»، يعني: عن النشرة التي تكون بالتمائم من القرآن، «فَقَالَ: ابْنُ مَسْعودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ».

أما النشرة باستخدام النفث والرقية من غير تعليق، فلا يمكن للإمام أحمد، ولا لابن مسعود أن يكرهوا ذلك؛ لأنَّ النبي ﷺ استخدم ذلك، وأَذِنَ به عملًا في نفسه، وكذلك في غيره ﷺ.

(١) سبق تخريجه (١/ ٣٧٧).

وَفِي البُخَارِيِّ عَنْ قَتَادَةَ: «قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ المُسَيِّبِ: رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ، أَوْ: يُؤَخَّذُ عَنِ امْرَأَتِهِ، أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنَشَّرُ؟ قَالَ: لاَ بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصْلاَحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ، فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ». انْتَهَى[(١)].

ش: قوله: (عَنْ قَتَادَةَ) هو ابن دِعامة - بكسر الدال - الدوسي، ثقة، فقيه، من أحفظ التابعين. قالوا: إنه ولد أكمه. مات سنة بضع عشرة ومائة.

قوله: «رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ» بكسر الطاء. أي: سحر، يقال: طُب الرجل - بالضم - إذا سُحِرَ، ويقال: كنوا عن السحر بالطب تفاؤلًا؛ كما يقال لِلَّدِيغ: سليم.

وقال ابن الأنباري: الطب من الأضداد. يقال لعلاج الداء: طب، والسحر من الداء، يقال له: طب.

قوله: (يُؤَخَّذُ) بفتح الواو مهموزة، وتشديد الخاء المعجمة، وبعدها ذال معجمة. أي: يحبس عن امرأته، ولا يصل إلى جماعها. والأُخذة - بضم الهمزة -: الكلام الذي يقوله الساحر.

قوله: «أَيُحَلُّ عَنْهُ» بضم الياء، وفتح الحاء، مبني للمفعول.

قوله: «أَوْ يُنَشَّرُ» بتشديد المعجمة.

قوله: «لاَ بَأْسَ بِهِ». يعني: أن النشرة لا بأس بها.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب: هل يستخرج السحر؟ (ص١٠٨٨). ووصله الطبري في التهذيب، والأثرم في السنن؛ كما في تغليق التعليق (٥/ ٤٩).

. . . .

«إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصْلاَحَ». أي: إزالة السحر، ولم ينه عما يراد به الإصلاح، وهذا من ابن المسيب يحمل على نوع من النشرة لا يعلم أنه سحر.

الشرح:

يُريد ابن المسيب بذلك ما ينفع من النشرة بالتعوذات، والأدعية، والقرآن، والدواء المباح، ونحو ذلك، أما النشرة التي هي بالسحر؛ فابن مسعود رضي الله عنه أرفع من أن يقول: إنها جائزة، ولم يُنهَ عنها. والنبي ﷺ يقول: «**هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**»: لهذا قال: «**إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصْلاَحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ**». يعني: من الأدوية المباحة، ومن الرقى، والتعوذات الشرعية، وقراءة القرآن، ونحو ذلك، فهذا لم ينه عنه، بل أذن فيه.

إذًا فالسحر بلاء، وسُئِلَ ابن المسيب عن هذا الذي به طِبٌّ - يعني: سحر -، أو يُؤخذ عن امرأته بصرف القلب عنها: أيُحَلُّ عنه، أو يُنشَّر بأصل الحل والنشر؟ يعني: أيجوز أن يُرْفَع ذلك الطِّب الذي به، أو ذلك الأخذ عن امرأته بأي وسيلة؟ فقال: «**لاَ بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصْلاَحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ، فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ**»، ومعلوم أنه يريد بذلك ما أُذِنَ به في الشرع من القسم الذي ذكرنا فيه، من جواز استخدام الرقى، والتعوذات، والأدوية، والدعوات المباحة.

وَرُوِيَ عَنْ الحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَحُلُّ السِّحْرَ إِلَّا سَاحِرٌ»(١).

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ: النُّشْرَةُ: حَلُّ السِّحْرِ عَنْ المَسْحُورِ، وَهِيَ نَوْعَانِ: حَلُّ سِحْرٍ بِمِثْلِهِ، وَهُوَ الذي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الحَسَنِ، فَيَتقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالمُنْتَشِرُ إِلى الشَّيْطَانِ بِمَا يُحِبُ، فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ المَسْحُورِ.

وَالثَّانِي: النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ، وَالتَّعَوُّذَاتِ، وَالأَدْوِيَةِ، وَالدَّعَوَاتِ المُبَاحَةِ، فَهَذَا جَائِزٌ(٢).

ش: قوله: (وَرُوِيَ عَنْ الحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَحُلُّ السِّحْرَ إِلَّا سَاحِرٌ»). هذا الأثر ذكره ابن الجوزي في جامع المسانيد.

والحسن: هو ابن أبي الحسن، واسمه: يسار - بالتحتية والمهملة - البصري الأنصاري، مولاهم، ثقة فقيه، إمام من خيار التابعين، مات سنة عشرة ومائة رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد قارب التسعين.

قوله: (قَالَ ابْنُ القَيِّمِ: النُّشْرَةُ: حَلُّ السِّحْرِ عَنْ المَسْحُورِ، وَهِيَ نَوْعَانِ: حَلُّ سِحْرٍ بِمِثْلِهِ، وَهُوَ الذي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، . . .) إلى آخره.

ومما جاء في صفة النشرة الجائزة: ما رواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبي سليم قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله، تقرأ في إناء فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور: الآية التي في

---

(١) أخرجه الطبري في تهذيب الآثار. ذكر ذلك ابن حجر في تغليق التعليق (٥/ ٤٩). وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٣٣)، والآداب الشرعية لابن مفلح (٣/ ٦٤).

(٢) انظر: إعلام الموقعين (٤/ ٣٩٦)، وزاد المعاد (٤/ ١٢٤-١٨١).

....

سورة يونس: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس: ٨١، ٨٢]، وقوله: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨]، إلى آخر الآيات الأربع، وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩] (١).

وقال ابن بطال في كتاب وهب بن منبه: إنه يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر، فيدقه بين حجرين، ثم يضربه بالماء، ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل، ثم يحسو منه ثلاث حسوات، ثم يغتسل به، يذهب عنه كل مابه، هو جيد للرجل إذا حبس عن أهله (٢).

قلت: قول العلامة ابن القيم: (والثاني النشرة بالرقية، والتعوذات والدعوات، والأدوية المباحة، فهو جائز) يشير ﷺ إلى مثل هذا، وعليه يُحمل كلام مَن أجاز النشرة من العلماء.

والحاصل: أن ما كان منه بالسحر، فيحرم، وما كان بالقرآن والدعوات والأدوية المباحة، فجائز، والله أعلم.

الشرح:

قوله: (قَالَ ابْنُ القَيِّمِ: النُّشْرَةُ: حَلُّ السِّحْرِ عَنْ المَسْحُورِ، وَهِيَ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٩٧٤). وأورده السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٨١) وعزاه إلى أبي الشيخ.
(٢) انظر: مصنف عبد الرزاق (١١/ ١٣)، وفتح الباري (١٠/ ٢٣٣).

نَوْعَانِ: حَلُّ سِحْرٍ بِمِثْلِهِ، وَهُوَ الذي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الحَسَنِ، فَيَتقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالمُنْتَشِرُ إِلى الشَّيْطَانِ بِمَا يُحِبُّ، فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ المَسْحُورِ): كما ذكرنا لكم سلفًا.

قوله: (فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ المَسْحُورِ): هذه حقيقة النشرة الشركية.

إذا تبين ذلك، فإن حكم حل السحر بمثله أنه لا يجوز، ومحرم، بل هو شرك بالله عز وجل؛ لأنه لا يحل السحر إلا ساحر.

بعض العلماء من أتباع المذاهب يرى جواز حل السحر بمثله إذا كان للضرورة؛ كما قال فقهاء مذهب الإمام أحمد في بعض كتبهم: (**وَيَجُوزُ حَلُّ سِحْرٍ بِمِثْلِهِ ضَرُورَةً**)[1].

وهذا القول ليس بصواب، بل هو غلط؛ لأن الضرورة لا تكون جائزة ببذل الدين والتوحيد عوضًا عنها. معروف أن الأصول الخمسة التي جاءت بها الشرائع أولها حفظ الدين، وما هو دونها مرتبة لا يُبذَل ما هو أعلى لتحصيل ما هو أدنى، وضرورة الحفاظ على النفس هذه لا شك أنها من الضروريات الخمس، لكنها دون حفظ الدين مرتبةً؛ ولهذا لا يُقدَّم ما هو أدنى على ما هو أعلى، أو أن يُبذَل ما هو أعلى لتحصيل ما هو أدنى من الضروريات الخمس، والأنفس لا يجوز حفظها بالشرك، وهذا أَنْ يموت وهو على التوحيد لا شك أنه خير له من أن يُعافَى، وقد أَتَى بشركٍ بالله عز وجل، والسحر لا يكون إلا بشرك، والذي يأتي الساحر، ويطلب منه حل السحر هذا معناه أنه رضي قوله وعمله، ورضي أن يَعْمَل به ذاك، ورضي أن يُشرِك ذاك بالله لأجل منفعته، وهذا غير جائز.

---

(١) انظر: شرح منتهى الإرادات (٣/ ٤٠٤)، وكشاف القناع (٦/ ١٨٧)، وحاشية الروض المربع لابن قاسم (٧/ ٤١٤).

فإذًا تَحصَّل أَن أكثر السحر وقوعًا، وأن أكثر السحر نشرًا لا يكون إلا بالشرك الأكبر الله عَزَّوَجَلَّ ، وعليه فلا يجوز أن يُحَلُّ لا من جهة الضرورة، ولا من جهة غير الضرورة من باب أولى بسحرٍ مثله، بل يُحلُّ ويُنشَّرُ بالرقى الشرعية.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: النَّهْيُ عَنِ النُّشَرَةِ.

الثَّانِيَةُ: الْفَرْقُ بَيْنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ وَالْمُرَخَّصِ فِيهِ مِمَّا يُزِيلُ الْأَشْكَالَ.

❊ ❊ ❊

٢٧ - بَابُ
مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ

ش: قوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ). أي: من النهي عنه والوعيد فيه، مصدر تَطَيَّرَ يَتَطَيَّرُ، والطِيَرةُ بكسر الطاء وفتح الياء وقد تسكن: اسم مصدر من تطير طيرة؛ كما يقال: تخير خيرة، ولم يجئ في المصادر على هذه الزنة غيرهما، وأصله التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم، فنفاه الشارع وأبطله، وأخبر أنه لا تأثير له في جلب نفع ولا دفع ضر[١].

قال المدائني: سألت رؤبه بن العجاج، قلت: ما السانحُ؟ قال: ما ولاك ميامِنه. قلتُ: فما البارحُ؟ قال: ما ولاك مياسِره، والذي يجيء من أمامك فهو النَّاطحُ والنَّطيحُ، والذي يجيءُ من خلفك فهو القَاعدُ والقَعيدُ[٢].

ولما كانت الطيرة من الشرك المنافي لكمال التوحيد الواجب؛ لكونها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته ذكرها المصنف رحمه الله في كتاب التوحيد؛ تحذيرًا مما ينافي كمال التوحيد الواجب.

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث (٣/ ١٥٢).

(٢) انظر: تهذيب اللغة (٤/ ١٨٧)، والأمالي في لغة العرب (٢/ ٢٤٤)، ومفتاح دار السعادة (٢/ ٢٢٩).

الشرح:

هذا (بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ)، سبق بيان أن الطيرة من أنواع السحر، ولهذا جاء الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا الباب بعد الأبواب المتعلقة بالسحر؛ لأنها من أنواعه بنص الحديث، ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن التطيرَ نوع من الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ بشرطه، والشرك الذي يكون من جهة التطير مُنافٍ لكمال التوحيد الواجب؛ لأنه شرك أصغر.

وحقيقة التطير: أنه التشاؤم، أو التفاؤل بحركة الطير من السوانح، والبوارح، أو النطيح، أو القعيد، أو بغير الطير مما يحدث. إذا أراد أحد أن يذهب إلى مكان، أو يمضي في سفر، أو أن يعقد له خيارًا، فيستدل بما يحدث له من أنواع حركات الطيور، أو بما يحدث له من الحوادث أن هذا السفر سفر سعيد، فيمضي فيه، أو أنه سفر سيء، وعليه فيه وبال، فيرجع عنه؛ ولذلك ضابط الطيرة الشركية - التي من قامت في قلبه، وحصل له شرطها، وضابطها، فهو مشرك الشرك الأصغر - ما جاء في آخر الباب أنه قال ﷺ: «**إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ، أَوْ رَدَّكَ**»[(١)]، فالطيرة شرك، وهي التي تقع في القلب، ويبني عليها المرء مضاء في الفعل أو ردًا عن الفعل، فإذا خرج مثلًا من بيته، وحصل أمامه وهو ينوي سفرًا، أو ينوي رحلة، أو ينوي القيام بصفقة تجارة، أو نحو ذلك، فحصل أمامه حادث، فهذا الحادث الذي حصل أمامه من تصادم سيارة، أو اعتداء من واحد على آخر، أو نحو ذلك، جعل من هذا الحادث في قلبه شؤمًا، ثم استدل بهذا الحادث على أنه سيفشل في سفره أو في تجارته، أو أنه سيصيبه مكروه في سفره، فإذا رجع ولم يمضِ فقد حصل له التطير الشركي، أما إذا حصل

---

(١) سيأتي تخريجه (ص٣٣٨).

ذلك في قلبه مجرد وقوع، وحصل له نوع تشاؤم، ولكنه مضى وتوكل على الله، فهذا لا يكاد يسلم منه أحد، وكما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**وَمَا مِنَّا إِلَّا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ**»[1] كما سيأتي.

إذًا فهذه حقيقة التطير الشركي وضابطه، وبيان أن التطير اسم عام ليس خاصًا بالطير وحركاتها، مَرَّ معنا العيافة - كما سبق - في: (**بَابُ بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ**)، وأن العيافة متعلقة بالطير، كما فسرها عوف الأعرابي بقوله: العيافة زجر الطير، متعلقة بالطير من حيث أنه يحرك الطير، ويزجرها حتى ينظر أين تتحرك، وأما الطيرة، فهو أن يتشاءم، أو يتفاءل، ويمضي، أو يرجع بحركة تحصل أمامه، ولو لم يزجر أو يفعل، أو بشيء يحصل أمامه إما من الطير أو من غيره.

(**بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ**)، يعني: من أنه شرك بالله عز وجل إذا أمضى أو رد، وكفارة التطير إذا وقع في القلب، ونحو ذلك من الأحكام.

---

(١) سيأتي تخريجه (ص٣٣٦).

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

ش: قوله: (وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١]). **الآية. ذكر تعالى هذه الآية في سياق قوله:** ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ﴾ [الأعراف: ١٣١] **الآية. المعنى: أن آل فرعون كانوا إذا أصابتهم الحسنة - أي: الخصب والسعة والعافية؛ كما فسره مجاهد وغيره -[(١)] قالوا: لنا هذه - أي: نحن الجديرون والحقيقيون به، ونحن أهله -، وإن تصبهم سيئة - أي: بلاء وقحط - تطيروا بموسى ومن معه، فيقولون: هذا بسبب موسى وأصحابه، أصابنا بشؤمهم. فقال الله تعالى:** ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ **قال ابن عباس: طائرهم: ماقضى عليهم، وقدر لهم. وفي رواية: شؤمهم عند الله ومن قبله. أي: إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله[(٢)].**

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **أي: إن أكثرهم جهال لا يدرون. ولو فهموا وعقلوا، لعلموا أنه ليس فيما جاء به موسى عليه السلام إلا الخير، والبركة، والسعادة، والفلاح لمن آمن به واتبعه.**

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٢٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٣٠)، وتفسير البغوي (٢/ ١٩٠).

الشرح:

قوله: (وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١]): **هذه آية في سورة الأعراف** ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ يعني: إذا أتاهم خصب وسعة وزيادة في الأرزاق ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ﴾ يعني: نحن المستحقون لها ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ يعني: أصابهم جدب، أو نقص في الأرزاق، أو بلاء، قالوا: هذا بسبب شؤم موسى ومن معه؛ فهم الذين بسببهم وبسبب أقوالهم وأعمالهم حصل لنا هذا السوء وهذه الويلات، فتطيروا بهم، يعني: جعلوهم سببًا لما حصل لهم، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ طائرهم يعني: ما يطير عنهم من عمل صالح، أو طالح، وأنهم يستحقون الحسنات، أو يستحقون السيئات، كل هذا عند الله عَزَّ وَجَلَّ، أو أن معنى قوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: أن سبب ما يأتيهم من الحسنات أو ما يأتيهم من السيئات أن ذلك من جهة القضاء والقدر، فهو عند الله عَزَّ وَجَلَّ.

ومناسبة هذه الآية لهذا الباب: أن هذه الخصلة من صفات أعداء الرسل، من صفات المشركين، فالتطير من صفات أهل الإشراك، من صفات أعداء الرسل، وإذا كان كذلك، فهو مذموم، ومن خصال المشركين الشركية، وهذه هي مناسبة إيراد الآية تحت هذا الباب من جهة أنه خصلة من خصال أعداء الرسل، وليست من خصال أتباع الرسل، وإنما أتباع الرسل، فإنهم يعلقون ذلك بما عند الله من القضاء والقدر، أو بما جعله الله عَزَّ وَجَلَّ لهم من ثواب أعمالهم، أو العقاب على أعمالهم؛ كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٩].

ش: **قوله: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٩]) الآية. المعنى - والله أعلم - حظكم وما نابكم من شر معكم بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا، بل ببغيكم وعدوانكم، فطائر الباغي الظالم معه، فما وقع به من الشر، فهو سببه الجالب له، وذلك بقضاء الله وقدره وحكمته وعدله؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦)﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].**

ويحتمل أن يكون المعنى: طائركم معكم. أي: راجع عليكم، فالتطير الذي حصل لكم إنما يعود عليكم، وهذا من باب القصاص في الكلام، ونظيره قوله ﷺ: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الكِتَابِ، فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ»[(١)]. ذكره ابن القيم رحمه الله[(٢)].

قوله تعالى: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أي: من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله قابلتمونا بهذا الكلام ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

قال قتادة: أإن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا؟![(٣)].

ومناسبة الآيتين للترجمة: أن التطير من عمل أهل الجاهلية والمشركين، وقد ذمهم الله تعالى به، ومقتهم، وقد نهى رسول الله ﷺ عن التطير، وأخبر أنه شرك؛ كما سيأتي في أحاديث الباب.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٨٥، ٦٩٢٦)، ومسلم (٢١٦٣) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) انظر: مفتاح دار السعادة (ص٥٧٩).
(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٢/ ١٥٨).

الشـرح:

ما أورده من الآية الثانية، وهي قوله: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ الآية، وهي من سورة يس: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ الذي تطير بأولئك هم المشركون أصحاب تلك القرية، حيث قالوا: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨]، قالت أتباع الرسل ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ يعني: حقيقة سبب السيئات عليكم، أو سبب قدوم الحسنات عليكم، هذه من شيء فيكم، فالسوء الذي سينالكم، والعقاب الذي سينالكم ملازم لكم ملازمة ما يطير عنكم لكم، فما يطير عنكم من عمل سوء، ومن معاداة للرسل، وتكذيب للرسل، هذا ملازم لكم، وستتطيرون به ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾؛ لأنه من جهة، أنهم فعلوا السيئات، وكذبوا الرسل، وهذا سيقع عليهم وباله، ومناسبة هذه الآية للباب كمناسبة الآية قبلها: من أن هذه هي قالة المشركين وأعداء الرسل.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَاَلَ: «لاَ عَدْوَى، وَلاَ طِيَرَةَ، وَلاَ هَامَةَ، وَلاَ صَفَرَ». أَخْرَجَاهُ[١]، زَادَ مُسْلِمٌ: «وَلَا نَوْءَ، وَلَا غُولَ»[٢].

ش: قال أبو السعادات: العدوى اسم من الإعداء - كالرَّعوى -، يقال: أعداه الداءُ يُعديه إعداءً إذا أصابه مثل ما بصاحب الداء[٣].

وقال غيره: لا عدوى هو اسم من الإعداء، وهو مجاوزة العلة من صاحبها إلى غيره، والمنفي نفس سراية العلة، أو إضافتها إلى العلة. والأول هو الظاهر.

وفي رواية لمسلم أن أبا هريرة كان يحدث بحديث: «لاَ عَدْوَى»، ويحدث عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ»[٤]، ثم إن أبا هريرة اقتصر على حديث: «لَا يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ»، وأمسك عن حديث: «لاَ عَدْوَى»، فراجعوه، وقالوا: سمعناك تحدث به، فأبى أن يعترف به. قال أبو مسلمة - الراوي عن أبي هريرة -: فلا أدري أنسي أبو هريرة، أو نسخ أحد القولين الآخر؟

وقد روى حديث: «لاَ عَدْوَى»، جماعة من الصحابة: أنس بن مالك[٥]، . . . .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٧)، ومسلم (٢٢٢٠).
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٢٢) من حديث جابر رضي الله عنه.
(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١٩٢).
(٤) أخرجه مسلم (٢٢٢١).
(٥) أخرجه البخاري (٥٧٥٦، ٥٧٧٦)، ومسلم (٢٢٢٤).

....

وجابر بن عبد الله[١]، والسائب بن يزيد[٢]،.. وابن عمر[٣]، وغيرهم[٤]، وفي بعض روايات هذا الحديث: «وَفِرَّ مِنَ المَجْذُومِ، كَمَا تَفِرُّ مِنَ الأَسَدِ»[٥].

وقد اختلف العلماء في ذلك، وأحسن ما قيل فيه قول البيهقي، وتبعه ابن الصلاح، وابن القيم، وابن رجب، وابن مفلح، وغيرهم[٦]: أن قوله: «لاَ عَدْوَى» على الوجه الذي يعتقده أهل الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى، وأن هذه الأمور تعدي بطبعها، وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من الأمراض سببًا لحدوث ذلك، ولهذا قال: «وَفِرَّ مِنَ المَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الأَسَدِ»، وقال: «لَا يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ»، وقال في الطاعون: «فَمَنْ سَمِعَ بِهِ فِي أَرْضٍ، فَلَا يَقْدَمْ عَلَيْهِ»[٧]، وكل ذلك بتقدير الله تعالى.

ولأحمد والترمذي عن ابن مسعود مرفوعًا: «لَا يُعْدِي شَيْءٌ شَيْئًا، لَا يُعْدِي شَيْءٌ شَيْئًا، ثَلَاثًا، قَالَ: فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٢٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٢٠).

(٣) أخرجه البخاري (١/ ٢٦٩، ٣٢٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، و(٢/ ٢٢٢) من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما، و(١/ ١٨٠) من حديث سعد بن أبي وقاص، و(١/ ٤٤٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (٥٧٥٧)، ومسلم (٢٢٢٠).

(٥) أخرجه البخاري (٥٧٠٧) تعليقًا.

(٦) انظر: البيهقي في السنن (٧/ ٢١٦)، وابن الصلاح (ص٤١٥)، وابن القيم في مفتاح دار السعادة (ص٥٨٢)، وابن رجب في اللطائف (ص٦٩)، وابن مفلح (٣/ ٣٦٣).

(٧) أخرجه البخاري (٥٧٢٨، ٥٧٧٦)، ومسلم (٢٢١٨) من حديث أسامة رضي الله عنه.

....

النُّقْبَةَ تَكُونُ بِمِشْفَرِ الْبَعِيرِ، أَوْ بِعَجْبِهِ، فَتَشْتَمِلُ الْإِبِلَ جَرَبًا، قَالَ: فَسَكَتَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: مَا أَعْدَى الْأَوَّلَ، لَا عَدْوَى، وَلَا صَفَرَ، وَلَا هَامَةَ، خَلَقَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ، فَكَتَبَ حَيَاتَهَا وَمَوْتَهَا وَمُصِيبَاتِهَا وَرِزْقَهَا»[١].

فأخبر ﷺ أن ذلك كله قضاء الله وقدره، والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر إذا كان في عافية؛ فكما أنه يؤمر أن لا يلقي نفسه في الماء والنار - مما جرت العادة أن يهلك أو يضر -، فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم، والقدوم على بلد الطاعون، فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف، فالله - سبحانه - هو خالق الأسباب ومسبباتها، لا خالق غيره، ولا مقدر غيره.

وأما إذا قوي التوكل على الله، والإيمان بقضاء الله وقدره، فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب اعتمادًا على الله، ورجاء منه أن لا يحصل به ضرر، ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك، لاسيما إذا كانت مصلحة عامة أو خاصة، وعلى هذا يحمل الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِ مَجْذُومٍ فَوَضَعَهَا مَعَهُ فِي الْقَصْعَةِ، وَقَالَ: كُلْ ثِقَةً بِاللَّهِ وَتَوَكُّلًا عَلَيْهِ»[٢].

وقد أخذ به الإمام أحمد، وَرُوي ذلك عن عمر وابنه وسلمان رضي الله عنهم[٣].

(١) أخرجه أحمد (٧/ ٢٥٢، ١٤/ ٨٥)، والترمذي (٢١٤٣)، وابن أبي شيبة (١/ ٢٢٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٢٥)، والترمذي (١٨١٧)، ابن ماجه (٣٥٤٢)، وابن أبي شيبة (٥/ ١٤١)، والحاكم (٤/ ١٥٢)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٥٧)، وشعب الإيمان (٢/ ٤٨٩)، وابن حبان (١٣/ ٤٨٨).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٠/ ٤٠٥، ١١/ ٢٠٥)، وابن أبي شيبة (٨/ ٣١٧).

....

ونظير ذلك ما روي عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه أكل السم[١]، ومنه مشي سعد بن أبي وقاص[٢] وأبي مسلم الخولاني على متن البحر، قاله ابن رجب رحمه الله [٣].

قوله: «وَلاَ طِيَرَةَ». قال ابن القيم رحمه الله: يحتمل أن يكون نفيًا أو نهيًا، أي: لا تطيروا، ولكن قوله في الحديث: «لاَ عَدْوَى، وَلاَ طِيَرَةَ، وَلاَ هَامَةَ، وَلاَ صَفَرَ» يدل على أن المراد النفي، وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها. والنفي في هذا أبلغ من النهي؛ لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره، والنهي إنما يدل على المنع منه.

وفي صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم أنه قال لرسول الله ﷺ «وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ، قَالَ: ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ، فَلَا يَصُدَّنَّهُمْ - قَالَ ابْنُ الصَّبَّاحِ: فَلَا يَصُدَّنَّكُمْ»[٤]، فأخبر أن تأذيه وتَشاؤُمه بالطيرة إنما هو في نفسه وعقيدته، لا في المتطير به، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده لما رآه وسمعه، فأوضح ﷺ لأمته الأمر، وبين لهم فساد الطيرة؛ ليعلموا أن الله - سبحانه - لم يجعل لهم عليه علامة، ولا فيها دلالة، ولا نصبها سببًا لما يخافونه ويحذرونه، ولتطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التي أرسل بها رسله، وأنزل بها كتبه، وخلق

---

(١) أخرجه أبو يعلى (١٣/ ١٤١)، والطبراني في الكبير (٤/ ١٠٥)، وانظر ترجمة خالد رضي الله عنه في: سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٣٦٦)، وصفة الصفوة (١/ ٦٥٠).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الدلائل(٥٢٢).

(٣) انظر: لطائف المعارف لابن رجب (ص٦٩).

(٤) أخرجه مسلم (٥٣٧).

....

لأجلها السماوات والأرض، وعمر الدارين - الجنة والنار - بسبب التوحيد، فقطع ﷺ علق الشرك في قلوبهم؛ لئلا يبقى فيها علقة منها، ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهل النار ألبتة.

فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى، واعتصم بحبله المتين، وتوكل على الله، قطع هاجس الطيرة من قبل استقرارها، وبادر خواطرها من قبل استمكانها. قال عكرمة: «كنا جلوسًا عند ابن عباس، فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير خير. فقال له ابن عباس: لا خير ولا شر»(١).

فبادره بالإنكار عليه لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر، وخرج طاوس مع صاحب له في سفر، فصاح غراب، فقال الرجل: خير. فقال طاوس: وأي خير عند هذا؟ لا تصحبني(٢). ا.هـ. ملخصًا(٣).

وقد جاءت أحاديث، ظن بعض الناس أنها تدل على جواز الطيرة؛ كقوله: «الشُّؤْمُ فِي ثَلَاثٍ: فِي الفَرَسِ، وَالمَرْأَةِ، وَالدَّارِ»(٤)، ونحو هذا.

قال ابن القيم رحمه الله: إخباره ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها الله سبحانه، وإنما غايته أن الله - سبحانه - قد يخلق منها أعيانًا مشؤومة على من قاربها وساكنها، وأعيانًا مباركة

---

(١) أورده ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص١٠٨) بلا إسناد، وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ١٩٤) فقال: روينا عن عكرمة، وأورده ابن حجر في الفتح (١٠/ ٢١٥) وعزاه إلى الطبري.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ٤٠٦)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٤، ٥)، أورده ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣/ ٣٦٦) وعزاه إلى الخلال.

(٣) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٥٨)، ومسلم (٢٢٢٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

. . . .

لا يلحق من قاربها شؤم ولا شر، وهذا كما يعطي سبحانه الوالدين ولدًا مباركًا يريان الخير على وجهه، ويعطى غيرهما ولدًا مشؤومًا يريان الشر على وجهه، وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية وغيرها، فكذلك الدار والمرأة والفرس.

والله سبحانه خالق الخير والشر، والسعود والنحوس، فيخلق بعض هذه الأعيان سعودًا مباركة، ويقضي بسعادة من قاربها وحصول اليمن والبركة له، ويخلق بعضها نحوسًا يتنحس بها من قاربها.

وكل ذلك بقضائه وقدره؛ كما خلق سائر الأسباب، وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة، كما خلق المسك وغيره من الأرواح الطيبة، ولذَّذ بها من قاربها من الناس، وخلق ضدها، وجعلها سببًا لألم من قاربها من الناس.

والفرق بين هذين النوعين مُدرَك بالحس، فكذلك الديار والنساء والخيل، فهذا لون، والطيرة الشركية لون. انتهى[(١)].

قوله: «وَلَا هَامَةَ». بتخفيف الميم على الصحيح[(٢)].

قال الفراء: الهامة طير من طير الليل. كأنه يعني البومة.

قال ابن الأعرابي: كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم،

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١٠/ ٢٤١): قال أبو زيد: هي بالتشديد، وخالفه الجميع فخففوها، وهو المحفوظ في الرواية، وكأن من شددها ذهب إلى واحدة الهوام.

....

يقول: نعت إليَّ نفسي أو أحدًا من أهل داري، فجاء الحديث بنفي ذلك وإبطاله[١].

قوله: «وَلَا صَفَرَ». بفتح الفاء، روى أبو عبيدة في غريب الحديث عن رُؤْبة أنه قال: هي حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس، وهي أعدى من الجرب عند العرب[٢].

وعلى هذا فالمراد بنفيه ما كانوا يعتقدونه من العدوى، وممن قال بهذا سفيان بن عيينة، والإمام أحمد، والبخاري، وابن جرير[٣].

وقال آخرون: المراد به شهر صفر، والنفي لما كان أهل الجاهلية يفعلونه في النسيء، وكانوا يحلون المحرم، ويحرمون صفر مكانه[٤]، وهو قول مالك[٥].

وروى أبو داود عن محمد بن راشد عمن سمعه يقول: «إن أهل الجاهلية يتشاءمون بصفر، ويقولون: إنه مشؤوم، فأبطل النبي ﷺ ذلك»[٦].

قال ابن رجب: ولعل هذا القول أشبه الأقوال، والتشاؤم بصفر هو

---

(١) انظر: فتح الباري (١٠/ ٢٤١).
(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٢٥، ٢٦).
(٣) انظر: فتح الباري (١٠/ ١٧١)، وتحفة الأحوذي (٦/ ٢٩٦).
(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٢٦).
(٥) أخرج نحوه أبو داود في سننه (٣٩١٤)، وانظر: التمهيد لابن عبد البر (٢٤/ ١٩٩)، ومشارق الأنوار للقاضي عياض (٢/ ٤٩)، وشرح النووي على صحيح مسلم (١٤/ ٢١٤، ٢١٥).
(٦) أخرجه أبو داود (٣٩١٥).

....

من جنس الطيرة المنهي عنها، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام كيوم الأربعاء، وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فية خاصة(١).

قوله: «وَلَا نَوْءَ» النوء واحد الأنواء، وسيأتي الكلام عليه في بابه إن شاء الله تعالى.

قوله: «وَلَا غُولَ» هو بالضم اسم، وجمعه أغوالٌ وغيلان، وهو المراد هنا.

قال أبو السعادات: الغولُ واحد الغيلان، وهو جنس من الجنِّ والشياطين كانت العرب تزعم أن الغولَ في الفلاة تتراءى للناس، تتلون تلونًا في صور شتى، وتغولهم، أي: تضلهم عن الطريق وتهلكهم، فنفاه النبي ﷺ وأبطله(٢).

فإن قيل: ما معنى النفي، وقد قال النبي ﷺ: «إِذَا تَغَوَّلَتِ الْغِيلَانُ، فَبَادِرُوا بِالأَذَانِ»(٣).

أجيب عنه: بأن ذلك كان في الابتداء، ثم دفعها الله عن عباده. أو يقال: المنفى ليس وجود الغول، بل ما يزعمه العرب من تصرفه في نفسه، أو يكون المعنى بقوله: «لَا غُولَ» أنها لا تستطيع أن تضل أحدًا مع ذكر الله والتوكل عليه، ويشهد له الحديث الآخر: «لَا غُولَ، وَلَكِنَّ

---

(١) انظر: لطائف المعارف (ص١٤٧).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٣٩٦).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٢٣٦)، وأحمد في المسند (٣/ ٣٠٥)، والبزار (٤/ ٧٨)، وأبو يعلى (٤/ ١٥٣)، والطبراني في الأوسط (٧/ ٢٥٦)، وابن أبي شيبة (٦/ ٩٣)، وعبد الرزاق (٥/ ١٦٣)، والبغوي في شرح السنة (١٢/ ١٧٣) من حديث جابر ﷺ.

....

السَّعَالِي سَحَرَةُ الْجِنِّ»[١] أي: ولكن في الجن سحرة لهم تلبيس وتخييل. ومنه الحديث «إِذَا تَغَوَّلَتِ الْغِيلانُ، فَبَادِرُوا بِالأَذَانِ». أي: ادفعوا شرها بذلك بذكر الله[٢]. وهذا يدل على أنه لم يرد بنفيها أو عدمه.

ومنه حديث أبي أيوب: «كَانَ لِي تَمْرٌ فِي سَهْوَةٍ، فَكَانَتِ الْغُولُ تَجِيءُ، فَتَأْخُذُ...»[٣].

الشـرح:

قوله: (وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لاَ عَدْوَى، وَلاَ طِيَرَةَ، وَلاَ هَامَةَ، وَلاَ صَفَرَ». أَخْرَجَاهُ، زَادَ مُسْلِمٌ: «وَلَا نَوْءَ، وَلَا غُولَ»).

مناسبة هذا الحديث للباب: قوله: «وَلاَ طِيَرَةَ»، ومن المعلوم أن المنفي هنا ليس هو وجود الطيرة؛ لأن الطيرة موجودة من جهة اعتقاد الناس، ومن جهة استعمالها، ولكنها باطلة، كذلك العدوى موجودة من جهة الوقوع؛ ولهذا قال العلماء: النفي هنا راجع إلى ما تعتقده العرب، ويعتقده أهل الجاهلية؛ لأن (لا) نافية للجنس، واسمها مذكور، وخبرها محذوف لأجل العلم به، فإنَّ الجاهليين يؤمنون بوجود هذه الأشياء،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٥/ ٦٢).
(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/ ٢١٧).
(٣) أخرجه أحمد (٣٨/ ٥٦٣)، وابن أبي شيبة (٦/ ٩٤)، والطبراني في الكبير (٤/ ١٦٢)، وأبو الشيخ في العظمة (٥/ ١٦٥١).

ويؤمنون أيضًا بتأثيرها، فالمنفي ليس هو وجودها، وإنما هو تأثيرها، فيكون التقدير هنا: لا عدوى مؤثرة بطبعها ونفسها، وإنما تنتقل العدوى بإذن الله عز وجل، وأهل الجاهلية يعتقدون أن العدوى تنتقل بنفسها، فأبطل ذلك الله عز وجل، أبطل ذلك الاعتقاد، فقال ﷺ: «لاَ عَدْوَى» يعني: مؤثرة بنفسها.

«وَلاَ طِيَرَةَ»: مؤثرة أيضًا، فإن الطيرة شيء وهمي يكون في القلب، لا أثر له في قضاء الله وفي قدره، فحركة الطائر يمينًا أوشمالًا، أو السانح[1]، أو البارح[2]، ، أو النطيح[3]، أو القعيد[4]، لا أثر لها في حكم الله، وفي ملكوت الله، وفي قضائه وقدره، فإذًا الخبر قوله: «وَلاَ طِيَرَةَ»، يعني: تقدره بقولك: ولا طيرة مؤثرة، بل الطيرة شيء وهمي.

قوله: «وَلاَ هَامَةَ، وَلاَ صَفَرَ. . .» الحديث.

وسبق أن ذكرت[5] أن خبر (لا) النافية للجنس يحذف كثيرًا في لغة العرب كما قال ابن مالك في الألفية في آخر باب (لا) النافية للجنس[6]:

وَشَاعَ فِي ذَا البَابِ إسقَاطُ الخبَر ... إِذَا المُرَادُ مَع سُقُوطِهِ ظَهَر

وهذا مهم في العربية.

---

(١) قَالَ اللَّيْثُ: السانِحُ: (مَا أتاكَ عَن يمينِك من طَائِر أو ظَبْي أو غير ذَلِك يُتَيَمَّن بِهِ تَقول: سنح لنا سُنُوحًا). انظر: العين (٣/ ٢١٧)، وتهذيب اللغة (٤/ ٨٦)، و لسان العرب (٢/ ٤٩٠).

(٢) والبارِحُ: (مَا مَرَّ مِنَ الطَّيْرِ وَالْوَحْشِ مِنْ يَمِينِكَ إِلى يَسَارِكَ). انظر: مقاييس اللغة (١/ ٢٣٩)، وتهذيب اللغة (٤/ ١٨٧)، و لسان العرب (٢/ ٤١١).

(٣) النَّطِيحُ: (الَّذِي يَسْتَقْبِلُك من الظِّبَاءِ والطُّيورِ وَمَا يُزْجَر). انظر: تهذيب اللغة (٤/ ٢٢٥)، ولسان العرب (٢/ ٦٢١).

(٤) وَالْقَعِيدُ مِنَ الْوَحْشِ: (مَا يَأْتِيكَ مِنْ وَرَائِكَ).). انظر: مقاييس اللغة (٥/ ١٠٨)، ولسان العرب (٣/ ٣٦٠).

(٥) راجع (١/ ١٢١).

(٦) انظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (١/ ٣٧٧).

وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ. قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ»[١].

ش: قوله: «وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ». قال أبو السعادات: الفأل، مهموز فيما يسر ويسوء، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، وربما استعملت فيما يسر. يقال: تفاءلت بكذا وتفاولت، على التحفيف والقلب، وقد أولع الناس بترك الهمزة تخفيفًا، وإنما أحب الفأل لأن الناس إذا أملوا فائدة الله، ورجوا عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوي، فهم على خير، وإذا قطعوا آمالهم ورجاءهم من الله تعالى، كان ذلك من الشر.

وأما الطيرة، فإن فيها سوء الظن بالله وتوقع البلاء، والتفاؤل: أن يكون رجل مريض، فيسمع آخر يقول: يا سالم، أو يكون طالب ضالة، فيسمع آخر يقول: يا واجد، فيقع في ظنه أنه يبرأ من مرضه، ويجد ضالته. ومنه الحديث: «قَالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟ قَالَ: الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ».

قوله: «قَالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟ قَالَ: الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ». بين ﷺ أن الفأل يعجبه، فدل على أنه ليس من الطيرة المنهى عنها[٢].

قال ابن القيم رحمه الله: ليس في الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة وموجب الفطرة الإنسانية، التي تميل إلى ما يوافقها ويلائمها؛ كما أخبرهم ﷺ أنه حبب إليه من الدنيا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٧٦)، ومسلم (٢٢٢٤).
(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٤٠٥).

....

النساء والطيب[١]، وكان يحب الحلواء والعسل[٢]، ويحب حسن الصوت بالقرآن والأذان، ويستمع إليه[٣]، ويحب معالي الأخلاق ومكارم الشيم[٤].

وبالجملة يحب كل كمال وخير ما يفضي إليهما، والله سبحانه قد جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن، ومحبته، وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياح، والاستبشار، والسرور باسم الفلاح، والسلام والنجاح، والتهنئة والبشرى، والفوز والظفر، ونحو ذلك، فإذا قرعت هذه الأسماء الأسماع استبشرت بها النفوس، وانشرح لها الصدر، وقوى بها القلب، وإذا سمعت أضدادها، أوجب لها ضد هذه الحال، فأحزنها ذلك، وأثار لها خوفًا، وطيرة، وانكماشًا، وانقباضًا عما قصدت له، وعزمت عليه، فأورث لها ضررًا في الدنيا، ونقصًا في الإيمان، ومقارفة الشرك[٥].

وقال الحليمي: وإنما كان ﷺ يعجبه الفأل؛ لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن به، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال[٦].

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه النسائي في المجتبى (٧/ ٦١)، وأحمد (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٤٣١)، ومسلم (١٤٧٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٤٠٩)، ومسلم (٨٠٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٤) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٨٦١)، ومسلم (٢٤٧٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
(٥) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٤٤).
(٦) انظر: المنهاج في شعب الإيمان (٢/ ٢٥).

الشرح:

قوله: (**وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لاَ عَدْوَى، وَلاَ طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ. قَالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟ قَالَ: الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ»**). يعني: لا عدوى مؤثرة بنفسها، بل بإذن الله عز وجل.

«**وَلاَ طِيَرَةَ**» مؤثرة أصلًا، وإنما ذلك راجع إلى قضاء الله وقدره.

«**وَيُعْجِبُنِي الفَأْل. قَالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟ قَالَ: الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ**»: الفأل كان ﷺ يحبه، وفسره بأنه الكلمة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة إذا سمعها، فتفاءل بها أنه سيحصل له كذا وكذا من الخيرات، ففيه أنها حُسْن ظن بالله عز وجل، الفأل حُسن ظن بالله، والتشاؤم سُوء ظن بالله عز وجل؛ ولهذا صار الفأل ممدوحًا ومحمودًا، وصار التشاؤم مذمومًا.

والفأل ممدوح من جهة أن فيه تحسين الظن بالرب عز وجل، وهذا مأمور به العبد؛ لهذا كان ﷺ يتفاءل، وكل ذلك من تعظيم الله عز وجل، وحسن الظن به، وتعلق القلب به، وأنه لا يفعل للعبد إلا ما هو أصلح له.

وَلِأَبِي دَاودَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ ﵁ قَالَ: «ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»(١).

ش: قوله: (عَنْ عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ) هكذا وقع في نسخ التوحيد، وصوابه: عن عروة بن عامر، كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما، وهو مكي، اختلف في نسبه، فقال أحمد: عن عروة بن عامر القرشي، وقال غيره: الجهني. واختلف في صحبته، فقال الماوردي: له صحبة، وذكره ابن حبان في ثقات التابعين(٢)، وقال المزي: لا صحبة له تصح(٣).

قوله: «فَقَالَ: أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ» قد تقدم أن النبي ﷺ كان يعجبه الفأل.

وروى الترمذي، وصححه عن أنس ﵁: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُعْجِبُهُ إِذَا خَرَجَ لِحَاجَةٍ أَنْ يَسْمَعَ: يَا نَجِيحُ، يَا رَاشِدُ»(٤).

وروى أبو داود عن بريدة: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَتَطَيَّرُ مِنْ شَيْءٍ، وَكَانَ إِذَا بَعَثَ عَامِلًا سَأَلَ عَنِ اسْمِهِ، فَإِذَا أَعْجَبَهُ اسْمُهُ فَرِحَ بِهِ، وَرُئِيَ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩١٩).
(٢) انظر: الثقات (٥/ ١٩٥).
(٣) انظر: تهذيب الكمال (٢٠/ ٢٦)، والإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ٤٩٠).
(٤) أخرجه الترمذي (١٦١٦)، والطبراني في الصغير (١/ ٣٣١).

....

بِشْرُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَإِنْ كَرِهَ اسْمَهُ رُئِيَ كَرَاهِيَةُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ...»[1]، وإسناده حسن.

وهذا فيه استعمال الفأل.

قال ابن القيم: أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة، وهو خيرها، فأبطل الطيرة، وأخبر أن الفأل منها، ولكنه خير منها، ففصل بين الفأل والطيرة؛ لما بينهما من الامتياز والتضاد، ونفع أحدهما ومضرة الآخر، ونظير هذا: منعه من الرقى بالشرك، وإذنه في الرقية إذا لم يكن فيها شرك؛ لما فيها من المنفعة الخالية من المفسدة[2].

قوله: «وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا». قال الطيبي: تعريض بأن الكافر بخلافه[3].

قوله: «اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ». أي: لا تأتي الطيرة الحسنة، ولا تدفع المكروهات، بل أنت وحدك لا شريك لك الذي تأتي بالحسنات، وتدفع السيئات، والحسنات هنا النعم، والسيئات المصائب كقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٨-٧٩]، ففيه نفي تعليق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضر، وهذا هو التوحيد، وهو دعاء مناسب لمن وقع في قلبه شيء من الطيرة وتصريح بأنها لا تجلب نفعًا ولا تدفع ضرًا، ويعد من اعتقدها سفيهًا مشركًا.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٢٠)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٤٠)، وفي شعب الإيمان (٢/ ٣٩٩).
(٢) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٤٥).
(٣) انظر: فتح الباري (١٠/ ٢١٤).

....

قوله: «وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ». استعانة بالله تعالى على فعل التوكل، وعدم الالتفات إلى الطيرة التي قد تكون سببًا لوقوع المكروه عقوبة لفاعلها، وذلك الدعاء إنما يصدر عن حقيقة التوكل الذي هو أقوى الأسباب في جلب الخيرات ودفع المكروهات.

والحول: التحول والانتقال من حال إلى حال، والقوة على ذلك بالله وحده لا شريك له.

ففيه التبري من الحول والقوة والمشيئة بدون حول الله وقوته ومشيئته، وهذا هو التوحيد في الربوبية، وهو الدليل على توحيد الإلهية، الذي هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة، وهو توحيد القصد والإرادة، وقد تقدم بيان ذلك بحمد الله.

الشرح:

قوله: (وَلِأَبِي دَاودَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: «ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ»: الطيرة: يعني: التأثر بالكلمة؛ لأننا ذكرنا أن الطيرة عامة تشمل الأقوال والأعمال التي تحصل أمام العبد، فإذا كان ثَمَّ تطير، فإن أحسنه الفأل، يعني: أن يقع في قلبه أنه سيحصل له كذا وكذا من جراء كلمة سمعها، أو من جراء فعل حصل له. أحسن ذلك الفأل، وغيره مذموم، لِمَ كان الفأل محمودًا وممدوحًا ومأذونًا به؟ لما ذكرنا من أنه إذا تطير متفائلًا، فإنه مُحسِّن الظن بالله عز وجل، وأما الفأل في نفسه، فهو مطلوب؛ لأن التفاؤل يَشرح الصدر، ويُؤنس العبد،

ويُذهب الضيق الذي يوحيه الشيطان، ويسببه الشيطان في قلب العبد، والشيطان يأتي للعبد، فيجعله يتوهم أشياء وأشياء كلها في مضرته، فإذا فتح العبد على قلبه باب التفاؤل، أبعد عن قلبه باب تأثير الشيطان على النفس.

قَالَ: «وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا»: هذا خبر، لكنه مُضمَّن النهي، وقد ذكرت أن النهي قد يُعْدَل عنه للخبر؛ كما أن الأمر قد يعدل عنه إلى الخبر؛ لتأكيد النهي، ولتأكيد الأمر: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩]، هذا خبر لكنه كالأمر المؤكَّد، هذا خبر مثبت، والخبر المنفي كقوله هنا: «وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا». هذا خبر، لكن فيه النهي أن ترد الطيرة مسلمًا عن حاجته، فإذا ردته عن حاجته، فقد حصل له الشرك بالتطير.

قَالَ: «فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»: هذا دعاء عظيم في دفع ما يأتي للقلب من أنواع التشاؤم وأنواع الطيرة.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﵁ مَرْفُوعًا: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، ثَلَاثًا، وَمَا مِنَّا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ». رَوَاهُ أَبُو دَاودَ وَالتِّرْمذيُّ وَصَحَّحهُ، وَجَعَلَ آخرَهُ مِنْ قَولِ ابْنِ مَسْعُودٍ[١].

ش: ورواه ابن ماجه وابن حبان[٢].

ولفظ أبي داود: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، ثَلَاثًا». ثلاثًا، وهذا صريح في تحريم الطيرة، وأنها من الشرك؛ لما فيها من تعلق القلب على غير الله تعالى.

قال ابن حمدان: تُكره الطيرة، وكذا قال غيره من أصحاب أحمد.

قال ابن مفلح: والأولى القطع بتحريمها؛ لأنها شرك، وكيف يكون الشرك مكروهًا الكراهية الاصطلاحية[٣]؟!!

قال في شرح السنن: وإنما جعل الطيرة من الشرك؛ لأنهم كانوا يعتقدون أَنَّ الطيرة تجلب لهم نفعًا، أو تدفع عنهم ضرًا إذا عملوا بموجبها، فكأنهم أشركوا مع الله تعالى[٤].

قوله: «وَمَا مِنَّا إِلَّا». قال أبو القاسم الأصبهاني والمنذري: في الحديث إضمار. التقدير: وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيء من ذلك. ا. هـ[٥].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩١٠)، والترمذي (١٦١٤)، وابن ماجه (٣٥٣٨)، وأحمد في المسند (١/ ٣٨٩)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٣١٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٥٣٨)، وابن حبان (٧/ ٦٤٢)، وأحمد في المسند (١/ ٣٨٩)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٣١٣).

(٣) انظر: الآداب الشرعية (٣/ ٣٦٠).

(٤) انظر: معالم السنن (٤/ ١٣٤).

(٥) انظر: الترغيب والترهيب (٤/ ٣٣)، ونيل الأوطار (٧/ ٣٧٢).

....

وقال الخلخاني: حذف المستثنى لما يتضمنه من الحالة المكروهة، وهذا من أدب الكلام.

قوله: «وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ». أي: لكن لما توكلنا على الله في جلب النفع، ودفع الضر، أذهبه الله عنا بتوكلنا عليه وحده.

قوله: «وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوِلِ ابْنِ مَسْعُودٍ». قال ابن القيم: وهو من الصواب، فإن الطيرة نوع من الشرك[١].

الشرح:

قوله: (وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، ثَلَاثًا»): يعني: شرك أصغر بالله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله: «وَمَا مِنَّا إِلَّا»: يعني: إلا وقد أتى لقلبه بعض التطير؛ لأن هذا من الشيطان، والشيطان يأتي القلوب، فيغريها بما يفسدها «وَمَا مِنَّا إِلَّا»: يعني: ويعرض له ذلك.

قوله: «وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»؛ لأن حسنة التوكل، وإتيان العبد بواجب التوكل يذهب عنه كيد الشيطان بالتطير، فالواجب على العبد إذا عرض له شيء من التشاؤم أن لا يرجع عما أراد عمله، بل يُعْظِم التوكل على الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن هذه الأشياء التي تحصل لا تدل على الأمور المغيبة؛ لأنها أمور طرأت، ووافقت هكذا أمام العبد، وليس لها أثر فيما يحصل مستقبلًا.

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٣٤).

وَلِأَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ لَاخَيْرَ إِلَّاخَيْرُكَ، وَلَاطَيْرَ إِلَّاطَيْرُكَ، وَلَاإِلَهَ غَيْرُكَ»[1].

وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ الفَضْلِ بنِ عَبَّاسٍ: «إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ، أَوْ رَدَّكَ»[2].

ش: هذا الحديث رواه أحمد والطبراني عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وفي إسناده ابن لهيعة وبقية رجاله ثقات.

قوله: من حديث ابن عمرو، وهو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي أبو محمد. وقيل أبو عبد الرحمن، أحد السابقين المكثرين من الصحابة، وأحد العبادلة الفقهاء، مات في ذي الحجة ليالي الحرة على الأصح بالطائف[3].

قوله: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ»، وذلك أن الطيرة هي التشاؤم بالشيء المرئي أو المسموع، فإذا رده شيء من ذلك عن حاجته التي عزم عليها كإرادة السفر ونحوه، فمنعه عما أراده وسعى فيه ما رأى وما سمع تشاؤمًا، فقد دخل في الشرك - كما تقدم -، فلم يخلص توكله على الله بالتفاته إلى ما سواه، فيكون للشيطان منه نصيب.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٢٠)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص٢٥٤)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ٢٠١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٠٥): (رواه أحمد والطبراني، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢١٣).

(٣) انظر: الطبقات الكبرى (٤/ ٢٦١)، والإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ١٩٢).

....

قوله: «فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟...» إلى آخره. فإذا قال ذلك، وأعرض عما وقع في قلبه، ولم يلتفت إليه، كفر الله عنه ما وقع في قلبه ابتداء؛ لزواله عن قلبه بهذا الدعاء المتضمن للاعتماد على الله وحده، والإعراض عما سواه.

وتضمن الحديث أن الطيرة لا تضر من كرهها ومضى في طريقه، وأما من لا يخلص توكله على الله، واسترسل مع الشيطان في ذلك، فقد يعاقب بالوقوع فيما يكره؛ لأنه أعرض عن واجب الإيمان بالله، وأن الخير كله بيده، فهو الذي يجلبه لعبده بمشيئته وإرادته، وهو الذي يدفع عنه الضر وحده بقدرته ولطفه وإحسانه، فلا خير إلا منه، وهو الذي يدفع الشر عن عبده، فما أصابه من ذلك فبذنبه؛ كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

قوله: (وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ الفَضْلِ بنِ عَبَاسٍ: «إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ، أَوْ رَدَّكَ»).

هذا الحديث عند الإمام أحمد من حديث الفضل بن عباس، قال: «خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يَوْمًا فَبَرِحَ ظَبْيٌ، فَمَالَ فِي شِقِّهِ فَاحْتَضَنْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، تَطَيَّرْتَ؟ قَالَ: إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ، أَوْ رَدَّكَ». وفي إسناده انقطاع، أي: بين مسلمة - روايه -، وبين الفضل، وهو الفضل بن العباس بن عبد المطلب ابن عم النبي ﷺ.

قال ابن معين: قتل يوم اليرموك. وقال غيره: قتل يوم مرج الصفر سنة ثلاث عشرة، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة. وقال أبو داود: قتل بدمشق. كان عليه درع رسول الله ﷺ [١].

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى (٤/ ٥٤)، والإصابة في تمييز الصحابة (٥/ ٣٧٥).

....

قوله: «إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ، أَوْ رَدَّكَ». هذا حد الطيرة المنهى عنها: أنها ما يحمل الإنسان على المضي فيما أراده، ويمنعه من المضي فيه كذلك.

وأما الفأل الذي كان يحبه النبي ﷺ، فيه نوع من بشارة، فيسر به العبد، ولا يعتمد عليه بخلاف ما يمضيه أو يرده، فإن للقلب عليه نوع اعتماد، فافهم الفرق. والله أعلم.

الشرح:

قوله: (وَلِأَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرُو رضي الله عنهما: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ»: هذا الضابط ذكرناه في أول الباب أن ضابط كون الطيرة شركًا: أن ترد المتطير عن حاجته، فإذا لم ترده عن حاجته، فإنه لم يستأنس لها، فلا حرج عليه في ذلك، إلا أن عظمت في قلبه، فربما دخلت في أنواع محرمات القلوب، والذي يجب أن يُذهِبَه بالتوكل، وتعظيم الرغب فيما عند الله، وحسن الظن بالله عز وجل .

قوله: «قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: اللهُمَّ لَاخَيْرَ إِلَّاخَيْرُكَ، وَلَاطَيْرَ إِلَّاطَيْرُكَ، وَلَاإِلَهَ غَيْرُكَ»: «وَلَاطَيْرَ إِلَّاطَيْرُكَ» يعني: لن يحصل إلا قضاؤك الذي قضيته، أولن يحصل ويُقْضَى إلا ما قدرته على العبد، والعلم - علم المغيبات - إنما هو عند الله عز وجل .

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: التَّنْبِيهُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١] مَعَ قَوْلِهِ: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٩].

الثَّانِيَةُ: نَفْيُ الْعَدْوَى.

الثَّالِثَةُ: نَفْيُ الطِّيَرَةِ.

الرَّابِعَةُ: نَفْيُ الهَامَّةِ.

الْخَامِسَةُ: نَفْيُ الصَّفَرِ.

السَّادِسَةُ: أَنَّ الْفَأْلَ لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ بَلْ مُسْتَحَبٌّ.

السَّابِعَةُ: تَفْسِيرُ الْفَأْلِ.

الثَّامِنَةُ: أَنَّ الْوَاقِعَ فِي الْقُلُوبِ مِنْ ذَلِكَ مَعَ كَرَاهَتِهِ لَا يَضُرُّ بَلْ يُذْهِبُهُ اللهُ بِالتَّوَكُّلِ.

التَّاسِعَةُ: ذِكْرُ مَا يَقُولُهُ مَنْ وَجَدَهُ.

الْعَاشِرَةُ: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الطِّيَرَةَ شِرْكٌ.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: تَفْسِيرُ الطِّيَرَةِ الْمَذْمُومَةِ.

٢٨ - بَابُ
مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ

ش: قوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: التنجيم هو: الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية[١].

وقال الخطابي: علم النجوم المنهي عنه هو: ما يدعيه أهل التنجيم، من علم الكوائن والحوادث التي ستقع في مستقبل الزمان: كأوقات هبوب الرياح، ومجيء المطر، وتغير الأسعار، وما في معناها من الأمور التي يزعمون أنها تدرك معرفتها بمسير الكواكب في مجاريها، واجتماعها وافتراقها، يدعون أن لها تأثيراً في السفليات، وهذا منهم تحكم على الغيب، وتعاطٍ لعلم قد استأثر الله به، ولا يعلم الغيب سواه[٢].

الشرح:

قال رحمه الله: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ**): يعني: في حكم التنجيم، وأنه منقسم إلى جائز ومحرم، والمحرم منه نوعٌ من أنواع السحر، وهو كفر وشرك بالله عز وجل، فالتنجيم: هو ادعاء معرفة المغيبات عن طريق النجوم، هذا هو التنجيم المذموم المحرم، الذي هو من أنواع الكهانة والسحر.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩٢).
(٢) انظر: معالم السنن (٤/ ٢٣٠)، والترغيب والترهيب (٤/ ١٩)، والزواجر لابن حجر (٢/ ٧٢٦)، وعون المعبود (١٠/ ٢٨٥).

وفيما هو موجود عند الناس، وفيما يتعلمونه من التنجيم ثلاثة أنواع:

النوع الأول: التنجيم الذي هو اعتقاد أن النجوم فاعلة مؤثرة بنفسها، وأن الحوادث الأرضية منفعلة ناتجة عن النجوم وعن إرادات النجوم، وهذا تأليه للنجوم، وهو الذي كان يصنعه الصابئة، ويجعلون لكل نجم وكوكب صورة وتمثالًا، وتَحلُّ فيها أرواح الشياطين، فتأمر أولئك بعبادة تلك الأصنام والأوثان، وهذا بالإجماع كفر أكبر، وشرك كشرك قوم إبراهيم.

والنوع الثاني من التنجيم: هو ما يسمى علم التأثير، وهو الاستدلال بحركة النجوم والتقائها وافتراقها، وطلوعها وغروبها، الاستدلال بذلك على ما سيحصل في الأرض، فيجعلون حركة النجوم دالة على ما سيقع مستقبلًا في الأرض، والذي يفعل هذه الأشياء ويُحسِنها يقال له: المنجِّم، وهو من أنواع الكهان؛ لأن فيه أنه يخبر بالأمور المغيبة عن طريق الاستدلال بحركات الأفلاك وتحرك النجوم، وهذا النوع محرم وكبيرة من الكبائر، وهو نوع من الكهانة، وهي كفر بالله عَزَّوَجَلَّ ؛ لأن النجوم ما خلقت لذلك، وهؤلاء تأتيهم الشياطين، فتوحي إليهم بما يريدون وبما سيحصل في المستقبل، ويجعلون حركة النجوم دليلًا على ذلك.

وقد أُبطل قول المنجمين في أشياء كثيرة من الواقع ونحو ذلك؛ كما في فتح عمورية في قصيدة أبي تمام المشهورة[1]:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أنْبَاءً مِنْ الكُتُبِ ....

النوع الثالث مما يدخل في اسم التنجيم: ما يسمى بعلم التسيير، وهو أن يعلم النجوم وحركات النجوم لأجل أن يعلم القبلة، والأوقات، وما

---

(١) من شعر أبي تمام، وهو حبيب بن أوس الطائي. انظر: تاريخ بغداد (٣/ ٢٤٨)، وديوان أبي تمام للعكبري (٣/ ٣٥٢)، وديوان المعاني (٢/ ٧٧)، والحماسة المغربية (١/ ٣٢١)، وعجزه:
.... فِي حدّهِ الحَدُّ بَينَ الجدّ وَاللعِبِ

يصلح من الأوقات للزرع وما لا يصلح، والاستدلال بذلك على وقت هبوب الرياح، وعلى الوقت الذي أجرى فيه سنته أنه يحصل فيه من المطر كذا، ونحو ذلك.

فهذا يسمى علم التسيير، فهذا رخص فيه بعض العلماء، وسبب الترخيص فيه: أنه يجعل النجوم وحركتها، والتقاءها وافتراقها، وطلوعها أوغروبها، يجعل ذلك وقتًا وزمنا، لا يجعله سببًا، فيجعل هذه النجوم علامة على زمن يصلح فيه كذا وكذا، والله ﷻ جعل النجوم علامات كما قال ﷻ : ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، فهي علامة على أشياء يحصل أنه بطلوع النجم الفلاني يدخل وقت الشتاء، ليس بسبب طلوعه، ولكن حين طلع، استدللنا بطلوعه على دخول الوقت، وإلا فهو ليس بسببٍ لحصول البرد، وليس بسبب لحصول الحر، وليس بسبب للمطر، وليس بسبب لمناسبة غرس النخل أو زرع المزروعات ونحو ذلك، ولكنه وقت، فإذا كان على ذلك، فلا بأس به قولًا أو تعلمًا؛ لأنه يجعل النجوم وظهورها وغروبها أزمنة وذلك مأذون به.

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: وَقَالَ قَتَادَةُ: «خَلَقَ اللهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلاَثٍ: جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلاَمَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا بِغَيْرِ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لاَ عِلْمَ لَهُ بِهِ». انْتَهَى[١]

ش: هذا الأثر علقه البخاري في صحيحه.

وأخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وغيرهم.

وأخرجه الخطيب في كتاب النجوم عن قتادة، ولفظه قال: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِنَّمَا جَعَلَ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلاثِ خِصَالٍ: جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ وَجَعَلَهَا يُهْتَدَى بِهَا، وَجَعَلَهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ. فَمَنْ تَعَاطَى فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ، فَقَدْ قَالَ رَأْيَهُ، وَأَخْطَأَ حَظَّهُ، وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، وَإِنَّ نَاسًا جَهَلَةً بِأَمْرِ اللَّهِ، قَدْ أَحْدَثُوا فِي هَذِهِ النُّجُومِ كَهَانَةً: مَنْ أَعْرَسَ بِنَجْمِ كَذَا وَكَذَا كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَمَنْ سَافَرَ بِنَجْمِ كَذَا وَكَذَا كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَعَمْرِي مَا مِنْ نَجْمٍ إِلا يُولَدُ بِهِ الأَحْمَرُ وَالأَسْوَدُ وَالطَّوِيلُ وَالْقَصِيرُ وَالْحَسَنُ وَالذَّمِيمُ. وَمَا عَلِمَ هَذَا النَّجْمُ وَهَذِهِ الدَّابَّةُ، وَهَذَا الطَّائِرُ بِشَيْءٍ مِنَ الْغَيْبِ. وَقُضَى اللَّهُ أَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يبعثون، وَلَعَمْرِي لَوْ أَنَّ أَحَدًا

(١) أخرجه البخاري معلقًا - كتاب بدء الخلق، باب في النجوم (ص٥٧٨)، والطبري في تفسيره (١٤/ ٩١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٢٩١٣)، والبغوي في شرح السنة (٤/ ٣٩٥). وانظر: الدر المنثور (٣/ ٣٢٨).

عَلِمَ الْغَيْبَ لَعَلِمَهُ آدَمُ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلائِكَتَهُ، وَعَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيءٍ» انتهى[١].

فتأمل ما أنكره هذا الإمام مما حدث من المنكرات في عصر التابعين، وما زال الشر يزداد في كل عصر بعدهم، حتى بلغ الغاية في هذه الأعصار، وعمت به البلوى في جميع الأمصار، فمقل ومستكثر، وعز في الناس من ينكره، وعظمت المصيبة به في الدين. فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

قوله: «خَلَقَ اللهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلاَثٍ». قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

وفيه إشارة إلى أن النجوم في السماء الدنيا، كما روى ابن مردويه عن ابن مسعود ﷺ قال: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أمَا السَّمَاء الدُّنْيَا، فَإِن اللهَ خلقهَا مِنْ دُخانٍ، ثـمَّ رَفعهَا، وَجعل فِيهَا سِرَاجًا، وقمرًا منيرًا، وزينها بمصابيح النُّجُوم، وَجعلهَا رُجُومًا للشياطينِ، وحَفِظَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ»[٢].

قوله: «وَعَلاَمَاتٍ». أي: دلالات على الجهات.

«يُهْتَدَى بِهَا». أي: يهتدي بها الناس في ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧] أي:

---

(١) نقله عن الخطيب في الدر المنثور (٣/ ٣٢٨).
(٢) انظر: الدر المنثور (٣/ ٣٢٨).

....

لتعرفوا بها جهة قصدكم، وليس المراد أن يُهتدى بها في علم الغيب؛ كما يعتقده المنجمون، وقد تقدم وجه بطلانه، وأنه لا حقيقة له؛ كما قال قتادة: «فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا بِغَيْرِ ذَلِكَ». أي: زعم فيها غير ما ذكر الله في كتابه من هذه الثلاث، «فَقَد أَخْطَأَ». حيث زعم شيئًا ما أنزل الله به من سلطان، «وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ» من كل خير؛ لأنه شغل نفسه بما يضره ولا ينفعه.

فإن قيل: المنجم قد يصدق؟ قيل: صدقه كصدق الكاهن، ويصدق في كلمة، ويكذب في مئة، وصدقه ليس عن علم، بل قد يوافق قدرًا، فيكون فتنة في حق من صدقه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١]، «وَعَلَامَاتٍ» فقوله: «وَعَلَامَاتٍ» معطوف على ما تقدم مما ذكره في الأرض، ثم استأنف، فقال: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، ذكره ابن جرير عن ابن عباس بمعناه[١].

وقد جاءت الأحاديث عن النبي ﷺ بإبطال علم التنجيم؛ كقوله: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ، فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ»[٢].

وعن رجاء بن حيوة أن النبي ﷺ قال: «ممَّا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي ثَلَاثًا: التَّصْدِيقُ بِالنُّجُومِ، وَالتَّكْذِيبُ بِالْقَدَرِ، وَحَيْفُ الْأَئِمَّةِ»[٣]، رواه عبد بن حميد.

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/ ٩١).
(٢) سبق تخريجه (ص٢٦٥).
(٣) رواه عبد بن حميد كما في الدر المنثور (٨/ ٣١).

....

وعن أبي محجن مرفوعًا: «أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي ثلاثًا: التَّصْدِيقُ بِالنُّجُومِ، وَالتَّكْذِيبُ بِالْقَدَرِ، وَحَيْفُ الْأَئِمَّةِ». رواه ابن عساكر، وحسنه السيوطي.

وعن أنس ﷺ مرفوعًا: «أَخَافُ عَلَى أُمَتِي بَعْدِي خَصْلَتِينِ: تَكْذِيبًا بِالقَدَرِ، وَإِيمَانًا بِالنُّجُومِ». رواه أبو يعلى وابن عدي والخطاب في كتاب النجوم، وحسنه السيوطي أيضًا[1]. والأحاديث في ذم التنجيم والتحذير منه كثيرة.

الشرح:

قوله: (قَالَ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: وَقَالَ قَتَادَةُ: «خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلاَثٍ: جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ»)، كما قال ﷻ: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ﴾ [فصلت: ١٢].

قوله: «وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ»، **والآيات على ذلك كثيرة.**

قوله: «وَعَلاَمَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا»: **حيث قال** ﷻ: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [النمل: ٦٣]، وقال الله ﷻ: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، ونحو ذلك من الآيات، فهي علامات يهتدى بها، يهتدى بها إلى أي شيء؟ يهتدى بها إلى الجهات: جهة القبلة، جهة الشمال، جهة الغرب، جهة الشرق، يهتدى بها أيضًا على الاتجاهات

(١) أخرجه أبو يعلى (٤١٣٥)، وابن عدي في الكامل (٤/ ١٣٥٠) كما في الدر المنثور (٣/ ٣٣٠).

حيث تُعرَف أن البلد الفلانية باتجاه النجم الفلاني، فإذا أراد السائر ليلًا في البر أو في البحر يتجه نحو اتجاه هذا النجم، فيعلم أنه متجه إلى تلك البلدة ونحو ذلك مما أجرى الله سنته به.

«**فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا بِغَيْرِ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لاَ عِلْمَ لَهُ بِهِ**»، وهذا صحيح؛ لأن النجوم خَلْق من خلق الله، ولا نفهم سرها إلا بما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به، فما أُخبرنا به، أخذناه، وما لم نخبر به، فلا يجوز أن نتكلف فيه ذلك؛ ولهذا قال ﷺ: «**إِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَتِ النُّجُومُ فَأَمْسِكُوا**»[1]، والمراد هنا بذكر النجوم يعني: في غير ما جاء به الدليل، إذا ذُكر القدر في غير ما جاءت به الأدلة، فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي في غير ما جاء به من فضلهم وحسن صحابتهم وسابقتهم ونحو ذلك من الدليل، فأمسكوا، وكذلك إذا ذُكرت النجوم وما فيها بغير ما جاء فيه الدليل، فأمسكوا؛ لأن ذلك ذريعة لأمور محرمة.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٤٤٨)، والحارث في مسنده (٢/ ٧٤٨ - زوائد الهيثمي)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٧/ ١٢٥٠)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٠٨)، وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٦/ ٢٨١): «**رواه الطبراني بإسناد حسن من حديث ابن مسعود**»، وانظر: مجمع الزوائد (٧/ ٢٠٢)، وقال العراقي في المغني عن حمل الأسفار (١/ ٤١): «**إسناده حسن**». وكذا حسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٤٧٧).

وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمِ مَنَازِلَ القَمَرِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ ابْنُ عُيينَةَ فِيهِ، ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا.
وَرَخَصَ فِي تَعَلُّمِ المَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ[(١)].

ش: قوله: (وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمِ مَنَازِلَ القَمَرِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ ابْنُ عُيينَةَ فِيهِ، ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا، وَرَخَصَ فِي تَعَلُّمِ المَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ).

قال الخطابي: أما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والخبر الذي يعرف به الزوال، وتعلم به جهة القبلة، فإنه غير داخل فيما نهي عنه، وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئاً بأكثر من أن الظل مادام متناقصًا، فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقي، وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي، وهذا علم يصح إدراكه بالمشاهدة، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروها بما اتخذوا له من الآلات التي يستغني الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصدته.

وأما ما يستدل به من النجوم على جهة القبلة، فإنها كواكب رصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها، وصدقهم فيما أخبروا به عنها، مثل أن يشاهدها بحضرة الكعبة، ويشاهدها على حال الغيبة عنها، فكان إدراكهم الدلالة منها بالمعاينة، وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم، إذ كانوا عندنا غير متهمين في دينهم، ولا مقصرين في معرفتهم. انتهى[(٢)].

---

(١) انظر: شرح العمدة في الفقه لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤/ ٥٥٣)، ومطالب أولي النهى (١/ ٣٨٥).
(٢) انظر: معالم السنن (٤/ ٢٣٠).

. . . .

وروى ابن المنذر عَن مُجَاهِد قَالَ: «لَا بَأْس أَن يتَعَلَّم الرجل من النُّجُوم مَا يَهْتَدِي بِهِ فِي الْبر وَالْبَحْر ويتعلم منَازِل الْقَمَر»[١].

وروى عَنْ إِبْرَاهِيمَ: «أَنَّهُ كَانَ لَا يَرَى بَأْسًا أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنَ النُّجُومِ مَا يَهْتَدِي بِهِ»[٢].

قال ابن رجب: والمأذون في تعلمه التسيير، لا علم التأثير؛ فإنه باطل محرم، قليله وكثيره. وأما علم التسيير، فيتعلم ما يحتاج إليه منه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق، جائز عند الجمهور[٣].

قوله: «ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهَمَا». هو الإمام الحافظ حرب بن إسماعيل أبو محمد الكرماني الفقيه من جلة أصحاب الإمام أحمد.

روى عن أحمد وإسحاق وابن المديني وابن معين وغيرهم. وله كتاب المسائل التي سئل عنها الإمام أحمد وغيره، مات سنة ثمانين ومائتين.

وأما إسحاق، فهو ابن إبراهيم بن مخلد أبو أيوب الحنظلي النيسابوري، الإمام المعروف بابن راهويه. روى عن ابن المبارك وأبي أسامة وابن عيينة وطبقتهم.

قال أحمد: إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين. روى عنه أحمد

---

(١) ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور (٥/ ١١٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٢٤٠)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٢٥)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٧٩٢).

(٣) انظر: فضل علم السلف على علم الخلف (ص٤٥-٤٧).

....

والبخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم، وروى هو أيضًا عن أحمد، مات سنة تسع وثلاثين ومائتين.

الشرح:

قوله: (وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّم مَنَازِلَ القَمَرِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ ابْنُ عُيينَةَ فِيهِ، ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهَمَا. وَرَخَصَ فِي تَعَلُّمِ المَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ): جعل الله عزوجل القمر منازل؛ كما قال عزوجل: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]، وله ثمانية وعشرون منزلًا، ينزل في كل يوم منزلة منها، تعلُّم هذه المنازل هل هو جائز أم لا؟ منعه بعض السلف كراهة، ورخَّص فيه طائفة من أهل العلم، وهو الصحيح؛ لأنه عزوجل امتن على عباده بذلك قال: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ لتعلموا عدد السنين والحساب، ظاهر الآية أن حصول المنة به في تعلمه، وذلك دليل الجواز.

وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ خَمْرٍ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ[1].

ش: هذا الحديث رواه أيضًا الطبراني والحاكم وقال: صحيح. وأقره الذهبي. وتمامه «وَمَنْ مَاتَ مُدْمِنًا لِلْخَمْرِ، سَقَاهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا مِنْ نَهْرِ الْغُوطَةِ، قِيلَ: وَمَا نَهْرُ الْغُوطَةِ؟ قَالَ: نَهْرٌ يَجْرِي مِنْ فُرُوجِ الْمُومِسَاتِ يُؤْذِي أَهْلَ النَّارِ رِيحُ فُرُوجِهِنَّ».

قوله: (وَعَنْ أَبِي مُوسَى). هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضّار - بفتح المهملة وتشديد الضاد، أبي موسى الأشعري - صحابي جليل. مات سنة خمسين.

قوله: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ» هذا من نصوص الوعيد التي كره السلف تأويلها، وقالوا: أمِرُّوها كما جاءت، وعن تأولها، فهو على خطر من القول على الله بلا علم.

وأحسن ما يقال: إن كل عمل دون الشرك والكفر المخرج من ملة الإسلام، فإنه يرجع إلى مشيئة الله، فإن عذبه به، فقد استوجب العذاب، وإن غفر له، فبفضله وعفوه ورحمته.

قوله: «مُدْمِنُ خَمْرٍ». أي: المداوم على شربها.

قوله: «وَقَاطِعُ الرَّحِمِ». يعني القرابة؛ كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] الآية.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/٣٩٩)، وابن حبان في صحيحه (١٣/٥٠٧)، والحاكم في المستدرك (٤/١٦٣).

....

قوله: «وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ». أي: مطلقًا. ومنه التنجيم؛ لما تقدم من الحديث، وهذا وجه مطابقة الحديث للترجمة.

قال الذهبي في الكبائر: ويدخل فيه تعلم السيميا وعملها، وعقد المرء عن زوجته، ومحبة الزوج لامرأته، وبغضها وبغضه - وأشباه ذلك بكلمات مجهولة - قال: وكثير من الكبائر - بل عامتها إلا الأقل - يجهل خلق من الأمة تحريمه، وما بلغه الزجر فيه، ولا الوعيد عليه. ا.هـ[(١)].

الشرح:

قوله: (**وَعَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ خَمْرٍ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ»**): **ووجه الاستدلال من هذا الحديث قوله**: «وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ»، وقد سبق بيان أن التنجيم نوع من أنواع السحر؛ كما قال ﷺ: **«مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ، فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ»**[(٢)]، وإذا صدَّق بالنجوم، فإنه مصدِّق بالسحر، والمصدِّق بالسحر لا يدخل الجنة.

قال هنا: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ خَمْرٍ»: وإدمان الخمر من الكبائر.

«وَقَاطِعُ الرَّحِمِ»: وهي من الكبائر.

---

(١) انظر: الكبائر (ص١٥).

(٢) سبق تخريجه (ص٢٦٥).

«وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ»: وهو أيضًا من الكبائر.

مما يدخل في التنجيم في هذا العصر بوضوح مع غفلة الناس عنه ما يكثر في المجلات مما يسمونه البروج، يضعون صفحة أو أقل منها في الجرائد، ويجعلون عليها رسم بروج السنة: برج الأسد، والعقرب، والثور، إلى آخره، ويجعلون أمام كل برج ما سيحصل فيه، فإذا كان المرء أو المرأة مولودًا في ذلك البرج، يقول: سيحصل لك في هذا الشهر كذا وكذا وكذا، وهذا هو التنجيم الذي هو التأثير، الاستدلال بالنجوم والبروج على التأثير في الأرض، وعلى ما سيحصل في الأرض، وهو نوع من الكهانة، ووجوده في المجلات والجرائد على ذلك النحو وجود للكهان فيها، فهذا يجب إنكاره إنكارًا للشركيات، ولادعاء معرفة الغيب، وللسحر، وللتنجيم؛ لأن التنجيم من السحر - كما ذكرنا - يجب إنكاره على كل صعيد، ويجب أيضًا على كل مسلم أن لا يدخله بيته، وأن لا يقرأه، ولا يطَّلع عليه؛ لأنه إن رأى تلك البروج وما فيها - ولو أن يعرف ذلك معرفة -، فإنه يدخل في النهي من جهة أنه أتى إلى الكاهن غير منكِر له، فإذا أتى لهذه البروج، وهو يعرف البرج الذي وُلِد فيه، ولكن يقول: سأطلع ماذا قالوا عني؟ أو ماذا قالوا عما سيحصل لمن ولد في هذا البرج؟ فإنه يكون كمن أتى كاهنًا، فسأله، فإنه لا تقبل له صلاة أربعين ليلة.

وإذا أتى وقرأ، وهو يعلم بُرجه الذي وُلِد فيه، أو يعلم البرج الذي يناسبه، وقرأ ما فيه، فهذا سؤال، فإذا صدقه به، فقد كفر بما أنزل على محمد، وهذا يدلك على غربة التوحيد بين أهله، وغربة فهم حقيقة هذا الكتاب - كتاب التوحيد - حتى عند أهل الفطرة وأهل هذه الدعوة، فإنه يجب إنكار ذلك على كل صعيد، وأن لا يؤثم المرأ نفسه ولا من في بيته بإدخال شيء من الجرائد التي فيها ذلك في البيوت؛ لأن هذا معناه إدخال

للكهنة إلى البيوت، وهذا - والعياذ بالله - من الكبائر، فواجب إنكار ذلك وتمزيقه، والسعي فيه بكل سبيل؛ حتى يُدْحَر أولئك؛ لأن أهل التنجيم أهل البروج أولئك هم من الكهنة، والتنجيم له معاهد معمورة في لبنان وفي غيرها، يتعلم فيها الناس حركة النجوم، وما سيحصل بحسابات معروفة، وجداول معينة، ويخبرون بأنه ما كان في البرج الفلاني - يعني: من أهل البرج الفلاني -، فإنه سيحصل كذا وكذا عن طريق تعلم وهمي يغرهم به رؤوسهم وكهانهم، فالواجب على طلبة العلم أن يسعوا في تبصير الناس في ذلك في الكلمات، وبعد الصلوات، وفي خطب الجمع؛ لأن هذا مما كثر البلاء به، والإنكار فيه قليل، والتنبيه عليه ضعيف، والله المستعان.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ النُّجُومِ.

الثَّانِيَةُ: الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ غَيْرَ ذَلِكَ.

الثَّالِثَةُ: ذِكْرُ الْخِلَافِ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلِ.

الرَّابِعَةُ: الْوَعِيدُ فِيمَنْ صَدَّقَ بِشَيْءٍ مِنَ السِّحْرِ وَلَوْ عَرَفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ.

٢٩ - بَابُ
مَا جَاءَ فِي الاسْتِسْقَاءِ بِالأَنْوَاءِ

ش: قوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الاسْتِسْقَاءِ بِالأَنْوَاء).

أي: من الوعيد، والمراد: نسبة السُّقيا ومجيء المطر إلى الأنواء. جمع نَوء، وهي منازل القمر.

قال أبو السعادات: وهي ثمان وعشرون منزلة، ينزل القمر كل ليلة منها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] يسقط في الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة طلوع الفجر، وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت من المشرق، فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة.

وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر، وينسبونه إليها، ويقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وإنما سمي نوءًا؛ لأنه إذا سقط الساقط منها، ناء الطالع بالمشرق، أي: نهض وطلع[(١)].

الشرح:

هذا (بَابُ مَا جَاءَ فِي الاسْتِسْقَاءِ بِالأَنْوَاء)، والاستسقاء بالأنواء هو نسبة السُّقيا إلى الأنواء، والأنواء هي: النجوم، يقال للنجم: نوء.

والعرب والجاهليون كانوا يعتقدون أن النجوم والأنواء سبب في نزول المطر، فيجعلونها أسبابًا، ومنهم - وهم طائفة قليلة - من يجعل النوء

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٢١).

والنجم، هو الذي يأتي بالمطر؛ كما ذكرت في حال الطائفة الأولى من المنجمين الذين يجعلون المفعولات منفعلة عن النجوم وعن حركتها.

فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي الاسْتِسْقَاءِ بِالأَنْوَاءِ**) يعني: باب ما جاء في نسبة السقيا إلى النوء، وعَبَّر بلفظ الاستسقاء؛ لأنه جاء في الحديث: «**وَالْاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ**»[1].

ومناسبة هذا الباب لما قبله من الأبواب: أن الاستسقاء بالأنواء نوعٌ من التنجيم؛ لأنه نسبة السقيا إلى النجم، وذلك أيضًا من السحر؛ لأن التنجيم من السحر بمعناه العام.

ومناسبة ذلك لكتاب التوحيد: أن الذي ينسب السقيا والنعمة والفضل الذي أتاه حينما جاءه المطر، ينسب ذلك إلى النوء وإلى النجم، هذا ملتفِتٌ قلبه عن الله عَزَّوَجَلَّ إلى غيره، ومتعلق قلبه بغيره، وناسب النعم إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ، ومعتقد أن النجوم أسباب لهذه المسببات، من نزول المطر ونحوه، وهذا منافٍ لكمال التوحيد، فإن كمال التوحيد الواجب يوجب على العبد أن ينسب النعم جميعًا إلى الله وحده، وأن لا ينسب شيئًا منها إلى غير الله، ولو كان ذلك الغير سببًا، فينسب النعمة إلى مسديها، ولو كان من أجرى الله على يديه تلك النعم سببًا من الأسباب، فإنه لا ينسبها إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ، كيف وأن النجوم ليست بسبب أصلًا؟!! ففي ذلك نوعان من التعدي:

النوع الأول: أنها ليست بأسباب.

النوع الثاني: أن تجعل أسبابًا لم يجعلها الله عَزَّوَجَلَّ أسبابًا، وتنسب النعم والفضل والسُّقيا إليها، وهذا منافٍ لكمال التوحيد، وكفر أصغر بالله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) سيأتي تخريجه (ص٣٦٢).

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

ش: قال: (وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]).

روى الإمام أحمد والترمذي أوحسنه - وابن جرير وابن أبي حاتم والضياء في المختارة عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] قَالَ: شُكْرُكُمْ، تَقُولُونَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا وَبِنَجْمِ كَذَا وَكَذَا»[١]، وهذ أولى ما فسرت به الآية.

وروي ذلك عن علي وابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغيرهم، وهو قول جمهور المفسرين[٢]، وبه يظهر وجه استدلال المصنف رَحِمَهُ اللهُ بالآية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: أي: تجعلون حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم: التكذيب به، يعني: بالقرآن[٣].

قال الحسن: تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون[٤].

قال: وخسر عبد لا يكون حظه من القرآن إلا التكذيب[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٥)، وأحمد (١/ ٨٩، ١٠٨)، والطبري في تفسيره (٢٧/ ٢٠٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٣٤)، والضياء المقدسي في المختارة (٢/ ١٩١).

(٢) انظر هذه الآثار وغيرها في: تفسير عبد الرزاق (٣/ ٢٣٧، ٢٣٨)، وتفسير الطبري (٢٧/ ٢٠٨، ٢٠٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٧٠٧)، والدر المنثور (٦/ ٢٦٤، ٢٦٥)، (٨/ ٢٩، ٣٠).

(٣) انظر: التبيان في أقسام القرآن (١/ ٤١٨).

(٤) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور (٨/ ٣٠). وانظر: شفاء العليل (ص٤٢).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٢٣٧)، والطبري في تفسيره (٢٧/ ٢٠٩).

الشرح:

قوله: (وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]).
قال علماء التفسير: معنى هذه الآية: وتجعلون شكر رزقكم - شُكْر ما رزقكم الله من النعم ومن المطر - أنكم تكذبون بأن النعمة من عند الله بنسبتها لغير الله عز وجل، تارة بنسبتها إلى الأنواء، أو بنسبتها إلى غير الله عز وجل، والواجب - شكرًا لنعم الله عز وجل، وشكرًا لله عز وجل على ما رزق، وأنعم، وتفضل - أن تُنسب النعم جميعًا إلى الله، وأن يُنسَب الفضل إلى الرب وحده دون ما سواه.

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ». وَقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

ش: أبو مالك اسمه: الحرث بن الحرث الشامي. صحابي تفرد عنه بالرواية أبو سلام. وفي الصحابة أبو مالك الأشعري اثنان غير هذا.

قوله: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ» ستفعلها هذه الأمة، إما مع العلم بتحريمها، أو مع الجهل بذلك، مع كونها من أعمال الجاهلية المذمومة المكروهة المحرمة.

والمراد بالجاهلية هنا: ما قبل المبعث. سموا ذلك لفرط جهلهم. وكل ما يخالف ما جاء به الرسول ﷺ، فهو جاهلية، فقد خالفهم رسول الله ﷺ في كثير من أمورهم أو أكثرها، وذلك يدرك بتدبر القرآن ومعرفة السنة.

ولشيخنا رحمه الله مصنف لطيف ذكر فيه ما خالف رسول الله ﷺ فيه أهل الجاهلية، بلغ مائة وعشرين مسألة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذمًا لمن لم يتركه، وهذا يقتضي أن كل ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم، فهو مذموم في دين الإسلام، وإلا لم يكن في إضافة هذه

---

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

....

المنكرات إلى الجاهلية ذم لها، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فإن في ذلك ذمًا للتبرج، وذمًا لحال الجاهلية الأولى، وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة[١].

قوله: «الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ». أي: التعاظم على الناس بالآباء ومآثرهم، وذلك جهل عظيم؛ إذ لا كرم إلا بالتقوى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال - تعالى -: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

ولأبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ، النَّاسُ رَجُلَانِ: مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ، إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتِنَ»[٢].

قوله: «وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ». أي: الوقوع فيها بالعيب والتنقص.

ولما عير أبو ذر رضي الله عنه رجلًا بأمه، قال له النبي ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»[٣] متفق عليه.

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٠٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥)، وقال: حديث حسن، وأحمد في المسند (٢/ ٣٦١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦١).

. . . .

فدل على أن الطعن في الأنساب من عمل الجاهلية، وأن المسلم قد يكون فيه شيء من هذه الخصال بجاهلية ويهودية ونصرانية، ولا يوجب ذلك كفره ولا فسقه. قاله شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ[1].

قوله: «وَالْاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ». أي: نسبة المطر إلى النوء، وهو سقوط النجم.

كما أخرج الإمام أحمد وابن جرير عن جابر السوائي قَاَلَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي ثَلَاثًا: اسْتِسْقَاءٌ بِالْأَنْوَاءِ، وَحَيْفُ السُّلْطَانِ، وَتَكْذِيبٌ بِالْقَدَرِ»[2].

فإذا قال قائلهم: مطرنا بنجم كذا، أو بنوء كذا. فلا يخلوا إما أن يعتقد أن له تأثيرًا في إنزال المطر. فهذا شرك وكفر، وهو الذي يعتقده أهل الجاهلية؛ كاعتقادهم أن دعاء الميت والغائب يجلب لهم نفعًا، أو يدفع عنهم ضرًا، أو أنه يشفع بدعائهم إياه، فهذا هو الشرك الذي بعث الله رسوله ﷺ بالنهي عنه وقتال من فعله؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، والفتنة: الشرك.

وإما أن يقول: مطرنا بنوء كذا. مثلًا، لكن مع اعتقاده أن المؤثر هو الله وحده، لكنه أجرى العادة بوجود المطر عند سقوط ذلك النجم، والصحيح: أنه يحرم نسبة ذلك إلى النجم، ولو على طريق المجاز، فقد

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٢٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣٤/ ٤٢٣)، والبزار (١٠/ ٢٠٠)، وأبو يعلى (١٣/ ٤٥٥، ٤٦٠)، والطبراني في المعجم الصغير (١/ ٨٥)، وفي الأوسط (٢/ ٢٣٨)، وفي الكبير (٢/ ٢٠٨، ٨/ ٢٨٩)، والسنة لابن أبي عاصم (١/ ١٤٢).

....

صرح ابن مفلح في الفروع بأنه يحرم قول: مطرنا بنوء كذا[١]. وجزم في الإنصاف بتحريمه، ولو على طريق المجاز، ولم يذكر خلافًا[٢].

وذلك أن القائل لذلك نسب ما هو من فعل الله تعالى الذي لا يقدر عليه غيره إلى خلق مسخر، لا ينفع ولا يضر، ولا قدرة له على شيء، فيكون ذلك شركًا أصغر. والله أعلم.

قوله: «وَالنِّيَاحَةُ». أي: رفع الصوت بالندب على الميت؛ لأنها تسخط بقضاء الله، وذلك ينافي الصبر الواجب، وهي من الكبائر لشدة الوعيد والعقوبة.

قوله: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا»[٣] فيه تنبيه على أن التوبة تكفر الذنب، وإن عظم، هذا مجمع عليه في الجملة، ويكفر أيضًا الحسنات الماحية والمصائب، ودعاء المسلمين بعضهم لبعض، وبالشفاعة بإذن الله، وعفو الله عمن شاء ممن لا يشرك به شيئًا. وفي الحديث عن ابن عمر مرفوعًا: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»، رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان.

قوله: «تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ».

قال القرطبي: السربال واحد السرابيل، وهي الثياب والقميص،

---

(١) انظر: الفروع (٢/ ١٢٩).

(٢) انظر: الإنصاف للمرداوي (٢/ ٤٦١).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وأحمد (١٠/ ٣٠٠، ٢٤/ ٢٥٦، ٢٥٨، ٣٥/ ٤١١، ٤١٢)، والبزار (١٠/ ٢٠٠)، وأبو يعلى (١٠/ ٨١)، والطبراني في الكبير (١٣/ ٣١٥)، وابن حبان (٢/ ٣٩٥).

. . . .

يعني: أنهن يلطخن بالقطران، فيكون لهم كالقمص؛ حتى يكون اشتعال النار بأجسادهن أعظم، ورائحتهن أنتن، وألمهن بسبب الجرب أشد.

وروى عن ابن عباس: «إِنَّ الْقَطِرَانَ هُوَ النُّحَاسُ الْمُذَابُ»(١).

الشرح:

الجاهلية راجعة إلى الجهل بالله عز وجل، وبما يستحقه، وبما يحبه من الدين والطاعة، وهذه الجاهلية هي كل ما كان عليه الناس قبل رسول الله ﷺ، مما خالفوا فيه الدين المشترك للرسل - صلوات الله وسلامه عليهم -، أو ما شرعه من الدين الحق على ألسنة رسله، فيشترك في ذلك ما كان عليه أهل الجاهلية من العرب، وأهل الجاهلية من اليهود، وأهل الجاهلية من النصارى، وأهل الجاهلية من المجوس، وأهل الجاهلية من الصابئة، وهكذا. . . إلى جميع أنواع أهل الملل.

الجاهلية غالب إطلاقها في الكتاب والسنة يُعنى بها: الحال، وقد تُطلق ويُعنى بها صاحب الحال.

فمن الأول - وهو أن تُطلق ويُعنى بها الحال -: يعنى بها الصفة الراجعة إلى نفي العلم، والإغراق في الجهل بما أنزل الله عز وجل على رسوله، هذه الجاهلية - التي هي الحال والصفة - منها قول النبي ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه حين عَيَّر رجلًا أسودَ بأمه - وهو بلال رضي الله عنه في الراجح - قال له ﷺ: **«يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»**(٢).

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) سبق تخريجه (ص٣٦٣).

وكذلك قوله ﷺ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ»[1]، ونحو ذلك من الأحاديث التي فيها ذكر الجاهلية.

ويدل لذلك قول الله عز وجل: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فإنه في هذه النصوص يُعنى بالجاهلية الحال والصفة.

الحالة الثانية: قد يراد بها ذو الحال، فيقال: فلان جاهلي؛ كما يقال: امرؤالقيس شاعر جاهلي، يريدون بذلك أنه هو الجاهلي؛ لعيشه في تلك الفترة التي هي الجاهلية المطلقة.

والجاهلية تُقسم باعتبارات، فتارة تنقسم إلى قسمين:

وهما: الجاهلية المطلقة، والجاهلية المقيدة.

وتارة تقسم إلى ثلاثة أقسام، وهي:

جاهلية في المكان، جاهلية في الزمان، جاهلية في الأشخاص.

فالقسمة الأولى، الجاهلية المطلقة والجاهلية المقيدة وهي: الجاهلية المطلقة، والمقيَّدة.

فالجاهلية المطلقة: الكاملة من جميع الوجوه بأحد الاعتبارات الثلاثة.

والجاهلية المقيَّدة: هي المقيَّدة بوجه من الوجوه: إما مقيدة بمكان، أو بزمان، أو بشخص، أو ببعض الصفات.

فالجاهلية في المكان تكون مطلقة ومقيدة: فالمطلقة في بلاد الكفار دار الحرب، هذه يقال لها: أمكنة جاهلية، والمكان جاهلي؛ لأجل أنها دار كُفَّار.

وقد يكون المكان فيه جاهلية مقيدة ببعض الأمور؛ كما هو في بلاد المسلمين؛ فإنه لا يزال فيهم بعض خصال الجاهلية، فيكون فيهم بعض

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٦٢).

الجاهلية، تكون مقيدة ببعض الأشياء، أو مقيدة ببعض الأمكنة دون بعض، فنقول: البلد الفلاني من بلاد المسلمين هذا فيه جاهلية، أو أن بلدًا أصبح جاهليًا، إذا رجع أهله وارتدوا عن الإسلام إلى الشرك.

وجاهلية الزمان أيضًا مطلقة ومقيدة:

فالجاهلية في الزمان المطلقة هي: ما كان قبل مبعث رسول الله ﷺ، كانت جاهلية مطلقة في الزمان، يعني: كل ما كان قبل زمن رسول الله ﷺ - وحَدُّهُ بعثة النبي ﷺ - يقال له: جاهلية بإطلاق.

والجاهلية المقيدة بالزمان هذه هي التي تكون في بعض ظهور خصال الجاهلية في وقت دون وقت، لكنها جاهلية مقيدة، وليست مطلقة، يعني: مقيدة بوقت ظهرت فيه خصال الجاهلية، فتكون مقيدة في الوقت، فلا يصح إطلاق من أطلق بجاهلية القرن العشرين، أو نحوها من العبارات التي يستعملها من لم يدقق؛ لأنه بعد بعثة رسول الله ﷺ انقضت الجاهلية المطلقة، ولا يزال في أمته من ينافح عن هذا الدين، ويرفع رايته، فليس ثم جاهلية منسوبة إلى زمن كالقرن العشرين.

وإنما تكون منسوبة إلى وقت من الأوقات فيما إذا ظهرت بعض الصفات، ثم يجاهدها، ويظهر عليها أهل الحق بالإنكار، فلا تصبح جاهلية - يعني: الزمن - فمثلًا تقول: القرن العشرين ظهرت فيه أنواع من الجاهليات، فهو زمن فيه جاهليات كثيرة، لكن ما نطلق، ونقول: جاهلية القرن العشرين؛ لأن هذا إطلاق للزمن بكامله.

والنبي ﷺ أخبر أنه: «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**»[1]، فهؤلاء يبينون وينصحون.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٠٧).

القسم الثالث: جاهلية في الأشخاص، وهي أيضًا مطلقة، ومقيدة: فالمطلقة في الكافر، والمقيدة في شخص دون شخص، أو في شخص في بعض حاله دون بعض؛ كما قال النبي ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: «**إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**»[(١)] يعني بعض خصال الجاهلية.

هذه التقسيمات التي ذكرها أهل العلم في هذا المقام مبناها ما رواه البخاري وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال «**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلى اللهِ ثَلاثَةٌ: مُلحِدٌ فِي الحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلامِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ مسلم بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**»، رواه البخاري[(٢)].

فمن طلب وابتغى في الإسلام سنة - يعني: مسألة من مسائل الجاهلية -، فهو داخل في قوله: «**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلى اللهِ ثَلاثَةٌ**»، فمن ابتغى شيئًا من أمر الجاهلية وطلبه، أو كان فيه ولم يتركه بعد البيان له، فهو داخل في هذا الوعيد الذي أخبر به ﷺ.

والجاهليون الذين خالفهم رسول الله ﷺ، والذين تُذكر هذه المسائل ببيان سننهم وما كانوا عليه، قد يكونون من العرب - كما ذكرت - أو من أهل الكتاب، أو من غيرهم.

وأهمية معرفة سنن الجاهلية؛ لأنه يذكر عن عمر رضي الله عنه بخبر لم نعرف إسناده، ولم نجد له إسنادًا أنه قال: (**إنما تُنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية**).

فإذا عرف المرء الجاهلية، وعرف أنه يجب عليه أن يتباعد عنها، كان أحرى له أن يكون على بينة من أمره، ولا تدخله سنة من سنن الجاهلية، ولا مسألة من مسائل الجاهلية.

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٨٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله ﷺ: «أَرْبَعٌ فِى أُمَّتِى مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لاَ يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ بِالأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِى الأَنْسَابِ، وَالاِسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ وَالنِّيَاحَةُ»[١] «الْفَخْرُ بالأَحْسَابِ»، شرح بعض خصال الجاهلية، المراد به: الترفع على القبائل الأخرى، يفخر بحسبه؛ لإظهار فضله على غيره، فهذا من أمر الجاهلية، أما الفخر في الحسب لإظهار حسبه، وأنه أصيل، ونحو ذلك، دون ترفع على غيره، فليس هذا بمراد هنا؛ لأنه ليس من أمر الجاهلية، كذلك الطعن في النسب المقصود منه طعن في الأنساب من غير دليل؛ لازدراء الناس، ونحو ذلك. والقاعدة الشرعية: أن الناس مؤتمنون على أنسابهم، فإذا كان لا يترتب على ذكر النسب، وأن فلانًا ينتسب إلى آل فلان، أو إلى القبيلة الفلانية، إذا لم يترتب عليه أثر شرعي: من إعطاء حق لغير أهله، أو بميراث، أو بعقد نسبة، أو بزواج، ونحو ذلك، فإن الناس مؤتمنون على أنسابهم، أما إذا كان له أثر، فلا بد من الإثبات؛ سيما إذا كان مخالفًا لما هو شائع متواتر عند الناس، فالطعن في الأنساب من أمور الجاهلية، لكن من ادعى نسبًا هو فيه كاذب، فتكذيبك له بما يُعلم أنه كاذب فيه ليس طعنًا في النسب.

وقوله ﷺ: «مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ» هذا دليل على ذمها، وأنها من شعب الجاهلية، ومن المعلوم أن شعب الجاهلية جميعًا مطلوب من هذه الأمة أن تبتعد عنها؛ لأن خصال أهل الجاهلية مذمومة؛ كما جاء في الصحيح عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَال: «أَبْغَضُ النَّاسِ إِلى اللهِ ثَلاثَةٌ: مُلحِدٌ فِي الحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلامِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلبُ دَمِ امْرِئٍ مسلم بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ»[٢]. فكل شعبة من شعب أهل الجاهلية إذا أُرجِعَت إلى أهل

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٦٢).

(٢) سبق تخريجه الصفحة السابقة.

الإسلام بعد أن أنقذهم الله من ذلك ببعثة النبي ﷺ، وظهور القرآن والسنة، وبيان الأحكام، فإنه مبتغٍ في الإسلام سنة الجاهلية، وهو من أبغض الرجال إلى الله عز وجل.

إذًا قوله: «مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ»، هذا دليل الذم، وليس الإخبار بأنها باقية دليل الإباحة.

«الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ»: يعني: على وجه التكبر والرفعة.

«وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ»: بالطعن في نسب فلان وفلان، والتكذيب بنسب فلان وفلان من غير دليل شرعي، ومن غير حاجة شرعية، فإن القاعدة التي ذكرها الإمام مالك وغيره من أهل العلم: أن الناس مؤتمنون على أنسابهم، فإذا كان لا يترتب على ذكر النسب، وأن فلانًا ينتسب إلى آل فلان، أو إلى القبيلة الفلانية، إذا لم يترتب عليه أثر شرعي من إعطاء حق لغير أهله، أو بميراث، أو بعقد نسبة، أو بزواج، ونحو ذلك، فإن الناس مؤتمنون على أنسابهم. أما إذا كان له أثر، فلا بد من الإثبات، سيما إذا كان مخالفًا لما هو شائع متواتر عند الناس، فالطعن في الأنساب من أمور الجاهلية.

«وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ»: وهو نسبة السقيا إلى النجوم، ويشمل أيضًا قوله: «وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ» يشمل ما هو أعظم من ذلك، وهو أن تُطلب السقيا من النجم؛ كحال الذين يعتقدون أن الحوادث الأرضية تحصل بالنجوم نفسها، وأن النجوم هي التي تحدث المقدرات الأرضية والمنفعلات الأرضية.

«وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»، ثم قال: «النَّائِحَةَ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ» النياحة: من الكبائر، وهي: رفع الصوت عند المصيبة، وشق الجيب ونحو ذلك، وهي منافية للصبر الواجب، ومن خصال الجاهلية.

وَلَهُمَا عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه قَالَ: «صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلاَةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟». قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»[١].

ش: (زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ) صحابي مشهور، مات سنة ثمان وستين، وقيل: غير ذلك، وله خمس وثمانون سنة.

قوله: «صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ». أي: بنا، فاللام بمعنى الباء.

قال الحافظ: وفيه إطلاق ذلك مجازًا. وإنما الصلاة لله.

قوله: «بِالْحُدَيْبِيَةِ» بالمهملة المضمومة، وتخفيف يائها، وتثقل[٢].

قوله: «عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ» كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ بكسر الهمزة وسكون المثلثة على المشهور، وهو ما يعقب الشيء[٣].

قوله: «سَمَاءٍ». أي: مطر. لأنه ينزل من السحاب، والسماء يطلق على كل ما ارتفع.

قوله: فَلَمَّا انْصَرَفَ - أي: من صلاته - أي: التفت إلى المأمومين؛ كما يدل عليه قوله: أقبل على الناس. ويحتمل أنه أراد السلام.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦، ١٠٣٨، ٤١٤٧، ٧٥٠٣)، ومسلم (٧١).

(٢) انظر: فتح الباري (٢/ ٥٢٣).

(٣) انظر: فتح الباري (٢/ ٥٢٣).

....

قوله: «هَلْ تَدْرُونَ». لفظ استفهام، ومعناه: التنبيه.

وفي النسائي: «أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ رَبُّكُمُ اللَّيْلَةَ؟»[١]، وهذا من الأحاديث القدسية. وفيه إلقاء العالم على أصحابه المسألة ليختبرهم.

قوله: «قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ». فيه حسن الأدب للمسؤول عما لا يعلم أن يكل العلم إلى عالمه. وذلك يجب.

قوله: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي» الإضافة هنا للعموم بدليل التقسيم إلى مؤمن وكافر؛ كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾.

قوله: «مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ» إذا اعتقد أن للنوء تأثيرًا في إنزال المطر، فهذا كفر؛ لأنه أشرك في الربوبية، والمشرك كافر. وإن لم يعتقد ذلك، فهو من الشرك الأصغر؛ لأنه نسب نعمة الله إلى غيره، ولأن الله لم يجعل النوء سببًا لإنزال المطر فيه، وإنما هو فضل من الله ورحمته، يحبسه إذا شاء، وينزله إذا شاء.

ودل هذا الحديث على أنه لا يجوز لأحد أن يضيف أفعال الله إلى غيره، ولو على سبيل المجاز.

وأيضًا الباء تحتمل معاني، وكلها لا تصدق بهذا اللفظ، فليست للسببية ولا للاستعانة؛ لما عرفت من أن هذا باطل، ولا تصدق أيضًا على أنها للمصاحبة.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١/ ٥٦٣)، وأحمد في المسند (٤/ ١١٦) من حديث زيد بن خالد رضي الله عنه.

. . . .

لأن المطر قد يجيء في هذا الوقت، وقد لا يجيء فيه، وإنما يجيء المطر في الوقت الذي أراد الله مجيئه فيه برحمته وحكمته وفضله. فكل معنى تحمل عليه الباء في هذا اللفظ المنهى عنه فاسد، فيظهر على هذا تحريم هذه اللفظة مطلقًا؛ لفساد المعنى، وقد تقدم القطع بتحريمه في كلام صاحب الفروع والإنصاف.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفيه التفطن للإيمان في هذا الموضع. يشير إلى أنه الإخلاص.

قوله: «فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ»، فالفضل والرحمة صفتان لله، ومذهب أهل السنة والجماعة: أن ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله من صفات الذات - كالحياة، والعلم -، وصفات الأفعال - كالرحمة التي يرحم بها عباده - كلها صفات لله قائمة بذاته، ليست قائمة بغيره. فتفطن لهذا؛ فقد غلط فيه طوائف.

وفي هذا الحديث: إن نعم الله لا يجوز أن تضاف إلا إليه وحده، وهو الذي يحمد عليها، وهذه حال أهل التوحيد.

قوله: «وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، . . . » إلى أخره، تقدم ما يتعلق بذلك.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفيه التفطن للكفر في هذا الموضع. يشير إلى أن نسبة النعمة إلى غير الله كفر، ولهذا قطع بعض العلماء بتحريمه، وإن لم يعتقد تأثير النوء بإنزال المطر، فيكون من كفر النعم؛ لعدم نسبتها إلى

....

الذي أنعم بها، ونسبتها إلى غيره؛ كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣].

قال القرطبي في شرح حديث زيد بن خالد: وكانت العرب إذا طلع نجم من الشرق، وسقط آخر من المغرب، فحدث عند ذلك مطر أو ريح، فمنهم من ينسبه إلى الطالع، ومنهم من ينسبه إلى الغارب؛ نسبة إلى إيجاد واختراع، ويطلقون ذلك القول المذكور في الحديث.

فنهى الشارع عن إطلاق ذلك؛ لئلا يعتقد أحد اعتقادهم، ولا يتشبه بهم في نطقهم. انتهى.

قوله: فمنهم من ينسبه نسبة إيجاد. يدل على أن بعضهم كان لا يعتقد ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، **فدل على أن منهم من يعرف، ويقر بأن الله هو الذي أوجد المطر، وقد يعتقد هؤلاء أن للنوء فيه شيئًا من التأثير.**

والقرطبي في شرحه لم يصرح أن العرب كلهم يعتقدون ذلك المعتقد الذي ذكره، فلا اعتراض عليه بالآية للاحتمال المذكور.

الشرح:

قوله: «عَلَى أَثَرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنْ اللَّيْلِ» يعني: مطر، المطر يطلق عليه سماء؛ لأنه يأتي من جهة العلو، ويقال له: سماء؛ كما في قول الشاعر[1]:

---

(١) هذا البيت من شعر الشاعر الجاهلي معاوية بن مالك بن جعفر، المعروف بمعود الحكماء. انظر: =

إِذَا نَـزَلَ الـسَّـمَـاءُ بِـأَرْضِ قَـوْمٍ   رَعَـيْـنَـاهُ وَإِنْ كَـانُـوا غِـضَـابًـا

يعني: إذا نزل المطر.

«فَلَمَّا انْصَرَفَ»: يعني: من صلاة الصبح.

«أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، قَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ». هذه من الكلمات التي تُقال في حياته ﷺ. وبعد وفاته ﷺ إذا سئل المرء عما لا يعلم، فليقل: لا أدري، أو فليقل: الله أعلم. ولا يقل: الله ورسوله أعلم؛ لأن ذِكْر علم النبي ﷺ مقيد بحياته الشريفة ﷺ.

«قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ». **هنا قسم العباد إلى قسمين:**

القسم الأول: مؤمن بالله ﷻ، وهو الذي نسب هذه النعمة، وأضافها إلى الله ﷻ، وشكر الله عليها، وعرف أنها من عند الله، فشكر ذلك الرزق، وحمد الله، وأثنى عليه به.

القسم الثاني: «وَكَافِرٌ»، ولفظ (كافر) اسم فاعل الكفر، أو اسم من قام به الكفر، وهذا قد يصدق على الكفر الأصغر، أو الكفر الأكبر، فهم قد انقسموا إلى: مؤمنين، وإلى كافرين، والكافرون منهم من كَفَر كفرًا أصغر، ومنهم من كفر كفرًا أكبر، فالذي كفر كفرًا أصغر هو الذي قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، يعتقد أن النوء والنجم والكوكب سبب في المطر، فهذا كفره كُفر أصغر؛ لأنه ما اعتقد التشريك والاستقلال، ولكنه جعل ما ليس سببًا سببًا، ونَسَبَ النعمة إلى غير الله، فقوله من أقوال أهل الكفر، وهو كفر أصغر بالله ﷻ؛ كما قال العلماء.

= غريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٤٤٠)، والإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني (ص٣٣٢)، والحماسة البصرية (١/ ٧٩)، ولسان العرب (١٤/ ٣٩٩).

والصنف الثاني: كافرٌ الكفر الأكبر، وهوالذي اعتقد أن المطر أثر من آثار الكواكب والنجوم، وأنَّها هي التي تفضلت بالمطر، وهي التي تحركت بحركة لما توجه إليها عابدوها، فأنزلت المطر؛ إجابة لدعوة عابديها، وهذا كفر أكبر بالإجماع؛ لأنَّه اعتقاد ربوبية وإلهية غير الله عَزَّوَجَلَّ.

«فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ»: لأنه نسب النعمة لله وحده، ونسبة النعمة لله وحده دلت على إيمانه.

«وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِى مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»: **و(الباء) في قوله: «مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا»** إن كانت للسببية - لأن الباء تأتي للسبب: مطرنا بسبب نوء كذا وكذا -، فهذا كفر أصغر، وأما إذا كان المراد أن النوء هو الذي أتى بالمطر؛ إجابة لدعوة عابديه، أو لرحمته بالناس، فهذا كفر أكبر بالله عَزَّوَجَلَّ.

وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِمَعْنَاهُ، وَفِيهِ: وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] (١).

ش: وبلفظه عن ابن عباس قال: «مُطِرَ النَّاسُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ وَمِنْهُمْ كَافِرٌ، قَالُوا: هَذِهِ رَحْمَةُ اللهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾.

هذا قسم من الله ﷻ، يقسم بما شاء من خلقه على ما شاء. وجواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة: ٧٧]، فتكون (لا) صلة لتأكيد النفي، فتقدير الكلام، ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر، أو كهانة، بل هو قرآن كريم.

قال ابن جرير: قال بعض أهل العربية: معنى قوله: فليس الأمر ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ كما تقولون؛ ثم استؤنف القسم بعد، فقيل: أقسم(٢).

ومواقع النجوم. قال ابن عباس: يعني: نجوم القرآن، فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقًا في السنين بعد، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية(٣).

ومواقعها: نزولها شيئًا بعد شيء.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٣).
(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٢٧/ ٢٠٣).
(٣) انظر: تفسير ابن جرير (٢٧/ ٢٠٣).

....

وقال مجاهد: مواقع النجوم: مطالعها ومشارقها، واختاره ابن جرير.

وعلى هذه فتكون المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه - وهو القرآن - من وجوه:

أحدها: أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الغي والجهل. فتلك هداية في الظلمات الحسية، والقرآن هداية في الظلمات المعنوية. فجمع بين الهدايتين.

مع ما في النجوم من الزينة الظاهرة، وفي القرآن من الزينة الباطنة، ومع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي القرآن من رجوم شياطين الجن والإنس. والنجوم آياته المشهودة العيانية، والقرآن آياته المتلوة السمعية، مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية، ومواقعها عند النزول، ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ [(١)].

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ قال ابن كثير: أَيْ: وَإِنَّ هَذَا الْقَسَمَ الَّذِي أَقْسَمْتُ بِهِ لَقَسَمٌ عَظِيمٌ، لَوْ تَعْلَمُونَ عَظَمَتَهُ لَعَظَّمْتُمُ الْمُقْسِمَ بِهِ عَلَيْهِ[(٢)].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو القرآن، أي: إنه وحي الله وتنزيله وكلامه، لا كما يقول الكفار: إنه سحر، أو كهانة،

(١) انظر: التبيان في أقسام القرآن (١/ ٣٩٣).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٤٤٤).

. . . .

أو شعر. بل هو قرآن كريم، أي: عظيم كثير الخير؛ لأنه كلام الله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: فوصفه بما يقتضي حسنه وكثرة خيره ومنافعه وجلالته، فإن الكريم هو البهي، الكثير الخير، العظيم النفع، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله.

والله - سبحانه وتعالى - وصف نفسه بالكرم، ووصف به كلامه، ووصف به عرشه، ووصف به ما كثر خيره وحسن منظره من النبات وغيره؛ ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن. قال الأزهري: الكريم: اسم جامع لما يحمد، والله تعالى كريم جميل الفعال، وإنه لقرآن كريم، يحمد لما فيه من الهدى، والبيان، والعلم، والحكمة[١].

وقوله: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ أَيْ: مُعَظَّمٌ فِي كِتَابٍ مُعَظَّمٍ مَحْفُوظٍ مُوَقَّرٍ. قاله ابن كثير[٢]. وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: اختلف المفسرون في هذا، فقيل: هو اللوح المحفوظ، والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ۝١٦﴾ [عبس: ١٣-١٦]، ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه[٣].

قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ

---

(١) انظر: التبيان في أقسام القرآن (١/ ٤٠٠).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٤٤٤).
(٣) انظر: التبيان في أقسام القرآن (١/ ٤٠٢).

....

إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾. قال: الكتاب الذي في السماء.

وفي رواية: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ يعني: الملائكة[١].

وقال قتادة: لا يمسه عند الله إلا المطهرون، فأما في الدنيا، فإنه يمسه المجوسي النجس، والمنافق الرجس[٢].

واختار هذا القول كثيرون، منهم ابن القيم رحمه الله، ورجحه.

وقال ابن زيد: زعمت قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين، أخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢] قال ابن كثير: هذا قول جيد. وهو لا يخرج عن القول قبله[٣].

وقال البخاري رحمه الله في صحيحه في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به.

قال ابن القيم رحمه الله: هذا من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتذ به، وبقراءته، وفهمه، وتدبره إلا من يشهد أنه كلام الله تكلم به حقًا، وأنزله على رسوله وحيًا، لا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه[٤].

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٢٧/ ٢٠٥).
(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٢٧/ ٢٠٦).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٢٢).
(٤) انظر: التبيان في أقسام القرآن (١/ ٤١٠).

....

وقال آخرون: ﴿لَا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أي: من الجنابة والحدث. قالوا: ولفظ الآية خبر معناه الطلب.

وقالوا: والمراد بالقرآن ههنا المصحف. واحتجوا على ذلك بما رواه مالك في الموطأ عن عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: «إِنَّ فِي الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَمْرِو بْنِ حَزْمٍ: أَنْ لاَ يَمَسَّ الْقُرْآنَ إِلاَّ طَاهِرٌ»(١).

وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال ابن كثير: هذا القرآن منزل من رب العالمين، وليس كما يقولون: إنه سحر، أو كهانة، أو شعر. بل هو الحق الذي لا مرية فيه، وليس وراءه حق نافع. وفي هذه الآية: أنه كلام الله تكلم به(٢).

قال ابن القيم رحمه الله: ونظيره: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] هو إثبات علو الله تعالى على خلقه.

فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول، وتعرفه الفطر هو وصول الشيء من أعلى إلى أسفل، ولا يرد عليه.

قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] لأنَّا نقول: إن الذي أنزلها فوق سماواته، فأنزلها لنا بأمره.

قال ابن القيم رحمه الله: وذكر التنزيل مضافًا إلى ربوبيته للعالمين،

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١)، والدارمي (٢٣١٢)، والبغوي في شرح السنة (٢/ ٤٧).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٣٢).

....

المستلزمة لملكه لها وتصرفه فيهم، وحكمه عليهم، وإحسانه إليهم، وإنعامه عليهم، وأن من هذا شأنه مع الخلق، كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى، ويدعهم هملًا، ويخلقهم عبثًا: لا يأمرهم، ولا ينهاهم، ولا يثيبهم، ولا يعاقبهم؟ فمن أقر بأنه رب العالمين، أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحة ما جاء به، وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق، وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء[1].

قوله: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١] قال مجاهد: أتريدون أن تمالئوهم فيه، وتركنوا إليهم؟

قال ابن القيم رحمه الله: ثم وبخهم على وضعهم الإدهان في غير موضعه، وأنهم يداهنون فيما حقه أن يصدع به، ويعرف به، ويعض عليه بالنواجذ، وتثني عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوب والأفئدة، ويحارب ويسالم لأجله، ولا يلتوى عنه يمنة ولا يسرة، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره، ولا محاكمة إلا إليه، ولا مخاصمة إلا به، ولا اهتداء في طرق المطالب العالية إلا بنوره، ولا شفاء إلا به، فهو روح الوجود، وحياة العالم، ومدار السعادة، وقائد الفلاح، وطريق النجاة، وسبيل الرشاد، ونور البصائر. فكيف تطلب المداهنة بمن هذا شأنه، ولم ينزل للمداهنة، وإنما نزل بالحق وللحق، والمداهنة إنما تكون في باطل قوى

(١) انظر: التبيان في أقسام القرآن (١/ ٤١٢).

. . . .

لا تمكن إزالته، أو في حق ضعيف لا تمكن إقامته، فيحتاج المداهن إلى أن يترك بعض الحق، ويلتزم بعض الباطل؟ فأما الحق الذي قام به كل حق، فكيف يداهن به؟(١).

قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] **تقدم الكلام عليها أول الباب، والله تعالى أعلم.**

الشرح:

قوله: (وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِمَعْنَاهُ، وَفِيهِ: وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، إلى قَوْلِهِ: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]).

هنا تنبيه في هذه المسألة: وهو ما يحصل أحيانًا من بعض الناس من أنهم يقولون: في الوسمي(٢) - مثلًا - يأتي مطر، والوسم جاء معناه أنه يأتي فيه مطر، ونجم سُهيل طلع، فسيحصل كذا، ونحو ذلك، فهذا القول بما علمتَ له حالان:

الحالة الأولى: أن يقول ذلك لأجل أن النجم أو البرج الذي أتى هو زمنٌ جعل الله سنته فيه أنه يأتي فيه المطر، فإذا كان هذا القول بأن الوسم

---

(١) انظر: التبيان في أقسام القرآن (١/ ٤١٦).

(٢) قَالَ اللَّيْث: (إِنَّمَا سُمِّي الوَسْمِيُّ من الْمَطَر وَسْمِيًّا لأنَّه يَسِم الأَرْض بالنبات، فيُصَيِّر فِيهَا أثرا فِي أوّل السنَة. وأرضٌ مَوْسومة: أصابَها الوَسْمِيّ، وَهُوَ مطرٌ يكون بعد الخَرَفِيّ فِي البَرْد). انظر تهذيب اللغة (١٣/ ٧٧)، ولسان العرب (١٢/ ٦٣٦)، ومقاييس اللغة (٦/ ١١٠).

جاء، معناه: هذا وقت المطر، وإن شاء الله يأتي مطر، ونحو ذلك، فهذا جَعْلٌ للوسم زمنًا، وهذا جائز.

الحالة الثانية: إذا قال في ذلك: الوسم جاء؛ سيأتي المطر، أو طلع النجم الفلاني؛ سيأتينا كذا وكذا، بجعل هذا الفصل، أو ذلك البرج، أو ذلك النجم سببًا، فهذا كفرٌ، ونسبةٌ للنعمة لغيرِ الله، واعتقاد تأثير أشياء لا تأثير لها.

فينبغي أن يُفرَّق بين ما يستعمله العوام فيما فيه أن المطر، والبرد، والصيف، ونحو ذلك في تعلقه بالنجوم تعلق زمن ووقت وظرف، وما بين نسبة أهل الشرك والضلال الأفعال للنجوم، إما استقلالًا، وإما على وجه التسبب.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْوَاقِعَةِ.

الثَّانِيَةُ: ذِكْرُ الْأَرْبَعِ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ.

الثَّالِثَةُ: ذِكْرُ الْكُفْرِ فِي بَعْضِهَا.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ مِنَ الْكُفْرِ مَا لَا يُخْرِجُ عَنِ الْمِلَّةِ.

الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ» بِسَبَبِ نُزُولِ النِّعْمَةِ.

السَّادِسَةُ: التَّفَطُّنُ لِلْإِيمَانِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

السَّابِعَةُ: التَّفَطُّنُ لِلْكُفْرِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

الثَّامِنَةُ: التَّفَطُّنُ لِقَوْلِهِ: «لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا».

التَّاسِعَةُ: إِخْرَاجُ الْعَالِمِ لِلْمُتَعَلِّمِ الْمَسْأَلَةَ بِالِاسْتِفْهَامِ عَنْهَا، لِقَوْلِهِ: «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟».

الْعَاشِرَةُ: وَعِيدُ النَّائِحَةِ.

❊ ❊ ❊

٣٠ - بَابُ
قَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ش: قوله: (بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]).

لما كانت محبته سبحانه هي أصل دين الإسلام، الذي يدور عليه قطب رحاه، فبكمالها يكمل، وبنقصها ينقص توحيد الإنسان، نبه المصنف على ذلك بهذه الترجمة.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ **الآية.**

قال في شرح المنازل: أخبر تعالى أن من أحب من دون الله شيئًا كما يحب الله تعالى، فهو ممن اتخذ من دون الله أندادًا، فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية، فإن أحدًا من أهل الأرض لا يثبت هذا الند، بخلاف ند المحبة، فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادًا في الحب والتعظيم.

ثم قال تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ **وفي تقدير الآية قولان:**

أحدهما: والذين آمنوا أشد حبًا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ويعظمونها من دون الله.

وروى ابن جرير عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ **مُبَاهَاةً، وَمُضَاهَاةً لِلْحَقِّ بِالْأَنْدَادِ** ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. **مِنَ الْكُفَّارِ لِأَوْثَانِهِمْ**[١].

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٣/ ٢٧٩رقم ٢٤٠٧، ٢٤٠٨).

....

ثم روى عَنْ ابْنِ زَيْدٍ قَالَ: هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ أَنْدَادُهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي عَبَدُوا مَعَ اللَّهِ يُحِبُّونَهُمْ كَمَا يُحِبُّ الَّذِينَ آمَنُوا اللَّهَ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ مِنْ حُبِّهِمْ هُمْ آلِهَتَهُمْ. انتهى(١).

والثاني: والذين آمنوا أشد حبًا لله من المشركين بالأنداد لله؛ فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة. والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ فإن فيها قولين أيضًا:

أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله. فيكون قد أثبت لهم محبة الله، ولكنها محبة أشركوا فيها مع الله تعالى أندادهم.

والثاني: أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله، ثم بين تعالى أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يرجح القول الأول، ويقول: إنما ذموا بأن شركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة، ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له.

وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم، وهم في النار أنهم يقولون لآلهتهم وأندادهم، وهي محضرة معهم في العذاب: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨]، ومعلوم أنهم ما سووهم برب العالمين في الخلق والربوبية، وإنما سووهم

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٣/ ٢٨٠رقم ٢٤١٠).

. . . .

به في المحبة والتعظيم، وهذا أيضًا هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] أي: يعدلون به غيره في العبادة، التي هي المحبة والتعظيم.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وهذه تسمى آية المحنة.

قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله، فأنزل الله تعالى آية المحنة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها، فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول ط، وفائدتها وثمرتها محبة المرسل لكم، فما لم تحصل منكم المتابعة، فمحبتكم له غير حاصلة، ومحبته لكم منتفية.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] ذكر لها أربع علامات:

أحدُها: أنهم أذلة على المؤمنين، قيل: معناه أرقاء، رحماء، مشفقين، عاطفين عليهم، فلما ضمن أذلة هذا المعنى، عداه بأداة على.

قال عطاء رحمه الله: للمؤمنين كالولد لوالده وكالعبد لسيده، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

العلامة الثالثة: الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد والمال واللسان. وذلك تحقيق دعوى المحبة.

....

العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم. وهذه علامة صحة المحبة، فكل محب أخذه اللوم على محبوبه، فليس بمحب على الحقيقة.

وقال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فذكر المقامات الثلاثة: الحب - وهو ابتغاء القرب إليه، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة -، والرجاء، والخوف يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب.

ومن المعلوم قطعًا أنه لا يتنافس إلا في قرب من يحب قربه، وحب قربه تبع لمحبة ذاته، بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه.

وعند الجهمية والمعطلة: ما من ذلك كله شيء، فإنه عندهم لا تقرب ذاته من شيء، ولا يقرب من ذاته شيء، ولا يحب، فأنكروا حياة القلوب، ونعيم الأرواح، وبهجة النفوس، وقرة العيون، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة؛ ولذلك ضربت قلوبهم بالقسوة، وضرب دونهم ودون الله حجاب على معرفته ومحبته، فلا يعرفونه، ولا يحبونه، ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته، فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم، بل يعاقبون من يذكره بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله، ويرمونهم بالأدواء التي هم أحق بها وأهلها.

وحسب ذي البصيرة وحياة القلب ما يرى على كلامهم من القسوة

....

والمقت والتنفير عن محبة الله تعالى ومعرفته وتوحيده والله المستعان[١].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا: لا تحد المحبة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء.

فحدها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة، وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها.

وأجمع ما قيل في ذلك: ما ذكره أبو بكر الكتاني عن الجنيد.

قال أبو بكر: جرت مسألة في المحبة بمكة - أعزها الله في أيام الموسم -، فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سنًا، فقالوا: هات ما عندك يا عراقي، فأطرق رأسه، ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هيبته، وصفا شرابه من كأس مودته، وانكشف له الحياء من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو لله وبالله ومع الله. فبكى الشيوخ، وقالوا: ما على هذا مزيد، جبرك الله يا تاج العارفين.

وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ: أن الأسباب الجالبة للمحبة عشرة:

أحدهما: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به.

الثاني: التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض.

---

(١) انظر: مدارج السالكين شرح منازل السائرين (٣/ ٢٠-٢٣).

. . . .

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر هذا.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه ومشاهدتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة وميادينها.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة.

السابع: - وهو أعجبها - إنكسار القلب بين يديه.

الثامن: الخلوة وقت النزول الإلهي وتلاوة كتابه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيدًا لحالك ومنفعة لغيرك.

العاشرة: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب[1].

---

(١) انظر: مدارج السالكين شرح منازل السائرين (٣/ ٩، ١٦-١٨).

الشرح:

هذا الباب والأبواب التي بعده شروع من الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله في ذكر العبادات القلبية، وما يجب من أن تكون تلك العبادات لله عز وجل، فهذا في ذكر واجبات التوحيد ومكملاته، وبعض العبادات القلبية، وكيف يكون إفراد الله عز وجل بها.

وابتدأها بباب المحبة، وأن العبد يجب أن يكون الله عز وجل أحب إليه من كل شيء، حتى من نفسه، وهذه المحبة المراد منها محبة العبادة، وهي المحبة التي فيها تعلق بالمحبوب، بما يكون معه امتثال للأمر رغبة واختيارًا ورغب إلى المحبوب، واجتناب النهي رغبة واختيارًا.

فمحبة العبادة هي المحبة التي تكون في القلب، يكون معها الرغب والرهب، يكون معها الطاعة، يكون معها السعي في مراضي المحبوب، والبعد عما لا يحب المحبوب، والموحد ما أتى للتوحيد إلا بشيء وقر في قلبه من محبة الله عز وجل؛ لأنه دلته ربوبية الله عز وجل، وأنه الخالق وحده، وأنه ذو الملكوت وحده، وأنه ذو الفضل والنعمة على عباده وحده: من أنه محبوب، وأنه يجب أن يُحَب، وإذا أَحَب العبد ربه، فإنه يجب عليه أن يوحده بأفعاله، أن يوحد الله بأفعاله، أي: أفعال العبد حتى يكون محبًا له على الحقيقة؛ لذلك نقول: المحبة التي هي من العبادة هي المحبة التي يكون فيها اتباع للأمر والنهي، ورغب ورهب.

ولهذا قال طائفة من أهل العلم: المحبة المتعلقة بالله ثلاثة أنواع:

النوع الأول: محبة الله على النحو الذي وصفنا، وهذا نوع من العبادات الجليلة، ويجب إفراد الله عز وجل بها.

النوع الثاني: محبة في الله، وهو أن يحب الرسل في الله - عليهم

الصلاة والسلام -، وأن يحب الصالحين في الله، يحب في الله، ويبغض في الله.

النوع الثالث: محبة مع الله، وهذه محبة المشركين لآلهتهم، فإنهم يحبونها مع الله عَزَّوَجَلَّ ، فيتقربون إلى الله رغبًا ورهبًا؛ نتيجة محبة الله، ويتقربون إلى الآلهة رغبًا ورهبًا؛ نتيجة لمحبتهم لتلك الالهة، ويتضح المقام بتأمل حال المشركين، وعبدة الأوثان، وعبدة القبور في مثل هذه الأزمنة، فإنك تجد المتوجه لقبر الولي في قلبه من محبة ذلك الولي وتعظيمه، ومحبة سدنة ذلك القبر ما يجعله في رغب ورهب، وفي خوف وطمع، وفي إجلال حين يعبد ذلك الولي، أو يتوجه إليه بأنواع العبادة لأجل تحصيل مطلوبه، فهذه هي محبة العبادة التي صرْفُها لغير الله عَزَّوَجَلَّ شرك أكبر به، بل هي عماد الدين، بل هي عماد صلاح القلب، فإن القلب لا يصلح إلا بأن يكون محبًا لله عَزَّوَجَلَّ ، وأن تكون محبته لله (أعظم من كل شيء، فالمحبة - محبة الله وحده يعني: محبة العبادة - هذه من أعظم أنواع العبادات، وإفراد الله بها واجب، والمحبة مع الله محبة العبادة هذه شركية، من أحب غير الله عَزَّوَجَلَّ معه محبة العبادة، فإنه مشرك الشرك الأكبر بالله عَزَّوَجَلَّ .

هذه الأنواع الثلاثة هي المحبة المتعلقة بالله، أما النوع الثاني من أنوع المحبة، وهي المحبة المتعلقة بغير الله من جهة المحبة الطبيعية، وهذا أَذِنَ فيه الشرع وجائز؛ لأن المحبة فيها ليست محبة العبادة والرغب والرهب الذي هو من العبادة، وإنما هي محبة للدنيا، وذلك كمحبة الوالد لولده، والولد لوالده، والرجل لزوجته، والأقارب لأقربائهم، والتلميذ لشيخه، والمعلم لأبنائه، ونحو ذلك من الأحوال، هذه محبة طبيعية، لا بأس بها، بل الله عَزَّوَجَلَّ جعلها غريزة.

(**بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَى**: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]).

أندادًا يعني أشباهًا ونظراء وأكفاء، يعني: يساوونه في المحبة؛ لهذا قال: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ وأحد وجهي التفسير في قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ يعني: يحب المشركون الأنداد كحبهم لله.

والوجه الثاني من التفسير: أن قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ معناه: يحب المشركون الأنداد كحب المؤمنين لله.

والوجه الأول أظهر، والكاف فيه هنا في قوله: ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ بمعنى: مثل، يعني: يحبونهم مثل حب الله، وهي كاف المساواة، ومثلية المساواة، ولهذا قال عز وجل مخبرًا عن قول أهل النار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٩].

قال العلماء: سووهم برب العالمين في المحبة، بدليل هذه الآية، ولم يسووهم برب العالمين في الخلق، والرزق،وأفراد الربوبية.

وجه الاستدلال من الآية ومناسبتها للباب ظاهرة: في أن التشريك في المحبة منافٍ لكلمة التوحيد، منافٍ للتوحيد من أصله، بل حكم الله عليهم بأنهم اتخذوا أندادًا من دون الله، ووصفَهم بأنهم اتخذوا الأنداد في المحبة، والمحبة مُحَرِّكَة، وهي التي تبعث على التصرفات، فإذًا هنا فيه ذكر للمحبة، والمحبة نوع من أنواع العبادة، ولَمَّا لم يفردوا الله بهذه العبادة، صاروا متخذين أندادًا من دون الله، وهذا معنى التوحيد ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله.

قَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

ش: أمر الله نبيه ﷺ أن يتوعد من أحب أهله وماله وعشيرته وتجارته ومسكنه، فآثرها - أو بعضها - على فعل ما أوجبه الله عليه من الأعمال التي يحبها الله تعالى ويرضاها: كالهجرة، والجهاد، ونحو ذلك.

قال العماد ابن كثير رحمه الله: أَيْ: إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أَيْ: فَانْتَظِرُوا مَاذَا يَحِلُّ بِكُمْ مِنْ عِقَابِهِ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ - وَاللَّفْظُ لَهُ - مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْخُرَاسَانِيِّ، عَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»[١] [٢].

فلا بد من إيثار ما أحبه الله من عبده وأراده على ما يحبه العبد ويريده، فيحب ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه، ويوالي فيه، ويعادي فيه، ويتابع رسوله ﷺ كما تقدم في آية المحنة ونظائرها.

(١) أخرجه أحمد (٨/ ٤٤٠، ٩/ ٥١، ٣٩٥)، وأبو داود (٣٤٦٢) واللفظ له.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٤).

الشرح:

فهذه الآية هي من جملة الآيات التي فيها ذكر عبادة المحبة لله عَزَّوَجَلَّ ، والمحبّة - أي: محبة الله عَزَّوَجَلَّ - عبادة من العبادات القلبية، التي يحبّ أن تكون في قلب المؤمن خالصة لله عَزَّوَجَلَّ وحده، بمعنى أنّ القلب لا يمكن أن يجتمع فيه حبّان، لا يمكن أن يجتمع فيه حبان: حب لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله ولدينه، وحب للدنيا، بل إمّا أن يغلب هذا، وإمّا أن يغلب هذا، إمّا مطلقًا، وإمّا مقيّدًا، بمعنى أن يغلب مطلقًا، فيكون في جميع أعماله على تقديم أمر الدنيا، وإمّا أن يكون مقيّدًا بمعنى أن يقدم أمر الدنيا وأمر نفسه - محاب نفسه - على محاب الله عَزَّوَجَلَّ في أمور مقيدة، وليس بإطلاق، الأوّل كفر، والثاني معصية، بمعنى أنه إذا قدم محباته دائمًا على ما يريده الله عَزَّوَجَلَّ ، فلم يستسلم لما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ ويرضاه، بل يقدم دائمًا بإطلاق ما تحبه نفسه، أو ما تشتهيه نفسه على ما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله، فإنَّ هذا كفر.

وأمّا النوع الثاني، فإنّه أيضًا كفر، ولكنه كفر نعمة، أو فسق، وخروج عن ما يحبّ، وذلك إذا كان لله عَزَّوَجَلَّ أمر في مسألة مقيدة معينة، وقدم هواه، قدم ما تشتهيه نفسه على أمر الله في تلك الواقعة المعينة، فهذا معصية من المعاصي، والله عَزَّوَجَلَّ توعد عليها بقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

فإذًا ترك المأمورات التي أمر الله عَزَّوَجَلَّ بها، أو فعل المحرمات التي حرّمها الله عَزَّوَجَلَّ ، لا شكّ أن الباعث عليه المحبة، إذا ترك المأمورات، فبعثه على الترك محبة الدنيا ومحبة الشهوات، أو من محبة شيء من هذه الأصناف والأشياء التي ذكرت في آية براءة، وقد يفعل بعض المحرمات محبة لهذه الأشياء، ويقدّمها على أمر الله عَزَّوَجَلَّ ، فهذا ينظر فيه، فإن كان التقديم دائمًا، فإنّه يعد ذلك من فاعله كفرًا، وإن كان التقديم في حال دون

حال، في بعض دون بعض، يعني قدمها وهو يعلم ويعتقد أنّ ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به هو الواجب، لكن قدّم محابه، قدم محاب النفس لشيء غلبه، فهذا من جنس سائر المعاصي.

والمقصود بالمحبّة التي هي العبادة النوع الأول، التي صرفها لغير الله عَزَّوَجَلَّ شرك، وذلك كما قرّره شيخ الإسلام في رسالته العظيمة: (قاعدة في المحبة)[1] المحبة هي التي تنشئ الأفعال والحركات، فالعبد الذي يحب الله عَزَّوَجَلَّ والدار الآخرة إذا قام في قلبه ذلك، نشأ عنه أفعال تقرّبه من الله عَزَّوَجَلَّ والدار الآخرة، الذي يحب الجنة يفعل الأفعال التي تقربه إليها، الذي يحبّ الله يفعل الأفعال التي يرضى الله عَزَّوَجَلَّ عنها، ويبتعد عن الأفعال التي يسخطها الله عَزَّوَجَلَّ، كذلك الّذي يحب الدنيا يفعل أفعالًا هي لأجل الدنيا.

فإذًا المحبة إذا قامت في القلب، نشأ عنها أعمال، فالأعمال مترجمة للمحبة التي في القلب، المحبة إذا كانت خالصة في القلب معنى ذلك أنّه يتابع أمر الله عَزَّوَجَلَّ وأمر رسوله دائمًا، فإذا خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، دلّ ذلك على أنّ في قلبه محبة لله، ولكنه أيضًا أحب الدنيا، وقدمها في بعض الأمور، فهذا من جنس المعاصي، وأمّا المحبة التي يفعلها لغير الله: محبته إمّا للأوثان، أو للمعبودات من غير الله، أو محبّته للدنيا بحيث لا يستجيب لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، ولأمر رسوله ﷺ في كلّ الأمور، في أي أمر لا يستجيب، لا في أصل الدين، وكذلك في الأعمال - في الصلاة وفي غيرها - لا يستجيب، إنّما يقدّم محاب النفس على محاب الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا كفر بالله عَزَّوَجَلَّ وشرك في المحبة.

هذه الآية فيها بيان أنّ هذه الأشياء التي ذُكرت لا يجوز تقديمها على

---

(١) انظر: قاعدة في المحبة (ص١٣).

ما يحبّ الله عَزَّوَجَلَّ وما يحبّه رسوله ﷺ، بل إذا كانت هذه الأشياء المذكورة في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ إلى آخر الآية، قال في آخرها: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ [التوبة: ٢٤] إذا كانت هذه الأشياء أحبّ، فمعناه أنّه سيترك ما أمر الله لهذه الأشياء، ولو كان الله ورسوله أحبّ في قلبه، لقدم أمر الله وأمر رسوله على هذه الأشياء، وكذلك ما ورد في الحديث الحسن، الذي رواه أبو داوود وغيره، قال رسول الله ﷺ فيه: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالعَيْنَةِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ**»، «**رَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ**». هذا موقع الشاهد، «**رَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ**» يعني: صار الزرع أربى عندكم من الجهاد، وصار الزرع أحبّ عندكم من الجهاد، «**وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ سَلَّطَ الله عَلَيْكُمْ ذُلًّا**» يعني: هذه عقوبة؛ لأنّه قدم محاب نفسه، وقدم راحة بدنه على أمر الله، فالله عَزَّوَجَلَّ أمره بالجهاد - يعني: العيني أو الكفائي -، ولم يفعله الناس، فمعنى ذلك أنّهم فعلوا معصية من المعاصي، وهذه المعصية يعاقب عليها، جاءت العقوبة بالذلّ، و«**سَلَّطَ الله عَلَيْكُمْ ذُلًّا لاَ يَنْزِعُهُ عَنْكُمْ حَتَّى تُرَاجِعُوا دِينَكُمْ**»، أو «**تُرَاجِعُوا أَمْرَ دِينِكُمْ**»، وهذه المراجعة بالنظر في المحبة، وتقديم محاب الله على محاب النفس، هذه المحبة يغلط فيها كثيرون من جهة أنّ المحبة - التي هي العبادة، وصرفها لغير الله عَزَّوَجَلَّ شرك - هذه يترجم عنها بالأعمال، ومن هذه الجهة وقع الغلط، من غلط في وصمه لبعض الناس بالشرك أو الكفر من جهة النظر في الأعمال، فالمحبة عمل قلبي، ينشأ عنه أعمال. فإذًا يسير الحكم على الشخص من جهة النظر في الأعمال، لا من جهة دلالة الأعمال على المحبة، لأنّ المحبة أمر قلبي، قد يفعل أعمالًا، وهو في قلبه يعتقد أنّه عاص، يعتقد أنّه مخالف، يعتقد أنّه لم يوافق الله عَزَّوَجَلَّ في أمره، بل خالفه وعصاه، فهذا يعني أنّه في قلبه عدم إصرار على ذلك، يعني على تقديم محابّ النفس على محاب الله ورسوله.

فإذًا هذه المحبة - التي هي العبادة - هي نعم عبادة، ومن صرفها لغير الله عَزَّوَجَلَّ أشرك - كما ذكرنا من قبل -، لكن ذلك في محبة العبادة التي ينشأ عنها التشريك مع الله عَزَّوَجَلَّ ؛ لأنّ المحبة لها ترجمة، لها آثار، لها عمل، فإذا صارت المحبة نشأ عنها الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ ، فنعلم أنّها محبة شركية، إذا نشأ عمّا في القلب عملٌ صالحٌ وآخر سيئٌ، علمنا أنَّ المحبة مخلوطة، فيه محبة الله، وفيه محبة للدنيا، إذا نشأ عن قلبه محبة للدنيا، ونشأ عن هذه المحبة التي للدنيا أن يترك أمر الدين تمامًا، فهذا ناقض من نواقض الإسلام.

مثل ما ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نواقض الإسلام العشرة، فقال: (**العاشر: الإعراض عن دين الله لا يتعلّمه ولا يعمل به**)[1]، يعني: كلّيًا، لا يتعلمه بالكلية، ولا يعمل به بالكلية، فهذا لا شكّ الإعراض، هذا كفر، ومنشأ هذا الإعراض محبة الدنيا الخالصة، ليس في قلبه محبة لله وللدار الآخرة؛ لأنَّ الّذي في قلبه نوع محبة لله يعمل بقدر تلك المحبة، بقدر المحبة يعمل، فإذا وقع في قلبه محبة للدنيا، عمل للدنيا بقدر ما فيه، ولذلك ترى الناس منهم الحريص على الطاعة، ومنهم غير الحريص على الطاعة، سبب الحرص على الطاعة محبة للدار الآخرة، محبته لله، محبته للجنة، خوفه من النار. الآخر الذي لا يحرص على الطاعة سببها أنّه ليس في قلبه محبة خالصة قوية، بحيث أنّه تحمله على العمل لله وللدار الآخرة، بل محبته للدنيا، فانصرف عن الآخرة؛ لضعف محبتها في نفسه إلى الدنيا، لقوة محبتها في نفسه.

فإذًا المقام هنا في هذه الآية وفي الحديث من جهة الكفر وغيره فيه تفصيل، هو الذي وصفته هنا.

(١) انظر: مجموع مؤلفات الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣/ ١١٨).

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ، وَوَالِدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». أَخْرَجَاهُ(١).

ش: قوله: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ» أي: الإيمان الواجب، والمراد كماله، حتى يكون الرسول أحب إلى العبد من ولده ووالده والناس أجمعين، بل ولا يحصل هذا الكمال إلا بأن يكون الرسول أحب إليه من نفسه؛ كما في الحديث: «أَنْ عُمَرَ ابْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّك الآنَ، وَاللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ: الآنَ يَا عُمَر» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٢).

فمن قال: إن المنفي هو الكمال، فإن أراد الكمال الواجب الذي يذم تاركه، ويعرض للعقوبة، فقد صدق، وإن أراد أن المنفي الكمال المستحب، فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله ﷺ. قاله شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ.

فمن ادعى محبة النبي ﷺ بدون متابعة وتقديم قوله على قول غيره، فقد كذب؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧]، فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول ﷺ، لكن كل مسلم يكون محبًا بقدر ما معه من

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).
(٢) أخرجه البخاري (٦٦٣٢).

....

الإسلام، وكل مسلم لا بد أن يكون مؤمنًا، وإن لم يكن مؤمنًا الإيمان المطلق؛ لأن ذلك لايحصل إلا لخواص المؤمنين.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (فَعَامَّةُ النَّاسِ إذَا أَسْلَمُوا بَعْدَ كُفْرٍ، أَوْ وُلِدُوا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْتَزَمُوا شَرَائِعَهُ، وَكَانُوا مِنْ أَهْلِ الطَّاعَةِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهُمْ مُسْلِمُونَ وَمَعَهُمْ إيمَانٌ مُجْمَلٌ، وَلَكِنَّ دُخُولَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ إلَى قُلُوبِهِمْ إنَّمَا يَحْصُلُ شَيْئًا فَشَيْئًا إنْ أَعْطَاهُمْ اللَّهُ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ لَا يَصِلُونَ لَا إلَى الْيَقِينِ وَلَا إلَى الْجِهَادِ، وَلَوْ شُكِّكُوا لَشَكُّوا، وَلَوْ أُمِرُوا بِالْجِهَادِ لَمَا جَاهَدُوا، وَلَيْسُوا كُفَّارًا وَلَا مُنَافِقِينَ بَلْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنْ عِلْمِ الْقَلْبِ وَمَعْرِفَتِهِ وَيَقِينِهِ مَا يَدْرَأُ الرَّيْبَ وَلَا عِنْدَهُمْ مِنْ قُوَّةِ الْحُبِّ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ مَا يُقَدِّمُونَهُ عَلَى الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَهَؤُلَاءِ إنْ عَرَفُوا مِنْ الْمِحْنَةِ وَمَاتُوا دَخَلُوا الْجَنَّةَ. وَإِنْ اُبْتُلُوا بِمَنْ يُورِدُ عَلَيْهِمْ شُبُهَاتٍ تُوجِبُ رَيْبَهُمْ فَإِنْ لَمْ يُنْعِمْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يُزِيلُ الرَّيْبَ وَإِلَّا صَارُوا مُرْتَابِينَ وَانْتَقَلُوا إلَى نَوْعٍ مِنْ النِّفَاقِ) انتهى[1].

وفي هذا الحديث: أن الأعمال من الإيمان؛ لأن المحبة عمل القلب.

وفيه: أن محبة الرسول ﷺ واجبة، تابعة لمحبة الله، لازمة لها، فإنها لله ولأجله، تزيد بزيادة محبة الله في قلب المؤمن، وتنقص بنقصها، وكل من كان محبًا لله، فإنما يحب في الله ولأجله، كما يحب الإيمان والعمل الصالح.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٢٧١).

....

وهذه المحبة ليس فيها شيء من شوائب الشرك، كالاعتماد عليه ورجائه في حصول مرغوب منه، أو دفع مرهوب منه، وما كان فيها ذلك، فمحبته مع الله؛ لما فيها من التعلق على غيره، والرغبة إليه من دون الله، فبهذا يحصل التمييز بين المحبة في الله ولأجله، التي هي من كمال التوحيد، وبين المحبة مع الله، التي هي محبة الأنداد من دون الله؛ لما يتعلق في قلوب المشركين من الإلهية، التي لا تجوز إلا لله وحده.

الشرح:

هذا الحديث من الأحاديث التي فيها نفي كمال الإيمان: «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**».

ومثله قوله: «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**»[(١)]، ونحو ذلك من الأحاديث التي فيها نفي الإيمان، فإنَّ نفي الإيمان في الأصل قد يكون لنفي الإيمان الّذي يجب على المرء، وذلك بسبب تركه لخصلة من الخصال الواجبة، وقد يكون لنفي الإيمان المستحبّ؛ لأنّ خصال الإيمان منها الواجب، ومنها المستحبّ، **يقول شيخ الإسلام فيما ذكر هنا**: إنَّ ما نفي فيه الإيمان في الكتاب والسنة، فإنّما يراد به نفي كمال الإيمان الواجب.

يعني: أنَّه وإن كان نفيًا للكمال، لكن ما نفي في الكتاب والسنة، الإيمان فيه من الخصال بسبب الخصال عن بعض الناس، فإنَّ هذا يدلّ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠/٣٩٧، ٢١/٣٨٧).

على أنَّ هذه الخصلة واجبة، ولهذا عدوا الخصال التي نفي لأجل تركها الإيمان أنَّها من الكبائر، فمثلًا تقديم محبة النفس على محبة الرسول ﷺ هذه كبيرة، بل الواجب على العبد أن يقدم محبة النبي ﷺ على محبة نفسه، مثل ما قال لعمر رضي الله عنه للنبي ﷺ: «**يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّك الآنَ، وَاللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ: الآنَ يَا عُمَر**»، ولهذا ذكر العلماء أنّ من حدّ الكبيرة التي ينفى فيها الإيمان في النصوص؛ كما جاء في نظم ابن عبد القوي للكبائر بقوله في تعريف الكبيرة: جمع في منظومته الطويلة في الآداب قول الإمام أحمد، وإضافة ابن تيمية، وذكر تعريفًا للكبائر، فقال[(١)] [(٢)]:

فَمَا كَانَ فِيهِ حَدٌّ فِي الدُّنَا أَوْ تَوَعُّدٌ ... بِأُخْرَى فَسَمِّ كُبْرَى عَلَى نَصِّ أَحْمَدَ

وَزَادَ حَفِيدُ الْمجْدِ أَوْ جَاءَ وَعِيدُهُ ... بِنَفْيٍ لإِيمَانٍ وَلَعْنٍ لِمُبْعَدِ

فإذًا نفي الإيمان في النصوص يدلّ على أنّ الفعل الذي بسببه نفي الإيمان أنَّه كبيرة «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ كذا...**»، هذا نفي لكمال الإيمان الواجب، يعني: معصية، وبعض العلماء ينازع في كونه كبيرة، ويقول: هو معصية من المعاصي، لكن ليس من الكبائر، وذلك لأجل مجيئه في الحديث «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»، ولهذا منع قوم من أهل العلم أن يحمل على أنَّه كبيرة؛ لأنَّ هذا من الأمور

---

(١) انظر: منظومة الآداب لابن عبد القوي (ص٤٩٣)، وراجع غذاء الألباب بشرح منظومة الآداب للسفاريني (١/ ٢٨٧).

(٢) هو العلامة شمس الدين محمد بن عبد القوي بن بدران المرداوي الصالحي الحنبلي أبو عبد الله ولد سنة ثلاثين وستمائة، قال الذهبي: كان حسن الديانة دمث الأخلاق كثير الإفادة مطرحًا للتكلف. توفي سنة ٦٩٩هـ. انظر: الوافي بالوفيات (٣/ ٢٢٨)، وشذرات الذهب (٥/ ٤٥٢).

التي يتخلّف عنها أكثر الأمة، والقول بأنّها من الكبائر، هذا يحتاج إلى دليل أخصّ من ذلك.

المقصود نفي الإيمان عند شيخ الإسلام هو دليل على أنَّه كبيرة، ومنعه قوم، ودلّ عليه قول ابن عبد القوي: **(وزاد حفيد المجد)**. يعني: أنَّه زادها، أو تفرّد بها، وتوبع عليها طبعًا بعد ذلك.

وَزَادَ حَفِيدُ الْمجْدِ أَوْ جَاءَ وَعِيدُهُ بِنَفْيٍ لإِيمَانٍ وَلَعْنٍ لِمُبْعَدِ

القسم الثاني: يعني في الأصل نفي الإيمان المستحبّ، وهذا كما قال شيخ الإسلام لم يقع في الكتاب والسنة، لكن قد يقال أنّه وقع في مثل هذا الحديث الّذي هو حديث: «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»، كما قاله طائفة من أهل العلم، يعني: الإيمان المستحبّ، بمعنى: أنّ هذا إذا تركه، انتفى كمال الإيمان، لكن لا يعد معصية يؤاخذ عليها إن كان كذلك أجر، ولم يكن كذلك، فإنّه لا يعاقب، على اختيار طائفة، هنا الشاهد من ذلك أنّ المحبة يجب أن تقدم، محبة الله عز وجل ومحبة رسوله يجب أن تقدّم، وتقديمها يكون بالاتباع، اتباع ما أمر الله عز وجل به وما أمر به رسوله ﷺ، والانتهاء عن ما نهى الله عز وجل عنه، أو نهى عنه رسوله ﷺ، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] المحبة الإيمانية التي هي العبادة، يجب أن تكون خالصة لله، يعني: أنّه إنّما يجب لذاته الله عز وجل، المحبة عبادة، فتكون خالصة لله، في معنى أنّه لا شيء يحب لذاته في قلب المسلم إلّا الله عز وجل، هو الذي يحب لذاته، وأمّا غيره عز وجل، فإنّ محبته تابعة لمحبة الله عز وجل، قال شيخ الإسلام في **(قاعدة في المحبة)** قال: حتى محبة الرسول ﷺ ليست لذاته، بل لأجل أنّ الله عز وجل أمر العباد بحبه، فمحبة الله خالصة له لذاته عز وجل، ليس لسبب آخر، وأمّا محبة الخلق، فإنّها تبع

لمحبة الله، يعني: فما كان الله عَزَّوَجَلَّ أذن بمحبته، فإنّه يحب، وما لم يأذن بمحبته، فلا يجوز أن يحبّ، وهذا معنى كون المحبة في الله ولله، ومن أجل الله، تابعة لمحبة الله، فهذه محبة ليست مستقلة، وإنّما هي تابعة، بخلاف محبة المشركين للآلهة، للأنداد، للمقبورين، للأولياء، الذين يعتقدون فيهم للسادة المشاهد، ونحو ذلك، فإنّها محبة ليست تابعة، وإنّما هي محبة استقلالية، ولهذا ليست في الله ولا لله، ولا من أجل الله، وإن ادعوا ذلك، وإنّما هي استقلالًا لذاته؛ فإنّه يحبه لذاته؛ لأنَّه يعتقد أنّه ينفعه ويضره، والناس جبلوا على أنّهم إنّما يحبون من ينفعهم، يُحَبُّ الشيء لأنَّه يجلب له خير، أو يدفع عنه شر، يحب الأشياء للمصلحة، ما يحبّ الشيء لغير مصلحة، هو يحب الأشياء لأجل أنّ له مصلحة فيها، والذي يجب أن يحبّ لهذا الغرض هو الله عَزَّوَجَلَّ ؛ لأنَّه هو الذي يأتي بالخيرات، وهو الذي يدفع عن العبد المساوئ، الله عَزَّوَجَلَّ هو صاحب الخير والنعمة على العبد، وهو الذي يدفع النقم على العبد: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

فإذًا المحبة الخالصة الذاتية هي لله عَزَّوَجَلَّ ، فلا شيء يحبّ لذاته المحبة المأذون بها شرعًا إلّا الله عَزَّوَجَلَّ ، وأمَّا غيره عَزَّوَجَلَّ ، فإنَّه لا يحبّ لذاته، ولو حُبّ لذاته استقلالًا، صار شركًا في المحبة، فإنَّما محبة الأشياء تبع لمحبة الله عَزَّوَجَلَّ ، والرسول ﷺ أحبّه من اتبعه؛ لأنَّه جاء من عند الله، وصارت محبته واجبة؛ لأنَّه رسول من عند الله عَزَّوَجَلَّ ، وصارت محبته قربة من القرب، التي يتقرّب العباد بها إلى الله عَزَّوَجَلَّ ؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أوجبها، فمحبة الرسول ﷺ من محبة الله، ولأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أمر بذلك.

كذلك محبة العبد للأمور، إذا أحبّ ما أحبّ في الدنيا، فإنَّما هو لأجل أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أذن بذلك، فإذا أحبّ المرء لا يحبه إلّا لله، فهذا لأجل

أنَّه آمن بالله، محبة المسلم لأخيه المسلم في الله ولله، ليست لذات المسلم، ولكن لأنَّه قام بهذا الجسد الإيمان بالله، ولهذا الأجساد لا عبرة بها، لو هذا المسلم الذي أحبّه، وصار في قلبه له القدر العظيم ارتدّ، تنقلب المحبة عداوة في لحظة؛ وذلك لأنَّ المحبة ليست لذاته، وإنّما هي لما قام في قلبه من حب الله، وحب رسوله ﷺ، هذا من جهة. الجهة الأخرى محبة المشركين لآلهتهم، أو لمن يعتقدون فيهم، هذه محبة حقيقتها أنّها ذاتية، والدليل على ذلك أنّ الله ﷻ لم يأذن بأن يحبوا المحبة التي ينتج عنها أن يتقرب إليهم بأنواع القربات التي لا تصلح إلّا لله، هو يحب الصالح، يقول: أنا أحبه في الله، محبتك له في الله ولله معناها: أنّك في هذه المحبة متابع لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، وهذه المحبة التي تزعم أنّها في الله ولله إنّما صارت جائزة ومعتبرة شرعًا، ومأذونًا بها، ومأجورا أنت عليها، إذا لم يكن فيها ومن ورائها مخالفة لأمر الله وأمر رسوله، لكن الواقع المشرك تبعت محبته أنواع من التوجهات لهذه الآلهة، فإذًا صارت المحبة، وإن ادعى أصحاب المحبة للأولياء أنّها في الله ولله، أحبه لأنّه ولي الله، أحبه لأنه مجاهد في سبيل الله، هذه المحبة إذا نتج عنها عمل لهذا المقبور، معناه أنّها لم تكن في الله، وإنّما هي مضادة لأمر الله، لكن إذا أحبّ كما يحب المسلمون الصحابة ﷺ، أوكما يحبون علماءهم الموتى، لكن لا يتصرفون لهم بشيء، هذه تكون في الله؛ لأنّها تابعة لأمر الله، لكن لو توجه بشيء لهم هنا خرجت عن كونها في الله إلى كونها له خالصة ذاتًا؛ لأنّها مخالفة لما أمر الله ﷻ به.

هو يريد بهذا الكلام الذي سبق جميعًا التفريق بين المحاب التي هي تابعة لمحبة الله ومحبة المشركين لآلهتهم، فالمحبة الخالصة لله هذه واجبة، محبة خالصة لله ﷻ لذاته ﷻ، محبة النبي ﷺ، محبة المسلمين، محبة

المؤمنين، هذه تبع، ليست ذاتية، لذلك ينتج عنها أفعال هي مأمور بها شرعًا، ولا يمكن لو خالف في ذلك لصارت محبة غير شرعية، فهذا الفرق مهم بين المحبة التي أذن الله عز وجل بها من المسلم لإخوانه المسلمين، والمحبة التي لم يأذن الله عز وجل بها من الناس للآلهة والمقبورين والأولياء، ونحو ذلك.

ومحبة المسلم للمسلم جائزة، وأمّا محبة المشركين لآلهتهم، فهي عبادة صرفت لغير الله، السبب لأنّ محبة المسلم للمسلم أو للمؤمن أو للعلماء ونحو ذلك هي تبع لمحبة الله، لم ينتج عنها فعل يخالف أمر الله، وأمّا محبة الناس للأولياء، أو للأصنام، أو للأوثان أو نحو ذلك، فهذه نتج عنها أفعال مضادة لما أمر الله عز وجل به، وهذا الفرق مهم جدًا في المحبة.

بقي أن يقال: إنّ المحبة التي تكون في قلوب المشركين لآلهتهم قد تكون مخلوطة: محبة لله، ومحبة للآلهة؛ كما قال عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، على أحد الوجهين في التفسير يعني: يحب المشركون آلهتهم كحب المشركين لله، فجعلوا المحبة مساوية للمحبة، فليس من شرط الشرك بالمحبة أن لا يكون في قلب المشرك محبة لله أصلًا، هذا ليس بصحيح، بل يكون إذا كان في قلبه محبة لله عظيمة نتج عنها عبادات عظيمة: صيام، وصلاة، وقيام، وجهاد، ونحو ذلك من الأعمال العظيمة، وقام في قلبه محبة لغير الله لذاته: للآلهة، للمقبورين، للسادة، للأولياء، نتج عنها أفعال شركية، فصار عنده شرك في المحبة؛ لأنَّ المحبة وقعت في قلبه لله، نتج عنها أعمال من الطاعات عظيمة، ووقعت في قلبه المحبة لغير الله - لهؤلاء الأولياء، ونحوهم - نتج عنها عبادات لأولئك الأولياء.

فليس من شرط الشرك في المحبة، أن تكون في قلب المشرك محبة خالصة لغير الله، هذا ليس بصحيح، وليس بمشترط، بل المشركون في عهد النبي ﷺ كانوا بنص القرآن كان فيهم محبة لله، ومحبة لغير الله، فلا يعترض على الحكم بالشرك على أولئك الذين في قلوبهم محبة لله عظيمة، نتج عنها صيام، صلاة، قيام ليل، نتج عنها جهاد، نتج عنها أمور عظيمة من أمور العبادات.

نقول: نعم، هذه الأمور لا شكّ أنها نتجت عن محبة الله، لكن ليس العبرة في الشرك أن تزول محبة الله من القلب تمامًا، بل إذا وقع تشريك في المحبة هنا حكم بالشرك.

وهذه مسألة مهمة؛ لأنَّ كثير من الناس تردّدوا في الحكم بالشرك على عبدة الأوثان والقبور؛ لأنَّ هذا وقع فيه تردد كثيرين، تردّد كثيرون في ذلك، نعم يقال: كيف تحكم بالشرك على واحد في الليل شهدناه صاحب قيام وصلاة، وفي النهار صاحب صيام، صاحب جهاد، وصاحب مقامات، كيف يكون مشركًا بمجرد أنّه يستغيث بغير الله؟! وهذه العبادات العظيمة؟ نقول: هنا العبرة ليست بهذا، العبرة لا شك القلب، إذا كان في قلب هذا محبة لله، نتج عنها هذه الأعمال العظيمة، وخوف من النار، وإقبال على الجنة، لكن وقع في قلبه أيضًا محبة لغير الله، نتج عنها أنَّه تقرب إلى ذلك الغير بأعمال، وصارت عنده محبة ذاتية لله ومحبة ذاتية لأولئك، وليست محبة أولئك في الله المأذون بها، وإنّما هي لذاته غير المأذون بها، هذا الّذي يراد تقريره فيما سبق.

وَلَهُمَا عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»(١).

وَفِي رِوَايَةٍ: «لاَ يَجِدُ أَحَدٌ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ حَتَّى...» إِلَى آخِرِهِ(٢).

ش: قوله: «ثَلاَثٌ». أي: ثلاث خصال.

قوله: «مَنْ كُنَّ فِيهِ». أي: وجدت فيه تامة.

قوله: «وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ». الحلاوة هنا هي التي يعبر عنها بالذوق لما يحصل به من لذة القلب ونعيمه وسروره وغذائه، وهي شيء محسوس يجده أهل الإيمان في قلوبهم.

قال السيوطي رحمه الله في التوشيح: وجد حلاوة الإيمان فيه استعارة تخييلية. شبه رغبة المؤمن في الإيمان بشيء حلو، وأثبت له لازم ذلك الشيء، وأضافه إليه.

وقال النووي: معنى حلاوة الإيمان: استلذاذ الطاعات، وتحمل المشاق، وإيثار ذلك على أغراض الدنيا، ومحبة العبد لله بفعل طاعته وترك مخالفته. وكذلك الرسول ﷺ(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (١٦، ٢١)، ومسلم (٤٣).
(٢) أخرجه البخاري (٦٠٤١).
(٣) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم (٢/ ١٣).

الشرح:

هنا ذكر ما يتعلق بحلاوة الإيمان، كلام السيوطي من باب المجاز، وكلام النووي فيما سمعت تفسير للحلاوة بأثرها.

وكلا القولين ليس بصواب؛ لأنَّ كون هذا اللفظ فيه استعارة معناه أنَّ فيه مجازًا، ومعناه أن يقال: ليس للإيمان حلاوة، لأنّ المجاز عندهم والاستعارة في علم البيان من أنواع المجاز، ولها طرفان: طرف المشبه، والمشبه به، ومعنى صحة المجاز عندهم أن يصح نفيه، والنبي ﷺ يقول: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ»، فالذي يقول: إنّ حلاوة الإيمان هذا مجاز. يقول: ليست بحلاوة. لأنَّ قاعدة المجاز عندهم أنّ كل مجاز يصح نفيه؛ ولهذا منع كثير من العلماء وقوع المجاز في الكتاب، ومنعه طائفة في السنة أيضًا، ومنعه قلة في اللغة أيضًا، هنا كونه فيه استعارة معناه أنَّه تشبيه ليس حقيقة، وهذا ليس بصحيح، فإنّ العبد المؤمن يجد - ولا شكّ - في قلبه حلاوة الإيمان، هذه الحلاوة - كما ذكرت من قبل - هي شيء باطن، ويغلط الناس كثيرًا في تفسير الأشياء الباطنة، مثل ما ذكرنا في المحبة؛ حيث ذكر ابن القيم أنَّ المحبة لا يمكن أن تُفسّر بغير المحبة؛ وذلك لأنَّها عمل قلبي، كذلك الحلاوة هي عمل قلبي، أو شيء يجده المرء في قلبه، لا يغير إلّا بالحلاوة، لا يمكن أن تفسره بشيء آخر، والنبي ﷺ يقول: «وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ»، وهم يقولون: لا، ليست بحلاوة، وهذا لاشك فيه نوع اعتراض ضمني، مع أنهم لا يقصدون ذلك بلا شكّ، لكن فيه نوع اعتراض، وحصول هذا الاعتراض يدلّ على بطلان القول بأنّها استعارة؛ كقول السيوطي في التوشيح، وكذلك قول النووي بأنّها ما ينشأ عن ذلك من محبة من فعل المأمورات وترك المنهيات، ونحو ذلك «وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ» نعم، إنّ للإيمان حلاوة في النفوس،

يعرفها كلُّ من خالط الإيمان بشاشة قلبه، له حلاوة، له لذّة، لا شكّ تجد لذّة للإيمان، تفعل الطاعة، تجد في قلبك لذة، وتجد فيه حلاوة خالصة، لكن الحلاوة التي في اللسان غير الحلاوة الخاصة بالقلب، غير اللّذة الحاصلة بالجوارح، لكلّ جارحة في الجسم لذّة خاصة بها، فمثلًا لذة اللمس ليست هي لذة الذوق، مثلًا ما تستلذّ له ببصرك، وقد تذوقه بلسانك، فيكون بشعًا، لكنه للعين يسر، العين تلتذّ به، لكن اللسان لا يلتذّ به، كذلك القلب، القلب له لذّة خاصة به، هذه اللذة أعظم ما تكون بالإيمان، وكلّما قوي الإيمان في القلب، وجد اللذة والحلاوة التي تنافس في تحصيلها المتنافسون، ولهذا نقول: قول النبي ﷺ: «وجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ» على ظاهره وحقيقته، فالإيمان له حلاوة، والقلب يجد تلك الحلاوة، والنفس تجد تلك الحلاوة، وتتذوقها، وهي حقيقة، لكن حلاوة كلّ شيء بحسبه، ليست حلاوة العين مثل حلاوة اليد، وليست لذة اللسان والحلاوة التي يجدها في لسانه مثل الحلاوة التي يجدها في ملمسه، مثلًا: هو يأخذ قطعة سكر، فيجعلها في لسانه، هل يجد لها حلاوة، لكن إذا مسكها بيده يجد حلاوة؟ لا يجد، إذا مسّ بيده حريرًا وجد له حلاوة في يده، إذا مسك بيده مالًا ذهب أو فضة أو دراهم، وجد له في اليد نوع حلاوة، لكن لو جعله في لسانه، ما صارت له تلك الحلاوة، كذلك القلب هناك أشياء فيه من الأعمال الكثيرة منها الحلاوة واللذة الحاصلة للنفس، وهذه لا يمكن أن تنفى، أو يقال: إنَّها تشبيه، أو إنَّها استعارات، أو المراد منها: أثرها؛ كما قال النووي.

....

ش: قال يحيى بن معاذ: حقيقة الحب في الله: أن لا يزيد بالبر، ولا ينقص بالجفاء.

قوله: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما يعني بالسوى: ما يحبه الإنسان بطبعه؛ كمحبة الولد، والمال، والأزواج، ونحوها. فتكون أحب هنا على بابها.

وقال الخطابي: المراد بالمحبة هنا: حب الاختيار، لا حب الطبع. كذا قال.

وأما المحبة الشركية، التي قد تقدم بيانها، فقليلها وكثيرها ينافي محبة الله ورسوله.

وفي بعض الأحاديث: «أَحِبُّوا اللَّهَ مِنْ كُلِّ قُلُوبِكُمْ»[1].

فمن علامات محبة الله ورسوله: أن يحب ما يحبه الله، ويكره ما يكرهه الله، ويؤثر مرضاته على ما سواه، ويسعى في مرضاته ما استطاع، ويبعد عما حرمه الله ويكرهه أشد الكراهة، ويتابع رسوله، ويمتثل أمره، ويترك نهيه؛ كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فمن آثر أمر غيره على أمره، وخالف ما نهى عنه، فذلك عِلْمٌ[2] على عدم محبته لله ورسوله؛ فإنَّ محبة الرسول من لوازم محبة الله، فمن

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة: (٢/ ٥٢٤ - ٥٢٥)، وانظر: كلمة الإخلاص لابن رجب: (ص ٣٦)، وسير ابن هشام: (٢/ ١٤٦ - ١٤٧). والحديث من طريق أبي سلمة ابن عبد الرحمن بن عوف.

(٢) قال الشارح شيخنا صالح آل الشيخ - حفظه الله -: (فذلك، عَلَمٌ، أو عِلْمٌ، الأحسن عِلْمٌ، فذلك عِلْمٌ عَلَى... كما في قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١] علم للساعة يعني علامة، =

أحب الله وأطاعه، أحب الرسول وأطاعه. ومن لا، فلا؛ كما في آية المحبة ونظائرها. والله المستعان.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ هَذِهِ الثَّلَاثَ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ وَجْدَ الْحَلَاوَةِ بِالشَّيْءِ يَتْبَعُ الْمَحَبَّةَ لَهُ فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَوْ اشْتَهَاهُ إذَا حَصَلَ لَهُ مُرَادُهُ فَإِنَّهُ يَجِدُ الْحَلَاوَةَ وَاللَّذَّةَ وَالسُّرُورَ بِذَلِكَ وَاللَّذَّةُ أَمْرٌ يَحْصُلُ عَقِيبَ إدْرَاكِ الْمُلَائِمِ الَّذِي هُوَ الْمَحْبُوبُ أَوْ الْمُشْتَهَى.

قال: فَحَلَاوَةُ الْإِيمَانِ الْمُتَضَمَّنَةُ مِنْ اللَّذَّةِ بِهِ وَالْفَرَحِ مَا يَجِدُهُ الْمُؤْمِنُ الْوَاجِدُ مِنْ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ تَتْبَعُ كَمَالَ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ لِلَّهِ وَذَلِكَ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ. تَكْمِيلُ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ وَتَفْرِيعُهَا وَدَفْعُ ضِدِّهَا. فَتَكْمِيلُهَا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا)[١].

قلت: ومحبة الله تعالى تستلزم محبة طاعته، فإنه يحب من عبده أن يطيعه، والمحب يحب ما يحبه محبوبه ولا بد.

ومن لوازم محبة الله أيضًا: محبة أهل طاعته؛ كمحبة أنبيائه ورسله والصالحين من عباده. فمحبة ما يحبه الله ومن يحبه الله من كمال الإيمان؛ كما في حديث ابن عباس الآتي.

= العلامة يقال لها: عَلَم، مثل ما جاء في القراءة الأخرى (وعِلم) عِلم على كذا، يعني علامة، وعَلَم على كذا كذلك، لكن كونها عِلم أنسب).

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٠٥-٢٠٦).

....

قال: وتَفْرِيعُهَا: «أَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ». ودَفْعُ ضِدِّهَا أَنْ يَكْرَهَ ضِدَّ الْإِيمَانِ أَعْظَمَ مِنْ كَرَاهَتِهِ الْإِلْقَاءَ فِي النَّارِ. انتهى[١].

قوله: «أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا» فيه جمع ضمير الله تعالى وضمير رسوله ﷺ، وفيه قولان:

أحدهما: أنه ثنى الضمير هنا إيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين، لا كل واحدة؛ فإنها وحدها لاغية، وأمر بالإفراد في حديث الخطيب[٢]؛ إشعارًا بأن كل واحد من العصيانين مستقل باستلزام الغواية؛ إذ العطف في تقدير التكرير، والأصل استقلال كل من المعطوفين في الحكم.

الثاني: حمل حديث الخطيب على الأدب والأولى، وهذا هو الجواز.

وجوب ثالث: وهو أن هذا وارد على الأصل، وحديث الخطيب ناقل، فيكون أرجح.

قوله: «كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ». أي: يستوي عنده الأمران.

وفيه: رد على الغلاة الذين يتوهمون أن صدور الذنب من العبد نقص في حقه مطلقًا، وإن تاب منه.

والصواب: أنه إن لم يتب كان نقصًا، وإن تاب فلا، ولهذا كان

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٢٠٦).

(٢) أخرجه مسلم (٨٧٠).

....

المهاجرون والأنصار ﷺ أفضل هذه الأمة، مع كونهم في الأصل كفارًا، فهداهم الله إلى الإسلام، والإسلام يمحو ما قبله، وكذلك الهجرة؛ كما صح الحديث بذلك[(١)].

قوله: وفي رواية: «لاَ يَجِدُ أَحَدٌ» هذه الرواية أخرجها البخاري في الأدب من صحيحه. ولفظها: «لاَ يَجِدُ أَحَدٌ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَحَتَّى أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ، وَحَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»[(٢)].

وقد تقدم أن المحبة هنا عبارة: عما يجده المؤمن من اللذة، والبهجة، والسرور، والإجلال، والهيبة، ولوازم ذلك، قال الشاعر[(٣)]:

أَهَابُكِ إِجْلاَلا وَمَا بِكِ قُدْرَةٌ ... عَلَيَّ ولكِنْ مِلءُ عَيْنٍ حَبِيبُهَا

الشرح:

قوله: (حديث الخطيب) يعني: الذي جاء في صحيح مسلم في قول الخطيب: «مَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا، فَقَدْ غَوَى».

---

(١) أخرجه أحمد (٢٩/ ٣١٢، ٣٤٩).
(٢) أخرجه البخاري (٦٠٤١).
(٣) البيت قيل لمجنون ليلى في ديوانه (ص٥٨)، و قيل لنصيب بن رباح في ديوانه (ص٦٨). انظر: سمط اللآلي (ص٤٠١)، والمقاصد النحوية (١/ ٥٣٧)، وبلا نسبة في شرح ابن عقيل (ص١٢٣).

قال الخطيب: «**وَمَنْ يَعْصِهِمَا، فَقَدْ غَوَى**»، قال له النبي ﷺ: «**بِئْسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ، أَلاَ قُلْتَ: وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ، فَقَدْ غَوَى**»، فجمع بين الله ورسوله في ضمير واحد، «**وَمَنْ يَعْصِهِمَا**»، قال له النبي ﷺ: «**بِئْسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ**»، وهنا في هذا الحديث فيه قوله: «**أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**»، فكيف قال النبي ﷺ: «**مِمَّا سِوَاهُمَا**»، وهناك أنكر على الخطيب؟! هذا هنا قال فيه قولان:

التوجيه الأول: أن يكون مما سواهما، يعني: سوى المحبتين، ليس سوى الله ورسوله، ولكن سوى المحبتين: «**أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**» يعني: ممّا سوى المحبتين: محبة الله، ومحبة رسوله، وجمع المحبتين في ضمير لا يعارض ما ذكره للخطيب، ويأتي التوجيه الصحيح إن شاء الله.

هذا أيضًا حمله طائفة من أهل العلم على أن مقام الخطيب مقام تفصيل، والخطيب حينما تكلم عن طاعة الله، وطاعة رسوله، وعن عصيان الله وعصيان رسوله، كلامه يقتضي أن يفصل؛ لأنَّ الطاعة - طاعة الله ﷻ وطاعة رسوله - يقصد بيانهما للناس على وجه التفصيل، وعصيان الله ﷻ وعصيان رسوله يقصد بيانهما للناس على وجه التفصيل، ومقام الخطب مقام تفصيل، لا مقام إجمال؛ ولهذا النبي ﷺ قال له: «**بِئْسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ**».

قال العلماء الذين وجهوا بهذا: فعلقه بكونه خطيبًا، بقوله: «**بِئْسَ الْخَطِيبُ**»، فدلّ على أنّه إنّما صار مذمومًا؛ لأنّه خطيب، وأمّا في كلام النبي ﷺ هذا «**أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**» هنا ليس المقام مقام تفصيل، وليس المقام مقام خطابة، ولهذا يقال: إنّه في الخطب لا يجمع؛ لأنَّ المقام مقام تفصيل، وأمّا في غيرها، فإنّه لا بأس أن يجمع.

التوجيه الثاني: أن يكون على الأدب، يعني: لو جمع لم يكن مرتكبًا لمعصية، لكن خالف الأدب، يعني: مكروه، والاستدلال بحديث ابن عباس رضي الله عنهما ظاهر على أن محبة الله ورسوله يجب أن تكون مقدمة على محبة ما سواهما، وأنها من كمال الإيمان وأن العبد لن يجد كمال الإيمان إلا بذلك.

وفي رواية: «**لاَ يَجِدُ أَحَدٌ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ حَتَّى.. إلى آخره**»: المقصود بالحلاوة هنا: الحلاوة الناتجة عن تحصيل كماله؛ لأن الإيمان له حلاوة توجد في الروح، وكلما سعى العبد في تكميل إيمانه، اشتد وجْده لهذه الحلاوة، واشتد شعوره بتلك الحلاوة، واللذة التي تكون في القلب.

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ في اللَّهِ، وَأَبْغَضَ في اللَّهِ، وَوَالى في اللَّهِ، وَعَادَى في اللَّهِ، فَإِنَّمَا تُنالُ وَلايةُ اللهِ بِذَلِكَ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإيمَانِ وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُه وَصَوْمُهُ حَتَّى يكونَ كَذَلِكَ، وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مؤاخاةِ النَّاسِ عَلَى أمرِ الدُّنْيا، وَذَلِكَ لا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا». رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ[1].

ش: قوله: «مَنْ أَحَبَّ في اللهِ». أي: أحب أهل الإيمان بالله وطاعته من أجل ذلك.

قوله: «وَأَبْغَضَ في اللهِ». أي: أبغض من كفر بالله وأشرك به وفسق عن طاعته؛ لأجل ما فعلوه مما يسخط الله وإن كانوا أقرب الناس إليه؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية.

قوله: «وَوَالى في اللهِ». هذا والذي قبله من لوازم محبة العبد لله تعالى، فمن أحب فيه، ووالى أولياءه، وعادى أهل معصيته وأبغضهم، وجاهد أعداءه ونصر أنصاره. وكلما قويت محبة العبد لله في قلبه، قويت هذه الأعمال المترتبة عليها؛ وبكمالها يكمل توحيد العبد، ويكون ضعفها على قدر ضعف محبة العبد لربه، فمقل ومستكثر ومحروم.

قوله: «فَإِنَّمَا تُنالُ وَلايةُ اللهِ بِذَلِكَ». أي: توليه لعبده. وولاية بفتح

---

(١) أخرج نحوه ابن أبي شيبه في مصنفه (٧/ ١٣٤)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٣٥، ٩٣٦) موقوفًا على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وأخرجه أبو نعيم في الحلية عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال لي النبي ﷺ: «أَحَبَّ في اللَّهِ، وَأَبْغَضَ في اللَّهِ...» الحديث.

....

الواو لا غير. أي: الأخوة والمحبة والنصرة، وبالكسر الإمارة، والمراد هنا الأول(١).

ولأحمد والطبراني عن النبي ﷺ قال: «لَا يَجِدُ الْعَبْدُ صَرِيحَ الْإِيمَانِ، حَتَّى يُحِبَّ لِلَّهِ وَيُبْغِضَ لِلَّهِ، فَإِذَا أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، فَقَدِ اسْتَحَقَّ وِلَايَةً مِنَ اللَّهِ»(٢)، وفي حديث آخر: **«أَوْثَقَ عُرى الإيمانِ أَنْ تُحِبَّ في اللَّهِ، وتبغضَ في اللَّهِ»** رواه الطبراني(٣).

قوله: «وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإيمَانِ..» إلى آخره. أي: لا يحصل له ذوق الإيمان ولذته وسروره، «وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُه وَصَوْمُهُ، حَتَّى يكونَ كَذَلِكَ»، أي: حتى يحب في الله، ويبغض في الله، ويعادي في الله، ويوالي فيه.

وفي حديث أبي أمامة مرفوعًا: «مَنْ أَحَبَّ للَّهَ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ». رواه أبو داود(٤).

قوله: «وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مؤاخاةِ النَّاسِ عَلَى أمرِ الدُّنْيا، وَذَلِكَ لاَ يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شيئًا». أي: لا ينفعهم، بل يضرهم؛ كما قال تعالى: **﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾** [الزخرف: ٦٧]، **فإذا كانت**

---

(١) الوِلاية بالكسر السلطان، والوِلاية بالفتح والكسر النصرة، والْوَلِيُّ ضد العدو، يقال منه تَوَلَّاهُ، وكل من وُلِيَ أمر واحد فهو وَلِيُّه، و المَوْلَى المُعْتِق والمُعْتَق. انظر: مختار الصحاح (ص٣٠٦)، ولسان العرب (١٥/ ٤٠٦)، والمصباح المنير (٢/ ٦٧٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤/ ٣١٧).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٣٥٧، ١٠٥٣١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وأخرجه في الكبير أيضًا (١١٥٣٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٦٨١).

....

البلوى قد عمت بهذا في زمن ابن عباس خير القرون، فما زاد الأمر بعد ذلك إلا شدة، حتى وقعت الموالاة على الشرك والبدع والفسوق والعصيان.

وقد وقع ما أخبر به ﷺ بقوله: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ»(١).

وقد كان الصحابة ﷺ من المهاجرين والأنصار في عهد نبيهم ﷺ وعهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما يؤثر بعضهم بعضًا على نفسه محبة في الله وتقربًا إليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَمَا مِنَّا أَحَدٌ يَرَى أَنَّهُ أَحَقَّ بِدِينَارِهِ وَدِرْهَمِهِ مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ». رواه ابن ماجه(٢).

الشرح:

«مَنْ أَحَبَّ في اللَّهِ، وَأَبْغَضَ في اللَّهِ، وَوَالى في اللَّهِ، وَعَادَى في اللَّهِ، فَإِنَّمَا تُنالُ وَلايةُ اللهِ بِذَلِكَ»: هذه محبة في الله راجعة إلى الأمر والنهي، وهي من أقسام المحبة.

«مَنْ أَحَبَّ في اللَّهِ»: أي: كانت محبته لذلك المحبوب لأجل أمر الله عز وجل.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٥).
(٢) أخرجه أحمد (٩/ ٣٩٥)، والطبراني في الأوسط (٤/ ١٧٨)، وابن أبي شيبة (٥/ ٣٤١).

«وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ»: يعني: كان بغضه لذلك المبغَض لأجل أمر الله عَزَّوَجَلَّ .

«وَوَالَى فِي اللَّهِ»: كانت موالاته للعقد الذي بينه وبين ذاك في الله عَزَّوَجَلَّ من أخوة إيمانية.

«وَعَادَى فِي اللَّهِ»: يعني: لما حصل بينه وبين ذاك الذي خالف أمر الله إما بكفر، أو بما دونه.

«فَإِنَّمَا تُنالُ وَلايةُ اللهِ بِذَلِكَ»: يعني: إنما يكون العبد وليًا من أولياء الله بهذا الفعل، وهو أن يوالي في الله، وأن يعادي في الله عَزَّوَجَلَّ .

والوَلاَية - بالفتح - هي: المحبة والنصرة، والَى ولاَيةً يعني: أحب محبة، ونصر نصرة، وأما الوِلاية - بالكسر -، فهي: الملك والإمارة، قال: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤] يعني: المحبة والنصرة إنما هي لله عَزَّوَجَلَّ ، وليست لغيره، والوِلاية - بالكسر - هي الإمارة[١]، ونحو ذلك.

فقوله: «فَإِنَّمَا تُنالُ وَلايةُ اللهِ بِذَلِكَ» يعني: تنال محبة الله ونصرته بذلك، بأن يأتي بالمحبة في الله والبغض في الله.

«وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإيمَانِ وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُه وَصَوْمُهُ حَتَّى يكونَ كَذَلِكَ. وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مؤاخاةِ النَّاسِ عَلَى أمرِ الدُّنْيا، وَذَلِكَ لا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شيئًا»: المؤاخاة والمحبة في الدنيا هذه تراد للدنيا، والدنيا قصيرة زائلة، وإنما يغتر بها أهل الغرور، وأما أهل المعرفة بالله والعلم بالله، وأهل كمال توحيده، وأهل إكمال الإيمان وتحقيق التوحيد، فإنما تكون محابهم ومشاعرهم القلبية، وأنواع العلوم والمعارف التي تكون في

(١) راجع (ص٤٢٠).

القلب، وأنواع العبادات والمقامات والأحوال التي تكون في القلب يكون ذلك كله تبعًا لأمر الله ونهيه، ورغبة في الآخرة، أما الدنيا، فلها أهلون، وهي مرتحلة عنهم، وهم مقبلون على أمر آخرتهم؛ ولذلك لن تجدي المحبة في الدنيا على أهلها شيئًا، إنما الذي يُجدِي هو الحب في الله والرغب في الآخرة.

وقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]. قَالَ: المَوَدَّةُ[1].

ش: قوله: (قَالَ: المَوَدَّةَ). أي: التي كانت بينهم في الدنيا خانتهم أحوج ما كانوا إليها، وتبرأ بعضهم من بعض؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

قال العلامة ابن القيم في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [البقرة: ١٦٦] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ [البقرة: ١٦٧] الآيتين، فهؤلاء المتبوعون كانوا على الهدى، وأتباعهم ادعوا أنهم على طريقهم ومنهاجهم، وهم مخالفون لهم سالكون غير طريقهم، ويزعمون أن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم، فيتبرؤون منهم يوم القيامة؛ فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله، وهذا حال كل من اتخذ من دون الله أولياء، يوالي لهم، ويعادي لهم، ويرضى لهم، ويغضب لهم؛ فإن أعماله كلها باطلة، يراها يوم القيامة حسرات عليه، مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصبه؛ إذ لم يجرد موالاته ومعاداته، وحبه وبغضه، وانتصاره وإيثاره لله ورسوله، فأبطل الله عز وجل ذلك العمل كله، وقطع تلك الأسباب، فينقطع يوم القيامة كل سبب وصلة ووسيلة ومودة كانت لغير الله، ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وربه، وهو

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣/ ٢٧)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٧٨)، والبخاري معلقا مجزوما به (٨/ ١١٠ فتح) قَالَ: «الوُصُلاَتُ فِي الدُّنْيَا».

....

حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله، وتجريده عبادته لله وحده ولوازمها: من الحب والبغض، والعطاء والمنع، والموالاة والمعاداة، والتقرب والإبعاد، وتجريد ومتابعة رسول الله ﷺ تجريدًا محضًا بريئًا من شوائب الالتفات إلى غيره، فضلًا عن الشرك بينه وبين غيره، فضلًا عن تقديم قول غيره عليه.

فهذا السبب هو الذي لا ينقطع بصاحبه، وهذه هي النسبة التي بين العبد وربه، وهي نسبة العبودية المحضة، وهي آخيته التي يجول ما يجول وإليها مرجعه، ولا تتحقق إلا بتجريده متابعة الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم -؛ إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم، وما عرفت إلا بهم، ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم، وقد قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، **فهذه هي الأعمال التي كانت في الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم ولغير وجهه، يجعلها الله هباءً منثورًا، لا ينتفع منها صاحبها بشئ أصلًا، وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة أن يرى سعيه ضائعًا، وقد سعد أهل السعي النافع بسعيهم. انتهى ملخصًا[1].**

الشرح:

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ (قال: المودَّة)؛ لأن المشركين كانوا يشركون بآلهتهم، ويحبونها، ويظنون أنها

(١) انظر: الرسالة التبوكية (ص٥٠).

ستشفع لهم يوم القيامة؛ لأجل مودتهم لها ومحبتهم لهاز وستتقطع تلك الأسباب وتلك الحبال المدعاة الموهومة يوم القيامة، ولن يجدوا نصيرًا، والله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ يعني: كل ما ظنوه سببًا نافعًا ينفعهم عند الله، فإنه سينقطع يوم القيامة: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [البقرة: ١٦٦].

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَةٍ.

الثَّالِثَةُ: وُجُوبُ مَحَبَّتِهِ ﷺ عَلَى النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْمَالِ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ نَفْيَ الْإِيمَانِ لَا يَدُلُّ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْإِسْلَامِ.

الْخَامِسَةُ: أَنَّ لِلْإِيمَانِ حَلَاوَةً قَدْ يَجِدُهَا الْإِنْسَانُ وَقَدْ لَا يَجِدُهَا.

السَّادِسَةُ: أَعْمَالُ الْقَلْبِ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي لَا تُنَالُ ولَايَةُ اللهِ إِلَّا بِهَا، وَلَا يَجِدُ أَحَدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ إِلَّا بِهَا.

السَّابِعَةُ: فَهْمُ الصَّحَابِيِّ لِلْوَاقِعِ: أَنَّ عَامَةَ الْمُؤَاخَاةِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا.

الثَّامِنَةُ: تَفْسِيرُ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾.

التَّاسِعَةُ: أَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَنْ يُحِبُّ اللهَ حُبًّا شَدِيدًا.

الْعَاشِرَةُ: الْوَعِيدُ عَلَى مَنْ كَانَتِ الثَّمَانِيَةُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِهِ.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ مَنِ اتَّخَذَ نِدًّا تُسَاوِي مَحَبَّتُهُ مَحَبَّةَ اللهِ فَهُوَ الشِّرْكُ الْأَكْبَرُ.

❊ ❊ ❊

٣١ - بَابُ
قَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

ش: قوله: (بَابُ قولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]).

الخوف من أفضل مقامات الدين وأجلها، وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله تعالى. قال تعالى: ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، **وقال تعالى:** ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل: ٥٠]، **وقال تعالى:** ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٤٦]، **وقال تعالى:** ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١] **وقال تعالى:** ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، **وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير.**

والخوف من حيث هو على ثلاثة أقسام:

أحدها: خوف السر، وهو أن يخاف من غير الله من وثن أو طاغوت أن يصيبه بما يكره؛ كما قال تعالى عن قوم هود عليه السلام **إنهم قالوا له:** ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤]، ﴿مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥] **وقال تعالى:** ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ [الزمر: ٣٦]، **وهذا هو الواقع من عباد القبور ونحوها من الأوثان يخافونها، ويخوفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها، وأمروا بإخلاص العبادة لله، وهذا ينافي التوحيد.**

....

الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه؛ خوفًا من بعض الناس، فهذا محرم، وهو نوع من الشرك بالله المنافى لكمال التوحيد، وهذا هو سبب نزول هذه الآية؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤]﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥] الآية.

وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ لَا تُغَيِّرَهُ؟ فَيَقُولُ: خَشْيَةُ النَّاسِ، فَيَقُولُ: فَإِيَّايَ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَى».

الثالث: الخوف الطبيعي، وهو الخوف من عدو أو سبع أو غير ذلك.

فهذا لا يذم؛ كما قال تعالى في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١] الآية.

ومعنى قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي: يخوفكم أولياءه ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وهذا نهي من الله تعالى للمؤمنين أن يخافوا غيره، وأمر لهم أن يقصروا خوفهم على الله، فلا يخافون إلا إياه، وهذا هو الإخلاص الذي أمر به عباده، ورضيه منهم.

فإذا أخلصوا له الخوف وجميع العبادة، أعطاهم ما يرجون، وأمنهم

....

من مخاوف الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٦] الآية.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: ومن كيد عدو الله أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه؛ لئلا يجاهدوهم، لا يأمروهم بمعروف، ولا ينهوهم عن منكر. وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه، ونهانا أن نخافهم، قال: والمعنى عند جميع المفسرين: يخوفهم بأوليائه. قال قتادة: يعظمهم في صدوركم[١].

فكلما قوى إيمان العبد، زال خوف أولياء الشيطان من قلبه، وكلما ضعف إيمانه، قوى خوفه منهم[٢].

فدلت هذه الآية على أن إخلاص الخوف من كمال شروط الإيمان[٣].

(١) أخرج الطبري في تفسيره (٤/ ١٨٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٨٢١) عن قتادة أنه قال: (قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥]: يخوف والله المؤمن بالكافر، ويُرهب المؤمن بالكافر). أما الوجه الذي ذكره ابن القيم عن قتادة في تفسير الآية، فقد أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ١٨٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٨٢٠) عن السدي، قال: (يعظم أولياءه في صدوركم فتخافونهم).

(٢) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ١١٠).

(٣) انظر: تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٨١)، وتفسير الطبري (٤/ ١٨١، ١٨٢)، وتفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٨١٧).

الشرح:

قال رحمه الله: (بَابُ قولِ اللهِ تعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]).

هذا الباب في بيان عبادة الخوف، ومناسبته لكتاب التوحيد ظاهرة: وهي أن خوف العبد من الله عز وجل عبادة من العبادات التي أوجبها الله عز وجل، فالخوف والمحبة والرجاء عبادات قلبية واجبة، وتكميلها تكميل للتوحيد، والنقص فيه نقص لكمال التوحيد.

وفي هذه الآية دليل على أن الخوف يجب أن يفرد به الله عز وجل، قال هنا: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فجعل حصول الإيمان مشروطًا بالخوف منه عز وجل [(١)]، وهذا فيه دليل على إفراد الله عز وجل بهذا النوع من الخوف.

وهذا الخوف بيان خوف السر الذي يجب إفراد الله عز وجل به، ومن لم يفرد الله عز وجل به، فهو مشرك كافر، هو نوع من أنواع الخوف، وليس كل أنواع الخوف، وهو أن يخاف غير الله عز وجل بما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل، وهو المسمى عند العلماء خوف السر[(٢)]، وهو أن يخاف أن يصيبه هذا

(١) قال ابن القيم رحمه الله في طريق الهجرتين (ص٤٢٢، ٤٢٣): (فجعل الخوف منه شرطا في تحقيق الإيمان، وإن كان الشرط داخلا في الصيغة على الإيمان فهو المشروط في المعنى، والخوف شرط في حصوله وتحققه، وذلك لأن الإيمان سبب الخوف الحاصل عليه، وحصول المسبب شرط في تحقق السبب؛ كما أن حصول السبب موجب لحصول مسببه، فانتفاء الإيمان عند انتفاء الخوف انتفاء للمشروط عند انتفاء شرطه، وانتفاء الخوف عند انتفاء الإيمان انتفاء للمعلول عند انتفاء علته فتدبره). وانظر: مجموع الفتاوى (١/ ٥٧)، وتيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص (٤٢٩).

(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص(٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦)، ومجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله - قسم الرسائل الشخصية - الرسالة السابعة (٣/ ٢٧)، والدرر السنية في الأجوبة النجدية (١/ ٥٦٧).

المخوف منه بشيء في نفسه - في نفس ذلك الخائف -؛ كما يصيبه الله عَزَّوَجَلَّ بأنواع المصائب من غير أسباب ظاهرة، ولا شيء يمكن الاحتراز منه، فإن الله عَزَّوَجَلَّ له الملكوت كله، وله الملك، وهو على كل شيء قدير، بيده تصريف الأمر، يرسل ما يشاء من الخير، ويمسك ما يشاء من الخير، يرسل المصائب، وكل ذلك دون أسباب يعلمها العبد، وقد يكون لبعضها أسباب، لكن هو في الجملة من دون أسباب يمكن للعبد أن يعلمها، يموت هذا، ينقضي عمر ذاك، وهذا يموت صغيرًا، وذاك يموت كبيرًا، هذا يأتيه مرض، وذاك يصيبه بلاء في ماله ونحو ذلك، فالذي يفعل هذه الأشياء هو الله عَزَّوَجَلَّ ، فيُخاف من الله عَزَّوَجَلَّ خوف السرأن يصيب العبد بشيء من العذاب في الدنيا أو في الآخرة.

والمشركون يخافون آلهتهم خوف السر أن يصيبهم ذلك الإله، وذلك السيد أو الولي كما يصيبهم الله عَزَّوَجَلَّ بالأشياء، فيقع في قلوبهم الخوف من تلك الآلهة من جنس الخوف الذي يكون من الله عَزَّوَجَلَّ ، يوضح ذلك أن عُبَّاد القبور، وعُبَّاد الأضرحة، وعُبَّاد الأولياء يخافون أشد الخوف من الولي أن يصيبهم بشيء، إذا تُنُقِّص الولي، أو إذا لم يُقَم بحقه.

والخوف من غير الله عَزَّوَجَلَّ ينقسم إلى ما هو شرك، وإلى ما هو محرم، وإلى ما هو مباح، فهذه ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الخوف الشركي، وهو خوف السر، يعني: أن يخاف في داخله من هذا المخوف منه، وخوفه لأجل ما عند هذا المخوف منه مما يرجوه، أو يخافه مِنْ أن يمسه سرًا بشيء، أو أنه يملك له في آخرته ضرًا أو نفعًا، فالخوف الشركي متعلق في الدنيا بخوف السر بأن يخاف أن يصيبه ذلك الإله بشر، وذلك شرك، وربما يأتي تفصيله.

والخوف المتعلق بالآخرة: خاف غير الله، وتعلق خوفه بغير الله؛

لأجل أنه يخاف أن لا ينفعه ذلك الإله في الآخرة، فلأجل رغبه في أن ينفعه ذلك الإله في الآخرة، وأن يشفع له، وأن يقربه منه في الآخرة، وأن يبعد عنه العذاب في الآخرة، خاف منه، فأنزل خوفه به.

فالخوف من العبادات العظيمة، التي يجب أن يُفرَد الله عَزَّوَجَلَّ بها، وسيأتي مزيد تفصيل لذلك.

والقسم الثاني: الخوف المحرم، وهو أن يخاف من مخلوق في امتثال واجب، أو البعد عن المحرم مما أوجبه الله أو حرمه، يخاف من مخلوق في أداء فرض من فرائض الله، يخاف من مخلوق في أداء واجب من الواجبات، لا يصلي خوفًا من مخلوق، لا يحضر الجماعة خوفًا من ذم المخلوق له، أو استنقاصه له، فهذا محرم، قال بعض العلماء: وهو نوع من أنواع الشرك، يترك الأمر والنهي الواجب بشرطه خوفًا من ذم الناس، أو من ترك مدحهم له، أو من وصمهم له بأشياء، فهذا خوف رجع على الخائف بترك أمر الله، وهذا محرم؛ لأن الوسيلة إلى المحرم محرمة(١).

القسم الثالث: خوف جائز، وهو الخوف الطبيعي: أن يخاف من الأسباب العادية التي جعل الله فيها ما يخاف ابن آدم منه؛ كأن يخاف من النار أن تحرقه، أو يخاف من السبع أن يعدو عليه، أو من العقرب أن تلدغه، أو يخاف من ذي سلطان غشوم أن يعتدي عليه، ونحو ذلك، هذا النوع خوف طبيعي من الأشياء، لا يُنقص الإيمان؛ لأنه مما جبل الله عَزَّوَجَلَّ الخلق عليه.

---

(١) قال الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما خوف المخلوق، فالمراد به: الخوف الذي يحملك أن تترك ما فرض الله عليك، وتفعل ما حرم الله عليك، خوفًا من ذلك المخلوق، وأما: الرجاء فلعل المراد: الذي يخرج العبد عن التوكل على الله والثقة بوعده، وكل هذه الأمور كثيرة جدا. وأما قولك: هل المراد به الشرك الأصغر، أو الأكبر؟ فهذا يختلف باختلاف الأحوال، وقد يتصنع لمخلوق فيخافه أو يرجوه، فيدخل في الشرك الأصغر، وقد يتزايد ذلك ويتوغل فيه حتى يصل إلى الشرك الأكبر). انظر: الدرر السنية (٢/ ١٥١).

هذه أقسام ثلاثة مشهورة، وبها تجمع مسائل أقسام الخوف - الشركي منه وما ليس بشركي -، وهذه المسألة مما يكثر فيها اضطراب طلاب العلم؛ لأنه ليس عندهم ضبط للخوف الذي يحصل به - إن صُرف لغير الله عَزَّوَجَلَّ - الشركُ الذي يوصف مَنْ قام به أنه مشرك، أيُّ خوف هذا؟ هو خوف السِّر، ووصفه وضبط حاله هو ما سبق، فليكن طالب العلم منه على ذكر وبينة في فهمه لهذه المسألة العظيمة. الخوف عبادة قلبية موردها القلب، قد يظهر أثره على الجوارح.

(بَابُ قولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾): **وجه الاستدلال من هذه الآية**: أنه قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾، وهذا نهي، والنهي للتحريم، ونَهَى عن إنزال عبادة الخوف بغيره، فهذا يدل على أنه نهيٌ عن أحد أفراد الشرك ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وأمر بالخوف، فدل على أن الخوف عبادة من العبادات، وتوحيد الله بهذه العبادة توحيد، وإشراك غير الله معه في هذه العبادة شرك؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، والخوف من الخلق - كما ذكرنا - في ترك فريضة الجهاد إنما يكون من جرَّاء الشيطان، فالشيطان هو الذي يخوف المؤمنين من أوليائه، ويخوف أهل التوحيد وأهل الإيمان من أعداء الله عَزَّوَجَلَّ لكي يتركوا الفريضة؛ فلهذا صار ذلك الخوف محرمًا، يعني: الخوف من الأعداء، الذي يترتب عليه ترك فريضة من فرائض الله من الجهاد وغيره، والواجب ألا يخاف العبد إلا ربه عَزَّوَجَلَّ، وأن يُنزِل خوفه به، وألا يخاف أولياء الشيطان.

وقوله عَزَّوَجَلَّ هنا: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ معناها - على الصحيح من التفسير، أو على الراجح -: يخوفكم أولياءه، يعني: يخوف أهل الإيمان أولياءَ الشيطان، ففاعل يخوف محذوف دل عليه السياق،

يخوف الناسَ - الفاعل هو الشيطان - يخوف الشيطانُ الناسَ أولياءَه - أولياء الشيطان -، أي: يجعل الشيطان أهل التوحيد في خوف من أعدائهم؛ لهذا قال السلف في تفسيرها: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ يعني: يخوفكم أولياءَه، وهذا ظاهر من الآيات قبلها كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

قَولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

ش: أخبر تعالى أن مساجد الله لا يعمرها إلا أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا بجوارحهم، وأخلصوا له الخشية دون من سواه، فأثبت لهم عمارة المساجد بعد أن نفاها عن المشركين؛ لأن عمارة المساجد بالطاعة والعمل الصالح، والمشرك وإن عمل فعمله: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩]، أو ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وما كان كذلك فالعدم خير منه، فلا تكون المساجد عامرة إلا بالإيمان، الذي معظمه التوحيد مع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع، وذلك كله داخل في مسمى الإيمان المطلق عند أهل السنة والإجماع.

قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قال ابن عطية: يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة، ولا محالة أن الإنسان يخشى المحاذير الدنيوية، وينبغي في ذلك كله قضاء الله وتصريفه[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الخوف عبودية القلب؛ فلا يصلح إلا لله، كالذل والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب[2].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٨/١٤٨).
(٢) انظر: طريق الهجرتين (ص٤٣٧).

....

قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨] قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «إِنَّ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَكُلُّ عَسَى فِي الْقُرْآنِ، فَهِيَ وَاجِبَةٌ»(١).

وفي الحديث: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ المَسْجِدَ، فَاشْهَدُوا لَهُ بِالإِيمَانِ قَالَ اللَّهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]. رواه أحمد والترمذي والحاكم(٢).

الشرح:

قَولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

وجه الدلالة من الآية قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وهذا نفي واستثناء، وسبق أن مجيء أداة الاستثناء بعد النفي يدل على الحصر والقصر، فإذًا الآية دالة بظهور على أن الخشية يجب أن تكون في الله، وأن الله أثنى على أولئك؛ لأنهم جعلوا خشيتهم من الله وحده دون ما سواه، والخشية أخص من الخوف.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٩٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٧٦٦)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٩٣)، والدارمي (١٢٥٩)، وأحمد (١٨/ ١٩٤، ٢٥١)، والحاكم (١/ ٢٣٢)، وابن خزيمة (٢/ ٣٧٩)، وابن حبان (٥/ ٦)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٣٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وَقَــوْلِــهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

ش: قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ صِفَاتِ قَوْمٍ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ الْإِيمَانَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَلَمْ يَثْبُتِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ، بِأَنَّهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ فِتْنَةٌ وَمِحْنَةٌ فِي الدُّنْيَا، اعْتَقَدُوا أَنَّ هَذَا مِنْ نِقْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِهِمْ، فَارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: يَعْنِي فِتْنَتَهُ أَنْ يَرْتَدَّ عَنْ دِينِهِ إِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ[١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَإِنَّ النَّاسَ إِذَا أُرْسِلَ إِلَيْهِم الرُّسُلُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، إِمَّا أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: آمَنَّا، وَإِمَّا أَلَّا يَقُولَ ذَلِكَ، بَلْ يَسْتَمِرُّ عَلَى السَّيِّئَاتِ وَالْكُفْرِ، فَمَنْ قَالَ: آمَنَّا امْتَحَنَهُ رَبُّهُ وَابْتَلَاهُ وَفَتَنَهُ، وَالْفِتْنَةُ الِابْتِلَاءُ وَالِاخْتِبَارُ لِيَتَبَيَّنَ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ، وَمَنْ لَمْ يَقُلْ آمَنَّا فَلَا يَحْسِبْ أَنَّهُ يُعْجِزُ اللَّهَ وَيَفُوتُهُ وَيَسْبِقُهُ.

فَمَنْ آمَنَ بِالرُّسُلِ وَأَطَاعَهُمْ عَادَاهُ أَعْدَاؤُهُمْ وَآذَوْهُ، فَابْتُلِيَ بِمَا يُؤْلِمُهُ، وَإِنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِمْ، وَلَمْ يُطِعْهُمْ عُوقِبَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَحَصَلَ لَهُ مَا يُؤْلِمُهُ، وَكَانَ هَذَا الْمُؤْلِمُ لَهُ أَعْظَمَ أَلَمًا وَأَدْوَمَ مِنْ أَلَمِ اتِّبَاعِهِمْ.

فَلَا بُدَّ مِنْ حُصُولِ الْأَلَمِ لِكُلِّ نَفْسٍ، آمَنَتْ أَوْ رَغِبَتْ عَنِ الْإِيمَانِ، لَكِنَّ الْمُؤْمِنَ يَحْصُلُ لَهُ الْأَلَمُ فِي الدُّنْيَا ابْتِدَاءً، ثُمَّ تَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٢٦٥).

....

وَالْمُعْرِضُ عَنِ الْإِيمَانِ تَحْصُلُ لَهُ اللَّذَّةُ ابْتِدَاءً، ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى الْأَلَمِ الدَّائِمِ.

فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَدَنِيٌّ بِالطَّبْعِ، لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَعِيشَ مَعَ النَّاسِ، وَالنَّاسُ لَهُمْ إِرَادَاتٌ وَتَصَوُّرَاتٌ، فَيَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يُوَافِقَهُمْ عَلَيْهَا، فَإِنْ لَمْ يُوَافِقْهُمْ آذَوْهُ وَعَذَّبُوهُ، وَإِنْ وَافَقَهُمْ، حَصَلَ لَهُ الْأَذَى وَالْعَذَابُ، تَارَةً مِنْهُمْ وَتَارَةً مِنْ غَيْرِهِمْ، كَمَنْ عِنْدَهُ دِينٌ وَتُقًى حَلَّ بَيْنَ قَوْمٍ فُجَّارٍ ظَلَمَةٍ ؛ لَا يَتَمَكَّنُونَ مِنْ فُجُورِهِمْ وَظُلْمِهِمْ إِلَّا بِمُوَافَقَتِهِ لَهُمْ، أَوْ سُكُوتِهِ عَنْهُمْ، فَإِنْ وَافَقَهُمْ أَوْ سَكَتَ عَنْهُمْ سَلِمَ مِنْ شَرِّهِمْ فِي الِابْتِدَاءِ، ثُمَّ يَتَسَلَّطُونَ عَلَيْهِ بِالْإِهَانَةِ وَالْأَذَى أَضْعَافَ مَا كَانَ يَخَافُهُ ابْتِدَاءً لَوْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ وَخَالَفَهُمْ، وَإِنْ سَلِمَ مِنْهُمْ فَلَا بُدَّ أَنْ يُهَانَ وَيُعَاقَبَ عَلَى يَدِ غَيْرِهِمْ.

فَالْحَزْمُ كُلُّ الْحَزْمِ فِي الْأَخْذِ بِمَا قَالَتْ عائشة أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ، كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»[1].

فَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ، وَأَلْهَمَهُ رُشْدَهُ، وَوَقَاهُ شَرَّ نَفْسِهِ، امْتَنَعَ مِنَ الْمُوَافَقَةِ عَلَى فِعْلِ الْمُحَرَّمِ، وَصَبَرَ عَلَى عُدْوَانِهِمْ، ثُمَّ تَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا كَانَتْ لِلرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ.

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ حَالِ الدَّاخِلِ فِي الْإِيمَانِ بِلَا بَصِيرَةٍ، وَأَنَّهُ إِذَا أُوذِيَ فِي

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٤)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٨/١٤٤٦) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، مرفوعًا إلى النبي ﷺ.

....

اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ لَهُ، كَعَذَابِ اللَّهِ، وَهِيَ أَذَاهُمْ لَهُ، وَنَيْلُهُمْ إِيَّاهُ بِالْمَكْرُوهِ وَالْأَلَمِ الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يَنَالَهُ الرُّسُلُ وَأَتْبَاعُهُمْ مِمَّنْ خَالَفَهُمْ، جَعَلَ ذَلِكَ فِي فِرَارِهِ مِنْهُمْ وَتَرْكِهِ السَّبَبَ الَّذِي نَالَهُ كَعَذَابِ اللَّهِ الَّذِي فَرَّ مِنْهُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْإِيمَانِ.

فَالْمُؤْمِنُونَ لِكَمَالِ بَصِيرَتِهِمْ فَرُّوا مِنْ أَلَمِ عَذَابِ اللَّهِ إِلَى الْإِيمَانِ، وَتَحَمَّلُوا مَا فِيهِ مِنَ الْأَلَمِ الزَّائِلِ الْمُفَارِقِ عَنْ قَرِيبٍ.

وَهَذَا لِضَعْفِ بَصِيرَتِهِ فَرَّ مِنْ أَلَمِ عَذَابِ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ إِلَى مُوَافَقَتِهِمْ وَمُتَابَعَتِهِمْ، فَفَرَّ مِنْ أَلَمِ عَذَابِهِمْ إِلَى أَلَمِ عَذَابِ اللَّهِ، فَجَعَلَ أَلَمَ فِتْنَةِ النَّاسِ فِي الْفِرَارِ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ أَلَمِ عَذَابِ اللَّهِ، وَغُبِنَ كُلَّ الْغَبْنِ إِذِ اسْتَجَارَ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ، وَفَرَّ مِنْ أَلَمِ سَاعَةٍ إِلَى أَلَمِ الْأَبَدِ، وَإِذَا نَصَرَ اللَّهُ جُنْدَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ قَالَ: إِنِّي كُنْتُ مَعَكُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا انْطَوَى عَلَيْهِ صَدْرُهُ مِنَ النِّفَاقِ). انتهى(١).

وفي الآية رد على المرجئة والكرامية، ووجهه: أنه لم ينفع هؤلاء قولهم: آمنا بالله. مع عدم صبرهم على أذى من عاداهم في الله، فلا ينفع القول والتصديق بدون العمل، فلا يصدق الإيمان الشرعي على الإنسان إلا باجتماع الثلاثة: التصديق بالقلب وعمله، والقول باللسان، والعمل بالأركان، وهذا قول أهل السنة والجماعة سلفًا وخلفًا، والله عَزَّ وَجَلَّ أعلم.

وفيه الخوف من مداهنة الخلق في الحق. والمعصوم من عصمه الله.

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٤- ١٨).

الشرح:

وَقَـوْلِـهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ بأن خاف منها، وترك ما أوجب الله عليه، أو أقدم على ما حرم الله عليه، خشية من كلام الناس.

هذه الآية من سورة العنكبوت، وموضوع سورة العنكبوت هو الفتنة التي ابتلى الله عَزَّوَجَلَّ الناس بها، واقرأ في مطلعها قول الحق عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٢-٣]، هذا المطلع لهذه السورة العظيمة دل على أن الله عَزَّوَجَلَّ اقتضت حكمته وإرادته العلية أن يجعل الناس يفتنون، كل يفتن بحسب ما هو فيه، والعلة في ذلك أن يختبر الله الناس: هل هم صادقون في إيمانهم، أم أنهم غير صادقين في إيمانهم؟ ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣].

المعنى الحقيقي للفتنة: هو كل ما يرد على القلوب ليفتنها وليختبرها: هل هي مستسلمة لأمر الله عَزَّوَجَلَّ وأمر رسوله ﷺ، أم ليست مستسلمة؟

والفتنة في القرآن من أوله إلى آخره تدور حول هذا المعنى: ما يرد على القلوب، ويرد على الإنسان بروحه وبدنه؛ ليختبر: هل إيمانه صحيح قوي صادق، أم أنه آمن إيمانًا ضعيفًا غير قوي الصدق فيه، أم أنه ليس بمؤمن أصلًا، بل هو من المنافقين؟

وهذه السورة العظيمة دارت حول هذا الموضوع، فذكر الله عَزَّوَجَلَّ فيها أمورًا كثيرة مما تفتتن به الناس، ويختبر، ويبتلى به الناس، كل بحسب ما هو فيه.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ: أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَأَنْ تَذِمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ، اللهُ إِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كُرْهُ كَارِهٍ»[1].

ش: هذا الحديث رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي، وأعله بمحمد بن مروان السدى، وقال: ضعيف، وفيه أيضًا عطية العوفي: ذكره الذهبي في الضعفاء والمتروكين، ومعنى الحديث صحيح، وتمامه: «وَإِنَّ اللَّهَ بِحِكْمَتِهِ جَعَلَ الرُّوحَ وَالْفَرَحَ في الرِّضَى وَالْيَقِينِ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ».

قوله: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ». الضعف يضم ويحرك، ضد القوة، ضعف ككرم ونصر، ضعفًا، وضعفة، وضعافية، فهو ضعيف وضعوف وضعفان، والجمع: ضعاف وضعفاء وضعفة وضعفى، أو الضعف - بالفتح - في الرأي وبالضم في البدن، فهي ضعيفة وضعوف. اليقين: كمال الإيمان. قال ابن مسعود: «اليَقِينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ، وَالصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ».

رواه أبو نعيم الحلية، والبيهقي في الزهد من حديثه مرفوعًا[2].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ١٠٦)، (١٠/ ٤١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٢١).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٥٤٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٤) وصححه، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٤)، وأخرجه البخاري معلقًا مقتصرًا على شطره الأول، في أول كتاب الإيمان (ص٩). قال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٤٠): (رواه الطبراني في الكبير، ورواته رواة الصحيح، وهو موقوف، وقد رفعه بعضهم).

....

قال: ويدخل في ذلك تحقيق الإيمان بالقدر السابق؛ كما في حديث ابن عباس مرفوعًا: «فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ بِالرِّضَى فِي الْيَقِينِ فَافْعَلْ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا»[1]، وفي رواية: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ أَصْنَعُ بِالْيَقِينِ؟ قَالَ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ»[2].

قوله: «أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ» أي: تؤثر رضاهم على رضى الله، وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته ما يمنعه من استجلاب رضى المخلوق بما يجلب له سخط خالقه وربه ومليكه، الذي يتصرف في القلوب، ويفرج الكروب، ويغفر الذنوب، وبهذا الاعتبار يدخل في نوع من الشرك؛ لأنه آثر رضى المخلوق على رضى الله، وتقرب إليه بما يسخط الله، ولا يسلم من هذا إلا من سلمه الله، ووفقه لمعرفته ومعرفة ما يجوز على الله من إثبات صفاته على ما يليق بجلاله وتنزيهه - تعالى عن كل ما ينافي كماله -، ومعرفة توحيده من ربوبيته وإلهيته، وبالله التوفيق.

قوله: «وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ». أي: على ما وصل إليك من أيديهم، بأن تضيفه إليهم، وتحمدهم عليه، فإن المتفضل في الحقيقة هو الله وحده الذي قدره لك، وأوصله إليك، وإذا أراد أمرًا قيض له أسبابًا،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣١٤)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٥٤١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٢/ ٣٥٣)، والفريابي في القدر (ص١٣٠ رقم١٥٥).

(٢) أخرجه الآجري في الشريعة (١٩٨).

ولا ينافي هذا حديث: «مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ»[(١)]: لأن شكرهم إنما هو بالدعاء لهم؛ لكون اللَّه ساقه على أيديهم، فتدعو لهم، أو تكافئهم، لحديث: «وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»[(٢)].

فإضافة الصنيعة إليهم؛ لكونهم صاروا سببًا في إيصال المعروف إليك، والذي قدره وساقه هو الله وحده.

قوله: «وَأَنْ تَذِمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ»: لأنه لم يقدر لك ما طلبته على أيديهم، فلو قدره لك، لساقته المقادير إليك، فمن علم أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده، وأنه هو الذي يرزق العبد بسبب وبلا سبب، ومن حيث لا يحتسب، لم يمدح مخلوقًا على رزق، ولم يذمه على منع، ويفوض أمره إلى الله، ويعتمد عليه في أمر دينه ودنياه. وقد قرر النبي هذا المعنى بقوله في الحديث: «إِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كُرْهُ كَارِهٍ»: كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

(١) أخرجه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤) وقال: (حسن صحيح)، وأحمد في المسند (٢/ ٢٩٥)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٨٥)، وابن حبان في صحيحه (٨/ ١٩٨)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ١٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ. وفي الباب من حديث أبي سعيد الخدري، والأشعث بن قيس، والنعمان بن بشير ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٧٢)، والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٣)، وأحمد في المسند (٢/ ٦٨)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٨٥)، وابن حبان في صحيحه (٨/ ١٩٩)، والطبراني في الكبير (١٣٤٦٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٧٣) وصححه، والبيهقي في الكبرى (٤/ ١٩٩) من حديث ابن عمر ﷺ.

....

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (الْيَقِينَ يَتَضَمَّنُ الْيَقِينَ فِي الْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَمَا وَعَدَ اللَّهُ أَهْلَ طَاعَتِهِ، وَيَتَضَمَّنُ الْيَقِينَ بِقَدَرِ اللَّهِ وَخَلْقِهِ وَتَدْبِيرِهِ، فَإِذَا أَرْضَيْتَهُمْ بِسَخَطِ اللَّهِ لَمْ تَكُنْ مُوقِنًا لَا بِوَعْدِهِ وَلَا بِرِزْقِهِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَحْمِلُ الْإِنْسَانَ عَلَى ذَلِكَ إِمَّا مَيْلٌ إِلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ الدُّنْيَا، فَيَتْرُكُ الْقِيَامَ فِيهِمْ بِأَمْرِ اللَّهِ؛ لِمَا يَرْجُوهُ مِنْهُمْ.

وَإِمَّا ضَعْفُ تَصْدِيقٍ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ أَهْلَ طَاعَتِهِ مِنْ النَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ وَالثَّوَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَإِنَّك إذَا أَرْضَيْتَ اللَّهَ نَصَرَكَ، وَرَزَقَكَ، وَكَفَاكَ مُؤْنَتَهُمْ، فَإِرْضَاؤُهُمْ بِسَخَطِهِ إِنَّمَا يَكُونُ خَوْفًا مِنْهُمْ وَرَجَاءً لَهُمْ؛ وَذَلِكَ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ، وَإِذَا لَمْ يُقَدَّرْ لَك مَا تَظُنُّ أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَهُ مَعَك: فَالْأَمْرُ فِي ذَلِكَ إلَى اللَّهِ لَا لَهُمْ، فَإِنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَإِذَا ذَمَمْتَهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُقَدَّرْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ ضَعْفِ يَقِينِكِ، فَلَا تَخَفْهُمْ وَلَا تَرْجُهُمْ وَلَا تَذُمَّهُمْ مِنْ جِهَةِ نَفْسِك وَهَوَاكَ؛ لَكِنْ مَنْ حَمِدَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﷺ فَهُوَ الْمَحْمُودُ، وَمَنْ ذَمَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﷺ فَهُوَ الْمَذْمُومُ. وَلَمَّا قَالَ بَعْضُ وَفْدِ بَنِي تَمِيمٍ: «يَا مُحَمَّدُ أَعْطِنِي، فَإِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ وَإِنَّ ذَمِّي شَيْنٌ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»)[1].

ودل الحديث على أن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأعمال من مسمى الإيمان.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٥١، ٥٢).

الشـرح:

قوله: (عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَأَنْ تَذِمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ إِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كُرْهُ كَارِهٍ»).

وجه الاستدلال من هذا الحديث قوله: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ».

«إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ». يعني: من أسباب ضعف الإيمان، والذي يضعف الإيمان المحرمات؛ لأن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، فدل على أن إرضاء الناس بسخط الله معصية، وذنب ومحرم؛ لأن هذا الذي أرضى الناس بسخط الله، خافهم أو رجاهم، وهذا مناسبة إيراد الحديث في الباب.

وَعَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ، سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ». رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ[١].

ش: هذا الحديث رواه ابن حبان بهذا اللفظ، ورواه الترمذي عن رجل من أهل المدينة قال: «كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنِ اكْتُبِي إِلَيَّ كِتَابًا تُوصِينِي فِيهِ، وَلَا تُكْثِرِي عَلَيَّ، فَكَتَبَتْ عَائِشَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ: سَلَامٌ عَلَيْكَ. أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مَؤُونَةَ النَّاسَ. مَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهَ، وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ». ورواه أبو نعيم في الحلية[٢].

قوله: «مَنِ الْتَمَسَ». أي: طلب.

قال شيخ الإسلام: وَكَتَبَتْ عَائِشَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَرُوِيَ أَنَّهَا رَفَعَتْهُ: إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا». هَذَا لَفْظُ الْمَرْفُوعِ، وَلَفْظُ الْمَوْقُوفِ: «مَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ عَادَ حَامِدُهُ مِنْ النَّاسِ لَهُ ذَامًّا»[٣]. وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْفِقْهِ فِي الدِّينِ؛ فَإِنَّ مَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِهِمْ كَانَ قَدْ

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ٥١٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٠٠).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٤١٤)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٨٨).
(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ٢٩٩)، والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ٣٣١، ٣٣٢).

. . . .

اتَّقَاهُ، وَكَانَ عَبْدَهُ الصَّالِحَ وَٱللَّهُ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ وَهُوَ كَافٍ عَبْدَهُ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۝٣﴾ [الطلاق: ٢-٣]. فَاللَّهُ يَكْفِيهِ مُؤْنَةَ النَّاسِ بِلَا رَيْبٍ.

وَأَمَّا كَوْنُ النَّاسِ كُلِّهِمْ يَرْضَوْنَ عَنْهُ: فَقَدْ لَا يَحْصُلُ ذَلِكَ؛ لَكِنْ يَرْضَوْنَ عَنْهُ إذَا سَلِمُوا مِنْ الْأَغْرَاضِ وَإِذَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْعَاقِبَةُ وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا كَالظَّالِمِ الَّذِي يَعَضُّ عَلَى يَدِهِ، وَأَمَّا كَوْنُ حَامِدِهِ يَنْقَلِبُ ذَامًّا: فَهَذَا يَقَعُ كَثِيرًا، وَيَحْصُلُ فِي الْعَاقِبَةِ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقْوَى، لَا يَحْصُلُ ابْتِدَاءً عِنْدَ أَهْوَائِهِمْ. ا.هـ[١].

وقد أحسن من قال:

إِذَا صَحَّ مِنْكَ الْوُدُّ يَا غَايَةَ الْمُنَى   فَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ

قال ابن رجب رحمه الله: فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب، فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب؟ أم كيف يرضى التراب بسخط الملك الوهاب؟ إن هذا لشئ عجاب[٢].

وفي الحديث: عقوبة من خاف الناس، وآثرهم رضاهم على الله، وأن العقوبة قد تكون في الدين - عياذًا بالله من ذلك -؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟﴾ [التوبة: ٧٧].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٥٢).

(٢) انظر: نور الاقتباس (ص٨٩).

الشرح:

قوله: (وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ، سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ». رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ): هذا جزاء الذي أفرد الله بعبادة الخوف، وجزاء الذي لم يُكْمِل التوحيد في عبادة الخوف، فالذي التمس رضا الله بسخط الناس هذا عظم الله وخافه، ولم يجعل فتنة الناس كعذاب الله، بل جعل عذاب الله عَزَّ وَجَلَّ أعظم، فخاف الله، وخشيه، وطمع فيما عنده، فلم يلتفت إلى الناس، ولم يرفع بهم رأسًا.

«مَنِ الْتَمَسَ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ، سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ»: لأنه ارتكب ذنبًا أن خاف الناس، وجعل خوفه من الناس سببًا لعمل المحرم، أو ترك فريضة من فرائض الله؛ لهذا قال ﷺ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ»، فكان جزاؤه أن سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ آلَ عِمْرَانَ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَةٍ.

الثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْعَنْكَبُوتِ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْيَقِينَ يَضْعُفُ وَيَقْوَى.

الْخَامِسَةُ: عَلَامَةُ ضَعْفِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الثَّلَاثُ.

السَّادِسَةُ: أَنَّ إِخْلَاصَ الْخَوْفِ للهِ مِنَ الْفَرَائِضِ.

السَّابِعَةُ: ذِكْرُ ثَوَابِ مَنْ فَعَلَهُ.

الثَّامِنَةُ: ذِكْرُ عِقَابِ مَنْ تَرَكَهُ.

٣٢ - بَابُ

قَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

ش: قوله: (بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

قال أبو السعادات: يقال: توكل بالأمر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلان، إذا اعتمدت عليه، ووكل فلان فلانًا إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته، أو عجزًا عن القيام بأمر نفسه. ا.هـ[1].

وأراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة بالآية بيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى؛ فإن تقديم المعمول يفيد الحصر. أي: وعلى الله فتوكلوا لا على غيره، فهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها؛ لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة، فإنه إذا اعتمد على الله في جميع أموره الدينية والدنيوية، دون كل من سواه، صح إخلاصه ومعاملته مع الله تعالى.

فهو من أعظم منازل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، **فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله؛ كما في هذه الآية، وكما قال تعالى:** ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، **وقوله:** ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩].

الآيات في الأمر به كثيرة جدًا، قال الإمام أحمد رحمه الله: (التوكل عمل القلب)[2].

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث (٥/ ٢٢١).

(٢) ذكر ذلك ابن القيم في طريق الهجرتين (ص٣٨٩)، ومدارج السالكين (٢/ ١١٤).

. . . .

وقال ابن القيم في معنى الآية المترجم بها: فجعل التوكل على الله شرطًا في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه، وفي الآية الآخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، فجعل دليل صحة الإسلام التوكل، وكلما قوى إيمان العبد، كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان، ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفًا، كان دليلًا على ضعف الإيمان ولا بد، والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والهداية.

فظهر أن التوكل أصل جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل[1].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وَمَا رَجَا أَحَدٌ مَخْلُوقًا، أَوْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ إِلَّا خَابَ ظَنُّهُ فِيهِ، فَإِنَّهُ مُشْرِكٌ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١] [2].

قال الشارح رحمه الله: قلت: لكن التوكل على الله قسمان:

أحدهما: التوكل في الأمور التي لا يقدرعليها إلا الله؛ كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم من نصر، أو حفظ، أو رزق، أو شفاعة، فهذا شرك أكبر.

---

(١) انظر: طريق الهجرتين (ص٣٨٦).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٥٧).

....

الثاني: التوكل في الأسباب الظاهرة كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أقدره الله تعالى عليه من رزق، أو دفع أذى ونحو ذلك، فهو نوع شرك أصغر.

والوكالة الجائزة: هي توكيل الإنسان الإنسان في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه، لكن ليس له أن يعتمد في حصوله ما وكل فيه، بل يتوكل على الله في تيسير أمره الذي يطلبه بنفسه أو نائبه، وذلك من جملة الأسباب التي يجوز فعلها، ولا يعتمد عليها، بل يعتمد على المسبب الذي أوجد السبب والمسبب.

الشرح:

فهذا: (بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]).

وهذا الباب عقده الإمام المصلح المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله - في هذا الكتاب العظيم كتاب التوحيد - لبيان أن التوكل على الله فريضة من الفرائض، وواجب من الواجبات، وأن إفراد الله عز وجل به توحيد، وأن التوكل على غير الله شرك مخرج من الملة، والتوكل على الله شرط في صحة الإسلام، وشرط في صحة الإيمان، فالتوكل عبادة عظيمة، فعقد هذا الباب لبيان هذه العبادة.

وحقيقة التوكل على الله عز وجل أن العبد يعلم أن هذا الملكوت إنما هو بيد الله عز وجل يصرفه كيف يشاء، فيفوض الأمر إليه، ويلتجئ بقلبه في تحقيق

مطلوبه، وفي الهرب مما يسوؤه، يلتجئ في ذلك، ويعتصم بالله عَزَّوَجَلَّ وحده، فيُنزِل حاجته بالله، ويفوض أمره إلى الله، ثم يعمل السبب الذي أمر الله به، فحقيقة التوكل في الشرع تجمع تفويض الأمر إلى الله عَزَّوَجَلَّ وفعْلَ الأسباب، بل إن نفس الإيمان سبب من الأسباب التي يفعلها المتوكلون على الله، بل إن نفس التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ سبب من الأسباب، فالتوكل حقيقته في الشرع تجمع عبادة قلبية عظيمة، وهي تفويض الأمر إليه، والالتجاء إليه، والعلم بأنه لا أمر إلا أمره، ولا شيء إلا بما قدره وأَذِن به كونًا، ثم فعل السبب الذي أوجب الله عَزَّوَجَلَّ فعلَه أو أمر بفعله، فترك فعل الأسباب ينافي حقيقة التوكل الشرعية؛ كما أن الاعتماد على السبب وترك تفويض الأمر إلى الله عَزَّوَجَلَّ ينافي حقيقة التوكل الشرعية، فالمتوكل في الشرع هو من عمل السبب، وفوَّض الأمر إلى الله عَزَّوَجَلَّ في الانتفاع بالسبب، وفي حدوث المسبب في ذلك السبب، وفي توفيق الله وإعانته، فإنه لا حول ولا قوة إلا به عَزَّوَجَلَّ .

والتوكل - كما قال الإمام أحمد -: (عمل القلب)، فالتوكل عبادة قلبية محضة؛ ولهذا صار إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بها واجبًا، وصار صرفها لغير الله عَزَّوَجَلَّ شركًا.

والتوكل على غير الله عَزَّوَجَلَّ له حالان:

الحال الأولى: أن يكون شركًا أكبر، وهو أن يتوكل على أحد من الخلق فيما لا يقدر عليه إلا الله عَزَّوَجَلَّ ، يتوكل على المخلوق في مغفرة الذنب، يتوكل على المخلوق في تحصيل الخيرات الأخروية، أو يتوكل على المخلوق في تحصيل ولد له، أو في تحصيل وظيفة له، يتوكل عليه بقلبه، وهو لا يقدر على ذلك الشيء، وهذا يكثر عند عباد القبور، وعباد الأولياء، فإنهم يتوجهون إلى الموتى بقلوبهم، يتوكلون عليهم بمعنى

يفوضون أمر صلاحهم فيما يريدون في الدنيا والآخرة على أولئك الموتى، وعلى تلك الآلهة، والأوثان التي لا تقدر على شيء من ذلك، فهذا عبادة صُرِفَت لغير الله عز وجل، وهو شرك أكبر بالله عز وجل منافٍ لأصل التوحيد.

والنوع الثاني: أن يتوكل على المخلوق فيما أقدره الله عز وجل، يتوكل على مخلوق فيما أقدره الله عليه، وهذا نوع شرك، بل هو شرك خفي وشرك أصغر؛ ولهذا قال طائفة من أهل العلم: إذا قال: توكلت على الله وعليك. فإن هذا شرك أصغر؛ ولهذا قالوا: لا يجوز أن يقول: توكلت على الله ثم عليك. لأن المخلوق ليس له نصيب من التوكل، فإن التوكل إنما هو تفويض الأمر والالتجاء بالقلب إلى من بيده الأمر، وهو الله عز وجل، والمخلوق لا يستحق شيئًا من ذلك.

فإذًا التوكل على المخلوق فيما يقدر عليه هذا شرك خفي، ونوع شرك أصغر، والتوكل على المخلوق فيما لا يقدر عليه المخلوق - وهذا يكثر عند عباد القبور والمتوجهين إلى الأولياء والموتى - هذا شرك مخرج من الملة.

وحقيقة التوكل الذي ذكرناه لا يصلح إلا لله عز وجل؛ لأنه تفويض الأمر إلى من بيده الأمر، والمخلوق ليس بيده الأمر، التجاء القلب ورَغَب القلب، وطَمَع القلب في تحصيل المطلوب إنما يكون ذلك ممن يملكه، وهو الله عز وجل، أما المخلوق، فلا يقدر على شيء استقلالًا، وإنما هو سبب، فإذا كان سببًا، فإنه لا يجوز التوكل عليه؛ لأن التوكل عمل القلب، وإنما يجعله سببًا بأن يجعله شفيعًا، يجعله واسطة ونحو ذلك، فهذا لا يعني أنه متوكل عليه، فيجعل المخلوق سببًا فيما أقدره الله عليه، ولكن يفوض أمر النفع بهذا السبب إلى الله عز وجل، فيتوكل على الله، ويأتي بالسبب الذي هو الانتفاع من هذا المخلوق بما جعل الله عز وجل له من الانتفاع أو من القدرة ونحو ذلك.

قوله: (بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]). هذه الآية فيها الأمر بالتوكل، ولَمَّا أمر به، علمنا أنه من العبادة، ولَمَّا قدَّم الجاروالمجرور في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾، قدَّمه على ما يتعلق به، وهو الفعل ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾، دل على وجوب إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالتوكل، وأن التوكل عبادة يجب أن تُحصر وتُقصر في الله عَزَّوَجَلَّ، هذا وجه الاستدلال من الآية.

ودليل آخر في هذه الآية، وهو قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ جعل الإيمان لا يصح إلا بالتوكل، قال ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ يعني: أفردوا الله بالتوكل وحده ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فجعل الشرط ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، فأفردوا الله بالتوكل، فجزاء الشرط هو إفراد الله بالتوكل، فصارت دلالة الآية من جهتين.

وكذلك قوله عَزَّوَجَلَّ في آية سورة يونس: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، قال: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ أفرد التوكل به عَزَّوَجَلَّ وأمر به، فقدَّم الجار والمجرور بما يفيد الحصر والقصر والاختصاص بالله عَزَّوَجَلَّ، ثم جعل إفراد التوكل به عَزَّوَجَلَّ شرط في صحة الإسلام، فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾، فهتان الآيتان دلتا على أن التوكل عبادة، وأن إفراد الله به عَزَّوَجَلَّ واجب، وأنه شرط في صحة الإسلام، وشرط في صحة الإيمان، وهذا كله يدل على أن انتفاءه مُذْهِب لأصل التوحيد ومنافٍ لأصله إذا توكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

ونبه الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ على شيء آخر ليس من توكل العبادة، وهو التوكيل، وهو المعروف في باب الوكالة عند الفقهاء[1]: وكلت فلانًا في أمري،

(١) قال البهوتي في الروض المربع (٢/ ٢٣٩): (الوكالة بفتح الواو وكسرها التفويض، تقول: =

وكما جاء في الحديث: «**كَانَ عَلِيُّ بنُ أَبي طَالِبٍ ﷺ يَكْرَهُ الْخُصُومَةَ، فَكَانَ إِذَا كَانَتْ لَهُ خُصُومَةٌ وَكَّلَ فِيهَا عقيلَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ**»[(١)] هذا من باب الوكالة، وهو شيء آخر غير التوكل، التوكيل والوكالة باب آخر، أما التوكل، فهو عبادة قلبية، يضبط ذلك أن الوكالة فيها المعنى الظاهر، فيها شيء ظاهر، أما التوكل، فهو عمل قلبي، فالتوكل من العبادات القلبية[(٢)].

وحقيقة التوكل أنه يجمع شيئين[(٣)]:

الأول: تفويض الأمر إلى الله عز وجل.

الثاني: عدم رؤية السبب بعد عمله.

والتفويض وعدم رؤية السبب شيئان قلبيان، فالعبد المؤمن إذا فعل السبب - وهو جزء بما تحصل به حقيقة التوكل -، فإنه لا يلتفت لهذا السبب؛ لأنه يعلم أن هذا السبب لا يُحَصِّل المقصود، ولا يحصل المراد به وحده، وإنما قد يحصل المراد به، وقد لا يحصل؛ لأن حصول المرادات يكون بأشياء منها:

● السبب.

= وكلت أمري إلى الله، أي: فوضته إليه، واصطلاحا استنابة جائز التصرف مثله فيما تدخله النيابة)، وقال المناوي في التعاريف (ص٢١٧): (التوكيل إقامة الغير مقام نفسه في تصرف تملكه). وانظر: التعريفات للجرجاني (ص٩٧).

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٦/ ٨١).

(٢) قال النووي رحمه الله في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٩١): (قال الإمام الأستاذ أبو القاسم القشيري: اعلم أن التوكل محله القلب، وأما الحركة بالظاهر فلا تنافي التوكل بالقلب بعد ما تحقق العبد أن الثقة من قبل الله تعالى، فإن تعسر شيء فبتقديره، وإن تيسر فبتيسيره). وانظر: فتح الباري (٦/ ٨٢).

(٣) قال البيهقي رحمه الله في شعب الإيمان (٢/ ٥٧): (وجملة التوكل تفويض الأمر إلى الله جل ثناؤه والثقة به). وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (٣/ ٣٨٤): (وإنما التوكل المحمود أن لا يستعين بأحد في شيء، وقيل: هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب). وانظر: الروح لابن القيم (ص٢٥٤).

● صلاحية المحل.

● خلو الأمر من المضاد.

فثَم ثلاثة أشياء تحصل بها المرادات:

الأول: نعلم بما خلق الله عَزَّوَجَلَّ خلقه عليه أن هذا السبب يُنتج المسبَّب (النتيجة).

الثاني: صلاحية المحل لقيام الأمر به؛ أي: الأمر المراد.

الثالث: خلو المحل من المضاد له.

وَقَولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

ش: قال ابن عباس في الآية: (لَا يَدْخُلُ قُلُوبَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عِنْدَ أَدَاءِ فَرَائِضِهِ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَلَا يَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ، وَلَا يُصَلُّونَ إِذَا غَابُوا، وَلَا يُؤَدُّونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ. فَأَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]. فَأَدُّوا فَرَائِضَهُ). رواه ابن جرير وابن أبي حاتم(١).

ووجل القلب من الله مستلزم القيام بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه. قال السدي: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قَالَ: هُوَ الرَّجُلُ يُرِيدُ أَنْ يَظْلِمَ، أَوْ قَالَ: يَهِمَّ بِمَعْصِيَةٍ، فَيُقَالُ لَهُ: اتَّقِ اللهَ، فَيَجِلُّ قَلْبُهُ». رواه ابن أبي شيبة وابن جرير(٢).

قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]. استدل الصحابة ﷺ والتابعون ومن تبعهم من أهل السنة بهذه الآية ونظائرها على زيادة الإيمان ونقصانه.

قال عمير بن حبيب الصحابي: «إِنَّ الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ» فَقِيلَ: وَمَا زِيَادَتُهُ وَنُقْصَانُهُ؟ قَالَ: إِذَا ذَكَرْنَا اللَّهَ وَخَشِينَاهُ، فَذَلِكَ زِيَادَتُهُ، وَإِذَا غَفَلْنَا وَنَسِينَا وَضَيَّعْنَا، فَذَلِكَ نُقْصَانُهُ». رواه ابن سعد(٣).

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٧٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٥٥).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٧٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٥٥).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٦٠)، وفي الإيمان (١/ ٢٠رقم ١٤)، وعبد الله بن =

. . . .

وقال مجاهد: «الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَهُوَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ». رواه ابن أبي حاتم[(١)].

وحكى الإجماع على ذلك الشافعي وأحمد وأبو عبيد وغيرهم. رحمهم الله تعالى.

قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، أي: يعتمدون عليه بقلوبهم، مفوضين إليه أمورهم، فلا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يرغبون إلا إليه، يعلمون أن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده، والمعبود وحده، لا شريك له. وفي الآية وصف المؤمنين حقًا بثلاث مقامات من مقامات الإحسان، وهي: الخوف، وزياة الإيمان، والتوكل على الله وحده، وهذه المقامات تقتضي كمال الإيمان وحصول أعماله الباطنة والظاهرة، مثال ذلك: الصلاة، فمن أقام الصلاة، وحافظ عليها، وأدى الزكاة كما أمره الله، استلزم ذلك العمل بما يقدر عليه من الواجبات، وترك جميع المحرمات؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

= أحمد في السنة (١/ ٣١٥ رقم ٦٢٤)، والخلال (٥/ ٤٨)، والآجري في الشريعة (٢/ ٥٨٣رقم ٢١٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٥٤رقم ٥٥)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٢/ ٨٤٥ رقم ١١٣١)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٥/ ١٠١٩رقم ١٧٢٠).

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (١/ ٣١١ رقم ٦١١)، والخلال (٤/ ٤٨ رقم ١١٤٤)، والآجري في الشريعة (٢/ ٥٨٣رقم٢١٥)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٢/ ٨٥٩ رقم ١١٦٧)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٥/ ١٠٢٣ رقم ١٧٢٨).

الشرح:

قوله: (وَقَولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]).

وجه الدلالة من الآية: أنه وصف المؤمنين بهذه الصفات الخمس، وآخرها قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

وظاهر من دلالة الآية حيث قدم الجار والمجرور على أنهم أفردوا التوكل بالله عَزَّوَجَلَّ، فوصف المؤمنين بهذه الصفات، فدل على أن هذه هي أعظم مقامات أهل الإيمان، وأن هذه العبادات الخمس هي أعظم المقامات، وهذا عظيمٌ التنبه له؛ إذ كل أمور الدين والعبادات والفروع العملية التي يعملها العبد إنما هي فرع عن تحقيق هذه الخمس التي جاءت في هذه الآية.

وَقَولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وهذه الصفة تجمع الكلمات الشرعية، وتجمع الدين جميعًا؛ لأن ذكر الله فيه القرآن وفيه السنة.

ومسألة زيادة الإيمان ونقصانه اختلف فيها العلماء على أقوال:

القول الأول، وهو قول جمهور أهل العلم من أهل السنة، ومن المرجئة وغيرهم، قول الجمهور من جميع الطوائف: أن الإيمان يزيد وينقص؛ كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في النونية في وصف الإيمان عند أهل السنة[1]:

وَاشهَد عَلَيْهِمْ أَنَّ إِيمَانَ الوَرَى ... قَولٌ وفِعلٌ ثُمَّ عَقدُ جَنَانِ

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ١٣٣).

وَيزِيدُ بالطَّاعَاتِ قَطعًا هَكَذَا بِالضِّدِّ يُمسِي وَهوَ ذُو نُقصَانِ
وَاللهُ مَا إيمَانُ عَاصِينَا كإِيـ مَانِ الأمِينِ مُنَزِّلِ القُرآنِ
كَلاَّ وَلاَ إيمَانُ مُؤمِنِنَا كإِيـ مَانِ الرَّسُولِ مُعَلِّمِ الإِيمَانِ

القول الثاني: أن الإيمان يزيد، ولا ينقص، هذا منسوب إلى بعض أئمة أهل السنة؛ لأن الدليل دل على زيادته، وهذا أمر لا يدخله القياس، فلا نقول بنقصانه؛ لعدم ورود الدليل في ذلك[(١)].

القول الثالث: من قال: إن الإيمان لا يزيد، ولا ينقص. وهو قول طائفة من المرجئة ومن غيرهم[(٢)]، ولا ارتباط ما بين الإرجاء والخلاف في الأركان الثلاثة الأولى وبين القول بزيادة الإيمان ونقصانه، تارةً تجد من ذهب إلى أحد الأقوال يقول بزيادته ونقصانه، ومن ذهب إليه لا يقول بزيادته ونقصانه، يعني مثلًا: الأشاعرة - الذين هم من المرجئة، والماتريدية - منهم من يقول بزيادته ونقصانه، ومنهم من لا يقول بذلك؛ لعدم ترتبها على حقيقة الإيمان، هذا أمر زائد أدخلوه في البحث.

فإذًا لا أثر في الخلاف في مسألة زيادته ونقصانه على كونهم مرجئة، فإذا قال أحد: الإيمان لا يزيد، ولا ينقص، فلا يدل على كونه من المرجئة، لكنه يدل على أنه ليس من أهل السنة. إذا قال: الإيمان يزيد وينقص. فلا يدل قوله على أنه من أهل السنة والجماعة، بل قد يكون مرجئًا، فلا ارتباط ما بين مسألة الزيادة والنقصان ومسائل التعريف السالفة للإيمان.

---

(١) انظر: السنة للخلال (٣/ ٥٦٩)، والفرق بين الفرق (ص١٩١)، وشرح قصيدة ابن القيم (٢/ ١٤٠).

(٢) انظر: الاعتقاد للبيهقي (ص١٨٣)، والفرق بين الفرق (ص١٩١).

وَقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

ش: قال ابن القيم رحمه الله: أَيِ: اللَّهُ وَحْدَهُ كَافِيكَ، وَكَافِي أَتْبَاعَكَ، فَلَا تَحْتَاجُونَ مَعَهُ إِلَى أَحَدٍ[١].

وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٢].

وقيل: المعنى: حسبك الله، وحسبك المؤمنون.

قال ابن القيم رحمه الله: (وَهَذَا خَطَأٌ مَحْضٌ لَا يَجُوزُ حَمْلُ الْآيَةِ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْحَسْبَ وَالْكِفَايَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، كَالتَّوَكُّلِ وَالتَّقْوَى وَالْعِبَادَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

فَفَرَّقَ بَيْنَ الْحَسْبِ وَالتَّأْيِيدِ، فَجَعَلَ الْحَسْبَ لَهُ وَحْدَهُ، وَجَعَلَ التَّأْيِيدَ لَهُ بِنَصْرِهِ وَبِعِبَادِهِ، وَأَثْنَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالتَّوَكُّلِ مِنْ عِبَادِهِ حَيْثُ أَفْرَدُوهُ بِالْحَسْبِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وَلَمْ يَقُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

---

(١) انظر: زاد المعاد (١/ ٣٧).
(٢) انظر: منهاج السنة النبوية (٧/ ٢٠١)، ومجموع الفتاوى (١٠/ ١٥٤، ٢٩٣).

. . . .

فَتَأَمَّلْ كَيْفَ جَعَلَ الْإِيتَاءَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَجَعَلَ الْحَسْبَ لَهُ وَحْدَهُ، فَلَمْ يَقُلْ: وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، بَلْ جَعَلَهُ خَالِصَ حَقِّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

فَالرَّغْبَةُ وَالتَّوَكُّلُ وَالْإِنَابَةُ وَالْحَسْبُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، كَمَا أَنَّ الْعِبَادَةَ وَالتَّقْوَى وَالسُّجُودَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَالنَّذْرُ وَالْحَلِفُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى). انتهى(١).

وبهذا يتبين مطابقة الآية للترجمة. فإذا كان هو الكافي لعبده، وجب ألا يتوكل إلا عليه، ومتى التفت بقلبه إلى سواه، وكله الله إلى من التفت إليه؛ كما في الحديث: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ».

وقولِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

قال ابن القيم رحمه الله وغيره: أي: كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه، فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لا بد منه: كالحر، والبرد، والجوع، والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ به مراده منه، فلا يكون أبدًا، وفرق بين الأذى الذي هو الظاهر إيذاء وفي الحقيقة إحسان وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفى به منه.

قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ فلم يقل: فله كذا وكذا من الأجر؛ كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه

(١) انظر: زاد المعاد (١/ ٣٧- ٣٩).

....

- سبحانه - كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله، وكادته السموات والأرض ومن فيهن، لجعل الله له مخرجًا، وكفاه رزقه، ونصره. انتهى[1].

وفي أثر رواه أحمد في الزهد عن وهب بن منبه قال: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيَ بَعْضِ كُتُبِهِ: بِعِزَّتِي إِنَّهُ مَنِ اعْتَصَمَ بِي فَكَادَتْهُ السَّمَاوَاتُ بِمَنْ فِيهِنَّ، وَالْأَرْضُونَ بِمَنْ فِيهِنَّ، فَإِنِّي أَجْعَلُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَخْرَجًا، وَمَنْ لَمْ يَعْتَصِمْ بِي فَإِنِّي أَقْطَعُ يَدَيْهِ مِنْ أَسْبَابُ السَّمَاءِ وَأَخْسِفُ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ الْأَرْضَ، فَأَجْعَلُهُ فِي الْهَوَاءِ، ثُمَّ أَكِلُهُ إِلَى نَفْسِهِ. كَفَى بِي لِعَبْدِي مَآلًا. إِذَا كَانَ عَبْدِي فِي طَاعَتِي أُعْطِيهِ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَنِي، وَأَسْتَجِيبَ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَدْعُوَنِي، فَأَنَا أَعْلَمُ بِحَاجَتِهِ الَّتِي تَرْفُقُ بِهِ مِنْهُ»[2].

وفي الآية دليل على فضل التوكل، وأنه أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار؛ لأن الله تعالى علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط، فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه؛ لأن الله تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له، فعلم أن توكله هو سبب كون الله حسبًا له.

وفيها تنبيه على القيام بالأسباب مع التوكل؛ لأنه تعالى ذكر التقوى، ثم ذكر التوكل؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٤٦٥).
(٢) أخرجه أبو داود في الزهد (ص٣٢)، وأبو حاتم في تفسيره (٩/ ٢٩١٠).

....

[المائدة: ١١]، **فجعل التوكل مع التقوى الذي هو قيام الأسباب المأمور بها.**

فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض، وإن كان مشوبًا بنوع من التوكل، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزًا، ولا عجزه توكلًا، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها كلها. ذكره ابن القيم بمعناه(١).

الشرح:

وقوله: (وَقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]): يعني: كافيك الله، وكافٍ من اتبعك من المؤمنين؛ لأن الحسب هو الكافي، والكلمة المشابهة لها (حَسَب) تقول: هذا بحسب كذا، يعني: بناءً على كذا، وأما الكافي، فهو (الحسْب) بسكون السين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: كافيك الله، وكافٍ من اتبعك من المؤمنين.

وجه مناسبة هذه الآية لهذا الباب: أن الله حَسْب من توكل عليه؛ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، فالله حسْب من توكل عليه، فدل على أن الله عَزَّوَجَلَّ أمر عباده بالتوكل عليه؛ حتى يكون كافيهم من أعدائهم، وحتى يكون عَزَّوَجَلَّ كافي المؤمنين من المشركين، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ يعني: كافيك الله؛ ولهذا أعقبها بالآية الأخرى،

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/ ١٢٨).

وهي قوله عز وجل : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ والتوكل على الله عز وجل - كما ذكرنا - يرجع إلى فهم توحيد الربوبية، وإلى عِظَم الإيمان بتوحيد الربوبية، فإن بعض المشركين قد يكون عنده من التوكل على الله الشيء العظيم.

والتوكل على الله من العبادات التي تُطلَب من المؤمن، ومن العبادات الواجبة، والعبادات العظيمة؛ لهذا نقول: إن إحداث التوكل في القلب يرجع إلى التأمل في آثار الربوبية، فكلما كان العبد أكثر تأملًا في ملكوت الله، وفي السماوات والأرض، وفي الأنفس وفي الآفاق، كان علمه بأن الله هو ذو الملكوت، وأنه هو المتصرف، وأن نَصْرَه لعبده شيء يسير جدًّا بالنسبة إلى ما يجريه الله عز وجل في ملكوته، فَيُعْظِّم المؤمن بهذا التدبر اللهَ عز وجل ، ويُعظِّم التوكل عليه، ويُعَظِّم أمره ونهيه، وينظر أن الله عز وجل لا يعجِزُه شيء في الأرض ولا في السماء عز وجل .

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾: رتب الحسْب - وهو الكفاية - بالتوكل عليه، وهذه فضيلة التوكل وفضيلة المتوكلين عليه.

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلقي في النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ[١].

ش: قوله: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: كافينا، فلا نتوكل إلا عليه. قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

قوله: ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي: نعم الموكول إليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]، **ومخصوص (نِعمَ) محذوف تقديره (هو).**

قال ابن القيم رحمه الله: هو حسب من توكل عليه، وكافٍ من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن خوف الخائف، ويجير المستجير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه، وانقطع بكليته إليه، تولاه، وحفظه، وحرسه، وصانه، ومن خافه واتقاه، أمنه مما يخاف ويحذر، ويجلب إليه ما يحتاج إليه من المنافع[٢].

قوله: «قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلقي في النَّارِ». قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠].

قوله: «وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٣، ٤٥٦٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٥٤، ٣١٦).

(٢) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢٣٧).

....

فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾» رَوَاهُ البُخَارِي والنَّسَائِي.

وذلك بعد منصرف قريش والأحزاب من أحد، بلغه أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكرة عليهم، فخرج النبي ﷺ في سبعين راكبًا، حتى انتهى إلى حمراء الأسد، فألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان، فرجع إلى مكة بمن معه.

وَمَرَّ بِهِ رَكْبٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ، فَقَالَ، أَيْنَ تُرِيدُونَ؟ قَالُوا: نُرِيدُ الْمَدِينَةَ، قَالَ: فَهَلْ أَنْتُمْ مُبَلِّغُونَ عَنِي مُحَمَّدًا رِسَالَةً أُرْسِلُكُمْ بِهَا؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَإِذَا جِئْتُمُوهُ، فَأَخْبِرُوهُ أَنَّا قَدْ أَجْمَعْنَا السَّيْرَ إِلَيْهِ وَإِلَى أَصْحَابِهِ لِنَسْتَأْصِلَ بَقِيَّتَهُمْ، فَمَرَّ الرَّكْبُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ بِحَمْرَاءِ الْأَسَدِ، فَأَخْبَرُوهُ بِالَّذِي قَالَ أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»[1].

ففي هاتين القصتين فضل هذه الكلمة العظيمة، وأنها قول الخليلين - عليهما الصلاة والسلام - في الشدائد، وجاء في الحديث: «إِذَا وَقَعْتُمْ فِي الأَمْرِ العظيمِ، فَقُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»[2].

---

(١) أخرجه ابن جرير (٧/ ٤٠٦).

(٢) أخرجه ابن مردويه من حديث أبي هريرة ﷺ. انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٠)، والدر المنثور (٢/ ٣٩٠).

الشـرح:

قـولـه: (وَعَـنِ ابـنِ عَـبَّـاسٍ قَـالَ: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قَـالَـهَـا إبراهيمُ عليه السلام حِينَ أُلقِي في النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾) هذا يبين عِظَم هذه الكلمة، وهو قول المؤمن: حسبنا الله ونعم الوكيل.

فإذا حقق العبد التوكل على الله، وحققه في القلب، معناه أنه حقق هذا النوع من التوحيد، توحيد التوكل في النفس. فإن العبد إذا أعْظَم رجاءه في الله، وتوكله على الله، فإنه وإن كادته السماوات والأرض ومن فيهن فإن الله سيجعل له من أمره يسرًا، وسيجعل له من بينها مخرجًا.

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾: يعني: كافينا الله.

﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾: يعني: ونعم الوكيل ربنا، هذه كلمة عظيمة قالها إبراهيم عليه السلام في الكرب، وقالها النبي ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم في الكرب لَمَّا قال لهم الناس: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾؛ وذلك لعظم توكلهم على الرب عز وجل .

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: أَنَّ التَّوَكُّلَ مِنَ الْفَرَائِضِ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ مِنْ شُرُوطِ الْإِيمَانِ.

الثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْأَنْفَالِ.

الرَّابِعَةُ: تَفْسِيرُ الْآيَةِ فِي آخِرِهَا.

الْخَامِسَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الطَّلَاقِ.

السَّادِسَةُ: عِظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَأَنَّهَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ فِي الشَّدَائِدِ.

٣٣ - بَابُ

قَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

ش: قوله: (بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]).

قصد المصنف رحمه الله بهذه الآية التنبيه على أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب، وأنه ينافي كمال التوحيد، كما أن القنوط من رحمة الله كذلك، وذلك يرشد إلى أن المؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء؛ كما دل على ذلك الكتاب والسنة، وأرشد إليه سلف الأمة والأئمة.

ومعنى الآية: أن الله - تبارك وتعالى - لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل، بيَّن أن الذي حملهم على ذلك هو الأمن من مكر الله، وعدم الخوف منه؛ كما قال عز وجل: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩]. **أي: الهالكون.**

وذلك أنهم أمنوا مكر الله لما استدرجهم بالسراء والنعم، فاستبعدوا أن يكون ذلك مكرًا.

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: «مَنْ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَرَ أَنَّهُ يَمْكُرُ بِهِ، فَلَا رَأْيَ لَهُ»[١].

(١) أخرجه ابن كثير (٣/ ٢٥٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٢٩١)، وانظر: الدر المنثور (٣/ ٢٧٠).

....

وَقَالَ قَتَادَةُ: «بَغَت القومَ أمرُ اللَّهِ، وَمَا أَخَذَ اللَّهُ قَوْمًا قَطُّ إِلَّا عِنْدَ سَكْرَتِهِمْ وَغَرَّتِهِمْ وَنَعِيمِهِمْ، فَلَا تَغْتَرُّوا بِاللَّهِ، إِنَّهُ لَا يَغْتَرُّ بِاللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ»[(١)].

وفي الحديث: «إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ» رواه أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم[(٢)].

وقال إسماعيل بن رافع[(٣)]: «مِنَ الْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ: إِقَامَةُ العَبْدُ عَلَى الذَّنْبِ يَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ المَغْفِرَةِ» رواه ابن أبي حاتم[(٤)].

وهذا هو تفسير المكر في قول بعض السلف: يستدرجهم الله بالنعم إذا عصوه، ويملي لهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وهذا هو معنى المكر والخديعة ونحو ذلك، ذكره ابن جرير بمعناه[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن كثير (٣/ ٢٥٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٥٢٨)، وانظر: الدر المنثور (٣/ ٢٧٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٨/ ٥٤٧)، وفي الزهد (ص١٣ رقم ٦٣)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٣٠)، وفي الأوسط (٩/ ١١٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٤٤١)، وفي شعب الإيمان (٦/ ٢٩٨)، وفي القضاء والقدر (ص٢٤٢، ٢٤٣)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٢٩٠).

(٣) هو إسماعيل بن رافع بن عويمر، ويقال ابن أبي عويمر، أبو رافع المدني، حدث عن سعيد المقبري، ومحمد بن المنكدر، وسمع مولى أبي بكر بن عبد الرحمن، وسلمان مولى أبي سعيد الخدري، وروى عنه أخوه إسحاق بن رافع، والليث بن سعد وهو من أقرانه، ووكيع، وعبدة بن سليمان، وغيرهم. ضعفه الإمام أحمد، ويحيى بن معين، والنسائي، وجماعة. انظر: الجرح والتعديل (٢/ ١٦٨)، والكامل في ضعفاء الرجال (١/ ٢٨٠)، وميزان الاعتدال في نقد الرجال (١/ ٣٨٤).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٥٢٩)، وانظر: الدر المنثور (٣/ ٥٠٧).

(٥) أخرجه ابن جرير (١٢/ ٥٧٩).

الشـرح:

هذا: (بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩])، **وقـولـه**: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

باب قول الله تعالى في الآية الأولى والآية الثانية جميعًا، فالباب منعقِد للآيتين جميعًا لاتصالهما.

والمراد بهذا الباب: بيان أن الجمع بين الخوف والرجاء واجب من واجبات الإيمان، ولا يتم التوحيد إلا بذلك، فانتفاء الجمع بين الخوف والرجاء هذا منافٍ لكمال التوحيد، فالواجب على العبد أن يجعل خوفه مع الرجاء، وأن يجعل رجاءه مع الخوف، وأن لا يأمن المكر، كما لا يقنط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

فالآية الأولى - وهي قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ - فيها أن المشركين من صفاتهم أنهم أمِنُوا عقاب الله، فلم يخافوا، والواجب بالمقابل أن تكون قلوبهم خائفة وجِلة من الله عَزَّوَجَلَّ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ﴾ يعني: أيعلمون تلك المثلات وفعْلَ الله عَزَّوَجَلَّ بالأمم السالفة التي قصها الله في سورة الأعراف، أفأمنوا مكر الله؟!!

فإذا كان كذلك، وحصل منهم الأمن مع وجود النذر فيما حولهم، وأن الله قصَّ عليهم القصص والأنباء قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

والأمن من مكر الله هو ناتج عن عدم الخوف وترك عبادة الخوف، وعبادة الخوف قلبية، الخوف - خوف العبادة - من الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا الخوف إذا كان في القلب، فإن العبد سيسعى في مراضي الله، ويبتعد عن

مناهي الله، وسيعظِّم الله عَزَّوَجَلَّ، ويتقرب إليه بالخوف؛ لأن الخوف عبادة، ويكون عبادة بمعاني، ومنها: أن يتقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالخوف، وأن يتقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ بعدم الأمن من مكر الله، وذلك أن الله هو ذو الجبروت، فعدم الأمن من مكر الله راجع إلى فهم صفات الله عَزَّوَجَلَّ وأسمائه، التي منها: القهار، والجبار، وهو الذي يجير ولا يجار عليه، ونحو ذلك من صفات الربوبية.

ومكر الله عَزَّوَجَلَّ من صفاته التي تطلق مقيدة، فالله عَزَّوَجَلَّ يمكر بمن مكر بأوليائه وأنبيائه، وبمن مكر بدينه؛ لأنها في الأصل صفة نقص، لكن تكون صفة كمال إذا كانت بالمقابلة؛ لأنها حينئذ إظهار العزة والقدرة والقهر والجبروت وسائر صفات الجلال، فمكر الله عَزَّوَجَلَّ من صفاته التي يتصف بها، لكن يكون ذلك على وجه التقييد، نقول: يمكر بأعداء رسله، يمكر بأعدائه، يمكر بمن مكر به، ونحو ذلك.

وحقيقة مكر الله عَزَّوَجَلَّ ومعنى هذه الصفة: أنه عَزَّوَجَلَّ يستدرج العبد، ويملي له، حتى إذا أخذه لم يفلته، ييسر له الأمور، حتى يظن أنه في مأمن غاية المأمن، فيكون ذلك استدراجًا في حقه؛ كما قال النبي ﷺ: **إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ**»[(١)]، وهذا ظاهر من معنى المكر؛ لأن في معنى المكر والكيد وأمثالهما معنى الاستدراج.

لا ترادف في اللغة، بل هناك فروق بين المكر والاستدراج، والكيد والاستدراج، ونحو ذلك، لكن نقول: هذا من جهة التقرير، فالمكر فيه استدراج، وفيه زيادة أيضًا على الاستدراج، حتى يكون قلب ذلك المستدرَج آمنًا من كل جهة.

(١) سبق تخريجه (ص٤٧٣).

وقولِهِ: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

ش: القنوط: استبعاد الفرج واليأس منه. وهو يقابل الأمن من مكر الله، وكلاهما ذنب عظيم، وتقدم ما فيه لمنافاته لكمال التوحيد.

وذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية مع التي قبلها تنبيهًا على أنه لا يجوز لمن خاف الله أن يقنط من رحمته، بل يكون خائفًا راجيًا، يخاف ذنوبه ويعمل بطاعته، ويرجو رحمته؛ كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨]، فالرجاء مع المعصية وترك الطاعة غرور من الشيطان؛ ليوقع العبد في المخاوف مع ترك الأسباب المنجية من المهالك، بخلاف حال أهل الإيمان الذين أخذوا بأسباب النجاة؛ خوفًا من الله تعالى، وهربًا من عقابه، وطمعًا في المغفرة، ورجاء لثوابه.

والمعنى أن الله تعالى حكى قول خليله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما بشرته الملائكة بابنه إسحاق: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤]؛ لأن العادة أن الرجل إذا كبر سنه وسن زوجته استبعد أن يولد له منها. والله على كل شيء قدير، فقالت الملائكة: ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٥٥] الذي لا ريب فيه؛ فإن الله إذا أراد شيئًا، إنما يقول له كن فيكون ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ أي: من الآيسين، فقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، فإنه يعلم من قدرة

....

الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك وأعظم، لكنه - والله أعلم - قال ذلك على وجه التعجب.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ قال بعضهم: إلا المخطئون طريق الصواب، أو إلا الكافرون. كقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

الشرح:

قوله: (وقولِهِ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]: هذا فيه أن صفة الضالين أنهم يقنطون من رحمة الله عز وجل، ومعنى ذلك بالمفهوم: أن صفة المتقين وصفة المهتدين أنهم لا يقنطون من رحمة الله؛ بل يرجون رحمة الله عز وجل، والجمع بين الخوف والرجاء واجب شرعًا، فإن الخوف عبادة، والرجاء عبادة، واجتماعهما في القلب واجب، فلابد أن يكون هذا وهذا جميعًا في القلب؛ حتى تصح العبادة.

ومن هنا اختلف العلماء: الخوف والرجاء أيهما يُغلَّب في القلب؟ هل يُغلِّب العبد جانب الرجاء، أو يُغلِّب جانب الخوف؟

والتحقيق: أن الحال تختلف على حالين:

الحالة الأولى: إذا كان العبد في حال الصحة والسلامة، فإنه إما أن يكون مسددًا مسارعًا في الخيرات، فهذا يتساوى، يعني: يجب أن يتساوى في قلبه الخوف والرجاء، يخاف ويرجو؛ لأنه من المسارعين في الخيرات، وإذا كان في حال الصحة والسلامة وعدم دنو الموت من أهل

العصيان، فالواجب عليه أن يغلِّب جانب الخوف؛ حتى ينكفَّ عن المعصية.

الحالة الثانية: إذا كان في حال المرض المخوف؛ فإنه يجب عليه أن يُعظِّم جانب الرجاء على الخوف، فيقوم في قلبه الرجاء والخوف، ولكن يكون رجاؤه أعظم من خوفه، وذلك لقول النبي ﷺ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»(١)، وذلك من جهة رجائه في الله عز وجل.

ومن هنا اختلفت كلمات أهل العلم، فتجد أن بعضهم يقول: يجب أن يتساوى الخوف والرجاء، وبعض السلف قال: يُغلِّب جانب الخوف على جانب الرجاء، وبعض السلف قال: يُغلِّب جانب الرجاء على جانب الخوف، وهي أقوال متباينة ظاهرًا، لكنها متفقة في الحقيقة؛ لأن كل قول منها يرجع إلى حالة مما ذكرنا.

فمن قال: يُغلِّب جانب الخوف على الرجاء، فهو في حق الصحيح العاصي.

ومن قال: يُغلِّب جانب الرجاء على الخوف، فهو في حق المريض الذي يخاف الهلاك أو من يخاف الموت.

ومن قال: يساوي بين الخوف والرجاء، فنظر إلى حال المسددين المسارعين في الخيرات، وهذه الحال التي هي حال المسددين هي التي وصَفَ الله عز وجل أهلها بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ونحوه قوله عز وجل في سورة الإسراء: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]، وهذا ظاهر من ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٧) من حديث جابر رضي الله عنه.

فالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عقد هذا الباب لبيان وجوب أن يجتمع الخوف والرجاء في القلب، كما ذكرنا هذه أبواب متتالية لبيان حالات القلب والعبادات القلبية وأحكام ذلك.

عَنْ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الكَبَائِرِ، فَقَالَ: الشِّرْكُ باللَّهِ، واليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ»[١].

ش: هذا الحديث رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس ورجاله ثقات إلا شبيب بن بشر. فقال ابن معين: ثقة. ولينه أبو حاتم. وقال ابن كثير: في إسناده نظر. والأشبه أن يكون موقوفًا[٢].

قوله: «الشِّرْكُ باللَّهِ». هو أكبر الكبائر.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: الشرك بالله هضم للربوبية، وتنقص للإلهية، وسوء ظن برب العالمين. انتهى[٣].

ولقد صدق ونصح، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ولهذا لا يغفره الله إلا بالتوبة منه.

قوله: «واليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ». أي: قطع الرجاء الأول والأمل من الله فيما يخافه ويرجوه، وذلك إساءة ظن بالله، وجهل به وبسعة رحمته وجوده ومغفرته.

قوله: «وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ». أي: من استدراجه للعبد وسلبه ما

---

(١) أخرجه البزار في كشف الأستار (١/ ٧١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٣٩١)، والطبراني في الكبير (١٣٠٢٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٧١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤٨٥).

(٣) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ٦٠).

....

أعطاه من الإيمان - نعوذ بالله من ذلك -، وذلك جهل بالله وبقدرته، وثقة بالنفس وعجب بها.

واعلم أن هذا الحديث لم يرد به حصر الكبائر في الثلاث، بل الكبائر كثير وهذه الثلاث من أكبر الكبائر المذكورة في الكتاب والسنة، وضابطها ما قاله المحققون من العلماء: كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب. زاد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: أو نفى الإيمان(١).

قلت: ومن برىء منه رسول الله ﷺ، أو قال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا».

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «هي إِلَى سَبْعِمِائَةٍ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى سَبْعٍ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ، وَلَا صَغِيرَةَ مَعَ إِصْرَارٍ»(٢).

الشرح:

قوله: (وَعَنْ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الكَبَائِرِ، فَقَالَ: الشِّرْكُ باللَّهِ، واليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ»): وجه الشاهد من ذلك: أنه جعل اليأس من روح الله، وهو عدم الرجاء، ذهاب الرجاء من القلب، وتَرْك الإتيان بعبادة الرجاء، جعله من الكبائر، وجعل

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٢).
(٢) أخرجه ابن جرير (٨/ ٢٤٥)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٣٤)، البيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٤٠٦)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٦/ ١١١٠).

الأمن من مكر الله، وهو ذهاب الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ من القلب، جعله من الكبائر، فعدم الرجاء في الله من الكبائر، وعدم الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ من الكبائر، وهي كبائر في القلب، كبائر من جهة أعمال القلوب، واجتماعهما جميعًا بأن لا يكون عنده رجاء، ولا خوف، هذه كبيرة أعظم من كبيرة ترك الخوف وحده من الله، أو ترك الرجاء وحده من الله عَزَّوَجَلَّ ؛ ولهذا قرن بينهما في هذا الحديث؛ حيث قال: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِل عَنِ الكَبَائِرِ، فَقَالَ: الشَّرْكُ باللهِ، واليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ**»، وبهذا يتبين الفرق بين اليأس والأمن، اليأس من روح الله أو القنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، مِنْ أن اليأس راجعٌ إلى ترك عبادة الرجاء، والأمن من مكر الله راجع إلى ترك عبادة الخوف، واجتماعهما واجب من الواجبات، وذهابهما أو الانتقاص منهما نقص في كمال توحيد من قام ذلك بقلبه.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ». رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ(١).

ش: ورواه ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود رضي الله عنه.

قوله: «وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ». قال أبو السعادات: هو أشد اليأس(٢).

وفيه التنبيه على الرجاء والخوف، فإذا خاف، فلا يقنط، ولا ييأس، بل يرجو رحمة الله.

وكان السلف يستحبون أن يقوى في الصحة الخوف، وفي المرض الرجاء. وهذه طريقة أبي سليمان الداراني وغيره. قال: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإذا غلب الرجاء الخوف، فسد القلب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]، وقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧]، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] الآية. قدم الحذر على الرجاء في هذه الآية.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٥٥)، وفي مصنفه (١٠/ ٤٥٩)، والطبري في تفسيره (٥/ ٤٠).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ١١٣).

الشـرح:

قوله: (وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ»): فيها ما في الحديث قبله، لكن هنا فصَّل في القنوط من رحمة الله واليأس من روح الله، فجعل القنوط من رحمة الله شيئًا، وجعل اليأس من روح الله شيئًا آخر، وهذا باعتبار بعض الصفات لا باعتبار أصل المعنى، فإن القنوط من الرحمة واليأس من الروح بمعنى واحد، لكن يختلفان من حيث ما يتناوله هذا، ويتناوله هذا، فالقنوط من رحمة الله عام؛ لأن الرحمة أعم من الروح، والرحمة تشمل جلب النعم ودفع النقم، وروح الله عَزَّ وَجَلَّ يُطلَق في الغالب في الخلاص من المصائب، فقوله ﷺ: «وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ» هذا أعم؛ ولهذا قدمه، فيكون ما بعده من عطف الخاص على العام، أو أن يكون هناك ترادف في أصل المعنى واختلاف في الصفات، أو بعض ما يتعلق باللفظ.

ولهذا نقول: هذا الحديث مع الحديث قبله مع الآيتين دلالتهما على ما أراد الشيخ من عقد هذا الباب واحدة، ودلالة الجميع: أن الخوف والرجاء واجب اجتماعهما في القلب وإفراد الله عَزَّ وَجَلَّ بهما، والمقصود خوف العبادة ورجاء العبادة.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْأَعْرَافِ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْحِجْرِ.

الثَّالِثَةُ: شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِي مَنْ أَمِنَ مَكْرَ اللهِ.

الرَّابِعَةُ: شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِي الْقُنُوطِ.

٣٤ - بَابٌ
مِنَ الإيمَانِ باللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ

ش: قولِهِ: (بَابٌ مِنَ الإِيمَانِ باللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ).

قال الإمام أحمد: ذكر الله عَزَّوَجَلَّ الصبر في تسعين موضعًا من كتابه[١].

وفي الحديث الصحيح: «الصَّبْرُ ضِيَاءٌ». رواه أحمد ومسلم[٢].

وللبخاري ومسلم مرفوعًا: «مَا أَعْطَى أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[٣].

وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا بِالصَّبْرِ». رواه البخاري[٤].

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ - ثُمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ - فَقَالَ: إِلَّا أَنَّهُ لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ»[٥].

واشتقاقه: من صبر إذا حبس ومنع[٦]. والصبر: حبس النفس عن الجزع، حبس اللسان عن التشكي والتسخط، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب. ونحوهما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[٧].

---

(١) انظر: عدة الصابرين (ص٥٧)، ومدارج السالكين (١/ ١١٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣)، وأحمد في المسند (٥/ ٣٤٢) من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٦٩، ٦٤٧٠)، ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري معلقًا. كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله (ص١٢٠٢).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١١/ ٤٦٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٧٢)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٧٥، ٧٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٧١)، (٧/ ١٢٤).

(٦) انظر: مقاييس اللغة (٣/ ٣٢٩)، ولسان العرب (٤/ ٤٣٨)، وتهذيب اللغة (١٢/ ١٢١).

(٧) انظر: عدة الصابرين (ص٥٧)، ومدارج السالكين (١/ ١١٠).

....

واعلم أن الصبر ثلاثة أقسام: صبر على ما أمر الله به، وصبر عما نهى عنه، وصبر على ما قدره من المصائب.

الشرح:

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (بَابٌ مِنَ الإِيمَانِ باللهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللهِ).

الصبر من المقامات العظيمة والعبادات الجليلة، التي تكون في القلب وفي اللسان وفي الجوارح، وحقيقة العبودية لا تثبت إلا بالصبر؛ لأن العبادة أمر، ونهي، وابتلاء، العبادة أمر شرعي، أو نهي شرعي، أو أن يصيب الله العبد بمصيبة قدرية.

فحقيقة العبادة أن يمتثل الأمر الشرعي، وأن يجتنب النهي الشرعي، وأن يصبر على المصائب القدرية التي ابتلى الله عَزَّ وَجَلَّ العباد بها؛ ولهذا الابتلاء حاصل بالدين وحاصل بالأقدار، فبالدين؛ كما قال عَزَّ وَجَلَّ لنبيه ﷺ في الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن عياض بن حمار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ، وَأَبْتَلِيَ بِكَ**»[(١)]، فحقيقة بعثة النبي ﷺ الابتلاء، والابتلاء يجب معه الصبر، والابتلاء الحاصل ببعثته بالأوامر والنواهي.

فإذا الواجبات تحتاج إلى صبر، والمنهيات تحتاج إلى صبر، والأقدار الكونية تحتاج إلى صبر؛ ولهذا قال طائفة من أهل العلم: إن الصبر ثلاثة أقسام: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

ولما كان الصبر على المصائب قليلًا، ويظهر عدم الصبر، أفرد الشيخ رحمه الله هذا الباب لبيان أنه من كمال التوحيد، ومن الواجب على العبد أن يصبر على أقدار الله؛ لأن تسخط العباد وعدم صبرهم كثيرًا ما يظهر في حال الابتلاء بالمصائب، فعقد هذا الباب لبيان أن الصبر واجب على أقدار الله المؤلمة، ونبَّه بذلك على أن الصبر على الطاعة واجب، وأن الصبر عن المعصية واجب.

وحقيقة الصبر: **الحبس في اللغة**، ومنه قوله: قُتِل فلان صبرًا إذا حُبِسَ أو ربط، فقُتِل من دون مبارزة ولا قتال، ويقال للصبر الشرعي: إنه صبر؛ لأن فيه الحبس، وهو حبس اللسان عن التشكي، وحبس القلب عن السخط، وحبس الجوارح عن إظهار السخط من لطم الخدود وشق الجيوب ونحو ذلك، فحبس هذه الأشياء هو حقيقة الصبر، فالصبر إذًا: حبس اللسان عن التشكي، وحبس القلب عن التسخط، وحبس الجوارح عن إظهار السخط بشق أو نحو ذلك[١].

قال الإمام أحمد رحمه الله: (ذُكِر الصبر في القرآن في أكثر من تسعين موضعًا)، وقال علي رضي الله عنه: «**إِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ - ثُمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ - فَقَالَ: إِلَّا أَنَّهُ لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ**»: لأن من لا صبر له على الطاعة، ولا صبر له عن المعصية، ولا صبر له على أقدار الله المؤلمة، فإنه يفوته أكثر الإيمان.

(**بَابٌ مِنَ الإِيمَانِ باللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ**). يعني: من خصال الإيمان بالله الصبر على أقدار الله، والإيمان له شعب؛ كما أن الكفر له شعب، فنبه بقوله: (**مِنَ الإِيمَانِ باللَّهِ الصَّبْرُ**) على أن من شعب الإيمان

---

(١) راجع (ص٤٨٦).

الصبر، ونبَّه في الحديث الذي ساقه من صحيح مسلم أن النياحة من شعب الكفر[١]، فيقابِل كل شعبة من شعب الكفر شعبة من شعب الإيمان، فالنياحة على الميت شعبة من شعب الكفر، يقابلها في شعب الإيمان الصبر على أقدار الله المؤلمة.

(١) انظر: (ص٤٩٤).

وقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

قَالَ عَلْقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ المُصِيبةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّها مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ»(١).

ش: **وأول الآية:** ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١] **أي: بمشيئته وإرادته وحكمته؛ كما قال في الآية الآخرى:** ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢] **وقال:** ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ **قال ابن عباس في قوله:** ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: **إلا بأمر الله، يعني: عن قدره ومشيئته** ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ **أي: من صابته مصيبة، فعلم أنها بقدر الله، فصبر، واحتسب، واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه، ويقينًا صادقًا، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه.**

قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ **تنبيه على أن ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمن لحكمته، وذلك يوجب الصبر والرضا.**

قوله: (قَالَ عَلْقَمَةُ: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ المُصِيبةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّها مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ).

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٨/ ١٢٣)، والبخاري معلقًا - كتاب التفسير، باب تفسير سورة التغابن- (ص٩٢٩)، والبيهقي في الكبرى (٤/ ٦٦)، وشعب الإيمان (٧/ ١٩٦)، وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٦).

....

هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وعلقمة: هو قيس بن عبد الله النخعي الكوفي، ولد في حياة النبي ﷺ، وسمع من أبي بكر وعثمان وعلي وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم ﷺ. وهو من كبار التابعين وأجلائهم وعلمائهم وثقاتهم، مات بعد الستين.

قوله: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبهُ المُصِيبةُ...». إلخ. هذا الأثر رواه الأعمش عن أبي ظبيان، قال: كنا عند علقمة، فقرىء عليه هذه الآية: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ قال: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبهُ المُصِيبةُ فَيَعْلَمُ أَنَّها مِنْ عِنْدِ اللهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ». هذا سياق ابن جرير.

وفي هذا دليل على أن الأعمال من مسمى الإيمان.

قال سعيد بن جبير: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ يعني: يسترجع. يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي الآية بيان أن الصبر سبب لهداية القلب، وأنها من ثواب الصابرين.

الشرح:

قوله: (وقولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ قَالَ عَلْقَمَةُ: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبهُ المُصِيبةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّها مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ): هذا تفسير من علقمة أحد التابعين لهذه الآية، وهوتفسير ظاهر

الصحة والصواب؛ وذلك أن قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ إنما سيق في سياق ذكر ابتلاء الله بالمصائب، فـ ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ﴾ يعني: يُعظِّم الله عزوجل، ويمتثل أمره، ويجتنب نهيه ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ للصبر ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ لعدم التسخط ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ للعبادات؛ ولهذا قال: (هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبهُ المُصِيبةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّها مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ)، وهذا هو الإيمان بالله (فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ).

والمصائب من القدر، والقدر راجع إلى حكمة الله عزوجل، وحكمة الله عزوجل هي: وضع الأمور في مواضعها الموافقة للغايات المحمودة منها، فالحكمة بعامة مرتبطة بالغايات المحمودة من وضع الأمر في موضعه، فمَن وضع الأمر في غير موضعه، فقد ظلم، ومن وضع الأمر في موضعه، عدل، وقد يكون غير حكيم، عادل، ولكن غير حكيم، فإذا وضع الأمر في موضعه الموافق للغاية المحمودة منه، فذاك هو الحكيم، والله عزوجل منفيٌّ عنه الظلم، ومثبت له كمال العدل عزوجل؛ حيث يضع الأمور مواضعها، ومثبت له عزوجل كمال الحكمة؛ حيث إن وضعه الأمور في مواضعها موافق للغايات المحمودة منها، فنعلم بذلك أن المصيبة إذا أصابت العبد، فإن الخير له فيها، إما أن يصبر، فيؤجَر، وإما أن يتسخط، فيؤزر على ذلك، وهذا في حق الخاسرين، فالله عزوجل له الحكمة من الابتلاء بالمصائب؛ لهذا يجب على العبد أن يعلم أن ما جاء من عند الله هو قدر الله عزوجل، وقضاؤه الموافق لحكمته، فيجب الصبر على ذلك.

(فَيَعْلَمُ أَنَّها مِنْ عِنْدِ اللَّهِ): يعني: أن الله هو الذي أتى بها، وهوالذي أذن بها قدرًا وكونًا.

(فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ): والرضى بالمصيبة مستحب، وليس بواجب؛ ولهذا يختلط على كثيرين الفرق بين الرضا والصبر، وتحرير المقام في ذلك: أن الصبر على المصائب واجب من الواجبات؛ لأن فيه ترك التسخط على قضاء الله وقدره، والرضى هذا له جهتان:

الجهة الأولى: راجعة إلى فعل الله عَزَّوَجَلَّ ، فيرضى بقدر الله الذي هو فعله، يرضى بفعل الله، يرضى بحكمة الله، يرضى بما قسَم الله عَزَّوَجَلَّ ، يعني: بقسمة الله، هذا الرضى بفعل الله عَزَّوَجَلَّ واجب من الواجبات، وتركه محرم ومنافٍ لكمال التوحيد.

الجهة الثانية: الرضا بالمقضِي، الرضا بالمصيبة في نفسها، هذا مستحب، ليس واجبًا على العباد أن يرضوا بالمرض، أن يرضوا بفقد الولد، أن يرضوا بفقد المال، لكن هذا مستحب، وهو رتبة الخاصة من عباد الله، لكن الرضا بفعل الله عَزَّوَجَلَّ ، الرضا بقضاء الله، من حيث هو هذا واجب، أما الرضا بالمقضِي، فإنه مستحب؛ ولهذا قال علقمة هنا: (هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبهُ المُصِيبةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّها مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيَرْضَى) يعني: على قضاء الله (وَيُسَلِّمُ)؛ لعلمه أنها من عند لله عَزَّوَجَلَّ ، وهذا من خصال الإيمان.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»[(١)].

ش: أي: هما بالناس كفر؛ حيث كانتا من أعمال الجاهلية، وهما قائمتان بالناس، ولا يسلم منهما إلا من سلمه الله تعالى، ورزقه علمًا وإيمانًا يستضيء به، لكن ليس من قام بشعبة من شعب الكفر يصير كافرًا كالكفر المطلق، كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمنًا الإيمان المطلق.

وفرق بين الكفر المعرف باللام؛ كما في قوله: «لَيْسَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ، أَوِ الشِّرْكِ إِلَّا تَرْكُ الصَّلَاةِ»[(٢)]، وبين كفر منكر في الإثبات.

قوله: «الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ». أي: عيبه، يدخل فيه أن يقال: هذا ليس ابن فلان. مع ثبوت نسبه.

قوله: «وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ». أي: رفع الصوت بالندب وتعداد فضائل الميت؛ لما فيه من التسخط على القدر المنافي للصبر، كقول النائحة: واعضداه، واناصراه، ونحو ذلك.

وفيه دليل على أن الصبر واجب، وأن من الكفر ما لا ينقل عن الملة.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٧).
(٢) أخرجه مسلم (٨٢) من حديث جابر رضي الله عنه .

الشرح:

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** ﷺ **قَالَ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»** يعني: خصلتان من شعب الكفر قائمتان في الناس، وستبقيان في الناس.

«**الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ**»: من شعب الكفر.

«**وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ**»: من شعب الكفر.

وجه الشاهد من هذا الحديث: قوله: «**وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ**»، والنياحة مخالفة للصبر، والصبر الواجب فيه حبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحو ذلك، وحبس اللسان عن التشكي والعويل، وهذه هي النياحة، فالنياحة من شعب الكفر؛ لأنها منافية للصبر.

وكونها من شعب الكفر لا يدل على أن من قامت به، فهو كافر الكفر المطلق المخرج من الملة، بل يدل على أن من قامت به، قامت به خصلة من خصال الكفار، وشعبة من شعب الكفر؛ ولهذا قال هنا: «**اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ**»، فنكَّر كلمة «**كُفْرٌ**».

والقاعدة في فهم ألفاظ الكفر التي تأتي في الكتاب والسنة: أن الكفر إذا أتى مُعرَّفًا بالألف واللام، فإن المراد به الكفر الأكبر، وإذا أتى الكفر منكرًا - «**كُفْرٌ**» كلمة هكذا بدون الألف واللام -، فإنه يدل على أن الخصلة تلك من شعب الكفر، ومن خصال أهل الكفر، وأن ذلك كفر أصغر؛ كما قال ﷺ: «**لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**»[1] يعني: لأن ذلك من خصال الكفار، ونحو ذلك قوله: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»[2]، هذا في الكفر الأصغر.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥) من حديث جرير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وأما الكفر المعرَّف بالألف واللام، فالقاعدة التي حررها الأئمة كشيخ الإسلام وغيره: أنه إذا أتى، فيراد به الكفر الأكبر؛ كقوله ﷺ: **«إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ»**(١).

(١) أخرجه مسلم (٨٢) من حديث جابر ﷺ.

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»[(١)].

ش: هذا من نصوص الوعيد، وقد جاء عن سفيان الثوري وأحمد كراهية تأويلها؛ ليكون أوقع في النفوس، وأبلغ في الزجر، وهو يدل على أن ذلك ينافي كمال الإيمان الواجب.

قوله: «مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ». وقال الحافظ: خص الخد لكونه الغالب، وإلا فضرب بقية الوجه مثله[(٢)].

قوله: «وَشَقَّ الجُيُوبَ». هو الذي يدخل فيه الرأس من الثوب، وذلك من عادة أهل الجاهلية حزنًا على الميت.

قوله: «وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ». قال شيخ الإسلام ﵀: هو ندب الميت[(٣)]. وقال غيره: هو الدعاء بالويل والثبور.

وقال ابن القيم ﵀: الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصبية، ومثله التعصب إلى المذاهب والطوائف والمشايخ، وتفضيل بعضهم على بعض، يدعو إلى ذلك، ويوالي عليه، ويعادي، فكل هذا من دعوى الجاهلية[(٤)].

وعند ابن ماجه وصححه ابن حبان عن أبي أمامة: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ الْخَامِشَةَ وَجْهَهَا، وَالشَّاقَّةَ جَيْبَهَا، وَالدَّاعِيَةَ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ»[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٤)، ومسلم (١٠٣).
(٢) انظر: فتح الباري (٣/ ١٦٤).
(٣) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (ص٦٩).
(٤) انظر: زاد المعاد (٢/ ٤٧١).
(٥) أخرجه ابن ماجه (١٥٨٥)، والدارمي (٢٥١٩)، وابن حبان (٧/ ٤٢٧)، وابن أبي شيبة =

....

وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر، وقد يعفى عنه الشيء اليسير من ذلك إذا كان صدقًا، وليس على وجه النوح والتسخط. نص عليه أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لما وقع لأبي بكر وفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما توفي رسول الله ﷺ[١].

وليس في هذه الأحاديث ما يدل على النهي عن البكاء؛ لما في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما مات ابنه إبراهيم قال: «تَدْمَعُ الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبَّنَا، وَاللَّهِ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ»[٢].

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ انْطَلَقَ إِلَى إِحْدَى بَنَاتِهِ وَلَهَا صَبِيٌّ فِي الْمَوْتِ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ كَأَنَّهَا فِي شَنَّةٍ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ سَعْدٌ: مَا هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ»[٣].

= (٢/٤٨٦، ٤/٢٥٨، ٤٣٢، ٥/١٢٢، ٢٠١، ٧/٢٩٣)، والطبراني في الكبير (٨/ ١٣٠، ١٨٧، ١٩٥).

(١) انظر: عدة الصابرين (ص٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٨٤، ٥٦٥٥، ٦٦٠٢، ٦٦٥٥، ٧٣٧٧، ٧٤٤٨)، ومسلم (٩٢٣).

الشرح:

قوله: (وَلَهُمَا عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»: ذلك يدل على أن من فعل هذه الأفعال، فهو ليس من أهل الإيمان، وقد سبق أن كلمة: «لَيْسَ مِنَّا» تدل على أن الفعل من الكبائر؛ ولهذا نقول: ترك الصبر وإظهار التسخط كبيرة من الكبائر، والمعاصي تُنقِص الإيمان؛ لأن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، ونقص الإيمان قد يُنقِص كمال التوحيد، بل إن ترك الصبر منافٍ لكمال التوحيد الواجب.

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[1].

ش: هذا الحديث رواه الترمذي والحاكم وحسنه الترمذي. وأخرجه الطبراني والحاكم عن عبد الله بن مغفل ابن عدي عن أبي هريرة، والطبراني عن عمار بن ياسر.

قوله: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا». أي: يصب عليه البلاء والمصائب لما فرط من الذنوب منه، فيخرج منها، وليس عليه ذنب يوافي به يوم القيامة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: المصائب نعمة؛ لأنها مكفرات للذنوب، وتدعو إلى الصبر، فيثاب عليها، وتقتضي الإنابة إلى الله والذل له، والإعراض عن الخلق، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة.

فنفس البلاء يكفر الله به الذنوب والخطايا، وهذا من أعظم النعم.

فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق، إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاصي أعظم مما كان قبل ذلك، فيكون شرًّا عليه من جهة ما أصابه في دينه، فإن من الناس من إذا ابتلي بفقر أو مرض أو وجع، حصل له من النفاق والجزع ومرض القلب أوالكفر الظاهر أوترك بعض الواجبات أوفعل بعض المحرمات ما يوجب له الضرر في دينه، فهذا كانت العافية خيرًا له من جهة ما أورثته المصيبة، لا من جهة نفس

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وأبو يعلى في مسنده (٧/ ٢٤٧)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٦٥١).

....

المصيبة، كما أن من أوجبت له المصيبة صبرًا وطاعة، كانت في حقه نعمة دينية، فهي بعينها فعل الرب عزوجل ورحمة للخلق، والله تعالى محمود عليها، فمن ابتلي، فرزق الصبر، كان الصبر عليه نعمة في دينه، وحصل له بعد ما كفر من خطاياه رحمة، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ [البقرة: ١٥٧]، وحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات، فمن قام بالصبر الواجب، حصل له ذلك. انتهى ملخصًا[١].

قوله: «وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ». أي: أخر عنه العقوبة بذنبه «حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»، وهو بضم الياء وكسر الفاء منصوبًا بحتى مبنيًا للفاعل.

قال العزيزي: أي: لا يجازيه بذنبه في الدنيا، حتى يجيء في الآخرة مستوفر الذنوب وافيها، فيستوفي ما يستحقه من العقاب. وهذه الجملة هي آخر الحديث، وأول حديث آخر، لكن لما رواهما الترمذي بإسناد واحد وصحابي واحد، جعلهما المصنف كالحديث الواحد.

وفيه التنبيه على حسن الرجاء وحسن الظن بالله فيما يقضيه لك؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٤٨/١٠).

الشرح:

هذا الباب في الحث على الصبر، ومعلوم أن الصبر يكون في الغالب على المصائب، والعبد المؤمن في هذه الحياة الدنيا لابد أن يكون منه الزلل، وهذا الزلل والإعراض، أو العصيان، أو الذنوب التي يكتسبها، والإثم هذا يدفع بأشياء، فمنها:

أشياء من فعله، ومنها أشياء من فعل غيره، ومنها أشياء من فعل الله عَزَّوَجَلَّ، وما هو من فعله مثل: التوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية. ومثال ما هو من فعل غيره: دعاء المسلمين له، واستغفارهم له، وصدقتهم عنه، وتقربهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ ببعض العبادات عنه؛ كعمرة، أو حج، أو نحو ذلك مما يزيد في حسناته، فتطفئ أثر الذنوب. ومنها ما هو من الله عَزَّوَجَلَّ، وهي على أقسام: منها أشياء في الدنيا، ومنها في البرزخ، ومنها يوم القيامة، فلا بد إذا عفا الله عَزَّوَجَلَّ عن العبد أن يصيبه أثر معصيته - إذا كان ذلك مما يؤاخذ به، ولم يكفر عنه -، فمثلا: في الدنيا مما هو من فعل الله: المصائب المختلفة، سواء كانت صغيرة: الشوكة يشاكها، هم، حزن، أو كانت كبيرة: كفقد بعض ما يحب من الدنيا، أو أمراض، أو عاهات، ونحو ذلك، وقد تكون في البرزخ: من عذاب يعجل له في البرزخ قبل يوم القيامة، وإذا أتى يوم القيامة، يكون قد أخذ جزاءه في البرزخ، وقد يكون يوم القيامة عذاب في النار، إذا لم يشأ الله عَزَّوَجَلَّ أن يغفر له ذلك.

فإذا أراد الله عَزَّوَجَلَّ بعبده الخير، وفقه لكثرة الإنابة والاستغفار وللتوبة من الذنوب، ولعمل الحسنات التي تذهب السيئات: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، ويكون مع توفيقه هذا ابتلاء له

بأنواع من المصائب؛ حتى تكفر عنه سيئاته، ويوافي الله عَزَّوَجَلَّ ، وهو طاهر مطهر من الذنوب؛ ولهذا جاء في الحديث الذي في الصحيح: «**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**»[1]، فيأتي المسلم أمر خبر يهمه ويحزنه، هذا نوع من البلاء، فتتنغص عليه أمور تعكر عليه بعض أمور حياته، فيهتم لذلك، ويكون في شيء من ضيق الصدر في منامه، هذا يكفر الله عَزَّوَجَلَّ به من خطاياه، وهذا بعض ما يدخل في قوله في هذا الحديث: «**إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا**»، وقد يبتلي بالمصائب أكثر من ذلك، والمصائب لها فوائد غير تكفير السيئات، فبالمصائب يرجع العبد إلى ربه عَزَّوَجَلَّ ، ويتذكر ربه عَزَّوَجَلَّ ، ويعظمه، ويقبل عليه، وينيب إليه، فكثير من عباد الله يكونون على غفلة، فإذا أتت المصائب ذكرتهم بالله عَزَّوَجَلَّ ، وأحدثت لهم إنابة وخضوع، ولكن هذا يكون مع الصبر، إذا صبر العبد، أتته هذه الأبواب من الخيرات، ولهذا ذكر المصنف هذا الحديث في هذا الباب: (**بَابٌ مِنَ الإِيمَانِ باللهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ**)، وفضيلة الصبر؛ لأنه بالصبر يكون تكفير، ثم تثمر المصيبة أنواعا من الخيرات على العبد، فيقبل على ربه، وينيب، وتصغر في عينه الدنيا، وتعظم في عينه الآخرة، ويكون الخلق عنده مبغوضين، ويكون الله عَزَّوَجَلَّ محبوبا، يزهد في الدنيا، ويقبل على الآخرة، وما يكون مع ذلك من أنواع العبادات، ولهذا الصبر على المصائب واجب، يجب عليه الصبر، ومن لم يصبر، فإنه يفوته هذا الواجب، معنى ذلك أنه قد ارتكب محرما. فما معنى الصبر الواجب؟

الصبر كما قد عرفه: أنه حبس اللسان عن التشكي، وحبس القلب عن

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٢).

التسخط، وحبس الجوارح عن إظهار السخط بلطم للخدود، وشق للجيوب؛ كما كان في الزمن الأول، أو بصراخ أو نحو ذلك من الأفعال، التي لا تدل على الصبر، فإذًا الصبر واجب، ومن فاته الصبر بأن أظهر التسخط بلسانه، أو أضمر التسخط على قضاء الله بقلبه، ولم يصبر، وأظهر الشكوى، فإنه يأثم على عدم الإتيان بهذا الواجب، ألا وهو الصبر، وكذلك يحرم كثير من الخيرات التي تأتي بعد الصبر، من انفتاح القلب لعبادة الله عَزَّوَجَلَّ ، والأنس به والإقبال عليه، والإنابة، والتخلص من الذنوب قبل الممات؛ ولهذا قال هنا في هذا الحديث: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ»، يعني: الخير في الدنيا وفي الآخرة «عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ»، وتعجيل العقوبة في الدنيا خير من أن تدخر وتؤخر له يوم القيامة؛ لأن عذاب الدنيا ومصائب الدنيا أهون من مصائب الآخرة، هذا شأن الصبر، وقد ذكرت لكم ما ينبغي تكرير التنبيه عليه: بأنه يختلط كثيرًا على الناس أن الصبر بالنسبة للمصائب غير الرضا، الرضا يختلف عن الصبر، الصبر واجب بحبس اللسان عن التشكي، والرضا قسمان:

القسم الأول: الرضا الواجب: أن يرضى بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ الذي هو فعل الله عَزَّوَجَلَّ .

القسم الثاني: الرضا المستحب: أن يرضى بالمقضي - يعني: بالمصيبة -، هذا ما لا يكون إلا لخاصة من عباد الله الموفقين لأولياء الله، أن يرضى بالمصيبة، وأن لا يسخط المصيبة في نفسها، وأما الرضا الواجب، فهو أن يرضى بما فعله الله عَزَّوَجَلَّ ؛ حيث إن الله عَزَّوَجَلَّ هو ذو الملكوت وذو الربوبية، له الملك، يتصرف في ملكه كيف يشاء، ونحو عبيده يفعل بنا عَزَّوَجَلَّ ما يشاء.

وأما إذا نظر للمصيبة، فقد يسخطها، مثال ذلك: مرض أصيب به فلان من الناس، هذا المرض له جهتان:

الجهة الأولى: فعل الله، قدر الله، قضاء الله، فهذا يجب الرضا به، والرضا عنه.

الجهة الثانية: أنه أصيب بهذه المصيبة، جاءه هذا المرض، جاءته هذه العاهة، جاءه هذا البلاء، فهو يسخط المرض، يكره المرض الذي أصابه، يضيق صدره بما أصابه، هذا ليس بمحرم أن يضيق صدره بما أصابه، أو أن يكره ويسخط ما أصابه، يعني: المرض الذي هو المقضي، فهذا من المستحب أن يرضى به، وإذا سخطه، فليس عليه إثم، بخلاف الرضا بقضاء الله الذي هو فعله عز وجل.

إذا نظرت إلى هذا، فالرضا الواجب يكون مثمرا للصبر، إذا رضي عن قضاء الله عز وجل، أثمر الصبر الواجب، وإذا ضعف عنده الرضا بقضاء الله عز وجل فاته.

وقوله ﷺ: «**وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

هذا كما جاء في الأحاديث الأخر من تمثيل المؤمن بخامة الزرع؛ كما ثبت في الصحيح أنّ النبي ﷺ قال: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ خَامَةِ الزَّرْعِ، تَفِيئُهَا الرِّيَاحُ تَارةً هُنَا وَتَارَةً هُنَاكَ، وَمَثَلُ الْكَافِرِ كَالأُرْزَةِ لاَ يَكُونُ انجاعفهَا إِلَى مَرّةً وَاحِدَة**»[١] يعني: عود صلب أو ساق إذا أتت الرياح كسرتها مرة واحدة، أمّا المؤمن، فيصيب مثل خامة الزرع، تارة تأتيه الرياح ذات اليمين، فتجعفها إلى الأرض، ثم تستقيم مرة أخرى، ثم تأتيها الرياح من جهة أخرى، وهكذا حال المؤمن، وقد قال ﷺ في ذلك: «**أَشَدُّ النَّاسُ بَلاَءً الأَنْبِيَاء، ثُمَّ الأَمْثَل فَالأَمْثَل، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ**»[٢]، وقد دخل ابن

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٣)، ومسلم (٢٨١٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٥٢)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، والدارمي في=

مسعود ﷺ - كما في الصحيح أيضًا - على النبي ﷺ، وقد كان النبي ﷺ يوعك، قال: «**دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا؟ قَالَ: أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ**»[1]: وذلك لأنّهم يشدد عليهم في ذلك؛ حتى تعظم درجاتهم، وترفع، ويكون لهم بذلك من الخيرات ما جعل الله عز وجل مكانتهم عليها، وهكذا الصالحون، يكون عليهم الابتلاءات، وما من شكّ أن المصائب هي بسبب الذنوب، وأنَّ العبد لو سلم من الذنوب تمامًا، لكانت المصائب لرفع درجاته؛ كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وإذا قُدّر أن العبد قد خلي من الذنوب تمامًا، فإنّ المصائب تكون في حقّه لإحداث أنواع من العبادات، وأنواع من الإيمان، فتكونه خيرًا له ولرفع درجاته، وليكون على تمام العبودية والذل والافتقار لله عز وجل، ووجود البلاء والشرّ في الأرض هذا بالنسبة إلى الخلق، فهو شرّ بالنسبة إليهم، أمّا فعل الله عز وجل، فليس فيه شر - كما هو معلوم -، وقد قال ﷺ في دعائه وتحميده وتنزيهه لله عز وجل قال: «**وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»[2] يعني: أنّ الله عز وجل ليس في أفعاله شرّ، بل أفعال الله عز وجل خير كلّها، حتى ما يصيب العبد من الشرور هو شر بالنسبة له، أما بالنسبة لفعل الله عز وجل، فهو خير؛ وذلك لأنّ وجود الشر بالنسبة للعباد لا

= سننه (٢٧٨٣)، وأحمد في المسند (١/ ١٧٢)، وابن حبان في صحيحه (٧/ ١٦٠)، والبزار في مسنده (٣/ ٢٤٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٩٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٤٢) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ، وترجم البخاري في صحيحه (ص١٠٦٩) فقال: (باب أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل).

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١).

(٢) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث طويل عن علي ﷺ فيه أن النبي ﷺ كان يقول في دعاء الاستفتاح في صلاة الليل: «... وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ...» الحديث.

بدّ منه لحدوث الخير، ولتمييز الخير من الشر، فوجود النعمة والرحمة لا تستبين إلّا مع وجود أضدادها.

فلهذا من أساسيات الإيمان بالقدر أن نؤمن بالقدر خيره بالنسبة لنا، وشره بالنسبة لنا من الله عز وجل، وأن كل ما يصيب العباد من خير وشر إنه من الله عز وجل.

إذا تبين ذلك، فإنَّ من سوء حظ العبد أن يؤجل له العقاب، ولهذا كان بعض السلف يفرح بالحمى إذا جاءته، وعلمهم النبي ﷺ أن لا يسبوا الحمى، وقد قال: «**إِنَّهَا لَتَنْفِي الذُّنُوبُ، كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ**»[1]، وكانوا لا يسبون البلاء؛ لعلمهم بأن البلاء فيه خير للعباد، وأن العبد إذا أريد به الشر، أُجل له العقاب، حتى يُوافي به الله عز وجل يوم القيامة.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٤٦٩)، والبزار (١٥/ ٢١).

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ». حَسَّنهُ التِّرمِذِيُّ[١].

ش: قال الترمذي: حدثنا قتيبة، ثنا الليث، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سعد بن سنان، عن أنس، فذكر الحديث السابق، ثم قال: وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ...» الحديث. ثم قال: حديث حسن غريب من هذا الوجه. ورواه ابن ماجه.

وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد رفعه: «إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ، وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الْجَزَعُ». قال المنذري: رواته ثقات[٢].

قوله: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ» بكسر العين وفتح الظاء فيها. ويجوز ضمها مع سكون الطاء. أي: من كان ابتلاؤه أعظم كمية وكيفية.

وقد يحتج بهذا الحديث من يقول: إن المصائب يثاب عليها مع تكفير الخطايا، ورجح ابن القيم أن ثوابها تكفير الخطايا فقط، إلا إذا كانت سببًا لعمل صالح - كالصبر، والرضا، والتوبة، والإستغفار -، فإنه حينئذ يثاب على ما تولد منها، وعلى هذا يقال في معنى الحديث: إن عظم الجزاء مع عظم البلاء إذا صبر واحتسب.

قوله: «وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ»، ولهذا ورد في حديث سعد:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٤٤) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٧، ٤٢٩). وانظر: الترهيب والترغيب (٤/ ٢٨٣).

....

«سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ، فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ قدر، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ». رواه الدرامى وابن ماجه والترمذي وصححه[1].

وهذا الحديث ونحوه من أدلة التوحيد، فإذا عرف العبد أن الأنبياء والأولياء يصيبهم البلاء في أنفسهم الذي هو في الحقيقة رحمة، ولا يدفعه عنهم إلا الله، عرف أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا دفعًا، فلأن لا يملكوه لغيرهم أولى وأحرى، فيحرم قصدهم والرغبة إليهم في قضاء حاجة أو تفريج كربة، وفي وقوع الإبتلاء بالأنبياء والصالحين من الأسرار والحكم والمصالح وحسن العاقبة ما لا يحصى.

قوله: «فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا». أي: من الله تعالى، والرضاء قد وصف الله تعالى به نفسه في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البينة: ٨].

ومذهب السلف وأتباعهم من أهل السنة: إثبات الصفات التي وصف

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٥٢)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، والدارمي في سننه (٢٧٨٣)، وأحمد في المسند (١/ ١٧٢)، وابن حبان في صحيحه (٧/ ١٦٠)، والبزار في مسنده (٣/ ٢٤٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٩٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٤٢) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وترجم البخاري في صحيحه (ص١٠٦٩) فقال: (باب أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل).

الله بها نفسه، ووصفه بها رسول الله ﷺ على ما يليق بجلاله وعظمته إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل. فإذا رضي الله تعالى عنه حصل له كل خير، وسلم من كل شر، والرضى هو أن يسلم العبد أمره إلى الله، ويحسن الظن به، ويرغب في ثوابه، وقد يجد لذلك راحة وانبساطًا محبة لله وثقة به؛ كما قال ابن مسعود رضي الله عنه : (إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط).

قوله: «وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»، وهو بكسر الخاء، قال أبو السعادات: السخط الكراهية للشيء وعدم الرضا به[1]. أي: من سخط على الله فيما دبره، فله السخط - أي: من الله -، وكفى بذلك عقوبة.

وقد يستدل به على وجوب الرضا، وهو اختيار ابن عقيل. واختار القاضي عدم الوجوب، ورجحه شيخ الإسلام وابن القيم.

قال شيخ الإسلام: ولم يجئ الأمر به كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء الثناء على أصحابه.

قال: وأما ما يروى: (من لم يصبر على بلائي، ولم يرض بقضائي، فليتخذ ربًا سوائي). فهذا إسرائيلي، لم يصح عن النبي ﷺ.

قال شيخ الإسلام: وأعلى من ذلك - أي: من الرضا - أن يشكر الله على المصيبة؛ لما يرى من إنعام الله عليه بها. ا.هـ. والله أعلم[2].

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث (٢/ ٣٥٠).
(٢) انظر مجموع الفتاوى (١١/ ٢٦٠).

الشرح:

نبه هنا على قوله: «فَمَنْ رَضِيَ، فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ، فَلَهُ السَّخَطُ».

وأن مذهب أهل السنة والجماعة في صفة الرضا والسخط، وأمثال هذه الصفات أنّها من الصفات الاختيارية، التي تقوم بالله عَزَّوَجَلَّ بمشيئته، وقدرته، فيتصف الله عَزَّوَجَلَّ بها إذا شاء، وهو عَزَّوَجَلَّ موصوف بأنّه يرضى ويغضب ويسخط، ورضاه وسخطه من حيث الجنس، من حيث الاتصاف قديم كسائر الصفات، ولكن الرضا عن المعين والسخط عن المعين هذا يعتبر آحاد الرضا، فهذا يتعلق بالمعين إذا وجد منه سبب الرضا، أو إذا وجد منه سبب السخط، يعني: أنّ الله عَزَّوَجَلَّ رضي عن المؤمنين الّذين بايعوا النبي ﷺ تحت الشجرة؛ كما في قوله: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] رضي عنهم حين بايعوا، قال: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ فهؤلاء حلّ عليهم رضوان الله، فمعنى ذلك أنّ الرضا عنهم إنّما حلّ حين المبايعة، ولم يكن قبل ذلك بخصوص الفعل، نعم المؤمنون مرضيّ عنهم، لكن الرضا عنهم بخصوص هذا الفعل كان بعد حصوله، وهذا من مثل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١]، ومن مثل قوله ﷺ: «**إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ**»[1]، فدلّ على أن الغضب يكون متعلقًا بالأشياء، ويتصف الله عَزَّوَجَلَّ به وبنحوه من الصفات الاختيارية بمشيئته وقدرته عَزَّوَجَلَّ.

فإذًا تعلق الرضا يكون عند أهل السنة والجماعة بعد حصول السبب،

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

وهذا خلافًا لأقوال أهل البدع الذين ينفون اتصاف الله عزّ وجلّ بالصفات الاختيارية، ويقولون: صفاته هي كلها قد يمة، فيجعلون الرضا عن المؤمن قديمًا حتى في حال كفره أيعني: في حال الشرك قبل أن يسلم -، إذا علم الله عزّ وجلّ على قولهم أنّه يختم له بالإسلام، فإنّه مرضيّ عنه، حتى في حال الشرك، ومسخوط على الكافر الذي يختم له بالكفر، حتى ولو كان قبل ذلك مؤمنًا.

وهذا باطل عظيم من أنواع الأقاويل الباطلة لهم، وتعدٍ على الله عزّ وجلّ في صفاته، فيجعلون المؤمن في حال كفره مرضيًّا عنه، ويجعلون الكافر الذي هو الآن في حال الإيمان أنّه مسخوط عنه الآن، وأهل السنة عندهم - كما قد سبق وبينت - أنّ الرضا يكون حين الإتيان بسببه؛ كما دلّ عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾، و(إذ) ظرفية، فتعلق وقت الرضى ببيعتهم، فكانت البيعة سببًا في الرضا وهم مؤمنون، كان الله عزّ وجلّ راضيًا عنهم قبل ذلك؛ لأنّهم على الإيمان، وخص رضاه عنهم بسبب البيعة برضى خاص؛ لقوله: ﴿لَقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

فقوله هنا في الحديث: «فَمَنْ رَضِيَ، فَلَهُ الرِّضَا». يعني: يرضى الله عزّ وجلّ عنه لرضاه عما أصابه، لرضاه عن البلاء الذي أصابه، فمن رضي البلاء، الذي رضي البلاء من جهة فعل الله عزّ وجلّ، فله الرضا؛ لأنّ الرضا بالبلاء، الرضا بالمصيبة من جهة فعل الله واجب، فمن رضي هذا، فله الرضا، رضي الله عزّ وجلّ عنه بذلك، وقد يكون في حق المعين أسباب للرضا وأسباب للسخط، فيجتمع في حقه رضا الله عزّ وجلّ عنه في أشياء، وسخط الله عزّ وجلّ عليه في أشياء، وهذا اعتقاد أهل السنة والجماعة، مخالفين بذلك الّذين ينفون اتصاف الله عزّ وجلّ بالصفات الاختيارية الفعلية التي تقوم

بالله عَزَّوَجَلَّ ، بمشيئته وقدرته، ما ذكره في آخر الكلام من أن الرضا مستحب، وأن الصبر واجب من كلام شيخ الإسلام، ونقله عن ابن القيم، هذا يعنون به الرضا المستحب، يعني: الرضا بالمصيبة.

وقد فصل ابن القيم وشيخ الإسلام رحمهما الله في مواضع، وهو مذكور أيضًا في شرح الطحاوية، ومذكور في كتب الاعتقاد التفصيل في مسألة الرضا، بين الرضا بالقضاء والرضا بالمقضي، وينبغي أن يحمل كلام شيخ الإسلام هنا وابن القيم والاختلاف الذي ذكره الشيخ الإمام عبد الرحمن بن حسن - رحمهم الله -، الخلاف فيه هل هو واجب أو مستحب في الرضا بالمقضي؟ أمّا الرضى بالقضاء، فمعلوم أنّه واجب؛ لأنّهم ذكروا ذلك في موضع آخر.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ التَّغَابُنِ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ هَذَا مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ.

الثَّالِثَةُ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ.

الرَّابِعَةُ: شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِي مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ.

الْخَامِسَةُ: عَلَامَةُ إِرَادَةِ اللهِ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ.

السَّادِسَةُ: إِرَادَةُ اللهِ بِهِ الشَّرَّ.

السَّابِعَةُ: عَلَامَةُ حُبِّ اللهِ لِلْعَبْدِ.

الثَّامِنَةُ: تَحْرِيمُ السُّخْطِ.

التَّاسِعَةُ: ثَوَابُ الرِّضَا بِالْبَلَاءِ.

❊ ❊ ❊

٣٥ - بَابُ

مَا جَاءَ في الرِّيَاءِ

وقولِ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

ش: قوله: (بَابُ مَا جَاءَ في الرِّيَاءِ).

أي: من النهي والتحذير.

قال الحافظ: هو مشتق من الرؤية. والمراد بها: إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها، فيحمدون صاحبها[1].

والفرق بينه وبين السمعة: أن الرياء لما يرى من العمل كالصلاة، والسمعة لما يسمع كالقراءة والوعظ والذكر، ويدخل في ذلك التحدث بما عمله.

قوله: (وقولِ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]).

أي: ليس لي من الربوبية ولا من الإلهية شيء، بل ذلك كله وحده لا شريك له، أوحاه إليَّ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ **أي: يخافه** ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ

---

(١) انظر: فتح الباري (١١/ ٣٣٦).

....

﴿رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾، قوله: (أحدًا) نكرة في سياق النهي تعم، وهذا العموم يتناول الأنبياء والملائكة والصالحين والأولياء وغيرهم.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: أما اللقاء، فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة، وقالوا: لقاء الله يتضمن رؤيته عز وجل يوم القيامة[1]. وذكر الأدلة على ذلك.

قال ابن القيم رحمه الله في الآية: أي: كما أن الله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح: هو الخالص من الرياء المقيد بالسنة[2].

وفي الآية دليل على أن أصل الدين الذي بعث الله به رسول الله ﷺ والمرسلين قبله هو إفراده تعالى بأنواع العبادة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، والمخالف لهذا الأصل من هذه الأمة أقسام: إما طاغوت ينازع الله في ربوبيته وإلهيته، ويدعو الناس إلى عبادته، أو طاغوت يدعو الناس إلى عبادة الأوثان، أو مشرك يدعو غير الله، ويتقرب إليه بأنواع العبادة أو بعضها، أو شاك في التوحيد: أهو حق أم يجوز أن يجعل لله شريك في عبادته؟ أو جاهل يعتقد أن الشرك دين يقرب إلى الله، وهذا هو الغالب على أكثر العوام

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٦/ ٤٦٢).
(٢) انظر: الجواب الكافي (ص٩١).

....

لجهلهم وتقليدهم من قبلهم لما اشتدت غربة الدين ونسي العلم بدين المرسلين.

الشرح:

فهذا الباب: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ). يعني: ما جاء في الرياء من النهي والتحذير عنه، وأن النبي ﷺ خافه على أمته، وأنّه من الشرك والرياء مثل ما نقل الشارح عن الحافظ - رحمهم الله - قال: مأخوذ من الرؤية، ويختلف عن التسميع أو السمعة، والرؤية التي منها أُخذ الرياء فيما إذا قام يعمل عملًا من أنواع العبادات، إمّا صلاة، أو صام، أو جاهد، أو نحو ذلك؛ لِيُري الناس عبادته، ليري الناس جهاده، غرضه الرؤية، إمّا أن يكون غرضًا كاملًا، أو أن يكون بعض غرضه، فهذا يسمّى (مرائيًا) وفعله رياء؛ لأنّه طلب بعمله رؤية الناس، لم يطلب بعمله وجه الله عَزَّوَجَلَّ على وجه الكمال، أو على وجه البعضية.

فالرياء على درجتين:

الدرجة الأولى: رياء المنافقين، بأن يُظهر الإسلام، ويبطن الكفر؛ لأجل رؤية الخلق، وهذا منافٍ للتوحيد من أصله، وكفر أكبر بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لهذا وصف الله المنافقين بقوله: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يعني: الرياء الأكبر، الذي هو إظهار أصل الإسلام وشعب الإسلام، وإبطان الكفر وشعب الكفر.

الدرجة الثانية: أن يكون الرجل مسلمًا أو المرأة مسلمة، ولكن يُرائِي

بعمله أو ببعض عمله، فهذا شرك خفي، وذلك الشرك منافٍ لكمال التوحيد، قال عَزَّوَجَلَّ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨] على اختيار من قال إن قوله: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ يدخل فيه الشرك الخفي والأصغر.

أمّا السمعة والتسميع، فهو ما يكون من العبد لعبادة مسموعة، أو إذا عمل عبادة ترى وتسمع، حدَّث بذلك؛ حتى يسمع الناس بعبادته، يعني: يقصد بعبادته إسماع الناس، إمّا بالتحدّث بفعل ما يرى من العبادات، مثل: الصلاة، أو ما يخفى من العبادات مثل: الصيام، أو أن يسمع الناس عبادته، فيما يُسمع تلاوة القرآن أو طلب علم برفع صوته بذلك، ونحو هذا.

كذلك إذا أمر بمعروف، ذكر ذلك للخلق، إذا نهى عن منكر، ذكر ذلك للخلق، إذا كان له مقام من مقامات الإيمان التي يُبتغى فيها الأجر، ذكر ذلك للخلق؛ لكي يسمعهم عبادته، فهذا لا شكّ أنه داخل في التسميع، ومن يسمع ومن يرائي الجميع يدخلون في أنّهم قصدوا غير الله عَزَّوَجَلَّ ، إمّا بالعمل كاملًا، أو ببعض العمل، والرياء والتسميع لمَّا كان فيه شركة وإشراك لغير الله عَزَّوَجَلَّ معه، صار العمل الذي عُمل للرياء أو عمل للسمعة صار العمل باطلًا، وذلك لنهي الله عَزَّوَجَلَّ عنه في الآية الأولى؛ حيث قال عَزَّوَجَلَّ : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، فلمَّا نهى عن الإشراك، دلّنا على أنّه لو تعبد العبادات العظيمة، وأشرك فيها، فإنَّ عبادته فاسدة؛ لأنَّ هذه العبادة التي أشرك مع الله عَزَّوَجَلَّ فيها عبادة منهي عنها، وإذا كانت منهيًّا عنها، فإنَّها فاسدة؛ لأنَّ النهي يقتضي الفساد في قول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] يقول الله عَزَّوَجَلَّ لنبيّه محمّد ﷺ : قل يا محمّد للناس جميعًا وللمشركين الذين أنت بينهم خصوصًا قل لهم: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠

بَشَرٌ﴾، يعني لست بإله، ولست بآت بشي من عندي، وإنّما أنا بشر أشارككم في هذه البشرية، آكل كما تأكلون، وأشرب كما تشربون، وأنكح النساء كما تنكحون، وأدخل الأسواق وأخرج منها، وأسافر، وأنام، وأصحو، وغير ذلك من صفات البشرية، فأنا من هذه الجهة مثلكم، لا فرق بيني وبينكم من جهة كوني بشرًا، لكن أنعم الله عَزَّوَجَلَّ عليّ بالوحي: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، وهذا الذي تميّز به الرسول، فهو ليس له شيء من خصائص الإله، وليس عنده شيء يأتي به من نفسه، وإنّما هو بشر مثل البشر، ولكن أنعم عليه بأعظم نعمة، وهي نعمة النبوة، قال: ﴿بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، والوحي هو إلقاء الخبر في سرعة وخفاء، فيدخل في الوحي الإلهام؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨]، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ يعني: ألقى إليها ذلك العلم وذلك الخبر بأن تتّخذ من الجبال بيوتًا على وجه الخفاء والسرعة، بالإلهام[1]، كذلك الوحي يكون عن طريق رسول يبعثه الله عَزَّوَجَلَّ ليبلغ رسوله البشري ما أوحى الله عَزَّوَجَلَّ، كذلك الوحي يكون بالسماع من وراء حجاب، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١] هذه كلّها داخلة في الوحي، قال: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ﴾ ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ يعني: عن طريق الوحي، عن طريق الرسول من الملائكة، يلقي إليّ خبر الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنّه ما من إله إلّا الله ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ الإله: الّذي يستحق العبادة واحد، وليس ثمّ آلهة متعدّدة كما تزعمون، قال عَزَّوَجَلَّ بعد ذلك: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (ص١٠٤٦)، والقاموس المحيط (٤/ ٣٩١)، فصل الحاء باب الواو والياء، والمصباح المنير (ص٥٣٥)، ومختار الصحاح (ص٧١٣) مادة: (و ح ى).

﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾ هذا رتّب على ما قبله بالفاء؛ لأنّه معناه، فقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ هو في معنى الحصر، في معنى: لا تتّخذوا إلّهًا إلّا الله؛ لأنّ الحصر بإنّما هو في مقام الحصر ب (لا)، و(إلّا)، فقوله: إنّما محمد رسول هو في معنى قوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، قوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ [هود: ١٢] هو في معنى قوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣]؛ لأنّ (إن) بمعنى (ما)، فإذًا (إنّما) هذه حاصرة وقاصرة، فهي في مقام استعمال كلمة نفي (ما) أو (إن) مع حرف أو أداة الحصر (إلّا)، فقوله هنا: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: ما إلهكم، ما معبودكم إلّا معبود واحد، معناه: لا تعبدوا إلّا الإله الواحد الّذي يستحق العبادة، وهو الله عَزَّوَجَلَّ ، ولهذا رتّب عليها عَزَّوَجَلَّ قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ الرجاء هنا بمعنى الاعتقاد، والرجاء والظنّ في القرآن يكونان بمعنى الاعتقاد في آيات كثيرة؛ كما في قوله مثلًا في الظنّ: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، وكما في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦] يعني: يعتقدون ذلك، كذلك الرجاء هنا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ يعني: فمن كان يعتقد لقاء ربّه؛ رجاء منه لذلك، ويريد أن يُسر عند لقاء ربّه، فليس ثمّ طريق إلّا أن يعمل عملًا صالحًا ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾، فاشترط لذلك العمل، وليس أيّ عمل، ولكن العمل الصالح، والعمل الصالح هو ما كان باطنه لله، باطنه صالح، وظاهره صالح، وصلاح الظاهر بميزان حديث عائشة س حيث قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[1]. هذا ميزان لظاهر الأعمال،

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨)، ورواه البخاري معلقًا في كتاب البيوع - باب النجش (٤/ ٣٥٦ فتح)، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ (١٣/ ٣١٧ فتح).

وميزان باطن؛ وهو ما جاء في حديث عمر ﵁ : «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»[١]، فلا بدّ من النية لصلاح باطن العمل، ولا بدّ من المتابعة لصلاح ظاهر العمل.

ثم قال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ يعني: يكون مخلصًا في عبادته، ومن هاهنا قال جماعة من أهل العلم: إنّ شروط قبول العمل ثلاثة: النية، والإخلاص، والمتابعة، يعنون بالنية: ما يتميّز به العمل عن غيره، والإخلاص: أن يكون المراد به الله ﷿ وحده، وبالمتابعة: أن يكون على وفق سنة النبي ﷺ، فقد يكون نوى العبادة بما يميزها عن غيرها، وتابع فيها السنة، لكن لم يرد بها الله ﷿ ، فهذا عمله حاد، أراد بها الخلق، أراد بها التزيّن، قد يكون مخلصًا في عبادته، متابعًا فيها السنة، لكنه نوى بها غير ما أمر به، نوى بصلاة الظهر صلاة العصر، نوى بركعتي الفجر النافلة ركعتي الفريضة، وهكذا، يعني: لم يميّز بين العبادات، وهذا تكون عبادته مردودة، لأنّه لم يأت بالنية، التي هي تمييز العمل بعضه عن بعض، آخرون من أهل العلم - وهم الأكثر - قالوا: شرطا قبول العمل: الإخلاص، والمتابعة، النية والمتابعة، والنية يعنون بها: ما يشمل النية عند أهل السلوك، والنية عند أهل الفقه؛ لأنّ النية عند أهل السلوك: الإخلاص، وعند أهل الفقه: تمييز العبادة عن غيرها، تمييز الفرض عن النفل، تمييز الفروض بعضها عن بعض، النوافل بعضها عن بعض.

قال ﷿ : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾، وكما ذُكر عن شيخ الإسلام أنّ لقاء الله تفسّره السلف بتفسيرات تتضمّن الرؤية، تتضمّن المعاينة، وهذا أفضل النعيم، أفضل النعيم رؤية الله ﷿ ، رؤية وجه الله الكريم ﷻ ، قال: ﴿فَمَن

(١) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ لا يشرك أحدًا، جملة النهي هذه فيها نوعان من العموم:

أولًا: عموم أنواع الشرك.

الثاني: عموم الآحاد، عموم الأشخاص.

الأول: فأمّا عموم أنواع الشرك، فمستفاد من قوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ﴾؛ لأنَّ ﴿يُشْرِكْ﴾ فعل مضارع، وهو مشتمل على نكرة في سياق النهي، فتعمّ أنواع الشرك، يعني: لا يشرك أحدًا بالشرك الأكبر، ولا بالشرك الأصغر، ولا الشرك الخفيّ، فلهذا العموم لأجل هذا العموم أورد الشيخ رَحِمَهُ اللهُ هذه الآية في هذا الباب، (بَابُ مَا جَاءَ في الرِّيَاءِ)؛ لأنَّها تشمل الرياء في العبادة، أو السبب الآخر، وهو أنّ السلف فسّروا الشرك هنا بالرياء، فإذًا قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ تضمّن الشرك الأكبر، والشرك الأصغر، والشرك الخفيّ. هذا النوع الأوّل من العموم، عموم أنواع الشرك.

الثاني: مستفاد من مجيء النكرة (**أَحَدًا**) في سياق النهي، وقد تقرّر أنَّ النكرة في سياق النهي أنّها تعمّ، (**يُشْرِكْ**) نكرة في سياق النهي، لأنّها مشتملة على حدث، المضارع مشتمل على حدث، والحدث نكرة، كذلك (**أَحَدًا**) هنا نكرة في سياق النهي، فتعمّ الأشخاص، تعمّ أيّ أحد، تعمّ الملائكة، الأنبياء، والرسل والصالحين، الطالحين، الجنّ، من صدق عليه أنّه أحد، فإنَّ هذه الآية تنهى عن الإشراك به.

إذا تقرّر ذلك، فالشرك هو: اتّخاذ النّدّ مع الله عَزَّ وَجَلَّ ، وقسّمه بعض العلماء إلى: أكبر وأصغر فقط، وقسّمه آخرون إلى: أكبر، وأصغر، وخفيّ، وهذا هو الّذي جرى عليه إمام الدعوة رَحِمَهُ اللهُ ، وهذا التّقسيم إلى نوعين، أو ذاك التقسيم إلى ثلاثة كلّ منهما يعود إلى الآخر، أكبر وأصغر،

أو أكبر وأصغر وخفي، أو تقسيم ثالث إلى شرك ظاهر وشرك خفي، فعندنا هذه ثلاث تقسيمات، كلّها بمعنى واحد، إنّما هو مجرّد إيضاح للتقسيم، فالرياء هو من الشرك الظاهر أو الخفي؟ هو من الشرك الخفي، ليس ظاهرًا، ولهذا أورد الشيخ في الحديث حديث أبي سعيد رضي الله عنه في آخره، هنا من جهة الظهور الرياء باطن، الرياء خفي؛ لأنَّ الرياء والتسميع هو شيء باطن في النفس، يريد أن يرائي، يريد أن يسمّع بعمله هذا، فهو شرك خفيّ، ولهذا يعرّف الشرك الخفيّ بأنّه يسير الرياء، لماذا؟ لأنَّ تقسيم الشرك بأكبر وأصغر وخفي، الخفي غير الأكبر في هذا التقسيم، جعلوا الخفيّ ما لا يصل إلى الشرك الأكبر، وفي الأصل - يعني: في نصوص القرآن - الرياء يشمل الأكبر والأصغر، فرياء المنافقين أكبر، يراؤون الناس، يعني: بإظهار الإسلام وإبطان الكفر، وهم لم يراؤوا في عبادة أو عبادات، وإنّما راءوا في أصل الدين، ولذلك يقيّد الرياء الّذي هو شرك أصغر أو شرك خفيّ بأنّه يسير الرياء، أمّا كثير الرياء، فهذا قد يكون أكبر، أو يكون أصغر، بحسب الحال، فإن كان الرياء كرياء المنافقين، صار أكبر، مخرج من الملة، وإن كان كرياء من يحسن صلاته للعبد، فهذا أصغر، أو خفيّ، يعني: بحسب الحال. فقوله عز وجل: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ هذا نهي عن الشرك مقتض لتحريمه، وقد جاءت النصوص الكثيرة في تحريم الشرك الّذي هو اتّخاذ النّدّ مع الله عز وجل في محبّته، والرغبة إليه، وعبادته، والمراءاة فيها نوع من أنواع الشرك الّذي يحبط العمل؛ كما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ مَرْفُوعًا: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ. مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

ش: قوله: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فيهِ غَيْرِي». أي: من قصد بعمله غيري من المخلوقين، تركته وشركه.

ولابن ماجه: «فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ».

قال الطيبي: الضمير المنصوب في قوله: تركته. يجوز أن يرجع إلى العمل(٢).

قال ابن رجب رحمه الله: واعلم أن العمل لغير الله أقسام، فتارة يكون رياء محضًا كحال المنافقين؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض الصلاة أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

وتارة يكون العمل لله، ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله، فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه.

وذكر أحاديث تدل على ذلك منها: هذا الحديث، وحديث شداد بن أوس مرفوعًا: «مَنْ صَلَّى يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ صَامَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح (٩/ ٥٠٢).

. . . .

وَمَنْ تَصَدَّقَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا خَيْرُ قَسِيمٍ لِمَنْ أَشْرَكَ بِي، مَنْ أَشْرَكَ بِي شَيْئًا فَإِنَّ حَشْدَهُ عَمَلَهُ قَلِيلَهُ وَكَثِيرَهُ لِشَرِيكِهِ الَّذِي أَشْرَكَهُ بِهِ، وَأَنَا عَنْهُ غَنِيٌّ». رواه أحمد[1]، وذكر أحاديث في المعنى، ثم قال: فإن خالط نية الجهاد مثلًا نية غير الرياء، مثل: أخذ أجرة الخدمة، أو أخذ من الغنيمة، أو التجارة، نقص بذلك أجر جهاده، ولم يبطل بالكلية.

قال ابن رجب: وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: التاجر والمستأجر والمكري أجرهم على قدر ما يخلص من نياتهم في غزواتهم، ولا يكون مثل من جاهد بنفسه وماله لا يخلط به غيره.

وقال أيضًا فيمن يأخذ جعل الجهاد: إذا لم يخرج لأجل الدراهم، فلا بأس، كأنه خرج لدينه إن أعطي شيئًا أخذه.

وروي عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «إذا أجمع أحدكم على الغزو، فعوضه الله رزقًا، فلا بأس بذلك، وأما إن أحدكم أعطي دراهم غزا، وإن لم يعط لم يغز، فلا خير في ذلك».

وروي عن مجاهد رَحِمَهُ اللهُ أنه قال في حج الجمال وحج الأجير، وحج التاجر: «هو تام لا ينقص من أجرهم شيء. أي: لأن قصدهم الأصلي كان هو الحج دون التكسب».

قال: وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأ عليه نية الرياء، فإن كان خاطرًا ثم دفعه، فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه، فهل يحبط

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/ ١٢٥).

....

عمله أم لا فيجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف، قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازي بنيته الأولى، وهو مروي عن الحسن وغيره.

وفي هذا المعنى جاء حديث أبي ذر عن النبي ﷺ: «أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ: تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ» رواه مسلم(١). انتهى ملخصًا(٢).

قلت: وتمام هذا المقام يتبين في شرح حديث أبي سعيد إن شاء الله تعالى.

الشرح:

قوله هنا: (وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ مَرْفُوعًا: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: أنا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ. مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فيهِ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»).

في هذا الحديث بيان العلة في امتناع الشركة في الأعمال، ووجوب أن يكون العمل لله عز وجل وحده، وهو كمال غناه عز وجل.

ولهذا نبّه الشيخ في المسائل بأنَّ السبب هو كمال غنى الله عز وجل؛ لقوله في هذا الحديث: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ». يعني: أنَّ الناس فيما يزاولونه في أمورهم إذا كانت لهم شركة ومشتركون في عمل، أو

(١) أخرجه مسلم (٢٦٤٢).
(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (ص١٦، ١٧).

مشتركون في عبد مشترك، أو أجير مشترك، فإنَّ العزيز منهم، أو من كان أغنى منهم طلب التوحّد بهذا الأجير، طلب التوحد بهذا العامل، لكن من كان أقلّ غنى، أو من كان فقيرًا، فإنَّه يقبل أن يأتيه بعض الشيء، والله عَزَّوَجَلَّ موصوف بكمال الغني له، الغنى التام المطلق الّذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه - تبارك ربّنا وتعالى -؛ ولهذا لا يقبل الله عَزَّوَجَلَّ أن يتوجّه إليه أحد، ويتوجّه أيضًا إلى غيره من هذه الجهة، فمن آثار اسم الله (الغني) أنّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يقبل من أحد إلّا الإخلاص، لا يقبل عملًا عمله العامل لله ولغيره، وأيضًا يمتنع الشرك؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو مالك الملك، وهو ذو الملكوت، وذو القدرة التامة عليه، وهو الربّ السيّد المطاع في هذا الملك.

لهذا قال عَزَّوَجَلَّ في بيان بطلان الشرك: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢] يعني: لو كان ثَمَّ أحد يستحقّ العبادة مع الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الملكوت، لفسدت السماوات ولفسدت الأرض، لأنَّه يلزم من استحقاق العبادة أن يكون للمعبود نصيب من الملك، يلزم من كونه استحقّ العبادة أن يكون له ربوبيّة، والرّبوبية لأحد مع الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الملكوت ممتنعة، والمشركون أنفسهم يمتنعون من القول بذلك؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزخرف: ٨٧]، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]، وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [يونس: ٣١] ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ

ﭐلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، وغير ذلك من الأدلّة التي تدلّ على بطلان الشرك؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو الواحد في الربوبية، فمن استحقّ شيئًا من العبادة، فمعنى ذلك أنّ القائل بهذا يقول: إنَّ له نصيبًا في هذا الملك، له نصيب من الربوبية، وهذا باطل، لا قائل به، فبطلت النتيجة، وهي أنّه ثَمَّ أحدٌ يستحق العبادة، والمستحق للعبادة وحده هو الله عَزَّوَجَلَّ ، الرب ذو الربوبية، وذو الألوهية على خلقه أجمعين - تبارك وتعالى -؛ وذلك لكماله بربوبيته، وإلهيته، وفي أسمائه وصفاته، وكماله في أمره، وكماله في حكمه وفي قضائه وقدره، والله عَزَّوَجَلَّ قال هنا في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ»، ورتب ذلك على قوله: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ».

فقوله: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا». هذا يشمل جميع الأعمال التي أشرك فيها مع الله، ويدخل في ذلك العبادات، أو الأعمال البدنية، والأعمال القلبية، والأعمال المالية، فالأعمال القلبية - العبادات القلبية - إذا كان فيها مع الله أحد بطلت؛ لأنَّه عمل قلب، دخل فيه غير الله عَزَّوَجَلَّ ، كذلك أعمال البدن - مثل: الصلاة، والصيام - إذا كان فيها غير الله عَزَّوَجَلَّ ، أو كانت لغير الله، أو كانت لله ولغيره، تركها الله عَزَّوَجَلَّ ، وبطل ذلك، كذلك العبادات المالية، كالصدقة ونحو ذلك، أو المختلطة من مال وبدن كالحجّ، يعني أنَّه عام في جميع الأعمال.

هنا المسألة التي نقلها عن الحافظ ابن رجب في كلامه الطويل، خلاصة هذا الكلام في ضبط مسألة الرياء، وكيف يُحبط العمل: أنّ الرياء له أحوال، فإمّا أن يخالط العبادة من أصلها، فيكون أنشأ العبادة لغير الله، صلى لغير الله قام يتسنّن بعد الصلاة، وهو لا يريد بالسنة الله عَزَّوَجَلَّ ، ولكن يريد أن يُري من حوله أنّه يصلي الراتبة، أو يصلي النافلة، فهذا آثم وغير

مأجور وصلاته هذه باطلة، جاهد لغير الله، تصدق وقصده في الأصل الرياء، قصده أن يُري الناس، تلا القرآن لم يقصد به وجه الله، لم يقصد به الثواب، وإنّما أراد به أن يسمعه الناس، أو أن يروا ذلك، هذا باطل من أصله في العبادات البدنية والمالية، وما كان من هذا وهذا كالحج.

الحال الثانية: أن يكون أصل العمل لله، أنشأ العبادة قاصدًا الله عَزَّوَجَلَّ ، يرجو ثواب الله، لله، لم يرد غير الله بذلك، ولكن في أثناء العمل طرأ له الرياء، وهو يصلي، من عادته أنّه لا يطيل القراءة بعد الفاتحة، فأطال المقام مثلًا، وهو لا يقرأ؛ حتّى يوهم الناس أنه يطيل القراء بعد الفاتحة، أو ركع ولمّا سبّح استحضر رؤية من حوله، فأطال الركوع، أو أطال السجود على هذا النحو، ونحو ذلك، أو يقنت بالناس، فأطال القنوت لأجل ذلك، أتى بأدعية لأجل الناس، فهذا هل يحبط عمله من أصله، أم يحبط العمل الّذي راءى به؟ الصواب: أنّه يحبط العمل الّذي راءى به، فالزيادة مثلًا في القيام هذه باطلة، يؤزر عليها، الزيادة في الركوع هذه باطلة ويأثم عليها؛ لأنّ هذا العمل منقسم «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي»، وهو عمِل عَمَل التسبيح، إطالة الركوع، فيكون هذا العمل الزائد باطل، كذلك في القنوت يكون دعاؤه هذا باطلًا، ويأثم عليه، ويكون مأزورًا غير مأجور، وهكذا.

هذا في الحال الثانية أن يكون العمل الذي خالطه الرياء طرأ على العبادة، أي: ليست نيّته من الأصل الرياء.

الحال الثالثة: أنّه يعرض له الرياء في صلاته، في عبادته، في جهاده، فيدافع ويجاهد نفسه، فكلّما أتاه الشيطان ليريه رؤية الناس، أو يحضر له في قلبه رؤية الناس، أو التسميع، يدافع ذلك، ويستعيذ بالله من الشيطان، ويقوم بالعبادة لله عَزَّوَجَلَّ ، فهذا له حكم من يجاهد نفسه، وله حكم

المخلصين؛ لأنَّ هذا الّذي طرأ لم يسترسل معه، وإنّما هو من كيد الشيطان، فدفعه وجاهده.

الحال الرابعة: وهي التي ذُكر فيها الخلاف عن الإمام أحمد وابن جرير، أنَّه دخل في العبادة، وبعد دخوله فيها مباشرة عرض له الرياء، فاستمرَّ معه إلى آخرها، يعني: نوى أن يصلي مثلًا الراتبة، أو نوى أن يقرأ القرآن، فلمَّا افتتح راءى إلى أن تمّت العبادة، فهل يحبط عمله جميعًا، أم يؤجر على نيته؟

فيه خلاف، والصواب: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ حكمٌ عدلٌ لا يضيع عمل العامل، والنية عمل، عمل صالح، من نوى الخير يُؤجر عليه، ويحبط العمل، وأمَّا النية الصالحة الأولى فيُؤجر عليها، ويحبط العمل ويأثم على الرياء.

فإذًا المقام هنا مقام تفصيل في ذلك.

قوله في كلام ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أنَّ الرياء المحض لا يصدر، أو لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض الصلاة والصيام)، يعني بفرض الصلاة، مع أنّ المنافقين يصلّون ويراؤون: الرياء المحض فرض الصلاة، يعني: في المحافظة عليها، في الصيام يعني: في المحافظة على الصيام، فالصيام والصلاة منقسمان ما بين ظاهر للناس وما بين خفيّ عنهم، فإنَّ الرياء المحض في الصلاة والصيام، لا يكون عند مؤمن؛ لأنَّ المؤمن لا بدّ أن يصلّي، يحافظ على الصلوات لله، أمَّا المنافق، فهو الّذي تصدر منه الصلاة إذا حضر مع الناس، لكنه إذا خلا تركها؛ لأنّه ما صلّى إلّا للناس، كذلك يصوم أمام الناس، لكنه إذا خلا بنفسه لم يرع لله عَزَّوَجَلَّ حرمة؛ لعدم صلاح نيته، فأفسد صيامه، أمَّا الصدقة والحجّ، فهذه منقسمة؛ لأنَّ الصدقة فعل يفعل أمام الناس، وهذا قد يدخله الرياء المحض، يعني: يكون أصل الصدقة في مؤمن من أولها إلى آخرها أنَّه نوى بها الرياء، كذلك الحجّ،

الجهاد يكون أصله جميعًا نوى به الرياء، هذا ممكن؛ لأنَّه عمل ظاهر، ليس ثَمَّ فيه عمل باطن، بخلاف الصلاة والصيام. هذا قصد الحافظ ابن رجب بما ذكر، مع أنّ المقام يحتاج إلى أن يوضحه رَحِمَهُ اللَّهُ.

في قول الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الحديث: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ». هنا الضمير يرجع إلى أيّ شيء؟ (تَرَكْتُهُ) هل تركت العمل أو تركت العامل؟ الأرجح أنّ المراد تركت العامل، وشركه يعني: وشرك العامل.

وهذا يفيد التحذير والوعيد لمن فعل ذلك؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يتركه، فهو من أحاديث الوعيد العظيم على من فعل ذلك.

فإذًا يُستفاد من ذلك أنّه ليس المقام مقام بطلان للعمل الّذي راءى به فقط، بل هو متوعّد على الرياء، فهو راءى يبطل عمله، وأيضًا هو مأزور وآثم لأنّه أشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

والفرق بين الحال الثانية والرابعة: أن الحال الثانية عرض له الرياء في أثناء العبادة، ليس بعد الدخول فيها مباشرة، الحال الأخيرة: نوى النية ثم كبر مثلًا في الصلاة هنا بدأ الرياء، وصارت كل صلاته رياء، أمَّا ذاك نوى، وكبر، واستمرّ في صلاته، صلاته لله، ثم عرض له الرياء في تطويله في القراءة، عرض له الرياء في تطويله في الركوع، ونحو ذلك، فرق بينهما.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟ قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ: الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ». رَوَاهُ أَحْمَدُ[(١)].

ش: وروى ابن خزيمة في صحيحه عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ، قَالُوا: وَمَا شِرْكُ السَّرَائِرِ؟ قَالَ: أَنْ يَقُومَ أَحَدُكُمْ يُزَيِّنُ صَلَاتَهُ جَاهِدًا، لِيَنْظُرَ النَّاسُ إِلَيْهِ، فَذَلِكَ شِرْكُ السَّرَائِرِ»[(٢)].

قوله: (وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ)، هو الخدري، وتقدم.

قوله: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ». سماه خفيًا؛ لأن صاحبه يظهر أن عمله لله، وقد قصد به غيره، أو شركه فيه بتزيين صلاته لأجله.

وعن شداد بن أوس قال: «كُنَّا نَعُدُّ الرِّيَاءَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ». رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص، وابن جرير في التهذيب، والطبراني والحاكم وصححه[(٣)].

قال ابن القيم: وأما الشرك الأصغر، فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، وقول الرجل للرجل: ماشاء الله وشئت،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٣٠).

(٢) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٢/ ٦٧)، وأحمد (٣٩/ ٤٠)، والبيهقي في الكبرى (٢/ ٤١٣)، وفي شعب الإيمان (٤/ ٥٠٢)، وابن أبي شيبة (٢/ ٢٢٧).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٧/ ٢٨٩)، والحاكم (٤/ ٣٢٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ١٦٥).

....

وهذا من الله، ومنك، وأنا بالله وبك، وما لي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله عليك، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا. وقد يكون هذا شرك أكبر بحسب حال قائله ومقصده. انتهى[1].

ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله، وكذلك المتابعة؛ كما قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] قال: (أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ خَالِصًا، ولَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا، وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ، حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صوابًا، وَالْخَالِصُ إِذَا كَانَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ إِذَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ)[2].

وفي الحديث من الفوائد: شفقة النبي ﷺ على أمته ونصحه لهم، وأن الرياء أخوف على الصالحين من فتنة الدجال. فإن كان النبي ﷺ يخافه على سادات الأولياء مع قوة إيمانهم وعلمهم، فغيرهم ممن هو دونهم بأضعاف أولى بالخوف من الشرك أصغره وأكبره.

الشرح:

قال ﷺ في حديث أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّال».

المسيح الدجال وصفه النبي ﷺ للصحابة رضي الله عنهم، وحذّرهم منه، وبيّن

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٣٤٤).
(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٩٥)، وانظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٦٠٠).

لهم صفته، وبين لهم أحواله؛ وذلك لكي يحذروه[1]، وإن خرج يكونون حجيجين على أنفسهم، أي: يعرفونه، ولا يلتبس عليهم أمره، فأمره ظاهر بين، وصفاته ظاهرة بيّنة، والحذر منه والتحذير - تحذير النبي ﷺ - قائم بيّن، وهم في حذر منه؛ لكثرة تخويف النبي ﷺ منه[2]، واستعاذة المؤمن دائمًا في صلاته من فتنة المسيح الدجال، والشيطان يظفر من العبد بما هو أسهل عليه، فالشرك الخفيّ الّذي منه أن يصلّي فيزين صلاته؛ لما يرى من نظر الرجل، هذا يظنه المرء سهلًا، فيقع فيه لخفائه وسهولته، وأمَّا الدجال، فيكون أمره عظيم في نفسه، فيأخذ عدته وأهبته للخلاص من فتنته وشره؛ لهذا بعض صغار الأمور تكون أخوف على العبد من الكبائر، لأنَّ الكبائر يمكن أن تتقى، لكن الصغار والوسائل هذه تروج، فلا تتقى، فيكون المرء الناصح خائفًا على نفسه، وعلى من يحب من الصغائر والوسائل والعظائم أكثر من خوفه من العظائم، فمثلًا انظر من جهة ذنب من الذنوب، وهو - والعياذ بالله - الزنا، فالزنا لا يغوي الشيطان العبد المؤمن المسدّد به، فنقول مثلًا لفلان: لا نخاف عليك الزنا، أو هناك شيء أخوف عندنا عليك من الزنا، ما هو؟ نقول: النظر، وتتبع النساء

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٠٥٧)، ومسلم (١٦٩) من حديث ابن عُمَرَ رضي الله عنهما قال: «قَامَ النَّبِيُّ ﷺ في النَّاس، فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ ذَكَرَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ: إِنِّي أُنْذِرُكُمُوهُ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أَنْذَرَهُ قَوْمَهُ، لَقَدْ أَنْذَرَهُ نُوحٌ قَوْمَهُ، وَلَكِنْ سَأَقُولُ لَكُمْ فِيهِ قَوْلًا لَمْ يَقُلْهُ نَبِيٌّ لِقَوْمِهِ: تَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَعْوَرُ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٩٣٧) من حديث النواس ابن سمعان رضي الله عنه قال: «ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ، حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا، فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً، فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ، حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَقَالَ: غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ».

بالنظر، والتلذّذ بذلك، لماذا؟ لأنَّ الزنا بعيد أن يوقعه الشيطان فيه، وهو على حصانة من إيمانه، لكن هذه الوسيلة إليه، يجعله الشيطان يجترئ عليها شيئًا فشيئًا، حتى يألفها قلبه، فإذا ألف قلبه التلذّذ بالنظر إلى النساء، ومتابعة النظر، أوقعه في حبّ ذلك، حتى يوقع فيما بعد ذلك.

المقصود أنَّ: من الأمور الصغيرة ما يخاف بها على الصالحين، أعظم من الأمور الكبيرة؛ لأنَّ الأمور الكبيرة تجبه وتضاده، وينكرها قلب المؤمن، لكن الصغائر تلتبس، ويتساهل فيها، حتى تكون وسيلة للوقوع في الكبيرة وعظائم الأمور، وهذا ظاهر بيّن في حال كل واحد منا، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يعاملنا بعفوه ومنه وكرمه، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْكَهْفِ.

الثَّانِيَةُ: الْأَمْرُ الْعَظِيمُ فِي رَدِّ الْعَمَلِ الصَّالِحِ إِذَا دَخَلَهُ شَيْءٌ لِغَيْرِ اللهِ.

الثَّالِثَةُ: ذِكْرُ السَّبَبِ الْمُوجِبُ لِذَلِكَ، وَهُوَ كَمَالُ الْغِنَى.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ مِنَ الْأَسْبَابِ، أَنَّهُ تَعَالَى خَيْرُ الشُّرَكَاءِ.

الْخَامِسَةُ: خَوْفُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنَ الرِّيَاءِ.

السَّادِسَةُ: أَنَّهُ فَسَّرَ ذَلِكَ بِأَنْ يُصَلِّيَ الْمَرْءُ للهِ، لَكِنْ يُزَيِّنُهَا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ.

❋ ❋ ❋

٣٦ - بَابٌ
مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الإِنسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

وقولِهِ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥-١٦].

ش: قوله: (بَابُ مِنَ الشِّرْكِ: إِرَادَةُ الإِنسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا).

فإن قيل: فما الفرق بين هذه الترجمة وبين ترجمة الباب قبله؟

قلت: بينهما عموم وخصوص مطلق، يجتمعان في مادة، وهو ما إذا أراد الإنسان بعمله التزين عند الناس والتصنع لهم والثناء، فهذا رياء - كما تقدم بيانه - كحال المنافقين، وهو أيضًا إرادة الدنيا بالتصنع عند الناس، وطلب المدحة منهم والإكرام.

ويفارق الرياء بكونه عمل عملًا صالحًا، أراد به عرضًا من الدنيا، كمن يجاهد ليأخذ مالًا؛ كما في الحديث: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ»، أو يجاهد للمغنم أو غير ذلك من الأمور التي ذكرها شيخنا عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود: ١٥].

وأراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة وما بعدها أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافي كمال التوحيد الواجب، ويحبط الأعمال، وهو أعظم من

....

الرياء؛ لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله، وأما الرياء، فقد يعرض له في عمل دون عمل، ولا يسترسل معه، والمؤمن يكون حذرًا من هذا وهذا.

وقولِهِ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥-١٦].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ **أي: ثوابها. وزينتها، أي: مالها. نوف، أي: نوفر له** ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ **من ثواب أعمالهم بالصحة والسرور في المال والأهل والولد: لا ينقصون، ثم نسختها:** ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] **الآيتين. رواه النحاس في ناسخه**[(١)].

قوله: (ثم نسختها). أي: قيدتها، فلم تبق الآية على إطلاقها.

وقال قتادة: «مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ وَسَدَمَهُ وَطِلْبَتَهُ وَنِيَّتَهُ، جَازَاهُ اللَّهُ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يُفْضِي إِلَى الْآخِرَةِ وَلَيْسَ لَهُ حَسَنَةٌ يُعْطَى بِهَا جَزَاءً.

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَيُجَازَى بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، وَيُثَابُ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ». ذكره ابن جرير بسنده[(٢)]**، ثم ساق حديث أبي هريرة عن ابن المبارك عن حيوة ابن شريح قال: حدثني الوليد بن أبي الوليد أبو عثمان**

---

(١) أخرجه ابن النحاس في الناسخ والمنسوخ (ص٥٣١)، وقال عقبه: (محال أن يكون هاهنا نسخ؛ لأنه خبر، والنسخ في الأخبار محال، لو جاز النسخ فيها ما عُرف حق من باطل، ولا صدق من كذب، ولبطلت المعاني، ولجاز لرجل أن يقول: لقيت فلانًا، ثم يقول: نسخته ما لقيته).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٢/٣٤٨).

....

أن عقبة بن مسلم حدثه أن شفي بن ماتع الأصبحي حدثه: «أَنَّهُ، دَخَلَ الْمَدِينَةَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: أَبُو هُرَيْرَةَ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى قَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُوَ يُحَدِّثُ النَّاسَ، فَلَمَّا سَكَتَ وَخَلَا قُلْتُ لَهُ: أَسْأَلُكَ بِحَقٍّ وَبِحَقٍّ لَمَا حَدَّثْتَنِي حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَقَلْتَهُ وَعَلِمْتَهُ: فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَفْعَلُ، لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ، ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً، ثُمَّ أَفَاقَ فقَالَ: لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ، ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً أُخْرَى، ثُمَّ مَالَ خَارًّا عَلَى وَجْهِهِ، فَأَسْنَدْتُهُ عَلَيَّ طَوِيلًا، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَزَلَ إِلَى الْقِيَامَةِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ . فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي ﷺ؟، قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: كَذَبْتَ وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ , وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ إِنَّمَا أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقَالُ لَهُ: فَبِمَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي

....

سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رُكْبَتِي، فقَالَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

وقد سئل شيخنا المصنف رحمه الله عن هذه الآية، فأجاب بما حاصله: ذكر عن السلف فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم، ولا يعرفون معناه.

فمن ذلك: العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله: من صدقة، وصلاة، وصلة، وإحسان إلى الناس، وترك ظلم، ونحو ذلك مما يفعله الإنسان، أو يتركه خالصًا لله، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته، أو حفظ أهله وعياله، أو إدامة النعمة عليهم، ولا همة له في طلب الجنة والهرب من النار، فهذا يعطى ثواب عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة من نصيب. وهذا النوع ذكره ابن عباس.

النوع الثاني: وهو أكبر من الأول وأخوف، وهو الذي ذكره مجاهد في الآية: أنها نزلت فيه، وهو أن يعمل أعمالًا صالحة، ونيته رياء الناس، لا طلب ثواب الآخرة.

النوع الثالث: أن يعمل أعمالًا صالحة يقصد بها مالًا، مثل أن يحج

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ١٣)، والترمذي (٢٣٨٢)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ١٣٦) من طريق شفي بن ماتع عن أبي هريرة مرفوعًا. وأصل الحديث في صحيح مسلم (١٩٠٥) من طريق سليمان بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه.

....

لمال يأخذه، أو يهاجر لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل المغنم، فقد ذكر أيضًا هذا النوع في تفسير هذه الآية؛ كما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رياستهم، أو يتعلم القرآن، ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد؛ كما هو واقع كثيرًا.

النوع الرابع: أن يعمل بطاعة الله مخلصًا في ذلك لله وحده لا شريك له، لكنه على عمل يكفره كفرًا يخرجه عن الإسلام، مثل: اليهود والنصارى إذا عبدوا الله، أو تصدقوا، أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام بالكلية، إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله في الدار الآخرة، لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام، وتمنع قبول أعمالهم، فهذا النوع أيضًا قد ذكر في هذه الآية عن أنس بن مالك وغيره، وكان السلف يخافون منها، قال بعضهم: لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة واحدة لتمنيت الموت؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

ثم قال: بقي أن يقال: إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج إبتغاء وجه الله، طالبًا ثواب الآخرة، ثم بعد ذلك عمل أعمالًا قاصدًا بها الدنيا، مثل أن يحج فرضه لله، ثم يحج بعده لأجل الدنيا - كما هو واقع -، فهو لما غلب عليه منهما. وقد قال بعضهم: القرآن كثيرًا ما يذكر أهل الجنة الخلص وأهل النار الخلص، ويسكت عن صاحب الشائبتين، وهو هذا وأمثاله.ا.هـ.

الشـرح:

هذا الباب باب عظيم من أبواب هذا الكتاب، ترجمه الإمام رحمه الله بقوله: (بَابُ مِنَ الشِّرْكِ: إِرَادَةُ الإنسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا).

(بَابُ مِنَ الشِّرْكِ): يعني: الشرك الأصغر، أن يريد الإنسان بأعماله التي يعملها من الطاعات الدنيا، ولا يريد بها الآخرة، وإرادة الإنسان الدنيا - يعني: ثواب الدنيا - أعم من حال الرياء، فالرياء حالة واحدة من أحوال إرادة الإنسان الدنيا، فهو يصلي، أو يزيد، ويزين في صلاته؛ لأجل الرؤية، ولأجل المدح. لكن هناك أحوال أُخَر لإرادة الناس بأعمالهم الدنيا؛ فلهذا عطف الشيخ رحمه الله هذا الباب على الذي قبله؛ ليبين أن إرادة الإنسان الدنيا تأتي في أحوال كثيرة أعم من حال الرياء بخاصة، لكن الرياء جاء فيه الحديث، وخافه النبي ﷺ على أمته، فهو في وقوعه كثير، والخوف منه جلل.

وهذا الباب اشتمل على الحكم بأن إرادة الإنسان بعمله الدنيا من الشرك.

وقوله: (إِرَادَةُ الإنسَانِ): يعني: أن يعمل العمل، وفي إرادته بَعْثَه على العمل ثواب الدنيا، فهذا من الشرك بالله عز وجل، وسيأتي تفصيل أحوال ذلك.

وقوله: (وقولِهِ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥-١٦]).

هذه الآية آية سورة هود مخصوصة بقوله عز وجل: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨]، فهي مخصوصة بمن شاء الله عز وجل.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ هنا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ يعني: ممن أراد الله عَزَّوَجَلَّ له ذلك وممن شاءه الله، فهذا العموم الذي هنا مخصوص بآية الإسراء وآية سورة الشورى.

الذين يريدون الحياة الدنيا أصلًا وقصدًا وتحركًا هم الكفار؛ ولهذا نزلت هذه الآية في الكفار، لكن لفظها يشمل كل من أراد الحياة الدنيا بعمله الصالح؛ ولهذا جمع الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالة له أحوال الناس فيما قال السلف تفسيرًا لهذه الآية، وجعل كلام السلف يتناول أربعة أنواع من الناس، كلهم يدخل في هذا الوعيد[1]:

النوع الأول ممن ركبوا هذا الشرك الأصغر، وأرادوا بعملهم الحياة الدنيا: أنه يعمل العمل الصالح، وهو فيه مخلص لله عَزَّوَجَلَّ، ولكن يريد به ثواب الدنيا، ولا يريد به ثواب الآخرة، مثلًا: يتعبد الله عَزَّوَجَلَّ بالصلاة، وهو فيها مخلص لله، أدَّاها على طواعية واختيار وامتثال لأمر الله، لكن يريد منها أن يصحَّ بدنه، أو وصل رحمه، وهو يريد منه أن يحصل له في الدنيا الذكر الطيب، والصلة ونحو ذلك، أو عمل أعمالًا من التجارة والصدقات، وهو يريد بذلك تجارة لكي يكون عنده مال، فيتصدق، وهو يريد بذلك ثواب الدنيا.

فهذا النوع عمل العبادة امتثالًا للأمر ومخلصًا فيها لله، ولكنه طامع في ثواب الدنيا، وليس له همة في الآخرة، ولم يعمل هربًا من النار وطمعًا في الجنة، فهذا داخل في هذا النوع، وداخل في قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾.

والأعمال التي يعملها العبد ويستحضر فيها ثواب الدنيا على قسمين:

---

(١) انظر: تفسير آيات من القرآن الكريم (ص١٢٠).

القسم الأول: أن يكون العمل الذي عمله، واستحضر فيه ثواب الدنيا وأراده، ولم يرد ثواب الآخرة، لم يُرغِّب الشرع فيه بذكر ثواب الدنيا، مثل: الصلاة، والصيام، ونحو ذلك من الأعمال والطاعات، فهذا لا يجوز له أن يريد به الدنيا، ولو أراد به الدنيا، فإنه مشرك ذلك الشرك.

والقسم الثاني: أعمال رتَّب الشارع عليها ثوابًا في الدنيا، ورغَّب فيها بذكر ثوابٍ لها في الدنيا، مثل: صلة الرحم، وبر الوالدين، ونحو ذلك، وقد قال ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[1]، فهذا النوع إذا استحضر في عمله حين يعمل ذلك العمل، استحضر ذلك الثواب الدنيوي، وأخلص لله في العمل، ولم يستحضر الثواب الأخروي، فإنه داخل في الوعيد، فهو من أنواع هذا الشرك، لكن إن استحضر الثواب الدنيوي والثواب الأخروي معًا، له رغبة فيما عند الله في الآخرة، يطمع في الجنة، ويهرب من النار، واستحضر ثواب هذا العمل في الدنيا، فإنَّه لا بأس بذلك؛ لأنَّ الشرع ما رغب فيه بذكر الثواب في الدنيا إلا للحض عليه: «**مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ، فَلَهُ سَلَبُهُ**»[2]، فقتل القتيل في الجهاد؛ لكي يحصل على السلب هذا، ولكن قصده من الجهاد الرغبة فيما عند الله ﷻ مخلصًا فيه لوجه الله، لكن أتى هذا من زيادة الترغيب له، ولم يقتصر على هذه الدنيا، بل قلبه معلق أيضًا بالآخرة، فهذا النوع لا بأس به، ولا يدخل في النوع الأول مما ذكره السلف في هذه الآية.

النوع الثاني: مما ذكره السلف مما يدخل تحت هذه الآية: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾: أنه يعمل

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٤٢)، ومسلم (١٧٥١) من حديث أبي قتادة ﷺ.

العمل الصالح لأجل ما يحصله من المال، مثل: أن يدرس يتعلم العلم الشرعي؛ لأجل الوظيفة فقط، وليس في همه رفع الجهالة عن نفسه، ومعرفة العبد بأمر ربه ونهيه، والرغب في الجنة وما يقرب منها، والهرب من النار وما يقرب منها، فهذا داخل في ذلك، أو حفظ القرآن ليكون إمامًا في المسجد، ويكون له الرِّزْق الذي يأتي من بيت المال، فغرضه من هذا العمل إنما هوالمال، فهذا لم يعمل العمل صالحًا، وإنما عمل العمل الذي في ظاهره أنه صالح، ولكن في باطنه قد أراد به الدنيا.

النوع الثالث: أهل الرياء الذين يعملون الأعمال لأجل الرياء.

النوع الرابع: الذين يعملون الأعمال الصالحة ومعهم ناقض من نواقض الإسلام، يعمل أعمال صالحة: يصلي، ويزكي، ويتصدق، ويقرأ القرآن، ويتلو، ولكن هو مشرك الشرك الأكبر، فهذا وإن قال إنه مؤمن، فليس بصادق في ذلك؛ لأنه لوكان صادقًا لوحَّد الله عَزَّوَجَلَّ .

فهذه بعض الأنواع التي ذُكِرت في تفسير هذه الآية، وكلها داخلة تحت قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾، فهؤلاء جميعًا أرادوا الحياة الدنيا وزينتها، ولم يكن لهم هَمٌّ في رضا الله عَزَّوَجَلَّ ، وطلب الآخرة بذلك العمل الذي عملوه.

هنا إشكال أورده بعض أهل العلم وهو: أن الله عَزَّوَجَلَّ قال في الآية التي تليها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، وأن هذه في الكفار الأصليين أو في من قام به مكفِّر، أما المسلم الذي قامت به إرادة الدنيا، فإنه لا يدخل في هذه الآية.

والجواب: أنه يدخل؛ لأنَّ السلف أدخلوا أصنافًا من المسلمين في هذه الآية، والوعيد بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾ فيمن كانت إرادته الحياة الدنيا، فلم يتقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ بشيء: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ

﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾، **فهؤلاء** أرادوا الدنيا بكل عمل، وليس معهم من الإيمان والإسلام مصحح لأصل أعمالهم، فهؤلاء مخلدون في النار، أمَّا الذي معه أصل الإيمان وأصل الإسلام الذي يصح به عمله، فهذا يحبط عمله الذي أشرك فيه وأراد به الدنيا، وما عداه لا يحبط؛ لأنَّ معه أصل الإيمان الذي يصحح العمل الذي لم يخالطه شرك.

فإذًا هذه الآية فيها الوعيد، وهذا الوعيد يشمل - كما ذكرنا - أربعة أصناف، وكما قال أهل العلم: إن العبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهي وإن كانت في الكفار، لكن لفظها يشمل من أراد الحياة الدنيا من غير الكفار.

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»(١).

ش: قوله: (فِي الصَّحِيحِ). أي: صحيح البخاري.

قوله: «تَعِسَ». هو بكسر العين، ويجوز الفتح، أي: سقط، والمراد هنا: هلك. قاله الحافظ، وقال في موضع آخر: وهو ضد سعد. أي: شقي(٢).

قال أبو السعادات: يقال: تعس، يتعس، إذا عثر وانكب لوجهه. وهو دعاء عليه بالهلاك(٣).

قوله: «عَبْدُ الدِّينَارِ»، هو المعروف من الذهب كالمثقال في الوزن.

قوله: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ»، وهو من الفضة، قدره الفقهاء بالشعير وزنًا، وعندنا منه درهم من ضرب بني أمية، وهو زنة خمسين حبة شعير، وخمسا حبة، سماه عبدًا له؛ لكونه هو المقصود بعمله، فكل من توجه بقصده لغير الله، فقد جعله شريكًا له في عبوديته؛ كما هو حال الأكثر.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦، ٢٨٨٧).

(٢) انظر: فتح الباري (٦/ ٨٢، ١١/ ٢٥٤).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ١٩٠).

....

قوله: «تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ». قال أبو السعادات: هي ثوب خز أو صوف معلم، وقيل: لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمة، وتجمع على خمائص. والخميلة بفتح الخاء المعجمة. وقال أبو السعادات: ذات الخمل، ثياب لها خمل من أي شيء كان[١].

قوله: «تَعِسَ وَانْتَكَسَ». قال الحافظ: هو بالمهملة، أي: عاوده المرض.

وقال أبو السعادات: أي: انقلب على رأسه. وهو دعاء عليه بالخيبة[٢].

قال الطيبي: فيه الترقي بالدعاء عليه؛ لأنه إذا تعس، انكب على وجهه، وإذا انتكس، انقلب على رأسه بعد أن سقط.

قوله: «وَإِذَا شِيكَ». أي: أصابته شوكة، «فَلاَ انْتَقَشَ»، أي: فلا يقدر على إخراجها بالمنقاش. قاله أبو السعادات[٣].

والمراد أن من كانت هذه حاله، فإنه يستحق أن يدعى عليه بما يسوؤه في العواقب، ومن كانت هذه حاله، فلا بد أن يجد أثر هذه الدعوات في الوقوع فيما يضره في عاجل دنياه وآجل أخراه.

قال شيخ الإسلام ﵀: فسماه النبي ﷺ عبد الدينار والدرهم، وعبد القطيفة، وعبد الخميصة، وذكر فيه ما هو دعاء بلفظ الخبر، وهو قوله:

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٨١).
(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١١٤).
(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٠٥).

....

«تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ»، «فَلاَ انْتَقَشَ»، وهذه حال من إذا أصابه شر، لم يخرج منه، ولم يفلح؛ لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذا حال من عبد المال.

وقد وصف ذلك بأنه: «إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ»: كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨]، فرضاؤهم لغير الله، وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقًا منها برياسة أو صورة ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضى، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له؛ إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده، فهو عبده، إلى أن قال: وهكذا أيضًا طالب المال؛ فإن ذلك يستعبده، ويسترقه، وهذه الأمور نوعان:

فمنها: ما يحتاج إليه العبد؛ كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا يطلب من الله، ويرغب إليه فيه، فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، من غير أن يستعبده، فيكون هلوعًا.

ومنها: ما لا يحتاج إليه العبد، فهذا ينبغي أن لا يعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها، صار مستعبدًا لها، وربما صار مستعبدًا متعمدًا على غير الله فيها، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله وشعبة من التوكل على غير الله.

. . . .

وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ»، وهذا هو عبد لهذه الأمور ولو طلبها من الله، فإن الله إذا أعطاه إياه رضي، وإن منعه إياها سخط، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله، فهذا الذي استكمل الإيمان. انتهى ملخصًا[(١)].

الشرح:

قال المؤلف رحمه الله: أن هذا ظاهر على من أراد هذه الأشياء، وجعل قلبه رقيقا للدنيا، فإنه لا يزال في تعاسة وظهرت، ولا تزال تظهر في أصحاب هذه العبودية أنواع التعاسة: تعاسة القلب، ورِق القلب، فإنَّه يكون حبه وبغضه لها، وولاؤه وبراؤه من أجلها، ويسعى فيها، وينصرف عما يصرفه عنه، وهذا له ضابط ذكره في الحديث، وذلك قوله: «إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ»: كما سيأتي في التقسيم إن شاء الله تعالى.

قال هنا: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ»، الدينار والدرهم مختلفان، الدينار عملة ذهبية، والدرهم عملة فضية، وكان الدينار في بعض الأزمنة يصرف بعشرة دراهم، ثم باثني عشر درهما، وهكذا، فالصرف بين

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٠ - ١٩٠).

الدينار والدرهم ليس واحدا، بل هو تبعا لاختلاف سعر هذا، أو سعر هذا.

المقصود أن: الدينار ذهب، وهي العملة الأكبر قيمة، والدرهم أقل وهو فضة.

وقوله ﷺ هنا: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ» هذا فيه تنويع أحوال الناس، وأنه ليس المقصود أن يكون القلب رقيقا للمال الكثير، بل أن يكون القلب رقيقا لجنس المال، سواء كان المال كثيرًا كدينار، أو كان قليلا كدرهم؛ لأن العبرة ليست بمقداره، وإنما العبرة بانصراف القلب عن قصده وتوجهه لله عَزَّوَجَلَّ.

الدينار بحسب العملة الحاضرة، الدينار في الأول هو مثقال، مثل ما جاء في أحاديث الزكاة في عشرين مثقال، أي: في عشرين دينار.

وبالنسبة في وقتنا الحاضر العشرين دينار تبلغ أحد عشر وثلاثة أسباع بالجنيه السعودي من الذهب، ومن المهم أن تعرف ما يقابل الدينار شرعا؛ لأن الدينار مذكور في مسائل شرعية كثيرة، فمنها في نصاب الزكاة، ومنها في كفارة من أتى حائضا، فإن يتصدق بدينار أو بنصف دينار، فلابد أن تعرف أن العشرين دينار تقابل أحد عشر وثلاثة أسباع الجنيه، وهذا يختلف، فقيمة الدينار تختلف باختلاف قيمة الجنيه الذهب السعودي، وهذا ينبغي تقديره، ثم تعرف ما يكون عليه الدينار.

يعني: أن الجنيه الذهب الواحد أكثر من الدينار قيمة؛ لأن العشرين بأحد عشر وثلاثة أسباع جنية، معنى ذلك: أن الدينار يكون أكثر من نصف الجنيه، يعني: عندك أحد عشر وثلاثة أسباع، إذا قلت: سبعة في أحد عشر، بسبعة وسبعين وثلاثة ثمانين، يعني: ثمانين على سبعة وعشرين، يعني: أربعة أسباع الجنيه، الدينار أربعة أسباع الجنيه السعودي.

إذا كان مثلا الجنيه السعودي بسبعمائة ريال، مثلا ما وصل إلى هذا، ماذا نقول مثلا على الحساب، فيكون الدينار بكم؟ أربعمائة.

هنا قوله: - هذا من باب التنبيه، لا علاقة له ببحث الحديث - قوله هنا: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ**» هنا كرر لاختلاف همم الناس - مثل ما ذكرت -، وليبين أن المقصود هو الدعاء على من كانت الدنيا همه، وهذا يناسب تبويب الشيخ في قوله: (**بَابُ مِنَ الشَّرْكِ: إِرَادَةُ الإنسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا**)، فإنه فعل هذا للدنيا، فلذلك دعي عليه، والمؤمن الذي لم يخالف عمله يدعى له، ولا يدعى عليه، وفهمنا هذه الدعوة العظيمة؛ لأجل رق القلب لهذا المال، وكما ذكر شيخ الإسلام أن طلب المال، أو طلب هذه الأشياء ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: طلب لما يحتاجه المرء، يحتاج إلى مركب، يحتاج إلى مسكن، يحتاج إلى ملبس، يحتاج إلى حاجياته المعتادة، وطلب هذه والسعي فيها هذه من المأمور به شرعا، والله عز وجل أمر بطلب الرزق، ويحب الذين يعملون بأيديهم لكفاية أنفسهم، ولا يحب من يكون عالة على الناس يتكفف هذا وهذا. وهذا القسم له حالتان:

الحالة الأولى: إذا طلب هذه الأشياء، فإنه يعتقد أن هذا الفعل منه سبب، وأن الرزاق في الحقيقة هو الله عز وجل ، فيكون في هذا الأمر في مقام التوكل على الله عز وجل .

الحالة الثانية: أن يجعل ما يكسب من هذه الأشياء، وما يحصل له في يده لا في قلبه، وإذا كان في يده، فإنه يصرفها بدون تعلق القلب بما حصل له من المال، وهذان الأمران مشروعان، ولا حرج فيهما، ولو استكثر العبد.

القسم الثاني: أن يطلب زيادة على حاجته، يطلب أن يكون غنيًا، ويطلب أن يكون ثريًا، ويسعى في طلب المال، **فهذا له حالتان**:

الحالة الأولى: أن يطلب ذلك مع التوكل على الله ﷻ، وما يفعله يكون من باب الأسباب - مثل ما ذكرنا في الأول -، فيحقق مقام التوكل على الله في طلب الرزق الثاني، أن يكون فيما يحصله من المال ويسعى في تحصيله غير معلق القلب به، فإذا أعطي وحصل له مال، رضي وشكر، وأثنى على الله ﷻ الذي أنعم بهذا المال عليه، وإن لم يحصل له المال، فإنَّه يعلم أن الله ﷻ له التصرف في ملكوته، ولا يكون في قلبه سخط لهذا القدر، ولا سخط لما حجز عنه من المال، هذا محمود، هذه الحالة الأولى، والصحابة ﷺ كان منهم من هو من أهل الضرب في الأسواق، وعبد الرحمن بن عوف ﷺ قيل: إن تركته حين توفي بلغت ملايين - في ذلك الوقت - من الذهب، وهذا الكسب منه ﷺ ومن غيره من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ﷺ، إنما هو كسب يد، لا كسب قلب، يعني: أن القلب غير متعلق بهذه الدنيا، وإنَّما يكسبونها لأجل ما جعل الله ﷻ في قلب المرء من حب المال.

الحالة الثانية: في طلب الازدياد، أن يطلب الازدياد من المال، والازدياد من الدنيا وقلبه معلق بها، ويعلم هو في نفسه أنه إن ازداد في نشاطه، فإن هذا يحصل قطعا الزيادة في الدنيا.

فيحجب عنه تمام التوكل كذلك من حاله، وهي الصفة الثانية له أنه هلوع، إن أعطي من هذه الدنيا وجاءته، فرح ورضي واستبشر، وإن حجزت عنه سخط ذلك، مع أن عنده كفايته وزيادة، فإن كان يوالي على ذلك يحب من كان من أهل المال، ويبغض من كان ليس من أهل المال، وقلبه يجده في نفسه ذل ورق للمال، وانكسار في النفس حينما يسمع بالأموال، ويسمع بالبيوعات، أو صفقات أو نحو ذلك، وهو من أهل هذا

الاستكثار، فهذا هو المقصود بالحديث هذا النوع، فإذا صار عندنا أربعة أقسام، المقصود بالحديث هو القسم الرابع منها.

«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ،تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِتَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ».

من الناس - نسأل الله العافية - من حاله أنه يكون رقيقا، ولو للقليل من المال، فإذا كان رقيقًا ولو للقليل من المال، يعني: مما فيه زيادة، فإنَّه يحصل عليه هذا الوعيد، وهذا الدعاء من النبي ﷺ.

التبويب: (**بَابُ مِنَ الشِّرْكِ: إِرَادَةُ الإنسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا**)، وهنا سماه عبدًا، في قوله: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ»، و«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ»، تدل على أن ما فعله شرك، وبه يتضح مناسبة الحديث للباب، فإنَّ العبودية تجمع بين الرجاء والخوف والمحبة، والذي تعلق قلبه بالدينار والدرهم بالمال، يرجو ويخاف، يرجو فيرضى إذا أعطي، ويخاف فيسخط إذا منع، وأيضا في قلبه محبة للمال تحركه في العمل له، وينسى الله عزّ وجلّ .

القاعدة العامة في المكاسب هي قول الله عزّ وجلّ : ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧] في المكاسب وغيرها من شهوات الدنيا، أو مما يحتاجه المرء في الدنيا، فالأصل ابتغاء الآخرة، هي المحرك، وهي الغاية، وهي التي يتنقل القلب فيها في الآخرة، فيشهد الجنة، فيحدث ذلك له مقام الرجاء، ويشهد بقلبه النار، فيحدث له ذلك مقام الخوف الشديد، والمحبة هي التي تحرك؛ كما ذكر شيخ الإسلام رحمه الله في كتابه (قاعدة في المحبة) قال: (**إن محاب الناس هي التي تحركهم في أعمالهم، فمن أحب الدار الآخرة تحرك لها، ومن أحب الدنيا تحرك لها**)[١].

(١) انظر: قاعدة في المحبة (ص١٣).

المحبة هي المحرك للقلب، فإذا وقر في القلب محبة الدينار والدرهم تحرك لها، فإن كان تحركه له مشروع لم يأثم، بل ربما أثيب، وإن كان تحركه له غير مشروع من جهة عبودية القلب أو من جهة المكسب الحرام، فهو آثم على ذلك؛ لأن قلبه حركه لهذا الشيء الباطل المحرم.

ومن رأى حال الناس اليوم، وجد أن أكثر من يشتغل في تجارة المال هم على هذا الوصف الذي وصفهم به ﷺ في قوله: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ».

نسأل الله عز وجل الخلاص - تخليص القلوب من رقها لغير الله عز وجل -، فما أحسن قول شمس الدين ابن القيم رحمه الله في نونيته حيث قال[(١)]:

هَرَبُوا مِنْ الرِّقِ الَّذي خُلِقُوا لَهُ فَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

لأنَّ القلب خلق ليكون عبدًا، القلب لا بد أن يكون عبدًا، لا يمكن إلا أن يكون عبدًا، فالقلب لابد أن يكون رقيقًا، فإمَّا أن يكون رقيقًا لله عز وجل، وإمَّا أن يكون رقيقًا عبدًا لغيره، إمَّا أن يكون طائعًا راغبًا في الله وإمَّا أن يكون هاربًا طائعًا راغبًا في غير الله عز وجل.

هَرَبُوا مِنْ الرِّقِ الَّذي خُلِقُوا لَهُ فَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

تجد أن أحدهم يتعب من خمس دقائق، أو عشر دقائق في الصلاة، ولكن وقوف من أجل الدنيا، ولو طال لا يتعب، السبب تحرك القلب؛ لأنَّ القلب له إرادة وله همة، فإذا تحركت همته وإرادته لشيء، سهل عليه ما يبذل فيه، فإذا تحركت همة القلب وإرادته للآخرة، سهل عليه ما يبذله بنفسه، ولو بذهاب نفسه، وإذا تحركت همته وإرادته للدنيا، سهل عليه ما يبذله للدنيا، فنسأل الله العافية، يتعب الواحد في زمن طويل؛ لتحصيل

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسي (١/ ٣٠٨).

معصية في زمن وجيز، يكون عنده ذل إذلال ليعصى الله عَزَّوَجَلَّ في دقائق أو في ساعات ونحو ذلك، مع أنه ابتلي برق طويل، والعبادة التي شرعها الله عَزَّوَجَلَّ يجدها ثقيلة على نفسه. خذ أبسط الأمثلة على ذلك، الذكر سهل ميسور، حركة اللسان في ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ليست خفيفة على كل نفس، بل من الناس من يكون عنده تحريك اللسان بذكر الله أثقل من الجبال؛ وذلك لأن القلب استثقله، والقلب هو المحرك، فإذا استثقل القلب ذلك، لم يتحرك اللسان به، تجد أنه يتحدث في أحاديث طويلة جدا لا فائدة منها، فإذا قيل له: اذكر الله، أو سبح، أو هلل، أو نحو ذلك، ثقل عليه، وأخذ يعتذر بمعاذير، أو يهرب من ذلك بأنواع الهروب، وهذا ظاهر؛ فلهذا صلاح القلب يصلح الحال «**أَلاَ إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ**»[1].

ولهذا يلزم على طالب العلم أن يكون بصيرا بحال نفسه، وبصيرا بحال من يريد إصلاحهم، وأن صلاح القلب ينتج عنه كل خير، وفساد القلب - وإن صلحت الجوارح بأعمالها - يعقبه شر، فإذا كان القلب صالحا، آب العبد وإن عصى، وإن كان القلب فاسدا، وإن كان ظاهره طاعة، فإنه لا يؤمن عليه الانتكاس؛ لأنَّ القلب هو معدن الخير، ومعدن ضد ذلك من الشر والفساد.

ماوجه كون الفاعل لهذا مشركا؟

الجواب: هو سماه عبدا له، وعبوديته - مثل ما ذكرنا - في أنه والى وعادى فيه، إذا أعطي رضي، وإن لم يعطَ سخط، فهو سخط للمال، ورضي لأجل مجيء المال، فصار رضاؤه وسخطه لأجله، وهذه هي حقيقة العبودية، الحب والبغض والرضا والسخط هذه حقيقة العبودية.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢، ٢٠٥١)، ومسلم (١٥٩٩).

....

ش: قوله: «طُوبَى لِعَبْد». قال أبو السعادات: طوبى اسم الجنة، وقيل: هي شجرة فيها[(١)].

ويؤيد هذا ما روى ابن وهب بسنده عن أبي سعيد قال: «قَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا طُوبَى؟ قَالَ: «شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ سَنَةٍ، ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا»[(٢)].

ورواه الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى سمعت عبد الله بن لهيعة حدثنا دراج أبو السمح أن أبا الهيثم حدثه أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، طُوبَى لِمَنْ رَآكَ، وَآمَنَ بِكَ»، قَالَ: «طُوبَى لِمَنْ رَآنِي وَآمَنَ بِي، ثُمَّ طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَرَنِي» قَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا طُوبَى؟ قَالَ: «شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ سَنَةٍ، ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا»[(٣)]. وله شواهد في الصحيحين[(٤)]، وغيرهما[(٥)].

وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه هاهنا أثرًا غريبًا عجيبًا. قال وهب رحمه الله: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يُقَالُ لَهَا طُوبَى، يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِئَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، زَهْرُهَا رِيَاطٌ، وَوَرَقُهَا بُرُودٌ، وَقُضْبَانُهَا عَنْبَرٌ، وَبَطْحَاؤُهَا يَاقُوتٌ، وَتُرَابُهَا كَافُورٌ، وَوَحْلُهَا مِسْكٌ، يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث (٣/ ١٤١).
(٢) أخرجه ابن جرير (١٣/ ٥٢٩).
(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٧١).
(٤) أخرجه البخاري (٦٥٥٣)، ومسلم (٢٨٢٨).
(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٨، ٢٥٧، ٢٦٤)، وابن حبان (٩/ ١٧٨).

. . . .

أَنْهَارُ الْخَمْرِ وَاللَّبَنِ وَالْعَسَلِ، وَهِيَ مَجْلِسٌ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، فَبَيْنَا هُمْ فِي مَجْلِسِهِمْ إِذْ أَتَتْهُمْ مَلَائِكَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ، يَقُودُونَ نُجُبًا مَزْمُومَةً بِسَلَاسِلَ مِنْ ذَهَبٍ، وُجُوهُهَا كَالْمَصَابِيحِ مِنْ حُسْنِهَا، وَبَرُهَا كَخَزِّ الْمِرْعَزِّيِّ مِنْ لِينِهِ، عَلَيْهَا رِحَالٌ أَلْوَاحُهَا مِنْ يَاقُوتٍ، وَدُفُوفُهَا مِنْ ذَهَبٍ، وَثِيَابُهَا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ، فَيُنِيخُونَهَا وَيَقُولُونَ: إِنَّ رَبَّنَا أَرْسَلَنَا إِلَيْكُمْ لِتَزُورُوهُ وَتُسَلِّمُوا عَلَيْهِ، قَالَ: فَيَرْكَبُونَهَا، قَالَ: فَهِيَ أَسْرَعُ مِنَ الطَّائِرِ، وَأَوْطَأُ مِنَ الْفِرَاشِ نُجُبًا مِنْ غَيْرِ مِهْنَةٍ، يَسِيرُ الرَّجُلُ إِلَى جَنْبِ أَخِيهِ وَهُوَ يُكَلِّمُهُ وَيُنَاجِيهِ، لَا تُصِيبُ أُذُنُ رَاحِلَةٍ مِنْهَا أُذُنَ صَاحِبَتِهَا، وَلَا بَرْكُ رَاحِلَةٍ بَرْكَ صَاحِبَتِهَا، حَتَّى إِنَّ الشَّجَرَةَ لَتَتَنَحَّى عَنْ طُرُقِهِمْ لِئَلَّا تُفَرِّقَ بَيْنَ الرَّجُلِ وَأَخِيهِ. قَالَ: فَيَأْتُونَ إِلَى الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَيُسْفِرُ لَهُمْ عَنْ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ حَتَّى يَنْظُرُوا إِلَيْهِ، فَإِذَا رَأَوْهُ قَالُوا: اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، وَحُقَّ لَكَ الْجَلَالُ وَالْإِكْرَامُ. قَالَ: فَيَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَ ذَلِكَ: أَنَا السَّلَامُ، وَمِنِّي السَّلَامُ، وَعَلَيْكُمْ حَقَّتْ رَحْمَتِي وَمَحَبَّتِي، مَرْحَبًا بِعِبَادِي الَّذِينَ خَشَوْنِي بِغَيْبٍ وَأَطَاعُوا أَمْرِي قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا إِنَّا لَمْ نَعْبُدْكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَلَمْ نُقَدِّرْكَ حَقَّ قَدْرِكَ، فَأْذَنْ لَنَا بِالسُّجُودِ قُدَّامَكَ قَالَ: فَيَقُولُ اللَّهُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ بِدَارِ نَصَبٍ وَلَا عِبَادَةٍ، وَلَكِنَّهَا دَارُ مُلْكٍ وَنَعِيمٍ، وَإِنِّي قَدْ رَفَعْتُ عَنْكُمْ نَصَبَ الْعِبَادَةِ، فَسَلُونِي مَا شِئْتُمْ، فَإِنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ أُمْنِيَّتَهُ فَيَسْأَلُونَهُ حَتَّى إِنَّ أَقْصَرَهُمْ أُمْنِيَّةً لَيَقُولُ: رَبِّ تَنَافَسَ أَهْلُ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ فَتَضَايَقُوا فِيهَا، رَبِّ فَأْتِنِي كُلَّ شَيْءٍ كَانُوا فِيهِ مِنْ يَوْمِ خَلَقْتَهَا إِلَى أَنِ انْتَهَتِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ اللَّهُ: لَقَدْ قَصَّرَتْ بِكَ الْيَوْمَ أُمْنِيَّتُكَ، وَلَقَدْ سَأَلْتَ دُونَ مَنْزِلَتِكَ، هَذَا لَكَ

....

مِنِّي، وَسَأُتْحِفُكَ بِمَنْزِلَتِي، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي عَطَائِي نَكَدٌ وَلَا تَصْرِيدٌ، قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ: اعْرِضُوا عَلَى عِبَادِي مَا لَمْ تَبْلُغْ أَمَانِيُّهُمْ وَلَمْ يَخْطُرْ لَهُمْ عَلَى بَالٍ قَالَ: فَيُعْرَضُونَ عَلَيْهِمْ حَتَّى يُقْضُوهُمْ أَمَانِيَّهُمُ الَّتِي فِي أَنْفُسِهِمْ، فَيَكُونُ فِيمَا يُعْرَضُونَ عَلَيْهِمْ بَرَاذِينُ مُقَرَّنَةٌ، عَلَى كُلِّ أَرْبَعَةٍ مِنْهَا سَرِيرٌ مِنْ يَاقُوتَةٍ وَاحِدَةٍ، عَلَى كُلِّ سَرِيرٍ مِنْهَا قُبَّةٌ مِنْ ذَهَبٍ مُفْرَغَةٌ، فِي كُلِّ قُبَّةٍ مِنْهَا فُرُشٌ مِنْ فُرُشِ الْجَنَّةِ مُظَاهَرَةٌ، فِي كُلِّ قُبَّةٍ مِنْهَا جَارِيَتَانِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، عَلَى كُلِّ جَارِيَةٍ مِنْهُنَّ ثَوْبَانِ مِنْ ثِيَابِ الْجَنَّةِ، لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ لَوْنٌ إِلَّا وَهُوَ فِيهِمَا، وَلَا رِيحٌ طَيِّبَةٌ إِلَّا قَدْ عُبِّقَتَا بِهِ، يَنْفُذُ ضَوْءُ وجُوهِهِمَا غِلَظَ الْقُبَّةِ، حَتَّى يَظُنَّ مَنْ يَرَاهُمَا أَنَّهُمَا مِنْ دُونِ الْقُبَّةِ يُرَى مُخُّهُمَا مِنْ فَوْقِ سُوقِهِمَا كَالسِّلْكِ الْأَبْيَضِ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، يَرَيَانِ لَهُ مِنَ الْفَضْلِ عَلَى صَحَابَتِهِ كَفَضْلِ الشَّمْسِ عَلَى الْحِجَارَةِ أَوْ أَفْضَلُ، وَيَرَى هُوَ لَهُمَا مِثْلُ ذَلِكَ ثُمَّ يَدْخُلُ إِلَيْهِمَا فَيُحَيِّيَانِهِ وَيُقَبِّلَانِهِ وَيُعَانِقَانِهِ، وَيَقُولَانِ لَهُ: وَاللَّهِ مَا ظَنَنَّا أَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ مِثْلَكَ ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ فَيَسِيرُونَ بِهِمْ صَفًّا فِي الْجَنَّةِ حَتَّى يَنْتَهِي كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ إِلَى مَنْزِلَتِهِ الَّتِي أُعِدَّتْ لَهُ»[(١)].

وقد روى هذا الأثر ابن أبي حاتم بسنده عن وهب بن منبه، وزاد: «فانظروا إِلَى مواهب ربكُم الَّتِي وهبكم، فَإِذا بقباب فِي الرفيق الْأَعْلَى، وغرف مَبْنِيَّة من الدّرّ والمرجان، أَبْوَابهَا من ذهب، وسررها من ياقوت، وفرشها من سندس واستبرق، ومنابرها من نور، يفور من أَبْوَابهَا وأعراصها نور مثل شُعَاع الشَّمْس، عِنْده مثل الْكَوْكَب الدُّرِّي فِي النَّهَار

(١) أخرجه ابن جرير (١٣/ ٥٢٥).

....

المضيء، وَإِذا بقصور شامخة فِي أَعلَى عليين، من الْيَاقُوت يزهر نورها، فلولا أَنه مسخر إِذا لالتمع الْأَبْصَار. فَمَا كَانَ من تِلْكَ الْقُصُور من الْيَاقُوت الْأَبْيَض، فَهُوَ مفروش بالحرير الْأَبْيَض، وَمَا كَانَ مِنْهَا من الْيَاقُوت الْأَحْمَر فَهُوَ مفروش بالعبقري، وَمَا كَانَ مِنْهَا من الْيَاقُوت الْأَخْضَر فَهُوَ مفروش بالسندس الْأَخْضَر، وَمَا كَانَ مِنْهَا من الْيَاقُوت الْأَصْفَر فَهُوَ مفروش بالأرجوان الْأَصْفَر، مبوبة بالزمرد الْأَخْضَر، وَالذَّهَب الْأَحْمَر، وَالْفِضَّة الْبَيْضَاء، قواعدها وأركانها من الْجَوْهَر، وشرفها قباب من لُؤْلُؤ، وبروجها غرف من المرجان، فَلَمَّا انصرفوا إِلَى مَا أَعْطَاهُم رَبهم، قربت لَهُم براذين من ياقوت أبيض، منفوخ فِيهَا الرّوح، بجنبها الْولدَان المخلدون، بيد كل وليد مِنْهُم حِكْمَة برذون من تِلْكَ البراذين، ولجمها وأعنتها من فضَّة بَيْضَاء منظومة بالدر والياقوت، سُرُوجهَا سرر موضونة مفروشة بالسندس والاستبرق.

فَانْطَلَقت بهم تِلْكَ البراذين، تزف بهم وَتَطَأ رياض الْجنَّة، فَلَمَّا انْتَهوا إِلَى مَنَازِلهمْ، وجدوا الْمَلَائِكَة قعُودا على مَنَابِر من نور ينتظرونهم؛ ليزوروهم ويصافحوهم ويهنوهم كَرَامَة رَبهم.

فَلَمَّا دخلُوا قصورهم وجدوا فِيهَا جَمِيع مَا تطاول بِهِ عَلَيْهِم رَبهم مِمَّا سَأَلُوا وتمنوا، وَإِذا على بَاب كل قصر من تِلْكَ الْقُصُور أَرْبَعَة جنان: جنتان ذواتا أفنان، وجنتان مدهامتان، وفيهمَا عينان نضاختان، وَفِيهِمَا من كل فَاكِهَة زوجان، وحور مقصورات فِي الْخيام، فَلَمَّا تبوؤوا مَنَازِلهمْ واستقروا قرارهم، قَالَ لَهُم رَبهم: هَل وجدْتُم مَا وعد ربكُم حَقًّا قَالُوا: نعم وربنا.

....

قَالَ: هَل رَضِيتُمْ بِثَوَاب ربكُم قَالُوا: رَبنَا رَضِينَا فارض عَنَّا قَالَ: برضاي عَنْكُم حللتم دَاري ونظرتم إِلَى وَجْهي، فعند ذلك قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٤-٣٥]»[١].

وهذا سياق غريب، وأثر عجيب، ولبعضه شواهد في الصحيحين[٢].

وقال خالد بن معدان: «إِنَّ فِي الْجنَّة شَجَرَة يُقَال لَهَا: طُوبَى، ضروع كلهَا، تُرْضع صبيان أهل الْجنَّة، فَمن مَاتَ من الصّبيان الَّذين يرضعون، رضع من طُوبَى، وأنّ سقط الْمَرْأَة يكون فِي نهر من أَنهَار الْجنَّة يتقلب فِيهِ حَتَّى تقوم الْقِيَامَة، فيبعث ابْن أَرْبَعِينَ سنة». رواه ابن أبي حاتم[٣].

الشرح:

هذه الجملة الأولى من هذا الأثر في الصحيحين: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً، يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَام، مَا يَقْطَعُهَا**». هذا القدر في الصحيحين[٤]، لكن الزيادة أنه: «**ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا**». خارجة عن الصحيحين، وهي ضعيفة.

قوله هنا: «**طُوبَى لِعَبْدٍ**»، هذا مثل سابقه في كونه خبرًا، والمقصود منه

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور(٤/ ٦٤٩).
(٢) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٤٥٦).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور(٤/ ٦٤٥).
(٤) راجع (ص٥٥٧).

الدعاء، قال: «طُوبَى لِعَبْدٍ» يعني: الجنة لعبد، أو هذه الشجرة التي في الجنة بهذا الاسم: «طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» إلى آخر صفاته.

وهذا الأثر الطويل الذي ساقه وهب بن منبه هو من مجموع ما في روايات بني إسرائيل وما في الكتاب والسنة، رواه جماعة بين ما يعلمه من القرآن، ويعلمه من السنة، وما في أخبار بني إسرائيل، ولهذا صار فيه هذه الألفاظ التي فيها غرابة، أو لم تأت الأدلة بإثباتها، والقاعدة في أخبار بني إسرائيل كما قال النبي ﷺ: «**حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ**»[(١)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٦٢)، وأحمد (٢/ ٤٧٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

ش: قوله: «آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». أي: في جهاد المشركين.

قوله: «أَشْعَثَ» مجرور بالفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف للوصفية ووزن الفعل، ورأسه مرفوع على الفاعلية، وهو طائر الشعر، شغله الجهاد في سبيل الله عن التنعم بالادهان وتسريح الشعر.

قوله: «مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ». هو بالجر صفة ثانية لعبد.

قوله: «إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ». هو بكسر الحاء أي: حمى الجيش عن أن يهجم العدو عليهم.

قوله: «كَانَ فِي الحِرَاسَةِ». أي: غير مقصر فيها ولا غافل، وهذا اللفظ يستعمل في حق من قام بالأمر على وجه الكمال.

قوله: «وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ». أي: في مؤخرة الجيش، يقلب نفسه في مصالح الجهاد، فكل مقام يقوم فيه إن كان ليلًا أو نهارًا؛ رغبة في ثواب الله وطلبًا لمرضاته ومحبة لطاعته.

قال ابن الجوزي رحمه الله: وهو خامل الذكر لا يقصد السمو.

وقال الخلخالي: المعنى: ائتماره بما أمر، وإقامته حيث أقيم، لا يفقد من مقامه، وإنما ذكر الحراسة والساقة؛ لأنهما أشد مشقة. انتهى[١].

وفيه فضل الحراسة في سبيل الله.

---

(١) انظر: عمدة القاري (١٤/ ١٧٢)، ومرقاة المفاتيح (٩/ ٣٥٧).

....

قوله: «إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ». أي: إن استأذن على الأمراء ونحوهم لم يؤذن له؛ لأنه لا جاه له عندهم ولا منزلة؛ لأنه ليس من طلابها، وإنما يطلب ما عند الله لا يقصد بعمله سواه.

قوله: «وَإِنْ شَفَعَ» - بفتح أوله وثانيه - «لَمْ يُشَفَّعْ» - بفتح الفاء مشددة - يعني: لو ألجأته الحال إلى أن يشفع في أمر يحبه الله ورسوله، لم تقبل شفاعته عند الأمراء ونحوهم.

وروى الإمام أحمد ومسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: «رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ»(١).

وروى الإمام أحمد أيضًا عن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير قال: «قَالَ عُثْمَانُ وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى مِنْبَرِهِ: إِنِّي مُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَمْ يَكُنْ يَمْنَعُنِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ بِهِ إِلَّا الضَّنُّ بِكُمْ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: حَرَسُ لَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ يُقَامُ لَيْلُهَا وَيُصَامُ نَهَارُهَا»(٢).

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك، قال عبد الله ابن محمد قاضي نصيبين: حدثني محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة، أنه أملى عليه عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس، وواعده الخروج، وأنشدها معه إلى الفضيل بن عياض في سنة سبع وسبعين ومائة. قال:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٢، ٢٨٥٤)، وأحمد (٣/ ١٢٨، ١٦٧، ٢٨٤) من حديث أبي هريرة ٣، واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٥٠٩)، والطبراني في الكبير (١/ ٩١ رقم ١٤٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٩١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٦).

....

يَا عَابِدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا ... لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي العِبَادِةِ تَلْعَبُ

مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خدَّه بِدُمُوعِهِ ... فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخضَّب

أَوْ كَانَ يُتْعِبُ خَيْلَه فِي بَاطِلٍ ... فَخُيولنا يَومَ الصَّبِيحة تَتْعبُ

رِيحُ العَبِيرِ لَكُمْ وَنحنُ عَبِيرُنَا ... وَهَجُ السنابِك والغبارُ الأطيبُ

وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِيِّنَا ... قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لَا يَكْذبُ

لَا يَسْتَوِي غُبَارَ خَيْلِ اللَّهِ فِي ... أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانَ نَارٍ تَلْهَبُ

هَذَا كِتَابُ اللَّهِ يَنْطق بَيْنَنَا ... لَيْسَ الشهيدُ بمَيِّت لَا يَكْذبُ

قال: فلقيت الفضيل بكتابه في المسجد الحرام، فلما قرأه، ذرفت عيناه، فقال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحني، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قلت: نعم. قال لي: اكتب هذا الحديث، وأملى علي الفضيل بن عياض: حدثنا منصور بن المعتمر عن أبي صالح عن أبي هريرة: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلِّمْنِي عَمَلًا أَنَالُ بِهِ ثَوَابَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ: هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلاَ تَفْتُرَ، وَتَصُومَ وَلاَ تُفْطِرَ؟ أَنْ تُصَلِّيَ وَلاَ تَفْتُرَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَضْعَفُ مِنْ أَنْ أَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لوطوقت ذلك مَا بَلَغْتَ فَضْلُ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَمَا عَلِمْتَ إِنَّ فَرَسَ الْمُجَاهِدِ لَيَسْتَنُّ فِي طِوَلِهِ، فَيُكْتَبُ لَهُ حَسَنَاتٍ؟»[1].

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/ ٤٤٩، ٤٥٠)، وأصل الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ، أخرجه البخاري (٢٧٨٥)، ومسلم (١٨٧٨).

الشرح:

المقصود في قوله: «ثَوَابَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». يعني: إذا كان قصده أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن تكون كلمة الذين كفروا السفلى، فهذا هو الذي في سبيل الله، وهذا من جهة جهاد الطلب، وأمَّا جهاد الدفاع، فإذا قاتل المرء حماية لنفسه، فهو في سبيل الله، وإذا قاتل المرء حماية لعرضه وأهله، فهو في سبيل الله، وإذا قاتل المرء حماية لماله، فهو في سبيل الله، وقد قال ﷺ: **«مَنْ قُتِلَ دُونَ نَفْسِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ عِرْضِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»**[1]، واسم الشهادة إنما يكون لمن قتل في سبيل الله، وذلك لقوله ﷺ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، وَالرِّيحُ رِيحُ المِسْكِ»**[2].

المقصود من هذا التنبيه على معنى في سبيل الله، والتفريق بين جهاد الطلب والدفاع، والجهاد بالسنان، والجهاد بالبيان، وهذه موضوعات مهمة ينبغي أن تحرر في ذهن طالب العلم.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٧٢)، والترمذي (١٤١٨، ١٤٢١)، وابن ماجه (٢٥٨٠)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥)، وأحمد (٣/ ١٧٣، ١٩٠)، والبزار (٨٨، ٨٩)، والطيالسي (١/ ١٩٤)، والحاكم (٤/ ٣٢٩)، وابن أبي شيبة (٥/ ٤٠٨)، وعبد الرزاق (١٠/ ١٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٠٣)، ومسلم (١٨٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ هُودٍ.

الثَّالِثَةُ: تَسْمِيَةُ الْإِنْسانِ الْمُسْلِمِ: عَبْدَ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْخَمِيصَةِ.

الرَّابِعَةُ: تَفْسِيرُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ.

الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: «تَعِسَ وَانْتَكَسَ».

السَّادِسَةُ: قَوْلُهُ: «وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ».

السَّابِعَةُ: الثَّنَاءُ عَلَى الْمُجَاهِدِ الْمَوْصُوفِ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ.

٣٧ - بَابُ

مَنْ أَطَاعَ العُلَمَاءَ والأُمَرَاءَ في تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ أو تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ.

ش: قوله: (بَابُ مَنْ أَطَاعَ العُلَمَاءَ والأُمَرَاءَ في تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ أو تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ).

لقول الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] **وتقديم تفسير هذا في أصل المصنف رحمه الله عند ذكر حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.**

الشرح:

فهذا الباب ترجمه إمام هذه الدعوة بقوله: **(بَابُ مَنْ أَطَاعَ العُلَمَاءَ والأُمَرَاءَ في تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ أو تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ)**. وراعى فيه ما جاء في آية براءة؛ لأنّها فيها ذكر الربوبية؛ حيث قال عز وجل: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، والآية فيها ذكر الأحبار والرهبان، وهم العلماء والعباد، وأضاف الشيخ في الترجمة ذكر الأمراء؛ لأنَّ الأمراء في الأعصار الإسلامية صار منهم نوع إلزام للناس بما يخالف السنة، وما يخالف ما جاء في القرآن وكلام النبي ﷺ، فمن أطاعهم في ذلك التحريم - تحريم الحلال وتحريم الحرام -، فقد اتّخذهم أربابًا، وسبب ذكر الربوبية هنا

دون الإلهية أنَّ الربوبية فيها أنَّ الربّ هو الّذي خلق ورزق، وهو السيّد الذي يتصرف في ملكه، ومن كان كذلك، فهو المطاع، فالطاعة من آثار ربوبية الله عزوجل على خلقه، يعني: وجوب طاعة الله عزوجل هذا لكونه عزوجل ربًّا، لكونه هو الّذي خلق الخلق، وهو الذي أنشأهم، ورزقهم، وهو الذي يملكهم، ويتصرف فيهم كيف يشاء.

فإذًا لما كان أمره نافذًا فيهم، فهم يجب عليهم أن يطيعوه وحده عزوجل ؛ إذ لا ربّ لهم سواه، وآية براءة فيها ذكر الربوبية والألوهية، قال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾، فذكر الألوهية بعد ذكر الربوبية، وسبب ذلك أنّ الربوبية والألوهية من الألفاظ التي إذا اجتمعت تفرقت، وإذا تفرقت اجتمعت، والربوبية تدل على الإلهية بدلالة اللزوم، والإلهية تدل على الربوبية بدلالة التضمّن؛ لهذا إذا أطلقت الربوبية استلزمت الإلهية، وإذا أطلقت الإلهية تضمنت الربوبية، وهذا كقوله عزوجل : ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠]، وأولئك اتّخذوا الملائكة آلهة، اتّخذوا بعض النبيين آلهة، عبر أو ذكر لفظ الربوبية؛ لأنَّ لفظ الربوبية إذا أفرد، فإنّه يدخل فيه الإلهية بدلالة اللزوم، كما أنَّ الإلهية إذا أفردت دخلت فيها الربوبية بدلالة التضمّن، فقول القائل: لا إله إلّا الله، فيه توحيده لله عزوجل في ألوهيته، ويتضمّن ذلك أنَّه موحد لله عزوجل في ربوبيته، وإذا قال: لا رب لنا سوى الله عزوجل فإنّ ذلك يستلزم منه، ويلزم منه أنّه إنّما يعبد الله وحده دون ما سواه، ولهذا في القرآن كثيرًا ما يحتج على المشركين بعدم التزامهم بهذا اللازم، فيقرون بالربوبية، ولا يلتزمون بالإلهية، يقرون بأنّ الله عزوجل هو الخالق، الرازق، المحيي المميت، الذي يجير، ولا يجار عليه، السيّد،

المتصرف في ملكه، الذي له الملكوت وحده، وله نفوذ الأمر وحده، ومع ذلك لا يوحّدونه في عبادته، فلم يجعلوا الربوبية مستلزمة للإلهية، يعني: ما قادهم توحيدهم بالربوبية أو في أكثر أفراد الربوبية إلى أن يوحدوا الله بالإلهية.

فإذًا من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحلّ الله، أو تحليل ما حرّم الله، فقد اتّخذهم آلهة، واتّخذهم أربابًا.

والمعنى واحد؛ لأنَّ عبادتهم داخلة في معنى الإلهية، والطاعة متفرعة عن الربوبية، فأحد المعنيين يقود إلى الآخر - كما أسلفت -، ويأتي بيان الضوابط في ذلك في موضعه عند شرح حديث عدي بن حاتم ﵁ إن شاء الله تعالى.

والأرباب جمع الرب، والرب والإله لفظان يفترقان؛ لأنَّ الرب هو: السيد الملك المتصرف في الأمر، والإله هو: المعبود، وقد سُئِلَ المصنف الإمام محمد بن عبد الوهاب ﵀ عن الفرق بين الإله والرب في مثل هذه السياقات في نحو قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: ما معنى الربوبية هنا؟ قال: الربوبية هنا بمعنى الألوهية، بمعنى المعبود؛ لأن من أطاع على ذلك النحو، فقد عَبَدَ؛ لقول النبي ﷺ لعدي ﵁ حين قال: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ. قَالَ: «**أَلَيْسَ يُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ؟ قَالَ: بَلَى قَالَ: فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ**»، فعدي ﵁ فهم من كلمة (أربابًا) العبادة، وقال النبي ﷺ مقررًا لذلك: «**أَلَيْسَ يُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ،...**» إلى آخره، فهو إقرار منه ﵁ بأن معنى الربوبية هنا العبودية.

فإذا قال الشيخ ﵀ حينما سئل قال: الألوهية والربوبية، أو كلمة الرب والإله من الألفاظ التي إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت

اجتمعت[١]، يعني: كلفظ الفقير والمسكين، وكلفظ الإسلام والإيمان، وكنحوهما، لِمَ؟ لأن الإله يطلَق على المعبود، وجاء في نصوص كثيرة إطلاق الرب على المعبود؛ كما ذكرنا في الآيات وفي الحديث، وكقوله ﷺ في مسائل القبر: «... **فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولاَنَ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟**...»[٢] يعني: من معبودك؛ لأن الابتلاء لم يقع في الرب الذي هو الخالق الرازق المحيي المميت.

فهذا الباب والأبواب بعده في بيان مقتضيات التوحيد ولوازم تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن شهادة أن لا إله إلا الله تقتضي وتستلزم أن يكون العبد مطيعًا لله عَزَّوَجَلَّ فيما أحل وما حرم، مُحِلًا للحلال، محرمًا للحرام، لا يتحاكم إلا إليه عَزَّوَجَلَّ، ولا يحكم في الدين إلا شرع الله عَزَّوَجَلَّ.

والعلماء وظيفتهم تبيين معاني ما أَنْزَل الله عَزَّوَجَلَّ على رسوله ﷺ، وليست وظيفة العلماء التي أُذن لهم بها في الشرع أنهم يحللون ما يشاؤون، أو يحرمون، بل وظيفتهم الاجتهاد في فقه النصوص، وأن يبينوا ما أحل الله وما حرم الله عَزَّوَجَلَّ، فهم أدوات ووسائل لفهم نصوص الكتاب والسنة، ولذلك طاعتهم تبعٌ لطاعة الله ورسوله، فيطاعون فيما فيه طاعة لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله، وما كان من الأمور الاجتهادية، فيطاعون؛ لأنَّهم هم أفقه بالنصوص من غيرهم، فتكون طاعة العلماء والأمراء من جهة الطاعة التبعية لله ولرسوله، أما الطاعة الاستقلالية، فليست إلا لله عَزَّوَجَلَّ، حتى طاعة النبي ﷺ إنما هي تبع لطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الله هو الذي أذن بطاعته،

---

(١) انظر: الرسائل الشخصية للإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص١٧).

(٢) كما ورد في حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، الذي رواه أبو داود (٤٧٥٣)، وأحمد (٤/ ٢٨٧)، وابن أبي شيبة (٣/ ٥٤)، والحاكم (١/ ٩٣)، والبيهقي في الشعب (١/ ٣٥٦)، وغيرهم. وهو حديث طويل في كيفية قبض الروح، وسؤال الميت في قبره، وأحوال من نعيم القبر وعذابه.

وهو الذي أمر بطاعة رسوله ﷺ، وهذا معنى الشهادة له بأنه رسول الله، قــــال عز وجل : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النســـاء: ٨٠]، **وقــال** عز وجل : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

فإذًا الطاعة الاستقلالية هذه من العبادة، وهي نوع من أنواع العبادة، فيجب إفراد الله عز وجل بها، وغير الله عز وجل فإنما يطاع لأن الله عز وجل أذن بطاعته، ويطاع فيما أذن الله به في طاعته، فالمخلوق لا يطاع في معصية الله؛ لأن الله لم يأذن أن يطاع مخلوق في معصية الخالق عز وجل ، وإنما يطاع فيما أطاع الله عز وجل فيه على النحو الذي يأتي.

إذًا هذا الباب عقده الشيخ رحمه الله ليبين أن الطاعة من أنواع العبادة، بل إن الطاعة في التحليل وفي التحريم هذه هي معنى اتخاذ الأرباب؛ حيث قال الله عز وجل : ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ وما سيأتي من بيان حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه .

(بَابُ مَنْ أَطَاعَ العُلَمَاءَ والأُمَرَاءَ): العلماء والأمراء هم أولوا الأمر في قوله عز وجل : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

قال العلماء: أولوا الأمر يشمل من له الأمر في حياة الناس في دينهم - وهم العلماء -، وفي دنياهم - وهم الأمراء -، وقد قال هنا عز وجل : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النســاء: ٥٩]، ولـم يكرر فعل الطاعة، قال ابن القيم وغيره: دل هذا على أن طاعة أولي الأمر ليست استقلالًا، وإنما يطاعون في طاعة الله ورسوله ﷺ، فإذا أمروا بمعصية، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

والأمور الاجتهادية التي ليس فيها نص من الكتاب والسنة، فإنهم

يطاعون في ذلك؛ لِمَا أَذِنَ الله به في ذلك؛ ولِمَا في ذلك من المصالح المرعية في الشرع.

هنا ذَكَرَ هذا الباب لأجل أن الطاعة نوع من أنواع العبادة، وهذه العبادة يجب أن يفرَد الله عَزَّوَجَلَّ بها، فمن أطاع غير الله على هذا النحو الذي ذكره الشيخ، فقد أشرك الشرك الأكبر بالله عَزَّوَجَلَّ.

(**في تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ**): يعني: في تحريم الذي أحل الله، فيكون هناك حلال في الشرع، فيحرمونه، يحرمه العالم، أو يحرمه الأمير، فيطيعه الناس، وهم يعلمون أنه حلال، لكن يطيعونه في التحريم، والحلال يعني: الذي أحله الله، أحل الله أكل الخبز، فيقولون: الخبز حرام عليكم دينًا، فلا تأكلوا الخبز تدينًا، ويحرمونه لأجل ذلك، هذا طاعة لهم في تحريم ما أحل الله.

(**أو تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ**): أي: أحلوا ما يُعْلَم أن الله حرمه، حرم الله الخمر، فأحله العلماء، أو أحله الأمراء، فمن أطاع عالمًا أو أميرًا في اعتقاد أن الخمر حلال، وهو يعلم أنها حرام، وأن الله حرمها، فقد اتخذه ربًا من دون الله.

إذًا في هذا الباب حكم، وهناك شرط، فالحكم قوله في آخره: (**فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ**) وهو جزاء الشرط، والشرط قوله: (**بَابُ مَنْ أَطَاعَ العُلَمَاءَ**)، وضابط هذا الشرط ما بينهما وهو قوله: (**في تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ أو تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ**) وهذا يستفاد منه - يعني من اللفظ - أنهم عالمون بما أحل، فحرموا طاعة، عالمون بما حرم، فأحلوه طاعة لأولئك.

قوله في آخره: (**فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ**): ذلك لأجل آية سورة براءة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ وحديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في ذلك.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟»[1].

ش: قوله: «يُوشِكُ» بضم أوله وكسر الشين المعجمة. أي: يقرب ويسرع.

وهذا القول من ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا جواب لمن قال: إنَّ أبا بكر وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج، ويريان أن إفراد الحج أفضل، أو ما هو معنى هذا.

وكان ابن عباس يرى أن التمتع بالعمرة إلى الحج واجب، ويقول: إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط، فقد حل من عمرته، شاء أم أبى؛ لِحَدِيثِ سُرَاقَةَ بْنَ مَالِكٍ: «حِينَ أَمَرَهُمْ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَجْعَلُوهَا عُمْرَةً وَيَحِلُّوا إِذَا طَافُوا بِالْبَيْتِ، وَسَعَوْا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَقَالَ سُرَاقَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلِعَامِنَا هَذَا أَمْ لِأَبَدٍ؟ فَقَالَ: بَلْ لِأَبَدٍ». والحديث في الصحيحين[2].

وحينئذ فلا عذر لمن استفتى أن ينظر في مذاهب العلماء وما استدل به كل إمام، ويأخذ من أقوالهم ما دل عليه الدليل إذا كان له ملكة يقتدر بها على ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وللبخاري ومسلم وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٢٨ رقم ٣١٢١).

(٢) أخرجه البخاري (١٧٨٥، ٧٢٣٠)، ومسلم (١٢١٦).

. . . .

مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا أَهْدَيْتُ، وَلَوْلاَ أَنَّ مَعِي الهَدْيَ لَأَحْلَلْتُ»[١] هذا لفظ البخاري في حديث عائشة ﵂، ولفظه في حديث جابر: «افْعَلُوا مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، فَلَوْلاَ أَنِّي سُقْتُ الهَدْيَ لَفَعَلْتُ مِثْلَ الَّذِي أَمَرْتُكُمْ»[٢] في عدة أحاديث تؤيد قول ابن عباس.

وبالجملة، فلهذا قال ابن عباس لما عارضوا الحديث برأي أبي بكر وعمر ﵄: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ. . . .». الحديث.

قال الإمام الشافعي ﵀: (أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ، لم يكن له أن يدعها لقول أحد)[٣].

وقال الإمام مالك ﵀: (ما منا إلا راد ومردود عليه، إلا صاحب هذا القبر ﷺ)[٤]. وكلام الأئمة في هذا المعنى كثير.

وما زال العلماء - رحمهم الله - يجتهدون في الوقائع، فمن أصاب منهم، فله أجران، ومن أخطأ، فله أجر؛ كما في الحديث[٥]، لكن إذا استبان لهم الدليل، أخذوا به، وتركوا اجتهادهم.

وأما إذا لم يبلغهم الحديث، أو لم يثبت عن النبي ﷺ عندهم فيه

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٢٩)، ومسلم (١٢١١).
(٢) أخرجه البخاري (١٦٥١، ١٧٥٨)، ومسلم (١٢١٦، ١٢١٨).
(٣) انظر: إعلام الموقعين (٢/ ٢٨٢)، ومدارج السالكين (٢/ ٣٣٥).
(٤) انظر: الإحكام لابن حزم (٦/ ٣١٧)، ومنهاج السنة النبوية (٣/ ٥٠٣)، والبداية والنهاية (١٤/ ١٤٠)، والآداب الشرعية (٢/ ٢٩٣)، وإعلام الموقعين (٣/ ٢٨٤، ٢٨٥).
(٥) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص ﵁.

....

حديث، أو ثبت وله معارض أو مخصص ونحو ذلك، فحينئذ يسوغ للإمام أن يجتهد. وفي عصر الأئمة الأربعة - رحمهم الله تعالى - إنما كان طلب الأحاديث ممن هي عنده باللقى والسماع، ويسافر الرجل في طلب الحديث إلى الأمصار عدة سنين.

ثم اعتنى الأئمة بالتصانيف، ودونوا الأحاديث، ورووها بأسانيدها، وبينوا صحيحها من حسنها من ضعيفها. والفقهاء صنفوا في كل مذهب، وذكروا حجج المجتهدين، فسهل الأمر على طالب العلم، وكل إمام يذكر الحكم بدليله عنده، وفي كلام ابن عباس رضي الله عنهما ما يدل على أن من يبلغه الدليل، فلم يأخذ به - تقليدًا لإمامه -، فإنه يجب الإنكار عليه بالتغليظ لمخالفته الدليل.

الشرح:

الإنكار يكون لمخالفة الدليل بعد التسليم بصحته وبدلالته، أمَّا إذا كانت صحة الدليل فيها بحث، وكذلك دلالته فيها بحث، فهذه (لا إنكار في مسائل الاجتهاد)، وهذه العبارة (لا إنكار في مسائل الاجتهاد) من عبارات أهل العلم؛ لأنَّ المجتهد إمّا في المسألة النازلة أو في الحديث أو في معنى الآية، فإنَّ اجتهاده هو الذي ينبغي عليه، والواجب عليه، فإذا بان له شيء من وجه الحجة، وخالفه غيره، فليس لأحد أن ينكر عليه ذلك؛ لأنَّ أصول أهل العلم في النظر في الأدلة مختلفة، فتجد أنَّ أصول أبي حنيفة في الفقه تختلف عن أصول مالك، تختلف عن أصول الشافعي

وأحمد، فمالك والشافعي وأحمد أصولهم متقاربة، وأمَّا الإمام أبو حنيفة، فأصول الفقه عنده تبعد، أو تختلف كثيرًا عن أصول الشافعي وأحمد مع قربه معهم في أكثرها.

المقصود أنّ سبب الخلاف النظر، وأصول الفقه - كما هو معلوم - منها ما هو راجع إلى الدليل، ومنها ما هو راجع إلى الاستدلال، فالدليل والاستدلال ركنان من أركان علم أصول الفقه، لأنَّ أصول الفقه له أربعة أركان: الحكم، والدليل، والاستدلال، والمستدل، فالدّليل منه الكلام في القراءات، ومنه الكلام في ثبوت السنة، وحجّية السند، وهل يُؤخذ بحديث بزيادة الثقة مثلًا، أو لا يؤخذ، هل يُؤخذ بالمرسل يحتجّ به، أم لا يؤخذ، هذه تبحث في أصول الفقه، وهي المسماة بـ(مصطلح الحديث)، كذلك من جهة الاستدلال تختلف أنظارهم فيه، فمن جهة الأمر والنهي مخصّصات أو صوراف الأمر إلى الاستحباب، صوارف النهي إلى الكراهة، يعني: من التحريم إلى الكراهة، هذه تختلف فيها أنظار أهل العلم، كذلك المخصّصات، هل هذا مخصص أم العام باق على عمومه، هل يُؤخذ بالمطلق ويحكم به على المقيّد، أم يحكم بالمقيد على المطلق، وهذه تختلف فيه الأنظار، كذلك هل تعدّ السنة بيانًا للمجملات - مجملات القرآن أو مجملات السنة -، يعني السنة العملية تعد بيانًا واجبًا، يعني: حكمه الوجوب من جهة بيان البيان، لكن أعني حكم المسألة هو الوجوب، أم أنَّه الاستحباب؟ حجية قول الصاحب؟ هل القياس حجة؟ هل يسلّم أنَّ هذه علة؟ هل هذه العلة غير معارضة؟ إلى خلاف كثير في هذه المسائل، فهذه مسائل كثيرة يكون الخلاف والاجتهاد في النصوص راجعًا إلى هذه المسائل.

فإذًا هناك اجتهاد يرجع إلى الدليل، وهناك اجتهاد يرجع إلى الاستدلال، والخلاف بين الأئمة في هذا كثير، ومن حيث الاجتهاد لا إنكار في مسائل الاجتهاد، وهناك عبارة أخرى وهي (لا إنكار في مسائل الخلاف)، فعبارة (لا إنكار في مسائل الاجتهاد) صحيحة على إطلاقها - يعني بإطلاق -، وأمَّا عبارة (لا إنكار في مسائل الخلاف) فهذه صحيحة باعتبار، بقيد، وهو أن يكون الخلاف قويًا، يعني: إذا رجع الخلاف إلى كونه اجتهادًا صحيحًا، وذلك أنّ الخلاف منه ما هو خلاف قوي، ومنه ما هو خلاف ضعيف، والخلاف القوي ما كان للاجتهاد فيه مشرح؛ لهذا بعض العلماء يقول: عبارة لا إنكار في مسائل الخلاف هذه عبارة حادثة، وأن تصويبها لا إنكار في مسائل الاجتهاد.

وشيخ الإسلام والأئمة يقولون: كلتا العبارتين صحيح، وإذا قلنا: لا إنكار في مسائل الخلاف، نعني به الخلاف القوي، أمَّا الخلاف الضعيف، فإنَّه ينكر فيه على أصحابه، فننكر على من رأيناه يشرب النبيذ المسكر، ولو كان قولًا محكيًا عن أبي حنيفة ﷺ، ننكر على من أحلّ، أو على من عمل بربا الفضل، وأكل مال ربا الفضل، وتعامل به، وإن كان قولًا لابن عباس ﷺ محكيًّا عنه، أو مشهورًا عنه، ننكر على من تمتّع أيعني: تزوّج امرأة متعة -، وإن كان قولًا معروفًا لطوائف من السنة، وهكذا.

فإذًا ليست كلّ مسألة فيها خلاف يترك فيها الإنكار، بل إذا كان الخلاف قويًا لا إنكار؛ لأنَّه ترجع المسألة إلى الاجتهاد - الاجتهاد الصحيح -، وإذا كان الخلاف ضعيفًا، فإنَّه يكون قد قوبل بالدليل، يكون تقديم لقول هذا على الدليل.

وممّا تقرر في هذا الباب أنَّه من عارض الدليل لقول أحد، فإنَّه ينكر عليه، ويغلظ عليه، ولهذا فإنَّ الأئمة - أئمة الحديث والسنة رحمهم الله - صنفوا في الأشربة والأطعمة، الأشربة يريدون بذلك الردّ على الحنفية، والأطعمة يريدون بذلك الرد على المالكية، الذين لم يحرموا كل ذي ناب من السباع، وكلّ ذي مخلب من الطير؛ كما جاءت به السنة، وهكذا في غير هذه المسائل.

ش: وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عمر البزار، حدثنا زياد بن أيوب، حدثنا أبو عبيدة الحداد عن مالك بن دينار عن عكرمة ابن عباس قال: «لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيَدَعُ غَيْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

الشرح:

وهذا من كمال مرتبة أهل العلم، وما من عالم إلّا وله غلط، ولا بدّ؛ لأنَّه إذا فرض أنَّ ثَمَّ عالم يصيب في كل مسألة، معنى ذلك أنَّه بلغ مرتبة النبوة؛ لأنَّ الأنبياء هم الذين لا يخطئون.

ولا يوجد عالم إلّا وله شيء خالف فيه، خالف فيه ما نعلمه من السنة، وهذا دليل كماله؛ لأنَّ كمال طالب العلم وكمال العلم أن تكون مخالفاته للفهم الصحيح للسنة قليلة، وإذا كان فهمه الكثير صوابًا، فهذا يدلّ على ارتفاع مقامه، فمالك له أقوال مخالفة في السنة، مثل: عدم تحريم أكل ذي الناب من السباع، وذي المخلب من الطير، حتى حكي أو نسب للمالكية أنهم يبيحون أكل لحوم الكلاب، وهذا لا يصح؛ لأنّهم يكرهونه، ومنهم من يحرمه، ونسب إلى الشافعي إباحة، بل ثابت عنه أنَّه يجيز اللعب بالشطرنج، وللإمام أبي حنيفة الأخذ بإباحة شرب النبيذ، ولو أسكر إذا لم يكن من التمر، ويعني من العنب والتمر، وكذلك الإمام أحمد له أقوال خالف فيها ما نعلمه من السنة في مسائل التوسّل، بعض مسائل التوسّل، كذلك شيخ الإسلام ابن تيمية له مسائل خالف فيها السنة، هو أتى بأشياء من عند نفسه، باجتهاده، وهو مأجور على ذلك، لكن ما نعلم من

أين أخذها، كقوله: إنّ النبي ﷺ غرس الجريدتين على قبري اللذين يعذبان؛[1] لأن الجريدتين إذا كانتا خضراوين، فإنّ فيها الحياة، فهما يسبّحان ما دامتا خضراوين، فإذا يبستا، فإنّه ينقطع التسبيح، فالتخفيف لأجل تسبيح الجريدتين، لأجل مجاورة المسبّح، وهذا يفتح باب شرّ، بل فتحه، واستدلّ به المبتدعة على أنّه أولى من هاتين الجريدتين أن يُستأجر قوم يقرؤون القرآن، يكون أبلغ، أو من يسبّحون عند القبور، وهذا اجتهاد منه رَحِمَهُ اللهُ؛ لهذا لمّا ساق هذا القول الحافظ ابن حجر في الفتح قال: وهو على عهدته[2]. يعني: ما يعرف أنّ أحدًا علل بهذا التعليل، وهكذا، فما من أحد إلّا وله أقوال، لكن إذا كان العالم الغالب عليه الصواب، فإنَّ هذا دليل على كماله، وقد قال بعضهم في ذلك بيتًا، يقول[3]:

شَخِصَ الْأَنَامُ إِلَى كَمَالِكَ فَاسْتَعِذْ ... مِنْ شَرِّ أَعْيُنِهِمْ بعَيْبٍ وَاحِدِ

وهذا من جهة. من جهة أخرى أن دليل الاجتهاد والمتابعة هو أن يكون للعالم نبوة، أو عفوة، أو مخالفة، إمّا في عمله؛ حتى يستغفر وينيب، وإمّا في قوله وفتواه؛ حتى يكون ذلك دليلًا على أنّه عالم مجتهد في الشرع، والله المستعان.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٧٨)، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى قَبْرَيْنِ فَقَالَ: إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ مِنْ كَبِيرٍ. ثُمَّ قَالَ: بَلَى أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَسْعَى بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ. قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ عُودًا رَطْبًا، فَكَسَرَهُ بِاثْنَتَيْنِ، ثُمَّ غَرَزَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى قَبْرٍ، ثُمَّ قَالَ: لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا».

(٢) انظر: فتح الباري (١/ ٣٢٠).

(٣) هذه أبيات للمتنبي يمدح بها سيف الدولة. انظر: شرح ديوان المتنبي للعكبري (١/ ٥٢)، وديوان المعاني (١/ ٦٨)، وصبح الأعشي في صناعة الانشاء (١٤/ ٢٧٥).

....

ش: وعلى هذا فيجب الإنكار على من ترك الدليل لقول أحد من العلماء كائنًا من كان، ونصوص الأئمة على هذا، وأنه لا يسوغ التقليد إلا في مسائل الاجتهاد، التي لا دليل فيها يرجع إليه من كتاب ولا سنة، فهذا هو الذي عناه بعض العلماء بقوله: لا إنكار في مسائل الإجتهاد، وأما من خالف الكتاب والسنة، فيجب الرد عليه؛ كما قال ابن عباس والشافعي ومالك وأحمد، وذلك مجمع عليه كما تقدم في كلام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

الشرح:

ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللهِ، وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ».

وهذا الأثر مروي بهذا اللفظ بإسناد صحيح، وإسناده موجود، ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من رواية الإمام أحمد[1] في كتاب (طاعة الرسول ﷺ) للإمام أحمد، وهذا الكتاب كان موجودًا، ولكنه اليوم إنَّما وُقف على أوراق منه، جُعلت في آخر إحدى الطبعات لمسائل عبد الله بن الإمام أحمد، كتاب (طاعة الرسول) صدّره الإمام أحمد بالمواضع التي

---

(١) أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ١٤٥)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٦٩)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢/ ١٨٩). وانظر: مجموع الفتاوى (٢٦/ ٥٠)، والآداب لابن مفلح (٢/ ٦٦)، والاستذكار (٤/ ٦١).

زادت على الثلاثين، التي أمر الله عَزَّوَجَلَّ بها في القرآن: أن يُطاع الرسول ﷺ، وطاعة الرسول ﷺ فرض وواجب؛ لأنَّه لم يأت بشيء من عنده ﷺ، وإنَّما هو مبلغ عن الله، ومرسل من عند الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا اجتهد ﷺ، فإنَّ اجتهاده إمَّا أن يقرّ عليه، أو لا يقرّ عليه، يقر عليه، فيكون شرعًا؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقرره على ذلك، ولا يقرّ عليه، فيرد ما اجتهد فيه ﷺ؛ كما اجتهد في أسارى بدر، وغير ذلك.

إذًا فما يقوله النبي ﷺ هو وحي من الله عَزَّوَجَلَّ، وقد قال حسان بن عطية أحد التابعين: «**كَانَ جِبْرِيلُ يَنْزِلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِالسُّنَّةِ، كَمَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ بِالْقُرْآنِ**»[1]. وهذا المعنى صحيح؛ لمَّا دلّ عليه الحديث الصحيح، الّذي فيه قول النبي ﷺ: «**أَلاَ وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ كَمَا حَرَّمَ اللَّهُ**»[2] يعني: كالذي حرّم الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ**».

هذه قالها لمّا احتجّ عليه في مسألة التمتّع في الحجّ، فكان ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يرى وجوب ذلك، ويحتجّ عليه في حديث النبي ﷺ، وأبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كانا يريان إفراد الحجّ ويقولان: الإفراد بالحجّ أفضل من التمتع، والنبي ﷺ كان قارنًا في حجه، ولولا أنَّه ساق الهدي لفسخ القران إلى عمرة، فصار متمتّعًا بالعمرة إلى الحج، وقوله: «**لَو اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي**

---

(١) أخرجه الدارمي (٦٠٨)، وابن المبارك في الزهد والرقائق (٢/ ٢٣)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (١/ ٢٥٤، ٣٤٥، ٣٤٦)، والمروزي في السنة (ص٣٢)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ٢٦٦، ٢٦٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٠٤)، والترمذي (٢٦٦٤)، وابن ماجه (١٢)، والدارمي (٦٠٦)، واحمد (٢٨/ ٤١٠، ٤٢٩)، والبيهقي (٩/ ٥٥٦)، والدارقطني (٥/ ٦١٦)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٢٧٤)، والحاكم (١/ ١٩١).

مَا اسْتَدْبَرْتُ»[(١)] يدلّ على أنّ التمتع هو أفضل الأنساك، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأيضًا جمع من الصحابة رضي الله عنهم ، رأوا أنَّ الإفراد أفضل، وذلك حتى لا يخلو البيت من المعتمرين، والله عز وجل جعل البيت مثابة للناس، يعني يثوبون إليه، وعمارة البيت بالطواف والسعي بين الصفا والمروة من العبادات العظيمة التي يحبّها الله عز وجل ، رأى أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وجمع أيضًا من غيرهما، رأوا أنَّ الاكتفاء بالتمتّع يجعل الناس يكتفون في سنه برحلة واحدة إلى بيت الله، يعتمرون فيها ويحجّون، ويتركون البيت في باقي السنة، فلا يقصدونه، ولا يؤمونه بالعمرة، وهذا فيه إخلاء لبيت الله الحرام من قاصديه، إذا اكتُفي بالتمتع، والناس منازلهم تباعدت وفتحت البلاد، وصار الناس يبعدون عن بيت الله الحرام، لهذا كان رأي أبو بكر وعمر رضي الله عنهما هو اجتهاد اجتهداه، بما يناسب حال الناس، وبما يحقّق القصد الشرعي من كثرة ورود الناس على بيت الله الحرام، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما لم يجعلا الإفراد أفضل مطلقًا، وإنَّما قالوا: إنَّ الإفراد أفضل؛ لأنَّه يأتي بعمرة مستقلة بسفر مستقل، فيأتي إلى الحج في سفر، ويقصد أيضًا البيت الحرام بالعمرة في سفر آخر، ويفرد العمرة عن الحج، ويفرد الحجّ عن العمرة، وينشئ لكلّ واحد منهما سفرًا، وأمَّا من أراد التمتّع وهو يريد أن يُنشئ سفرًا آخر للعمرة فهذا أفضل، وليس هو ممّا نهى عنه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وابن عباس رضي الله عنهما رأى أنَّ التمتّع واجب، للأحاديث التي جاءت في الحج، والأدلّة معروفة في كتاب الحجّ من الفقه.

المقصود من هذا الأثر هو أنَّه أنكر على من احتجّ بقول أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وقابل به قول النبي ﷺ.

ولا شكّ أنَّ هذا لا يجوز أن يقول لك قائل، قال رسول الله ﷺ، كذا

---

(١) سبق تخريجه (ص٥٧٥).

بحكم، وتقول: قال العالم الفلاني كذا، وأبو بكر وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أفضل هذه الأمة وإذا كان قولهم لا يجوز أن يقابل به قول النبي ﷺ، كذلك من هو أدنى منهم من باب أولى وأحرى، فمن جاءته سنة عن النبي ﷺ، وعلمها لم يكن له أن يدعها لقول أحد من أهل العلم، بل يجب عليه أن يتبع السنة إذا كان هو ممن يعلم معاني ألفاظ الأحاديث، أمّا من لا يفهم اللغة تمامًا فإنّه يعمل بها إذا بُيّن له معناه، ومن جهة العمل كما سيأتي العمل بالسنن.
المقام فيه له جهتان:

الجهة الأولى: أن يسمع السنة فيفهم معناها بحسب ما عنده من الكلام العربي، ويعمل به في نفسه، فهذا هو الذي ينبغي، ولا يتوقف ذلك على أن يعلم ما عند أهل العلم، أو ما عند أصحاب المذاهب المتبوعة، لأنّه حين الحاجة إلى السنة يعمل بها، فإذا تركها وهو محتاج فيها إلى العمل، محتاج في المسألة إلى العمل بهذه السنة، فقال: لا أعمل حتى أرى أقوال الناس، يكون قد خالف مقتضى طاعة الرسول ﷺ، فإن أخطأ في العمل، يكون قد أصاب من جهة الطاعة والاتباع، وأخطأ من جهة أنّه قد يكون هذا الدليل منسوخًا، وقد يكون مخصوصًا، وقد يكون مقيّدًا، أو يكون عامًا مرادًا به النصوص، أو يكون مجملًا له بيان أو نحو ذلك.

الجهة الثانية: أن يأمر به غيره، والأمر بما يعلمه من الحديث يأمر به غيره، هذه ليست لأفراد الناس، وإنّما هي لأهل العلم الّذين يعلمون الخاص والعام، يعلمون كيف تستنبط الأحكام من حديث النبي ﷺ، بل ومن كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ، فهناك فرق بين العمل بالسنة في النفس، ويعني في حالك إذا احتجت إلى ذلك، أو إذا جاءك ما تتذكر فيه سنة أو حديث، وبين أمرك لغيرك بذلك، الأمر للآخرين إنّما هو لأهل العلم، أمّا من لم يكن عالمًا، فيكون معذورًا إذا عمل بما بلغه من الحديث؛ كما جاء في

الحديث الذي مرّ معنا في الأثر: «قَدْ أَحْسَنَ مَن انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ»[١]، فمن انتهى إلى ما سمع من السنة، فقد أحسن، ولكن لا يأمر غيره إلّا إذا كان عالمًا بذلك، وإذا احتاج غيره إلى أن يذكر بالسنة وهو غير عالم، يتلو عليه حديث النبي ﷺ الذي حفظه، فيكون غيره يعمل به كما عمل به الأول، ولا يأمره بذلك، وإنّما يتلو عليه السنة، فيكون بذلك مخاطبًا من جهة العمل، أمّا من جهة التفقّه العام، فكلام أهل العلم، وكلام صحابة رسول الله ﷺ وفتاواهم، كذلك كلام التابعين وفتاوى التابعين، وكلام الأئمة، كذلك كلام الفقهاء الذين صنفوا الكتب، وهذه الكتب الكثيرة المؤلفة في بيان الكتاب والسنة وبيان الأحكام، هذه كلها معينة على فهم الكتاب والسنة، ووظيفتها الإعانة، وظيفتها ومنزلتها أنّها وسائل لفهم الكتاب والسنة، كتب الفقه تصور لك المسائل، وتذكر لك دليلًا على المسألة على حسب ما استدلّ به عالم، فتستفيد منها صورة المسألة، والدليل الذي استدلّ به، وكتب الفقه لا يجوز أن تجعل كالكتاب والسنة في إلزام الناس بها، أو جعل ما فيها حجة مطلقًا، وتترك المراجعة لكتب السنة والحديث والنظر فيها، واقتضاء العلم منها، ولهذا لما قام إمام هذه الدعوة الشيخ محمد بدعوته، وكانت له فتاوى مخالفة لما عهده الناس من كلام علماء المذاهب - رحمهم الله تعالى، وأجزل لهم المثوبة -، احتجّوا عليه بكلامهم، فبين أنّه قال ذلك لما دلّ عليه الدليل في مسائل، في مسائل معروفة كثيرة، قالوا: هو يبطل العمل بالمذاهب، ويدعي الاجتهاد، حتّى إنّه تحمس من تحمس، فأعلن بإغلاق باب الاجتهاد مطلقًا، وقال - والعياذ بالله - من قال: إنّ نصوص الكتاب والسنة ظواهر، لا يحلّ لأحد أن يعمل بها الآن، وذلك باشتراط شروط فيها، فشرطوا في الأخذ

---

(١) سبق تخريجه (١/ ١٦١).

بالكتاب والسنة أن يكون كذا، أن يكون عالمًا باللغات، أن يكون عالمًا بالناسخ والمنسوخ، يكون عالمًا بأصول الفقه، يكون عالمًا بالكتاب، بآيات الأحكام من الكتاب، أن يكون عالمًا بكثير من السنة، أن يعلم الأحاديث المنسوخة والأحكام المنسوخة، أن يعلم الأحاديث المخصوصة، والآيات المخصوصة، وأن يعلم المقيدّ والمطلق، ونحو ذلك من الشروط، التي قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب ﵀ أنَّها إذا تحقق الأمر، فإنّها لا تجتمع في أكثر الصحابة؛ لأنَّها شروط صعبة، فإذا توقف العمل بالكتاب والسنة على هذه الشروط، فإنّ معنى ذلك أن لا يعمل أحد بالقرآن والسنة.

فنقول: نعم، تلك الشروط صحيحة، لكن في مسائل الاجتهاد، لا يجوز لأحد أن يجتهد، أن يجعل نفسه مجتهدًا في المسائل إلّا إذا كان قد توفّرت فيه آلة الاجتهاد، وهي تلك الشروط التي ذكرت بعضها، أمَّا العمل - ليس الاجتهاد -، أمَّا العمل بنصوص الكتاب والسنة، فهو يعمل إذا سمع ذلك، فإذا كان يعلم فتوى لعالم يثق بعلمه، وعارض قولُ العالم الحديثَ، فإنّه يراجع العالم فيه، يقول: السنة، رأيت حديثًا فيه كذا وكذا، وأنت قلت كذا، فما توجيهه ونحو ذلك، فإذا وجّهه له، كان على بيّنة من الأمر.

المقصود من هذا: التفريق بين ما يعمل به المرء في نفسه، وبما يفتي به غيره أو يأمر به غيره، فلا يجوز لأحد أن يفتي هكذا بمجرّد سماعه للحديث، لكن إذا عمل به، فإنَّه قد أطاع الرسول ﷺ، وهذا هو الواجب عليه، وهذا فيما إذا لم يتمكّن من سؤال أهل العلم عن معنى السنة.

قول ابن عباس ﵄ هنا: «**أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ**». هذا في مقام المعارضة، معارضة قول الرسول ﷺ بقول أبي بكر وعمر ﵄، هذا لا يجوز، ومحرّم، بل أبو بكر وعمر ﵄ ما يُؤخذ

قولهما - وهما أفضل الأمة، وأفضل الخلفاء الراشدين ﷺ في فهم الكتاب والسنة -، وكذا في الفتاوى التي نقلت عنهما، وفيما بينا فيه معاني الكتاب والسنة، ثم في مسائل الاجتهاد العام، إذا عارضا الكتاب والسنة، وهذا هو الّذي ذكره الشارح الشيخ عبد الرحمن ﷺ في أنَّ مسائل الاجتهاد يقبل فيها قول العالم، ويعنى بمسائل الاجتهاد: المسائل التي اجتهد فيها العلماء فيما نزل من الحوادث، فيما استجدّ، إذا استجدت حادثة، فتأخذ بكلام العالم؛ لأنَّه اجتهد في هذه النازلة.

أمَّا إذا كانت المسألة موجودة في عهد النبي ﷺ، وفيها سنة، فإنَّه يُعرض كلام العالم على السنة، إن كان من طالب العلم الذي يحسن الفهم، فإن وافق، قبله، وإن لم يوافق السنة، لم يقبله، وهذا أصل عظيم في طاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ، وكما سبق أن ذكرت أنَّ الكتب التي بين أيدينا إنَّما هي آلات لفهم دلالات الكتاب والسنة، وأمَّا الطاعة والاستجابة، فإنَّما هي لله ولرسوله ﷺ، وما عدا ذلك من كلام أهل العلم، فإنَّما هو لتقريب وفهم كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ.

فبهذا يتبيّن أن المسألة نخرج بها عن طرفي الغلو والجفاء، أمّا الجفاء، ففي قول جهلة مقلّدي الفقهاء، الّذين يقولون: نأخذ بقول العالم، وإن خالف السنة؛ لأنَّه أدرى منَّا بالسنة، ولعلّ عنده معارض، لعلّ عنده مخصّص، لعلّ عنده مقيّد لم نطلع عليه، نقول: نعم، لعلّ عنده، ولكن الواجب علينا أن نأخذ ما بين أيدينا من كلام الله وكلام رسوله، وما ينفعنا من كلام النبي ﷺ؛ فإنّه لن يحجب عن الأمة، بل الحق باق في الأمة، لايجوز أن يُقال: إنّه تخلو الأمّة من معرفة ما يحتاج إليه من كلام النبي ﷺ. بين الغلو والجفاء، هؤلاء الجفاة من مثل ما وقفت عليه في بعض الكتب: أنّه قال: قال أبو حنيفة كذا، وقال.. وفي صحيح مسلم

عند فلان - سمى الصحابي -، قال رسول الله ﷺ: كذا. وساق حديثًا، ثمّ قال: (**اللَّهُ أَعْلَمُ**)، وهذا من الجفاء الذي فيه أخذ لقول أهل العلم الذي يخالف السنة، وترك السنة، ثم يقول: (**اللَّهُ أَعْلَمُ**)، يعني: الله أعلم أيهما الصواب، والله أعلم ما الحكم، فإنَّ الواجب إذا قامت السنة أن نأخذ بها، وقول العالم على احترامه، وهو مأجور فيه بأجرين إن أصاب، وبأجر واحد إن أخطأ؛ لأنَّه مجتهد، ولكن المتبعة مع استبانة الدليل لا تجوز إلّا في مواضع الدليل، أمَّا أهل الغلو، فالّذين ذهبوا إلى أنَّه يعمل بنصوص الكتاب والسنة من الجهلة، ويؤمر الناس بذلك، ويلزمون، وينكرون، ويصدعون بذلك دون تفقّه منهم، فلم يسلكوا طريقة أهل العلم في التفقّه والعلم والفهم بمعاني الكتاب والسنة، ومعلوم أن نصوص الكتاب والسنة تفهم باللسان العربي، فإذا كان اللسان العربي قويمًا سليمًا، كان للمرء أن يعمل بذلك، ويأمر به، وهذا انتهى مع نهاية القرن الثالث، الذي هو قرن تابع التابعين؛ لهذا ينصّ علماء اللغة على أنّه لا يحتجّ في اللغة بأقوال من بعد سنة مائة وخمسين هجرية، ومن ذلك الشعراء، يقولون: آخر الشعراء الّذين يحتجّ بقولهم: (إبراهيم بن هرمة) وكانت وفاته قريبًا من ذلك، لماذا لا يحتجّ بمن بعدهم؟ لأنّه فشت المولّدات، وفشى الاختلاط بالأعاجم، واحتاج الناس بعد ذلك إلى ضبط اللغة بوضعها في نحوها وصرفها ومفرداتها، كذلك إلى وضع قوانين استنباط الأحكام من النصوص، وهو المسمّى بعلم أصول الفقه، وأصلًا علم أصول الفقه من اللغة يفهمه العربي؛ لأنَّه خاص وعام، ومطلق ومقيدّ، هذا كلّه من مباحث اللغة في الأصل؛ لهذا أهل الغلوّ راموا أن يعملوا بذلك، ويأمروا الناس به، وينهوا عمَّا فهموه، دون نظر في هذا الأصل المهمّ، فإذا تفقّه المرء في الكتاب والسنة، وعلم ما يحتاجه من اللغة بما يفهم به المعاني والتراكيب، ونظر

في فهم أهل العلم في المسائل والنصوص، صار عنده ملكة يمكنه بها أن يفهم بها النصوص على وجه الصواب، فأهل الغلوّ هم الّذين طردوا هذا الباب، وجعلوا أنَّ سماع الحديث فقط كافٍ، ولهذا الأئمّة لم يأخذوا به، الإمام أحمد اختلف إلى أبي عبيد، يقرأ عليه اللغة مدّة، اختلف إلى فلان، يقرأ عليه الفقه مدّة، وهكذا الشافعي اختلف إلى مالك، وقرأ عليه مدة، وروى عنه من الأحاديث، وأخذ عنه الفقه، وكان يحفظ من اللغة ديوان الهذليين، ويقول: طلبت الأدب في عشرين سنة، وطلبت الفقه في سبع سنين، أو نحو ما قال، وبهذا صارت لهم آلات الاجتهاد التي بها يفهم معاني الكتاب والسنة، ويمكنه أن يستنبط ويجتهد.

فإذًا تفرق في هذا المقام بين عمل المرء في نفسه - الذي أوضحت فيما سلف - وما بين أمره غيره، وهذا الناس فيه بين الغالي والجافي على هذا النحو.

أيضًا من الغلاة من ترك كتب الفقه ألبتة، وقال: هذه كتب ليس فيها أحاديث، وليس فيها نفع، بل هي آراء الرجال وأقوال مطّرحة، ولا يجوز الأخذ بها، هي الرأي المجرد، وهذا صحيح من جهة، وباطل من جهة أخرى، أمَّا وجه صحته، فإنَّه إذا اقتصر عليه، وترك طالب العلم النظر في النصوص وطلب الدليل في المسائل والاهتمام بذلك، إذا تركه في طلبه للعلم، واقتصر على كلام الفقهاء، فإنَّ ذلك قصور منه لا شكّ، ومخالف لما عليه سنة أهل الحديث في العلم، وموافق لطريقة أهل الرأي، وباطل من جهة أخرى، ووجه بطلانه أنه بتركها يحصل عدم الفهم للنصوص، وعدم التصوّر للمسائل؛ لأن كتب الفقه ميزتها أنها تصوّر لك المسائل، تصوّر لك الوقائع، تفهم بها النصوص، فالّذين يقرؤون في كتب الفقه، ويحفظونها، حتى يحفظوا صورة المسألة، وقول عالم في هذه المسألة التي اتّضحت له صورتها.

ومعلوم أنّ المسائل منها ما عليه دليل من الكتاب والسنة، ومنها ما دليله قول الصحابي، ومنها ما دليله الإجماع، ومنها ما دليله القياس، ومنها ما دليله اجتهاد الإمام الذي في المذهب، فليست مسائل الفقه كلها راجعة من جهة الدليل إلى الكتاب والسنة، بل فيها مسائل أدلتها في غير ذلك.

المقصود أنَّ: فائدة كتب الفقه هي إحداث التصوّر، فمن ترك ذلك، صار عليه من النقص بقدر ما فاته من ذلك؛ لهذا كلّ أهل العلم الذين نعلمهم، ونعرفهم، ونحسبهم - والله حسيبهم، ولا نزكي على الله أحدًا - أنّهم من أهل الاتباع التام للنصوص، كلّ هؤلاء درسوا الفقه على مذهب من المذاهب، وفائدة هذه الدراسة أنها تحدث لك ملكة التصور والفهم، ومعرفة قول الإمام بدليله، أو قول المصنّف بدليله، أو قوله بتعليل، أو بإلحاقه بقاعدة، ونحو ذلك؛ حتى إذا احتجت إلى عمل في مسألة لم تستحضر فيها سنة، فأن تعمل فيها بقول عالم أولى من أن تجتهد فيها رأيك، ولست من أهل الاجتهاد.

لهذا نحتاج كثيرًا في مسائل تقع ما نتذكّر فيها دليل، ولكن نذكر فيها قول لعالم من أهل العلم، فوقت الحاجة لا تجتهد رأيك، ولست من أهل الاجتهاد في النصوص، وإنّما أن تعمل بقول عالم هذا يخلّصك من التبعة.

فإذًا المقام هنا الناس فيه بين مفرّطين ومُفْرِطين، وما بين جفاة وغلاة، وعجبًا أن تجد هذا في أهل التوحيد الذين في كتابهم هذا الباب العظيم، فالناس فيه ما بين غال وجاف، والله المستعان.

هناك عبارة أخيرة، التي هي آخر كلمة في مسائل الاجتهاد، قوله في الشرح: كما جاء في الحديث؛ يعني حديث معاوية رضي الله عنه: «**إِذَا اجْتَهَدَ**

الْحَاكِمُ فَأَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ»[1]، والحاكم يعني به: القاضي، وألحق به كل عالم لأجل أن مدار الاجتهاد واحد، ومشترك، والعلة فيهما واحدة.

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص ﷺ .

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: «عَجِبْتُ لِقَومٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ، يَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] أَتَدْرِي مَا الفِتْنَةُ؟ الفِتْنَةُ الشِّرْكُ، لَعَلَّهُ إذا رَدَّ بعض قَولِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٍ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ»[1].

ش: هذا الكلام من الإمام أحمد رحمه الله رواه عنه الفضل بن زياد وأبو طالب. قال الفضل عن أحمد: نظرت في المصحف، فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعًا، ثم جعل يتلو: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ الآية[2].

فذكر من قوله: (الفِتْنَةُ الشِّرْكُ). إلى قوله: (فَيَهْلِكَ). ثم جعل يتلو هذه الآية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال أبو طالب عن أحمد وقيل له: إن قومًا يدعون الحديث، ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره، فقال: أعجب لقوم سمعوا الحديث، وعرفوا الإسناد وصحته، يدعونه، ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الكفر. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ

---

(١) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (رقم ٩٧)، وانظر: مسائل عبد الله بن أحمد بن حنبل (٣/ ١٣٥٥)، والصارم المسلول على شاتم الرسول (٢/ ١١٦).

(٢) انظر: الصارم المسلول على شاتم الرسول (٢/ ١١٦).

....

ٱلْقَتْلِۚ﴾ [البقرة: ١٩١]، فيدعون الحديث عن رسول الله ﷺ، وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي. ذكر ذلك عنه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: (عَرَفُوا الإسنادَ). أي: إسناد الحديث وصحته، فإن صح إسناد الحديث، فهو صحيح عند أهل الحديث وغيرهم من العلماء.

وسفيان: هو الثوري، الإمام الزاهد العابد الثقة الفقيه(١)، وكان له أصحاب يأخذون عنه، ومذهبه مشهور، يذكره العلماء - رحمهم الله - في الكتب التي يذكر فيها مذاهب الأئمة، كالتمهيد لابن عبد البر، والاستذكار له، وكتاب الإشراف على مذاهب الأشراف لابن المنذر، والمحلى لابن حزم، والمغنى لأبي محمد بن عبد الله بن أحمد بن قدامة الحنبلي. وغير هؤلاء.

فقول الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عَجِبْتُ لِقَومٍ عَرَفُوا الإسنادَ وَصِحَّتَهُ... إلخ). إنكار منه لذلك، وأنه يؤول إلى زيغ القلوب، الذي يكون به المرء كافرًا.

وقد عمت البلوى بهذا المنكر، خصوصًا ممن ينتسب إلى العلم، نصبوا الحبائل في الصد عن الأخذ بالكتاب والسنة، وصدوا عن متابعة الرسول ﷺ وتعظيم أمره ونهيه، فمن ذلك قولهم: لا يستدل بالكتاب والسنة إلا المجتهد.

---

(١) هو سفيان بن سعيد بن مسروق أبو عبد الله الثوري، من أهل الكوفة، ولد سنة سبع وتسعين، كان من كبار أئمة المسلمين لا يختلف في إمامته وأمانته وحفظه وعلمه وزهده، توفي سنة إحدى وستين ومائة. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ٣٧١)، وحلية الأولياء (٦/ ٣٥٦) وتاريخ بغداد (٩/ ١٢٥)، وسير أعلام النبلاء (٧/ ٢٢٩)، وطبقات الحفاظ (ص٩٥).

. . . .

والاجتهاد قد انقطع، ويقول: هذا الذي قلدته أعلم منك بالحديث وبناسخه ومنسوخه، ونحو ذلك من الأقوال التي غايتها ترك متابعة الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، والاعتماد على قول من يجوز عليه الخطأ، وغيره من الأئمة يخالفه، ويمنع قوله بدليل، فما من إمام إلا والذي معه بعض العلم لا كله.

فالواجب على كل مكلف إذا بلغه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله، وفهم معنى ذلك أن ينتهي إليه، ويعمل به، وإن خالفه من خالفه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]، وقد تقدم حكاية الإجماع على ذلك، وبيان أن المقلد ليس من أهل العلم، وقد حكى أيضًا أبو عمر ابن عبد البر وغيره الإجماع على ذلك[١].

قلت: ولا يخالف في ذلك إلا جهال المقلدة؛ لجهلهم بالكتاب والسنة، ورغبتهم عنها، وهؤلاء وإن ظنوا أنهم قد اتبعوا الأئمة، فإنهم في الحقيقة قد خالفوهم، واتبعوا غير سبيلهم؛ كما قدمنا من قول مالك والشافعي وأحمد، ولكن في كلام أحمد رحمه الله إشارة إلى أنَّ التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم، وإنما ينكر على من بلغته الحجة، وخالفهم لقول إمام من الأئمة، وذلك إنما ينشأ عن الإعراض عن تدبر كتاب الله وسنة رسوله، والإقبال على كتب من تأخروا والاستغناء بها عن الوحيين،

---

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٧).

....

وهذا يشبه ما وقع من أهل الكتاب الذين قال الله فيهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]؛ كما سيأتي بيان ذلك في حديث عدي بن حاتم.

فيجب على من نصح نفسه إذا قرأ كتب العلماء، ونظر فيها، وعرف أقوالهم أن يعرضها على ما في الكتاب والسنة، فإنَّ كل مجتهد من العلماء ومن تبعه وانتسب إلى مذهبه لابد أن يذكر دليله.

والحق في المسألة واحد، والأئمة مثابون على اجتهادهم، فالمنصف يجعل النظر في كلامهم وتأمله طريقًا إلى معرفة المسائل واستحضارها ذهنًا وتمييزًا للصواب من الخطأ بالأدلة، التي يذكرها المستدلون، ويعرف بذلك من هو أسعد بالدليل من العلماء، فيتبعه. والأدلة على هذا الأصل في كتاب الله أكثر وفي السنة كذلك؛ كما أخرج أبو داود بسنده عن أناس من أصحاب معاذ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ قَالَ: كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟، قَالَ: أَقْضِي بِكِتَابِ اللَّهِ، قَالَ: فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ: فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ: أَجْتَهِدُ رَأْيِي، وَلَا آلُو فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَدْرَهُ، وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ، رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّهِ»، وساق بسنده عن الحارث ابن عمر عن أناس من أصحاب معاذ بن جبل رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن. بمعناه[1].

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٩٢، ٣٥٩٣).

....

والأئمة - رحمهم الله - لم يقصروا في البيان، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة؛ لعلمهم أن من العلم شيئًا لم يعلموه، وقد يبلغ غيرهم، وذلك كثير؛ كما لا يخفى على من نظر في أقوال العلماء.

قال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ: (إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ، فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة رضي الله عنهم، فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين، فنحن رجال، وهم رجال)[(١)].

وقال: (إذا قلت قولًا وكتاب الله يخالفه، فاتركوا قولي لكتاب الله. قيل: إذا كان قول رسول الله ﷺ يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لخبر الرسول ﷺ. وقيل إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لقول الصحابة)[(٢)].

وقال الربيع: سمعت الشافعي رَحِمَهُ اللهُ يقول: (إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ، فخذوا سنة رسول الله ﷺ، ودعوا ما قلت).

وقال: (إذا صح الحديث بما يخالف قولي، فاضربوا بقولي الحائط).

وقال مالك: (كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ).

وتقدم له مثل ذلك، فلا عذر لمقلد بعد هذا. ولو استقصينا كلام

---

(١) أخرج البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (ص١١١) نحو هذا الأثر، وفيه: (إذا جاء عن النبي ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن أصحاب النبي ﷺ نختار من قولهم، وإذا جاء عن التابعين زاحمناهم). وانظر: الإحكام لابن حزم (٤/ ٥٧٣)، والانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء للقرطبي (ص١٤٤)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٩/ ٣١٠).

(٢) انظر: إرشاد النقاد للأمير الصنعاني (ص١٤٢)، وعقد الجيد للدهلوي (ص٢٢).

....

العلماء في هذا، لخرج عما قصدناه من الاختصار، وفيما ذكرناه كفاية لطالب الهدى.

قوله: (لَعَلَّهُ إذا رَدَّ بَعضَ قَولِهِ). أي: قول الرسول ﷺ(أَنْ يَقَعَ في قَلْبِهِ شيء مِنَ الزَّيْغ فَيَهْلِكَ).

نبه رحمه الله أن رد قول الرسول ﷺ سبب لزيغ القلب، وذلك هو الهلاك في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

قال شيخ الإسلام رحمه الله في معنى قول الله تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾ [النور: ٦٣]، فإن كان المخالف لأمره قد حذر من الكفر والشرك، أو من العذاب الأليم، دل على أنه قد يكون مفضيًا إلى الكفر والعذاب الأليم، ومعلوم أن إفضاءه إلى العذاب الأليم هو مجرد فعل المعصية، فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو لما يقترن به من الاستخفاف في حق الأمر؛ كما فعل إبليس لعنه الله تعالى. ا. هـ.

وقال أبو جعفر ابن جرير رحمه الله عن الضحاك: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ﴾ [النور: ٦٣] قال: يطبع على قلبه، فلا يؤمن أن يظهر الكفر بلسانه، فتضرب عنقه.

قال أبو جعفر بن جرير: أدخلت عن؛ لأن معنى الكلام: فليحذر الذين يلوذون عن أمره، ويدبرون عنه معرضين[(١)].

قوله: ﴿أَوۡ يُصِيبَهُمۡ﴾ في الدنيا عذاب من الله موجع على خلافهم أمر رسول الله ﷺ.

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٨/ ١٧٨).

الشرح:

وهذا المذكور في كلام الشارح رحمه الله هو الذي جعله الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب طريقًا في دعوته؛ لأنه رحمه الله أتى إلى أناس في هذه الديار، وهم يعكفون على كتب المذاهب، ولا يعرفون كتب الحديث ألبتة.

حتى إن صحيح البخاري يذكر في ذلك الزمان أنه يوجد عند فلان، أو يوجد عند فلان، يعني: قد لا يكون منه إلّا نسخة أو نسختين أو ثلاث، فضلًا عن غيره من كتب السنة، وقراءتها - إذا وجدت - فهي للتبرك، أو لأخذ الأوقاف التي يقف فيها الموقفون على قراءة البخاري ونحوه على الناس في المساجد تبركًا، أمّا أخذ العلم من كتب السنة، والاهتمام بكتب السنة والحديث، هذا لم يكن في نجد ألبتة، والشيخ رحمه الله لمَّا قام بدعوته وأظهرها، قال أقوالًا على حسب مقتضى الدليل بما ذكرمن كلام الأئمّة في ما ذكر هنا، فخالفه من خالفه، وكتبت له رسائل، فقال في بعض حججه: (وأكثر الإقناع والمنتهى مخالف لمذهب أحمد ونصه)[1]، وهما من كتب المذهب الحنبلي، التي يعتمد عليها المتأخرون، قال: وأدخل الشيخ رحمه الله كتب الحديث في نجد، وأدخل الاحتجاج بالدليل والنظر في أقوال أهل العلم، فرجح في مسائل كثيرة ما ليس في مذهب أحمد، وقبل قول المذهب في مسائل أيضًا كثيرة لموافقته للدليل، ومن المتقرّر أنّ مذهب الإمام أحمد هو أقرب المذاهب إلى الدليل، وما يخالفون فيه مقتضى الدليل أقلّ ممّا عند غيره من المذاهب، الشيخ رحمه الله ظهر في البلاد، وهم لا يعرفون كتب الحديث، فأدخلها، ونشرها، حتى رأيت في شرح الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله- الذي لم يغادر الدرعية - في شرحه على كتاب

(١) انظر: مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله (٣/ ١٢).

التوحيد، رأيت أنَّه نقل عن كتب، حتى من كتب السنة والحديث، ممّا لم نقف عليه الآن فيه أكثر من ستمائة مرجع في السنة والحديث، وكان أبناء الشيخ رَحَمَهُ اللَّهُ يدرسون كتب الحديث في الجامع في الدرعية وفي قصر الإمارة ممّا هو معروف مشهور، الشيخ رَحَمَهُ اللَّهُ لما دعا إلى الالتزام بالسنة، وترك التعصب، وترك التقليد، الذي هو ليس عن وجه حجة، الناس عارضوه، وكان من سبب تأليفه لرسالة (آداب المشي إلى الصلاة) التي انتزعها من (الإقناع وشرحه) كان من سبب ذلك أنه قيل في حقه: إنَّه يبطل كتب المذهب الحنبلي؛ كما ذكر ذلك ابن بشر في تاريخه[1]، وكتب المذهب فيها خير كثير، فيها فقه عظيم، فصنّف الشيخ هذه الرسالة منتزعة من (الإقناع) و(المنتهى)؛ حتى لا تتم هذه المقالة؛ لأنَّه مصلح، ويريد بدعوته الإصلاح، ونبه الناس على الاهتمام بالسنة والدعوة، وترك ما فيه نوع جفاء بالنسبة لكتب أهل الفقه، حتى إنَّه اختصر (الإنصاف)، و(الشرح الكبير)، وهما من الكتب التي فيها ذكر الأقوال في المسائل، ممّا هو معروف في ذكر أقوال السلف وأقوال الأئمة المتبوعين ونحو ذلك، وكان له اهتمام كثير باختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية.

فالمقصود من ذلك أنَّ الشيخ رَحَمَهُ اللَّهُ طبق هذا الكلام الذي سمعنا، وطبقه أبناؤه وتلامذته، وهذا هو الذي انتشر في هذه البلاد، بأنّهم إنّما يفتون بما قام عليه الدليل عند المفتي والمجتهد، فالشيخ رَحَمَهُ اللَّهُ في الفقه على هذه الطريقة، فليس مقلّدًا في الفقه، وإنَّما هو يأخذ في الفقه بما وافق الدليل، وكيف يقلّد فيه، وهو الذي يذكر هذا الباب العظيم من أبواب كتاب التوحيد، فهو رَحَمَهُ اللَّهُ سلفي الاعتقاد، سلفي الفقه، صحيح النظر في ذلك كله، ونشر الدعوة على الوسط بين طريقتي أهل الغلو والجفاء في اتباع الأدلة.

---

(١) انظر: عنوان المجد في تاريخ نجد (١/ ٢٠٣).

وقسم الشيخ رحمه الله طريقته في ذلك إلى قسمين:

القسم الأول: من جهة الفتوى، فعلى ما ذكرت من جهة التعليم على ما ذكرت من قراءة كتب السنة والحديث، واستنباط العلم منها، وإقراء كتب الفقه، وتصوير المسائل، والأخذ بما ترجح فيه دليل.

القسم الثاني: في الحكم والقضاء، فإنَّه لم يفتح الباب للقضاة في أن يجتهدوا على ما وافق عليه الدليل عندهم؛ لأنَّ هذا يفضي أن يكون للقاضي وللحاكم اجتهاد في مسألة، يحكم فيها بقطع رأس، والآخر لا يحكم في عين تلك المسألة، فيفضي ذلك إلى خلل كبير في المجتمع، وخلل كبير في الدولة، وعدم رضا الناس بالأحكام الشرعية، وفتن تكون بينهم، فإنَّما قال للقضاة يكون مرجعكم في ذلك كتب المذهب الحنبلي، فإنَّه يكتب إلى مرجعه في القضاء، في وقت الشيخ محمد يكتبون إلى الشيخ محمد، فيذكر لهم ما يرجحه هو في هذه المسألة، حتى تكون البلاد في مسائل القضاء لها مرجع واحد؛ لأنَّ ترك ذلك يكون فيه خلل كبير، ولمَّا فتح الملك عبد العزيز رحمه الله مكة، قال بعض من في مكة من أهل العلم: (لو قننت ما في الإقناع والمنتهى للقضاة، فجعلته على شكل مواد، المادة الثانية بالأحكام الموجودة في الإقناع والمنتهى)، قالوا: والسبب في ذلك أن القضاة يجتهدون، وربّما حصلت فتن بين اجتهاد أهل مكة، واجتهاد أهل الرياض، واجتهاد أهل الجنوب، واجتهاد أهل الشمال، وهذا يسبب نزاعًا، ويسبب خلافًا، وكتبت في ذلك مجلة (الأحكام الشرعية) التي طبعت لأحمد بن عبد الله القاري وآخر معه، جعلوا الفقه الحنبلي كمواد، وجعل الفقه الحنبلي كمواد، عرضه الملك عبد العزيز رحمه الله على المشايخ والعلماء، فرفضوه ألبتة، وقالوا: هذا يفضي إلى أن تتبع هذه الأقوال دون نظر واجتهاد، فتصير كالقوانين، وهذا باطل؛ لأنَّ الأصل أن كلامهم

للإعانة على فهم النصوص، فإذا جعلت مواد، صار القاضي يرجع إلى المادة، ويحتج بها؛ كصنيع أهل القانون وأهل التقنين، وهذا مخالف لأصل الدعوة، فرفضوا ذلك، والفرق عندهم ما بين ما في (الإقناع) و(المنتهى) متنًا ممّا هو موجود، وما بين هذا الكتاب الذي فيه التقنين أيعني: جعل المسائل على مواد -، الفرق بينهم أن ذاك يرجع فيه القاضي إلى شروحه، فينظر في الدليل، وإذا لم يقتنع بذلك، كتب إلى مرجعه في القول الآخر.

أمّا المواد، وجعلها كقوانين، هذه تكون مع الزمن ملزمة صارمة، وهذا لا يجوز أن يجعل قول أحد ملزم وصارم، ولا يقال بخلافه إلّا الرسول ﷺ - يعني: من البشر -؛ ولهذا رُفض ذلك، فدعوة الشيخ محمد رحمه الله في وقته ومن بعده أبناؤه وتلامذته وأئمّة الدعوة - رحمهم الله - نشروا الفقه أخذًا بالدليل، وترجيحًا من المفتي فيما يفتي به الناس، دون رجوع إلى المفتي الكبير، أو إلى أكبر العلماء في الإفتاء، أمّا في القضاء، فلم يمنعوا أحدًا أن يجتهد في مسائل القضاء، ولمّا كثر الاجتهاد في هذه البلاد، أو صارت بعض الأحكام قد يكون عليها ملاحظات، لما احتاجت البلاد إلى قضاة كثر، فصار من يلي القضاء ربما ليس على مستوى من العلم ما يُؤهّله أن يكون نظره صائبًا دائمًا في المسائل المعروضة عليه، لَمَّا كان كذلك، شكلت محاكم (التمييز) أو محكمة (التمييز) في الرياض، ومحكمة (التميز) في المنطقة الغربية، شكلت محاكم (التميز) ووظيفتها أن تميّز الأحكام التي يصدرها القضاة: هل هي موافقة أم مخالفة؟ لأنَّ القاضي في أول أمره يحكم بما يراه في الكتاب من كتب الفقه، أو قد يجتهد، فيحكم بما وافق عليه الدليل في اجتهاده، ولا ينظر إلى المصلحة العظمى في ألّا تتفاوت الأحكام في البلاد، فيكون قاضي يحكم بشيء في

مسائل عظيمة، في القتل، مثل انتزاع حقوق، ونحو ذلك، وآخر يفتي أو يحكم بخلاف ذلك.

فشكّلت محاكم (التمييز)؛ لأجل الفصل في قضايا القضاة التي يعترض عليها أحد الخصمين، وهذا كلّه في تأسيس هذه المسألة العظيمة، ولا أكاد أعرف أنه نظمت مسائل القضاء على وفق الدليل في مسائل القضاء والإفتاء على وفق الدليل، وعلى وفق طريقة أهل السنة والحديث بعد القرون الثلاثة - يعني: بعد الثلاثمائة، بعد شيوع كتب المذاهب والمتون - كما جُعلت في دعوة الشيخ محمد ﷺ فإنّها ضُبطت ضبطًا شرعيًّا سليمًا، ونقول: هذا بعد معرفة ونظر وتأمّل، وهذا هو الّذي أصلح هذه البلاد في هذه المسائل، وفيه توسط، والحمد لله.

وهذه الأمة في عقيدتها واتّباعها وسط بين الغالي والجافي، رحم الله إمام هذه الدعوة، ورحم أبناءه وتلاميذه، رحم من آواه ونصره، وأيّد هذا الدين، رحم كلّ من جاهد في سبيل تقرير هذه العقيدة، وإتمام إلزام الناس بطاعة الله عز وجل وطاعة رسوله، وأجزل لهم الثواب، ووفّق من عقبهم خيرًا في العلم أو في الإمامة، ورزقهم الهدى والسداد، وجعلهم من المتّبعين للكتاب والسنة قولًا وعملًا واعتقادًا، وأعاذنا وإيّاكم وإيّاهم من الفتنة في الدين، ومن الفتنة في الدنيا.

فهذا الحديث أو هذا الخبر عن الإمام أحمد رحمه الله يفيد التّغليظ الشديد فيمن ترك الدليل من الكتاب أو من السنة إلى قول أحد، بعد وضوح دلالته، وضعف دلالة صاحب الرأي، والنبي ﷺ أمره ونهيه كأمر الله ونهيه من جهة الطاعة والسنة كما ذكرنا، وهي من الله عز وجل .

فقول الإمام أحمد: (عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ يَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَان، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ

يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ: الشِّرْكُ، لَعَلَّهُ إِذَا رُدَّ بَعْضُ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلَكَ)، والآية فيها أنّ من ترك أمر النبي ﷺ - وأولى منه أمر الله عَزَّوَجَلَّ - من ترك ذلك بعد العلم به وظهور الصحبة فيه على المسألة، أنَّه متوعّد بالعذاب الأليم، أو بالعقوبة في قلبه، بأن ينقلب مشركًا، وهذا يدلّ على أنَّ - مثل ما ذكر في الشرح شيخ الإسلام - المخالف لأمر النبي ﷺ قد يقع في الكفر؛ عقوبة على مخالفته، وذلك إذا كانت مخالفته من جهة تركه للأمر رغبة عنه، أمَّا إذا خالفه مع العلم بأنَّه عاصي، فهذا له حكم أمثاله من أهل الوعيد.

فإذًا قوله هنا: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦ﴾ المخالفة مترتّب عليها وقوع الشرك، وقوع الفتنة، أو وقوع العذاب الأليم، أو المترتّب عليها الوعيد بهذا أو ذاك، هذه فيها نوع إجمال، والسنة تفسّر بعضها بعضًا، كذلك السنة تفسّر بمجمل الكتاب، والكتاب أيضًا يفسّر مجمل السنة، ولهذا نقول: إنّ قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦ﴾ هي كما استدلّ بها الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكن ينضبط هذا من جهة الكفر والشرك، أو من جهة التوعّد بالعذاب بما جاء ضبطه به في الأدلّة الأخرى؛ لأنّ هذا فيه نوع إجمال، الذي هو المخالفة؛ ولهذا ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إنَّ في قوله: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦ﴾ هي بمعنى يلوذون عن أمره، يعني: خالفه، تركه، ولاذ عنه، وفرّ عنه، وهذا يفهم منه أنّه قصد ذلك بعد العلم به، ورغب عنه إلى غيره، وهذا الأصل الّذي قاله ابن جرير ظاهر؛ لأنَّ تعدية المخالفة بحرف (عن) يدلّ على أنّه ضمن الفعل، يخالفون معنى اللّياذ والفرار؛ لأنَّ المخالفة تتعدّى بنفسها.

يقول: خالف فلانٌ أمر النبي ﷺ، ما تقول: خالف عنه، ولكن هنا لمّا عداها بعن، فإمَّا أنّه ضمن هذا الفعل معنى فعل آخر يناسب التعدية بعن،

وهو يلوذ أو يفرّ؛ لأنَّك تقول: فرَّ عن هذا الشيء، ولاذ عن هذا الشيء، ومجيء (عن) هنا أفاد أنَّه فرّ مع العلم بذلك؛ لأنَّه قال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾، فأمره قد وضح لهم، وبأن رغبوا في آرائهم، ويدلّ على ذلك الآية التي قبلها؛ حيث قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ [النور: ٦٢] إلى آخر الآية، فدلّ على أنّ هؤلاء الّذين خالفوا، وذهبوا من غير استئذان، أنّهم علموا بالأمر، وتعمّدوا خلافه؛ لأجل رأي رأوه، ظنّوا أنَّ غيره أحسن من أمر النبي ﷺ، أو أنّه مثله، أو أنَّه يسوغ لهم هذه المخالفة وهذا الوعيد؛ مثل ما في قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ يعني: فليحذر أولئك إصابة الفتنة لهم، والفتنة تفسّر في القرآن بالشرك؛ وذلك لقوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، أو ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١] يعني: الشرك أشدّ من القتل، والشرك أكبر من القتل، وإن كان اللفظ هنا عامًا - أعني قوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ - لأنّه يمكن أو يصلح أن يكون لأي فتنة، يعني: أن تكون فتنة من الفتن - أعني بالعموم هنا: عموم مطلق -؛ لأنّ الفتنة هنا نكرة في سياق الإثبات، فتفيد الإطلاق، يعني: أي فتنة من الفتن، يمكن تصيبه فتنة المال، فتنة عدم رؤية المعروف معروفًا والمنكر منكرًا، أن تصيبه فتنة الشرك، وتفسير الإمام أحمد لها هنا بقوله: (الْفِتْنَةُ الشِّرْكُ)؛ هذا لأجل أنّها وردت في القرآن بمعنى الشرك، ثمّ لأنّها أبلغ وأعظم في النهي؛ لأنَّ الشرك هو أشدّ ما يخشى منه.

قال: ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهذا فيه الوعيد لمن خالف فيه أمر النبي ﷺ، ولهذا كان أصحاب الإمام أحمد قد تقاسموا مسائل العلماء، فكان منهم من يسأله عن مسائل سفيان، وكان منهم من يسأله عن مسائل مالك، وكان منهم من يسأله عن مسائل أبي حنيفة، وكان منهم من يسأله عن مسائل الليث، . . . إلى آخره.

فأصحاب الإمام أحمد منهم من تخصّص في بعض آراء أهل العلم، أو بعض أقوالهم، فتنوّعت المسائل عن الإمام أحمد لأجل هذا، فمنهم من سأله، وهذه المسائل ما استوعب فيها أحكام الأبواب جميعًا - يعني: مسائل الأبواب جميعًا -، وإنّما سأله عن آراء سفيان، وآخر سأله عن آراء أبي حنيفة، وآخر سأله عن آراء فلان، وتنوّعت المسائل لأجل ذلك؛ كما نصّ على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، مع تسمية كلّ صاحب للإمام أحمد، وتسمية من اختصّ به من أهل العلم في السؤالات.

المقصود من هذا: أن طلب الدليل، وطلب أمر النبي ﷺ والرغبة في ذلك هو الواجب على المسلم، الواجب أن يحرص على طاعة الله وطاعة رسوله، وطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ لا تكون إلّا بامتثال الأمر واجتناب النهي، وامتثال الأمر واجتناب النهي فرع عن العلم بذلك، فنتج أنَّ العلم بما أنزل الله على رسوله من الكتاب والسنة لا بدّ منه، وهو فرض.

وقوله: (لَعَلَّهُ إِذَا رُدَّ بَعْض قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ، فَيَهْلَكَ) هذا الترجي قوله: (لَعَلَّهُ) يعني: ترجي فيه تخويف؛ وذلك لأنَّ من العقوبات التي يعاقب الله عَزَّوَجَلَّ بها العباد أن يعاقبهم في قلوبهم، نسأل الله العافية.

وهذه هي أعظم العقوبات أن يعاقب المرء في قلبه، فإذا عوقب في قلبه، لم يعرف الحقّ من الباطل، فاشتبه عليه هذا وهذا، خالط الباطل، وترك الحقّ لأجل هذا الاشتباه؛ ولهذا النور والبصيرة يؤتيها الله عَزَّوَجَلَّ من جاهد نفسه في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾

ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٦-٧٠] استدلّ شيخ الإسلام وغيره في هذه الآية على أن من فعل من عمل بما علم أنّه يثبت له في صدره العلم؛ لأنَّ الله عزوجل قال: ، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ فهذا يشمل تثبيت القلب في البصيرة، وأيضًا تثبيت المعلومات، كذلك لو قال عزوجل : ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١] يعني: لو صدقوا الله في فعل ما أمر، واجتناب ما نهى لكان خيرًا لهم، ومن الخير أن يثبت العلم، ويُفقّه المرء فيما لم يعلم، ولهذا أثر عن السلف أنَّهم قالوا: **(من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم)**. أي: يُيسر له الفقه في أشياء لم يعلمها في مدّة وجيزة، إذا جاهد نفسه في طاعة الله وطاعة رسوله، وكان عنده استعداد من جهة الطبيعة أن يفهم، وأن يستقرّ في ذهنه العلم. الإمام أحمد رحمه الله كان شديد الإنكار أن يكتب عنه، كذلك الشافعيّ، وكذلك مالك، إلّا بما سُئلوا عنه، وأمَّا كتابة كلّ كلامهم وكل أقوالهم، قد حذّروا من ذلك، وقالوا: ربّما يقول المرء يومًا قولًا، ثم يرجع عنه. اتّبعوا الدليل؛ وذلك لأنَّهم كانوا على قرب أثارة من عصر النبوّة، وعندهم الآلات فهم العلم متيسّرة.

وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرأُهَذِه الْآيَــــةَ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ قَالَ: أَلَيْسَ يُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ؟ قَالَ: بَلَى قَالَ: فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ». رَوَاهُ أَحْمَدُ والتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ(١).

ش: هذا الحديث قد روي من طرق، فرواه ابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني، وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي.

قوله: (وَعَنْ عَدِيِّ بنِ حَاتِم). أي: الطائي المشهور. وحاتم هو ابن عبد الله بن سعد بن الحشرج - بفتح الحاء - المشهور بالسخاء والكرم. قدم عدي على النبي ﷺ في شعبان سنة تسع من الهجرة. فأسلم وعاش مائة وعشرين سنة.

وفي الحديث دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة لهم من دون الله، ومن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله؛ لقوله تعالى في آخر الآيــــة: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، ونظير ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ

---

(١) أخرجه الترمذي بنحو هذا اللفظ (٣٠٩٥)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٨٤)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٩٢)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٨).

. . . .

أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وهذا قد وقع فيه كثير من الناس مع من قلدوهم؛ لعدم اعتبارهم الدليل إذا خالف المقلد، وهو من هذا الشرك. ومنهم من يغلو في ذلك، ويعتقد أن الأخذ بالدليل والحالة هذه يكره، أو يحرم، فعظمت الفتنة. ويقول: هم أعلم منا بالأدلة، ولا يأخذ بالدليل إلا المجتهد، وربما تفوهوا بذم من يعمل بالدليل، ولا ريب أن هذا من غربة الإسلام؛ كما قال شيخنا رحمه الله في المسائل، فتغيرت الأحوال، وآلت إلى هذه الغاية، فصارت عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، ويسمونها ولاية، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه. ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم فيما يخالف ما شرعه الله ورسوله، فقد عمت بها البلوى قديمًا وحديثًا في أكثر الولاة بعد الخلفاء الراشدين، وهلم جرا. وقد قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وعن زياد بن حدير قال: قال لي عمر رضي الله عنه: وَعَنْ زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ قَالَ: قَالَ لِي عُمَرُ رضي الله عنه: «هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الإِسْلاَمَ؟ قَالَ: قُلْتُ: لاَ. قَالَ: يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالِمِ، وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ، وَحُكْمُ الأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ». رواه الدارمي أيضًا[1].

جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق، وبه يعدلون.

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٢١٤).

الشرح:

هذا حديث عديّ بن حاتم رضي الله عنه أنَّه دخل على رسول الله ﷺ، وكان في عنقه صليب، فلمّا رآه النبي ﷺ - يعني: أول ما أسلم - قال: **«أَلْقِ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ»**، وتلا النبي ﷺ على عديّ رضي الله عنه هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ فقال عديّ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ»، ففهم عديّ من الآية أنّ العبادة هي أن يتوجّهوا إلى هؤلاء الأحبار والرهبان بأنواع الشعائر بالصلاة بالزكاة بالصيام، وأنواع العبادات المعروفة، فبيّن النبي ﷺ أنَّ أصل العبادة هو الطاعة، وقد صرفتم إليهم الطاعة، فقال ﷺ: «أَلَمْ يُحِلُّوا لَكُمْ مَا حَرَّمَ اللهُ فَأَحْلَلْتُمُوهُ!» قَالَ: بَلَى، قَالَ: «أَلَمْ يُحَرِّمُوا عَلَيْكُمْ مَا أَحَلَّ اللهُ فَحَرَّمْتُمُوهُ؟» قَالَ: بَلَى، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ».

قوله ﷺ: **«أَلَمْ يُحِلُّوا لَكُمْ مَا حَرَّمَ الله»**، (مَا) هنا بمعنى الّذي، ومقتضى الأسماء الموصولة أنّها تعمّ، يعني: ألم يحلّوا لكم الّذي حرّم الله، وعمومها قد يكون على أصله، يعني: أنَّه يشمل جميع الأفراد، فكلّ ما أحلّ الله حرّموه، وقد يكون العموم يراد به الخصوص، وهو أنّهم حرموا عليهم بعض ما أحلّ الله، وكذلك قوله: **«أَلَمْ يُحَرِّمُوا عَلَيْكُمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ»**. قَالَ: **«أَلَمْ يُحِلُّوا لَكُمْ مَا حَرَّمَ اللهُ فَأَحْلَلْتُمُوهُ!»**. قَالَ: بَلَى، قَالَ: **«فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»** الجملة الثانية مثل الأولى؛ لأن تحليل الحرام مثل تحريم الحلال، ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله في شرحه لهذا الحديث قال: (فدلّ هذا الحديث على أن تبديل الدين كفر وشرك أكبر)، والذي يطيع المبدل للدين على مرتبتين:

المرتبة الأولى: أن يطيعه عالمًا أن شرع الله في خلافه، يعلم أنّ حكم

الله هو كذا، يطيع ذاك في تحليل الحرام، في تغيير الحكم، فيعتقد أن ما أحله العالم هو الحلال، وأنّ ما حرّم الله ليس بحرام، وأن ما أحل الله ليس بحلال، فيكون غير وبدّل في أصل الدين، فيكون الله عزوجل أحلّ الخبز، فيحرّمه العالم، فيعتقد حرمة الخبز، حرمة أكله، والله أباحه، وهذا العالم حرّمه، فأطاع العالم معتقدًا أن هذا الّذي قاله هو الحقّ، هو الصواب، فاعتقد أنَّ هذا الذي أحلّه الله حرام، هذا تبديل للدين في هذه المسألة، وحقيقته أنَّه ردّ حكم الله، ولم يطع الله، وأطاع غيره في خصوص المسألة هذه، واعتقد أنّ حكم غير الله هو الصواب، واعتقد أن حكم الله عزوجل غلط؛ لأنّه قال فيه: «**أَلَمْ يُحَرِّمُوا عَلَيْكُمْ الْحَلاَلَ فَحَرَّمْتُمُوهُ**» حرموا عليهم الحلال، فحرموه اعتقادًا منهم أنّه حرام.

هذه الصورة الأولى التي فيها تبديل الدين، تبديل الدين من أصله باعتقاد أنّ الدين المبدّل هو الحقّ، وأنّه جائز.

الحالة الثانية: التي ذكرها شيخ الإسلام أن يطيعهم في تبديل الدين، ولكنه لا يعتقد تصويبه، وهذا له حكم أمثاله من أهل المعاصي، فشيخ الإسلام رحمه الله قسّم الّذين يطيعون في التحليل والتحريم، قسّمهم إلى قسمين:

القسم الأول: من أطاعهم في تبديل الدين باعتقاد، وتبديل الدين يعني أنَّ هذا الشيء المعين حلال، فأطاعهم في أنّه حرام، يعني: أصبح في الدين حرامًا، والدين المقصود منه الطاعة والشرع، يعني: في تشريع الله أنّه حلال، فقالوا: هو حرام، فأطاعهم في أنّ هذا الحكم في التشريع حرام، فالتزمه، التزمه يعني قال: أنا لست مخاطبًا بالحكم بأنّه حلال، بل الآن أنا مخاطب بالحكم بأنّه حرام، وهذا الّذي يلزمني الآن، أمّا الحكم بأنّه حلال، فهذا لا يلزمني.

القسم الثاني: أن يطيعهم، فيحلّ الحرام، ويحرم الحلال شهوة وطاعة لهم، فهذا له حكم أمثاله من أهل المعاصي، يعني: يطيع ويعتقد أنّ الحلال هو ما أحلّ الله، وأنّ الحرام هو ما حرّم الله، هذا اعتقاده في باطنه، ولكنه أطاعهم ظاهرًا، هذا في حال الأحبار، وكذلك في حال الرهبان، وكذلك في حال الأمراء.

فإذًا طاعة العلماء والأمراء التي بنى عليها الشيخ رحمه الله هذا الباب في قوله: (**بَابُ مَنْ أَطَاعَ العُلَمَاءَ والأُمَرَاءَ في تَحْرِيم مَا أَحَلَّ اللهُ أو تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ**)، يعني: أطاعهم في تبديل الدين، فجعل غير دين الله هو الملتزم، هو الذي يعتقد أنّه الصواب، أو أنّه الملتزم، مثل ما يعتقد اليوم الطوائف من أهل الجاهلية، يعتقدون أنَّ حكم القوانين هو أفضل من حكم الله، وأنّه الصواب، وأنَّ أحكام الله عز وجل في الكتاب والسنة، ليست بصواب، ولا تناسب هذا الزمن، فمن أطاعهم في ذلك معتقدًا هذا الكلام، فهو كافر مشرك، اتّخذهم أربابًا من دون الله، واتّخذهم آلهة؛ لأنَّ الله عز وجل قال: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] يعني: أطعتموهم في جعل الحلال محرمًا معتقدين حرمته، أو أطعتموهم في جعل المحرّم حلالًا، معتقدين حلّه، فهؤلاء مشركون الشرك الأكبر، ويخرجون بذلك عن الملة؛ لأنّهم اتّخذوا أربابًا من دون الله، أمَّا لو أطاع ظاهرًا، وباطنه يعتقد أنَّه الصواب، أنّ الصواب في حكم الله، ولكنه في الظاهر أطاع، هذا له حكم أمثاله من أهل الشهوات، مثل: الزاني الذي يزني، فهو حين يزني قدّم شهوته على أمر الله عز وجل ، لكن إذا كان في قرارة نفسه مخالفًا لأمر الله، وأنّ الزنى حرام حين فعله، لكنه أقدم على ذلك لشهوة، فإنّه لم يستحلّه، بل فعله عن شهوة، فهذا عاصي، كذلك من شرب الخمر وهو يعتقد حرمته، هذا كذلك من أطاع، وهو يعتقد أنّه عاص في هذه الطاعة، هذا أيضًا له حكم أمثاله من أهل المعصية.

إذًا فصارت المعصية على كلام شيخ الإسلام منقسمة إلى قسمين، وهذا النصّ الذي جاء في الحديث وفي تبويب الشيخ هذا يراد به من أطاع في تحريم الحلال، أو في تحليل الحرام معتقدًا أنّ الحرام صار حلالًا، وأنّ الحلال صار حرامًا، إذا اعتقد ذلك، فقد كفر بالله، واتّخذ ذلك ربًّا من دون الله؛ لأنّ أصل العبودية الطاعة، فإذا كان التحليل والتحريم يطاع فيه غير الله ﷿، معناه أنّه جُعل الحكم لغير الله، والله ﷿ يقول: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وفي كلام سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله في أول رسالته (تحكيم القوانين) ما نصه[1]: (**إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين، منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين للحكم به بين العالمين، وللرد إليه عند تنازع المتنازعين، معاندة ومناقضة، لقول الله** ﷿ : ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]). ورسالته هذه بسَط فيها القول، وهي رسالة دقيقة مهمّة في هذا الباب.

فجعل هذه الطاعة في تحكيم القانون جعلها كفرًا أكبر؛ لأنّه من نزل القانون منزلة الشرع معتقدًا أنّ الحكم به مثل الحكم بالشرع، أو لا بأس فيما فيه شيء، أو نحى الشرع تمامًا عن الحكم، وبدّل الدين، وأتى بشريعة أخرى، فإنّ هذا كفر أكبر مخرج من الملّة؛ ولأنّه اتّخذ ربًّا، اتّخذ إلهًا من دون الله ﷿ ، أمّا لو فعل ذلك، وهو يقول: إنّي عاصي، أطاعهم في الحكم، أو أطاع في مثل هذه الأمور في تحليل الحرام وتحريم الحلال، وهو يقول: أنا عاصي، أنا أعرف أنّ الحكم لله، لكن طاعتهم ظاهرة، فهذا عاص مرتكب الكبيرة، وكافر الكفر الأصغر، الّذي هو أعظم من الزنى وشرب الخمر والسرقة، نسأل الله العافية والسلامة.

---

(١) انظر: فتاوى ورسائل سماحة الشيخ رحمه الله (١٢/ ٢٨٤، رقم ٤٠٦٥).

وعلى هذا ينبني الكلام في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، فإذًا قوله هنا في الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ [التوبة: ٣١]؛ لأنَّ الربّ هو المطاع، وإذا جعلوا الأحبار والرهبان هم المطاعين يأمرونهم بالشيء، فيطيعونه، فإنّ ذلك اتّخاذ لهم أربابًا من دون الله عزوجل ؛ لأنَّ الطاعة لله عزوجل : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]، فمن أطاع الطاعة هذه في تحليل الحرام وتحريم الحلال، واعتقد صحة الدين الجديد أيعني: الطاعة الجديدة -، فإنَّه بذلك خارج من الإسلام إن كان مسلمًا، وكافر بالله عزوجل ، نسأل الله السلامة والعافية، وهذا سبب، يعني: إيراد الشيخ رحمه الله في هذا الباب أنّه في عصره كان مشايخ البادية يحكمون بين الناس بما يسمّونه (السلوم) و(حكايات الآباء والأجداد) يعني: قوانين يضعها مشايخ البدو، إذا تخاصم الناس رجعوا إليهم، فحكموا بينهم بهذه الأعراف - أعراف البدو -، و(السلوم) - سلوم أهل البادية -، والشيخ رحمه الله كان ينصّ على أنَّ أولئك إذا بلغوا الشرع، وأصرّوا على الحكم بغير الشرع بعد علمهم به، فإنّهم كفار؛ لأنّهم لم يحكموا بما أنزل الله عزوجل بعد البيان لهم، ورغبوا عن ذلك طاعة لأمرائهم ولمشايخهم.

إذًا فالمسألة تحتاج إلى ضبط في ما بين جهة الأحبار والرهبان والأمراء والمشايخ، يعني: مشايخ البادية والرؤساء، وما بين جهة المطيع، فهؤلاء مطاعون، وأولئك مطيعون، فحال المطيع على التفصيل، وحال المطاع أنّه كافر إذا أحلّ وحرّم، وهو كافر بالله عزوجل ، والذي يُشرع القانون مناقضة لحكم الله هذا كافر بالله عزوجل ، إذا كان يعلم حكم الله، ويشرع قانونًا مخالفًا لحكم الله، فهذا المشرع له كافر بالله عزوجل ، فإذا كان مثلًا شيخ بادية أو رئيس قوم أو أمير أو ملك أو رئيس دولة، أو نحو ذلك، يأمر ويقول: شرّعوا القانون الفلاني، شرعوه بمخالفة، وهو يعلم أنَّ حكم الله

في المسألة كذا، يقول: شرّعوا القانون الّذي فيه أنّ الزنا لا يُعاقب عليه إلّا إذا كان عن غصب، أمّا إذا كان عن تراض، فتؤمر المحاكم بأنّها لا تنظر في ذلك، أو تؤمر المحاكم أن تحكم بالقانون الفرنسي ونحو ذلك في مثل هذه المسائل، هذا كفر، كفر بالله من جهة المشرّع، أمَّا من جهة الطائع، ففيه التفصيل الذي ذكر، في أنَّه إذا أحل معتقدًا إذا أحلّ له الحرام، فأطاع معتقدًا أنَّه حلال، فهذا يكفر، وأمَّا إذا أطاع، وهو يقول: إني عاصي، والصواب في حكم الله. فهذا ليس بكافر، ففرق ما بين المشرع وما بين المتلقّي، المشرّع هذا مناقض، مناقض لأصل الكلام، لأصل الدين؛ لهذا قال الشيخ رحمه الله في رسالة (تحكيم القوانين): (**إنّ من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين.. إلى آخره**).

فتنزيل القانون منزلة الشرع هذا كفر أكبر، والمنزل له أيعني: المشرّع له - المشرع الذي يشرع هذا القانون، ويأمر به، فهذا كافر الكفر الأكبر بالله عز وجل ؛ ولهذا قال في آخر رسالته قال: (**فهذه المحاكم القانونية اليوم الناس إليها أسراب إثر أسراب، يحكم فيها الحاكمون بما يخالف السنة والكتاب، ولهم إمدادهم وتدوينهم مثل ما في المحاكم التي تحكم بحكم السنة والكتاب، قال: فأيّ مناقضة للشهادة بأن محمدًا رسول الله فوق هذه المناقضة**)؛ لأنَّ هذا تشريع، التشريع هذا هام، هو ما يمكن يقبل من أحد أن يكون يشرع، ولا يكون كافرًا، المشرّع الذي شرعه، وألزم الناس به، هذا لا يكون إلّا كافرًا، وإذا تقرّر هذا، فثم مسألة متصلة بذلك، وهو أنَّ موافقة القانون في الحكم ليست كفرًا؛ لأنَّ من القوانين ما يكون فيه مواد توافق الشرع، فليس كلّ حكم بنظام أو قانون كفرًا، بل إذا كان القانون أو النظام مناقضًا للشرع، فإنّ هذا فيه الكلام السابق، وأمَّا إذا كان يوافق

الشرع، فليس مدار الكلام السابق على تسميته قانونًا أو تسميته نظامًا، بل على الإلزام بما يخالف كلام الله عَزَّوَجَلَّ وكلام رسوله ﷺ، وما يخالف حكم الله وحكم رسوله ﷺ، وفي هذه البلاد ثم أنظمة موجودة وقوانين أيضًا موجودة في بعض القطاعات معروفة، ودخولها في هذه البلاد له سبب، ويعلم ذلك أهل العلم والمتصلون بالعلماء، وهو أنّه لمّا توسعت الدولة، وكثرت القضايا المختلفة، وصارت القضية إذا عُرضت على القاضي، وكانت قضيّة مستجدّة، إمّا في مشاكل تجارية بأوضاع جديدة، أو في مشاكل الشركات لمّا جاءت (أرامكو) أو في نحو ذلك، لمّا عرضت على بعض المشايخ، صارت القضايا تطول، فعُرض عليهم أن ينظروا في أنظمة أو قوانين موجودة سابقًا، إمّا من القانون الأمريكي أو الفرنسي أو البريطاني، ويُنظر فيها، فما وافق منها الشرع، قبل، وما خالف منها الشرع، ردّ، فالمشايخ في وقت الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أذنوا بذلك الشرط أن يشارك، على أن تعرض تلك المواد والأنظمة على مجموعة من القضاة لينظروا فيها، والقضاة مشاربهم مختلفة، فكان أول الأمر أنّ المواد يُنظر فيها من جهة المذهب الحنبلي، ثم رُؤي أن في ذلك حذفًا لأكثر تلك المواد، وبعد ذلك نظر فيها من جهة المذاهب الأربعة، فزادت المواد، يعني: ما كانت المادة فيه - التي هي من نظام أو من قانون - موافقة لأحد المذاهب الأربعة، أُقرّت، ثم توسّع فيه، حتى إذا كان القول في المادة موافقًا لقول أحد علماء الإسلام، فإنّه يقبل، وغيره يُردّ، وهذا هو الّذي مشى في وقت الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبعد ذلك توسع الناس في هذا، وزادوا موادًا بناءً على اجتهاد الناظر لهذا النظام، لهذا هذه المسألة ينبغي أن تكون واضحة؛ لأنّ من الناس من يجعل الأنظمة الموجودة هنا مثل القوانين الموجودة في البلاد التي تحكم بالقوانين الوضعية، والمسألة

مختلفة، نعم، الواجب في هذه البلاد أن يتقي الله ﷻ من ولي هذه الأمور، وأن يجعل الحكم بما يوافق نصوص الكتاب والسنة، وأن تعرض هذه الأنظمة والقوانين على المحقّقين من أهل العلم، حتّى يقرّوا ما وافق الدليل، نعم، ما وافق أحد المذاهب أو قول أحد من أهل العلم لا يخرج المسألة أو القول عن كونه قولًا من أقوال المنتسبين للشريعة، أو من أقوال علماء الإسلام، لكن هذا ربّما رجع إلى ابتغاء الرخص، والأخذ من كلّ مذهب يوافق الموجود، وهذا ليس مسلّمًا به، بل هو باطل، والواجب أن تردّ تلك إلى حكم الكتاب والسنة عن طريق أهل العلم، الفقهاء بالكتاب والسنة، الذين يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله، وإذا قام الأمر على ذلك، فإنّ المقام يظهر فيه الفرق بين أن تجعل الأنظمة لم ينظر فيها أصلًا إلى موافقة أقوال العلماء في الشريعة.

ولهذا تجد أن الذين يتكلّمون في مسألة الأنظمة والقوانين، تجد كلام العلماء الراسخين فيها، الذين يعون هذا الترتيب الذي ذكرته، غير كلام الشباب أو الصغار الذين ما وعوا تاريخها، وكيف دخلت هذه الأنظمة؟ وكيف بدأت؟ والذي ينظر في فتاوى العلماء في ذلك الوقت - فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله- يجد ما ذكرته جليًّا في أنه تعرض عليه مواد كثيرة، فيبطل مواد، ويصحّح مواد، فليس الشّأن في التحريم كونه قانونًا، أو كونه نظامًا، وإنّما الشّأن أن يكون ثمّ فيه مواد مخالفة لحكم الله وحكم رسوله ﷺ، فتنبّه في هذه المسألة الخطيرة المهمّة لقول أهل العلم الراسخين؛ لأنّهم هم الذين أدركوا التاريخ - تاريخ دخول هذه الأشياء، وكيف جاءت، وكيف شكّلت اللجان؟ -، ولهذا تجد اليوم أن المحاكم التي تعقد مثل هذه الأمور مثل: (المحكمة التجارية) و(محكمة فضّ المنازعات) - أظنّه التجارية -، ومحاكم من جنس هذا تجد أن فيها من

قضاة المحكمة الشرعية، فإذا جاءت المواد هذه يأتي القاضي، يعني: إذا كانت المسألة ينظر فيها من جهة المواد، يأتي القاضي، وتكون مهمّته الآن في المحكمة أن ينظر إلى هذه، هل هذه المادة موافقة للشرع أم مضادة للشرع؟ فينظرون فيها من جهة النظام الموضوع، نظام (المحكمة التجارية) أو كذا، ثم القاضي ينظر: هل هذه المادة موافقة للشرع أو غير موافقة، وهذا ترتيب مرّ عليه زمن طويل من تأسيس المحاكم القضائية في هذه البلاد من وقت الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله، وأسسّت على هذا، نعم، دخل نقص كبير في هذا، وتساهل الناس في ذلك، وسبب التساهل ضعف المشتركين من القضاة في مثل هذه الأمور، وليس من خلل أصل الوضع، ولكن من جهة ضعف المشارك، قد يكون القاضي المشارك ليس عنده من العلم ما يرفض هذه المادة، وقد يكون ليس عنده من الجرأة ما يرفض هذه المادة، يقوم في نفسه أنّ هذه قد تكون صحيحة، وقد لا تكون صحيحة، فيمشي المسألة دون تعب ونظر، فرجعت المسألة إلى ذنوب العباد، وليست إلى هدم أصل الدين والتكفير بهذه المسائل.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ النُّورِ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَةٍ.

الثَّالِثَةُ: التَّنْبِيهُ عَلَى مَعْنَى الْعِبَادَةِ الَّتِي أَنْكَرَهَا عَدِيٌّ.

الرَّابِعَةُ: تَمْثِيلُ ابْنِ عَبَّاسٍ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَتَمْثِيلُ أَحْمَدَ بِسُفْيَانَ.

الْخَامِسَةُ: تَغَيُّرُ الْأَحْوَالِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ، حَتَّى صَارَ عِنْدَ الْأَكْثَرِ عِبَادَةُ الرُّهْبَانِ هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، وَتُسَمَّى الْوِلَايَةَ، وَعِبَادَةُ الْأَحْبَارِ هِيَ الْعِلْمُ وَالْفِقْهُ ثُمَّ تَغَيَّرَتِ الْحَالُ إِلَى أَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَيْسَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَعُبِدَ بِالْمَعْنَى الثَّانِي مَنْ هُوَ مِنَ الْجَاهِلِينَ.

تم بحمد الله الجزء الثاني، ويليه الجزء الثالث:

ويبدأ بـ (٣٨ - بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟

بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء: ٦٠]

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة